

تتلاصق الخلف في طريقة التتلاف

تأليف

أبي محمد عبد الحميد بن يحيى بن زيد الحجوري الزعكري

محفوظ
جميع الحقوق

الطبعة الأولى

١٤٣٣ هـ

مقدمة الشيخ العلامة يحيى بن علي الحجوري

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده
ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه.

أما بعد:

فقد طالعت في كتاب: سلامة الخلف في طريقة السلف تأليف أخينا الشيخ
عبد الحميد بن يحيى زيد الحجوري الزُّعكري .

فرأيتُه كتابًا مفيدًا من جملة كتب العقيدة النافعة.

جزى الله الشيخ عبد الحميد الحجوري خيرًا.

كتبه: يحيى بن علي الحجوري

في ٢٦ / شعبان / ١٤٣٣ هـ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من تزكى، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المجتبي ونبيه المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ومن لسنته قفا.

أما بعد:

فإن الله يقول لنبيه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]، فامتن الله على نبيه بإرساله، وبعثته، وتعليمه بعد أن لم يكن يعلم: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١]، وليس ثم شيء تزكوا به النفوس، وتنشرح به الصدور، وتنجلي به الهموم، وتصفوا به القلوب بمثل اتباع الكتاب والسنة، على طريق سلف الأمة، فيما دق وجل، وكبر وصغر، فهم وزراء رسول الله ، وحمة علمه، وهم أهل الفقه والنظر والعلم والأثر، كفى لبيان طريقهم وصف الله له ورضاه عن معتنقيه: قال تعالى: ﴿وَالسَّيْقُوتَ الْأُولَىٰ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فلا سعادة ولا هداية، ولا استقامة ولا فوز ولا عز إلا بلزوم طريقهم في فهم كتاب ربنا وسنة نبينا ، فمن ترك شيئاً من طريقهم جاهلاً زل ومن تعمد تركه عالماً ضل.

قال شيخ الإسلام في الفتوى الحموية (٢١٢) وهو يرد على المبتدعين الضالين الذين يزعمون أن طريق الخلف أعلم وأحكم: "ثم هؤلاء المتكلمون المخالفون للسلف إذا حقق عليهم الأمر: لم يوجد عندهم من حقيقة العلم بالله وخالص المعرفة به خبر، ولم يقعوا من ذلك على عين، ولا أثر كيف يكون هؤلاء المحجوبون المفضلون المنقوصون المسبوقون الحيارى المتهوكون: أعلم بالله وأسمائه وصفاته، وأحكم في باب ذاته وآياته من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان من ورثة الأنبياء، وخلفاء الرسل، وأعلام الهدى، ومصابيح الدجى الذين بهم قام الكتاب، وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب، وبه نطقوا الذين وهبهم الله من العلم والحكمة ما برزوا به على سائر أتباع الأنبياء فضلاً عن سائر الأمم الذين لا كتاب لهم، وأحاطوا من حقائق المعارف، وبواطن الحقائق بما لو جمعت حكمة غيرهم إليها لاستحيا من يطلب المقابلة"، انتهى.

ثم لو لم يكن من الدلالة على صفاء منهجهم، وكثرة خيرهم إلا أنهم كانوا صمام أمان للأمة في حياتهم، وكذلك لمن سلك طريقهم بعد موتهم ففي حديث أبي موسى عند مسلم (٢٥٣١): «وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِّأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ».

والواقع يبرهن على ذلك فبعد موتهم وذهاب قرنهم بدأت قرون البدع تظهر بعد أن كان كلما ظهرت شبهة تصدى لها حفاظ الكتاب، وعلماء الأثر، وما موقف ابن عمر ، كما في مسلم (٨)، إلا أحد هذه المواقف العظيمة قال: يحيى بن يعمر قال: "كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين، أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله

فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه، والآخر عن شماله فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي، فقلت: أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن، ويتقفرون العلم - وذكر من شأنهم -، وأنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف، قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر".

ولما خرج الخوارج وتجمعوا في حروراء ذهب إليهم ذلك البحر الزخار في فهم القرآن، وحامل الآثار عبد الله بن عباس ، فعند النسائي في الخصائص (١٩٥)، عن ابن عباس قال: "لما خرجت الحرورية اجتمعوا في دار - على حدتهم - وهم ستة آلاف وأجمعوا أن يخرجوا على علي بن أبي طالب وأصحاب النبي معه، قال: جعل يأتيه الرجل فيقول: يا أمير المؤمنين إن القوم خارجون عليك، قال: دعهم حتى يخرجوا فإني لا أقاتلهم حتى يقاتلوني وسوف يفعلون.

فلما كان ذات يوم قلت لعلي: يا أمير المؤمنين: أبرد عن الصلاة فلا تفتني حتى آتي القوم فأكلمهم، قال: إني أتخوفهم عليك.

قلت: كلا إن شاء الله تعالى وكنت حسن الخلق لا أؤذي أحداً.

قال: فلبست أحسن ما أقدر عليه من هذه اليبانية، قال أبو زميل: كان ابن عباس جميلاً جهيراً.

قال: ثم دخلت عليهم وهم قائلون في نحر الظهر.

قال: فدخلت على قوم لم أر قط أشد اجتهادًا منهم، أيديهم كأنها ثفن الإبل، وجوههم معلمة من آثار السجود، عليهم قمص مرحضة، وجوههم مسهمة من السهر.

قال: فدخلت.

فقالوا: مرحبًا بك يا ابن عباس! ما جاء بك؟ وما هذه الحلة، قال: قلت ما تعيرون علي؟ لقد رأيت على رسول الله أحسن ما يكون من هذه الحلل، ونزلت ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، قالوا: فما جاء بك؟ قال: جئت أحدثكم عن أصحاب رسول الله ومن عند صهر رسول الله ، عليهم نزل الوحي، وهم أعلم بتأويله، وليس فيكم منهم أحد، فقال بعضهم: لا تخاصموا قريشًا فإن الله تعالى يقول: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]، وقال رجلا ن أو ثلاثة لو كلمتهم.

قال: قلت أخبروني ما تنقمون على ابن عم رسول الله وختنّه، وأول من آمن به، وأصحاب رسول الله معه؟ قالوا: ننقم عليه ثلاثًا.

قال: وما هنّ؟ قالوا: أولهنّ أنه حكم الرجال في دين الله، وقد قال الله: ﴿إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا إِلَهُ﴾ [الأنعام: ٥٧]، فما شأن الرجال والحكم بعد قول الله .

قال: قلت وماذا؟ قالوا: وقاتل ولم يسب ولم يغنم، لئن كانوا كفارًا لقد حلت له أموالهم ولئن كانوا مؤمنين لقد حرمت عليه دماؤهم.

قال: قلت وماذا؟ قالوا: محافضة من أمير المؤمنين.

فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين.

قال: قلت أعندكم سوى هذا؟ قالوا: حسبنا هذا.

قال: رأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحكم، وحدثكم من سنة نبيه ما لا تنكرون - ينقض قولكم - أترجعون؟ قالوا: نعم.

قال: قلت أما قولكم: حَكَّم الرجال في دين الله، فإن الله تعالى يقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ إلى قوله: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥].

وقال في المرأة وزوجها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٣٥].

أشددكم الله أحكم الرجال في حقن دمائهم وأنفسهم، وإصلاح ذات بينهم أحق أم في أرب ثمنها ربع درهم، وفي بضع امرأة.

وأن تعلموا أن الله لو شاء لحكم ولم يصير ذلك إلى الرجال.

قالوا: اللهم في حقن دمائهم، وإصلاح ذات بينهم.

قال: أخرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم.

قال: وأما قولكم قاتل ولم يسب ولم يغنم، أتسبون أمكم عائشة، أم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها، فقد كفرتم، وإن زعمتم أنها ليست أم المؤمنين فقد كفرتم، وخرجتم من الإسلام، إن الله يقول: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، فأنتم مترددون بين ضاللتين، فاخترأوا أيهما شئتم، أخرجت من هذه؟

فنظر بعضهم إلى بعض. قالوا: اللهم نعم.

قال: وأما قولكم محاً نفسه من أمير المؤمنين، فأنا آتيكم بها ترضون، فإن رسول الله دعا قريشاً يوم الحديبية أن يكتب بينه وبينهم كتاباً فكاتب سهيل بن عمرو وأبا سفيان.

فقال: اكتب يا علي هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقالوا: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله. فقال: والله إني لرسول الله حقاً وإن كذبتُموني، اكتب يا علي: محمد بن عبد الله، فرسول الله كان أفضل من علي وما أخرجه من النبوة حين محاً نفسه. أخرجت من هذه؟ قالوا: اللهم نعم.

فرجع منهم ألفان، وبقي منهم أربعة آلاف فقتلوا على ضلالة"، انتهى.

فانظر يا وفقك الله كيف كانت مخاطبته لهم، وبما احتج عليهم، حيث ذكر لهم أن ليس فيهم، ولا على طريقتهم من أصحاب رسول الله أحد، وهذا شأن أهل الضلال، إذ الصحابة، ومن على طريقتهم سباقون إلى الخير، لو كان ثم خير عند هؤلاء.

فالسلف رضوان الله عليهم إن تكلموا فكلامهم صادر عن العلم ومنه، وإن سكتوا فبعلم وحلم لا عن جهل وعيٍ ففي سنن أبي داود (٤٦١٢)، عن عمر بن عبد العزيز في رسالته إلى عدي بن عدي قال أما بعد: "أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتباع سنة نبيه ، وترك ما أحدث المحدثون بعد ما جرت به سنته وكفوا مؤنته، فعليك بلزوم السنة، فإنها لك بإذن الله عصمة، ثم اعلم أنه لم يتبدع الناس بدعة إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها، أو عبرة فيها، فإن السنة إنما

سناها من قد علم ما في خلافها من الخطأ والزلل والحمق والتعمق، فافرض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم، فإنهم عن علم وقفوا وببصر نافذ كفوا، ولهم على كشف الأمور كانوا أقوى، وبفضل ما كانوا فيه أولى، فإن كان الهدى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه، ولئن قلت إنما حدث بعدهم، ما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم ورغب بنفسه عنهم فإنهم هم السابقون، فقد تكلموا فيه بما يكفي ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم مقصر، وما فوقهم محير، وقد قصر قوم دونهم فجفوا وطمح عنهم أقوام فغلوا، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم".

والأصل العظيم الذي يجب أن يسير عليه أهل الإسلام هو السير على طريقة السلف فقد قال تعالى محذرا من سلوك ما يخالف سبيلهم: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولَّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

قال الإمام أحمد : "أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ، والافتداء بهم وترك البدع، وكل بدعة فهي ضلالة. والسنة عندنا آثار الرسول الله ". أخرجه اللالكائي (٣١٧).

فمن أراد لنفسه السلامة من العطب في الدنيا والآخرة، فليلزم طريقهم، وليأخذ بغرزهم بعيدا عن أهل الكلام والضلال الذين هم، في التحير واقعون، وبالتهوك مبتلون، وعن الحق معرضون، وللباطل رافعون.

قال شيخ الإسلام في الحموية (٢١٣): "ثم كيف يكون خير قرون الأمة أنقص في العلم والحكمة - لا سيما العلم بالله وأحكام أسماؤه وآياته - من هؤلاء الأصاغر بالنسبة إليهم؟ أم كيف يكون أفراخ المتفلسفة، وأتباع الهند واليونان،

وورثة المجوس، والمشرّكين وضلال اليهود، والنصارى، والصابئين، وأشكالهم،
وأشباههم: أعلم بالله من ورثة الأنبياء، وأهل القرآن والإيمان". اهـ

ويؤثر عن الشافعي أنه قال في مثل هؤلاء الذين يخوضون في علم الكلام بعيداً
عن الأدلة، وفهم السلف: "حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال،
ويُطاف بهم في العشائر، والقبائل ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل
على علم الكلام". أخرجه البيهقي في مناقب الشافعي (١/٤٦٢).

وعن أبي يوسف قال: "من طلب الدين بالكلام تزندق". أخرجه
البغدادى في شرف أصحاب الحديث (٤).

وأما حال أصحاب علم الكلام فهو الشك، والريب، والحيرة، والتهوك، ولا
حول ولا قوة إلا بالله، قال شيخ الإسلام في درء التعارض (١/١٥٩-١٦٦):
"وأكثر الفضلاء العارفين بالكلام والفلسفة بل وبالتصوف الذين لم يحققوا ما جاء به
الرسول تجدهم فيه حيارى كما أنشد الشهرستاني في أول كتابه لما قال: قد أشار إلي
من إشارته غنم وطاعته حتم أن أجمع له من مشكلات الأصول ما أشكل على ذوي
العقول ولعله استسمن ذا ورم ونفخ في غير ضرم.

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرقي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعا كف حائر على ذقن أو قارعا سن نادم

وأنشد أبو عبد الله الرازي في غير موضع من كتبه مثل كتاب أقسام اللذات لما
ذكر أن هذا العلم أشرف العلوم وأنه ثلاث مقامات: العلم بالذات، والصفات،
والأفعال، وعلى كل مقام عقدة.

فعلم الذات عليه عقدة: هل الوجود هو الماهية أو زائد في الماهية؟

وعلم الصفات عليه عقدة: هل الصفات زائدة على الذات أم لا؟

وعلم الأفعال عليه عقدة: هل الفعل مقارن للذات أو متأخر عنها؟

ثم قال ومن الذي وصل إلي هذا الباب أو ذاق من هذا الشراب؟ ثم أنشد:

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسوننا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، واقرأ في النفي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ [طه: ١١٠]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

وكان ابن أبي الحديد البغدادي من فضلاء الشيعة المعتزلة المتفلسفة وله أشعار

في هذا الباب كقوله:

فيك يا أغلوطة الفكر حار أمري وانقضى عمري
سافرت فيك العقول فما ربحت إلا أذى السفر
فلحى الله الأولى زعموا أنك المعروف بالنظر
كذبوا إن الذي ذكروا خارج عن قوة البشر

هذا مع إنشاده:

وحقك لو أدخلتني النار قلت لـ لذين بها: قد كنت ممن يحبه

وأفنت عمري في علوم كثيرة وما بغيتي إلا رضاه وقربه
 أما قلت: من كان فينا مجاهدا سيكون مثواه ويعذب شربه
 أما رد شك ابن الخطيب وزيفه وتمويهه في الدين إذ جل خطبه
 وآية حب الصب أن يعذب الأسى إذا كان من يهوى عليه يصبه

وابن رشد الحفيد يقول في كتابه الذي صنفه ردا على أبي حامد في كتابه المسمى
 تهافت الفلاسفة فسماه تهافت التهافت ، ومن الذي قاله في الإلهيات ما يعتمد
 به وأبو الحسن الآمدي في عامة كتبه هو واقف في المسائل الكبار يزيغ حجج
 الطوائف ويبقي حائرا واقفا والخونجي المصنف في أسرار المنطق الذي سمى كتابه
 كشف الأسراء يقول لما حضره الموت: أموت ولم أعرف شيئا إلا أن الممكن يفتقر
 إلي الممتنع؛ ثم قال: الافتقار وصف سلبي أموت ولم أعرف شيئا؛ حكاه عنه
 التلمساني وذكر أنه سمعه منه وقت الموت.

ولهذا تجد أبا حامد - مع فرط ذكائه وتألهه ومعرفته بالكلام والفلسفة وسلوكه
 طريق الزهد والرياضة والتصوف - ينتهي في هذه المسائل إلي الوقف ويحيل في آخر
 أمره على طريقة أهل الكشف وإن كان بعد ذلك رجوع إلى طريقة أهل الحديث ومات
 وهو يشتغل في صحيح البخاري.

والخداق يعلمون أن تلك الطريقة التي يحيل عليها لا توصل إلي المطلوب ولهذا
 لما بنى على قول النفاة من سلك هذه الطريق كابن عربي وابن سبعين وابن الفارض
 وصاحب خلع النعلين والتلمساني وأمثالهم وصلوا إلى ما يعلم فساده بالعقل
 والدين مع دعواهم أنهم أئمة المحققين، ولهذا تجد أبا حامد في مناظرته للفلاسفة إنما
 يبطل طرقهم ولا يثبت طريقة معينة بل هو كما قال: نناظرهم - يعني مع كلام

الأشعري - تارة بكلام المعتزلة وتارة بكلام الكرامية وتارة بطريق الواقعة وهذه الطريق هي الغالب عليه في منتهى كلامه.

وأما الطريقة النبوية السنية السلفية المحمدية الشرعية فإنما يناظرهم بها من كان خبيراً بها بأقواله التي تناقضها فيعلم حينئذ فساد أقوالهم بالمعقول الصريح المطابق للمنقول الصحيح، وهكذا كل من أمعن في معرفة هذه الكلاميات والفلسفيات التي تعارض بها النصوص من غير معرفة تامة بالنصوص ولوازمها وكمال المعرفة بما فيها وبالأقوال التي تنافيها فإنه لا يصل إلى يقين يطمئن إليه وإنما تفيد الشك والحيرة.

بل هؤلاء الفضلاء الحذاق الذي يدعون أن النصوص عارضها من معقولاتهم ما يجب تقديمه، تجدهم حيارى في أصول مسائل الإلهيات حتى مسألة وجود الرب تعالى وحقيقته، حاروا فيها حيرة أوجبت أن يتناقض هذا كتناقض الرازي وأن يتوقف هذا كتوقف الآمدي، ويذكرون عدة أقوال يزعمون أن الحق ينحصر فيها وهي كلها باطلة، وقد حكى عن طائفة من رؤوس أهل الكلام أنهم كانوا يقولون بتكافؤ الأدلة وأن الأدلة قد تكافأت من الجانبين حتى لا يعرف الحق من الباطل ومعلوم أن هذا إنما قالوه فيما سلكوه هم من الأدلة، وقد حكى لي أن بعض الأذكياء - وكان قد قرأ على شخص هو إمام بلده ومن أفضل أهل زمانه في الكلام والفلسفة وهو ابن واصل الحموي - أنه قال: أضطجع على فراشي وأضع الملحفة على وجهي وأقابل بين أدلة هؤلاء وأدلة هؤلاء حتى يطلع الفجر ولم يترجح عندي شيء ولهذا انتهى أمره إلى كثرة النظر في الهيئة لكونه تبين له فيه من العلم ما لم يتبين له في العلوم الإلهية، ولهذا تجد كثيراً من هؤلاء لما لم يتبين له الهدى في طريقة نكص على عقبيه

فاشتغل باتباع شهوات الغي في بطنه وفرجه أو رياسته وماله ونحو ذلك لعدم العلم واليقين الذي يطمئن إليه قلبه وينشرح له صدره، وفي الحديث المأثور عن النبي :
«إِنَّ مِمَّا أَحْشَى عَلَيْكُمْ شَهَوَاتِ الْغِيِّ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ وَمُضِلَّاتِ الْفِتَنِ».

وهؤلاء المعرضون عن الطريقة النبوية السلفية يجتمع فيهم هذا، وهذا: اتباع شهوات الغي ومضلات الفتن، فيكون فيهم من الضلال والغي بقدر ما خرجوا عن الطريق الذي بعث الله به رسوله، ولهذا أمرنا الله أن نقول في كل صلاة ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ١ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿[الفاتحة: ٦-٧]، وقد صح عن النبي أنه قال: **«فَإِنَّ الْيَهُودَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ وَالنَّصَارَى ضَالُّونَ»**.

وكان السلف يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون فكيف إذا اجتمع في الرجل الضلال والفجور؟

ولو جمعت ما بلغني في هذا الباب عن أعيان هؤلاء كفلان وفلان، لكان شيئاً كثيراً وما لم يبلغني من حيرتهم وشكهم أكثر وأكثر"، انتهى.

فمن رام لنفسه الخير فليلزم طريقة السالفين الأولين في طرق التحصيل والاعتقاد، وهذا إنما يوفق له من أراد الله له الرشاد.

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (١/٦): "فأعرف الناس بالله أتبعهم للطريق الموصل إليه، وأعرفهم بحال السالكين عند القدوم عليه، ولهذا سمى الله ما أنزله على رسوله روحاً، لتوقف الحياة الحقيقية عليه، ونورا لتوقف الهداية عليه، فقال الله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ﴿[غافر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ٥٢ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي

لَهُ، مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿[الشورى: ٥٢-٥٣]، ولا روح إلا فيما جاء به الرسول، ولا نور إلا في الاستضاءة به، وهو الشفاء، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ [فصلت: ٤٤]، فهو وإن كان هدى، وشفاء مطلقاً، لكن لما كان المنتفع بذلك هم المؤمنون، خصوا بالذكر، والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، فلا هدى إلا فيما جاء به.

ولا ريب أنه يجب على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسول إيماناً عاماً مجملاً، ولا ريب أن معرفة ما جاء به الرسول على التفصيل فرض على الكفاية، فإن ذلك داخل في تبليغ ما بعث الله به رسوله، وداخل في تدبر القرآن وعقله وفهمه، وعلم الكتاب والحكمة، وحفظ الذكر، والدعاء إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر". اهـ

فمن أراد لنفسه السلامة من العطب، والخلل، والزلل، والزيغ، والضلال، والانحراف عن سواء السبيل، فليلزم ما جاء به الرسول فقد بين المرض الذي يُفسد الأديان، وذكر الحمية من هذا المرض، وذكر العلاج الناجع بإذن الله تعالى ففي حديث العرباض بن سارية عند أبي داود (٤٦٠٧): ﴿فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَظُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ﴾.

والناظر في حال المسلمين على مر العصور، وتقلبات الدهور يجد أن البدع قد باضت وفرخت وصار لها اتباع ومؤيدون ومناضلون، وهذا من حكمة الله البالغة، وحجته الدامغة ليُعلي من تمسك بالكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، ثم

ليرفع درجاتهم بالجهاد في الذب عن السنة والكتاب، ثم لتحقيق شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبذل النصيحة التي أوجبها الله ، وتُعرف نعمة الهداية من طرق الزيع والغواية، فمن سار على الدرب وصل، وكل ميسر لما خلق له، ومن زرع الشوك لا يحصد العنب.

وأول البدع ظهوراً كانت بدعة الخوارج حيث كانت بدايته متمثلة في ذي الخويصرة التميمي الذي قال للنبي : يَا مُحَمَّدُ اعْدِلْ، قال: «وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ؟ لَقَدْ خَبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ»، فقال عمر بن الخطاب : دَعْنِي، يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَقْتُلْ هَذَا الْمُنَافِقَ، فقال: «مَعَاذَ اللَّهِ، أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي، إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ، لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْهُ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ». الحديث بطرقه مخرج في صحيح مسلم في أواخر كتاب الزكاة وهو متفق عليه من حديث أبي سعيد .

فالمطلوب منا جميعاً السير على طريقة السلف فقد حصل من بعدهم التنازع.

وهكذا ظهرت بدعة الرفض والتجهم، والتصوف، والتمشع حتى وصلت في عهدنا البدع إلى ذروتها، نسأل الله السلامة، وأغلب أهل البدع مخالفون لما سطرناه وحققناه في كتابنا هذا، فلا سبيل للخلاص من هذا الضلال البعيد، والجهل السحيق إلا بملازمة طريق السلف، فنجاة الخلف في عقيدة السلف، على ما كان عليه الأولون، فإن سبيل السلف معصوم عن الخطأ ومحفوظ بحفظ الله ففي الحديث: «لَا يَجْمَعُ اللَّهُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ أَبَدًا»، أخرجه الحاكم (١/٢٠٢)، عن ابن عباس ، وقبل ذلك قول الله : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

وقد وقع الخلاف الذي أخبر به النبي بقوله: «وإن أمتي ستفترق على ثنتين وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا واحدة»، الحديث له طرق، وفيه مؤلفات، وحصل الافتراق سواء في باب العقائد أو في غير ذلك من الأبواب.

هذا وإن الله وصف المؤمنين في كتابه بصفات حميدة وأخلاق رشيدة وأعمال سديدة فقال: ﴿الْم ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿البقرة: ١-٥﴾.

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿المؤمنون: ١-١١﴾.

وقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿العصر: ١-٣﴾.

ثم إنني وقفتُ على كتاب نجاة الخلف في اتباع السلف تكلم فيه مؤلفه عن بعض مسائل الصفات، التي ينبغي لمن أراد لنفسه السداد والخير أن يسلكها، فرغبت في تنمة ما يكون سبباً للسلامة، في باب العقائد، والأحكام، مما تشتد الحاجة إلى معرفته، فشرعت بهذا المؤلف - مستعيناً بالله تعالى - بعد تحقيقي لسابقه بما لعله ينفع إن شاء الله و أسمىته **سلامة الخلف في طريقة السلف** ذكرت فيه جملاً من

عقيدة السلف التي بها نجاة الخلف من البدع والشرور، وبتحصيلها تتحق السعادة في الدور، وباعتقادها وفهمها يخرج المرء من الظلمات إلى النور، ويعيش المؤمن من حياته طمأنينة وسرور، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

ثم أتمته بأبواب يعرف بها المسلم الطريقة القويمة في باب العبادات، والمعاملات.

فنسأل الله السداد والتوفيق، والإعانة لما يحب ويرضى، وأسأله الإخلاص في القول والعمل، وأن يجعل عملي هذا وسائر أعمالي مؤدياً لمرضاته نافعا لعباده.

وأسأله حسن عبادته في البأساء والضراء، وأن يغفر لي ولوالديّ ولمشايخي وجميع المسلمين إنه غفور رحيم مجيب كريم.

والحمد لله رب العالمين.

كتبه:

أبو محمد عبد الحميد بن يحيى الحجوري الزعكري

في (١٦ ربيع ثاني ١٤٣١هـ)

وكانت المراجعة في (ربيعي الأول والثاني ١٤٣٣هـ)



الفصل الأول

بيان فضل الإسلام وأنه الدين الحق المهيمن على جميع الأديان

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩].

هو سبب الهداية: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

ومن ابتغى غيره فهو مشاق، قال تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٦) فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٦-١٣٧].

مفارقة خسارة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٤-٨٥].

أمرنا بالموت عليه والاعتصام به والدعوة إليه، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢) وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا

وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢-١٠٣].

سماه الله نعمة، فقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخِصَّةٍ غَيْرِ مَتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

دخول العبد فيه دليل على إرادة الله الخير للعبد، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَعُدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَةَ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥-١٢٦].

هو الدين القويم والصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وقال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

وفي مسند الإمام أحمد (١٨٢/٤): عن النواس بن سمعان الأنصاري عن رسول الله قال: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَيْهِ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفْتَحَتٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا، وَلَا تَتَعَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللَّهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفْتَحَةُ: مُحَارِمُ اللَّهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللَّهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَدْلَةِ.

دخول كلمة الإسلام المدن والقرى والبوادي بعزة لأهلها وذلة لمن خالفها، فعن تميم الداري قال سمعت رسول الله يقول: «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدْرٍ وَلَا وَبَرَ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ»، وَكَانَ تَمِيمُ الدَّارِيُّ، يَقُولُ: قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ الْخَيْرُ وَالشَّرَفُ وَالْعِزُّ، وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِرًا الذُّلُّ وَالصَّغَارُ وَالْجُزْيَةُ. أخرجه أحمد (١٠٣/٤).

وعن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله يقول: «لَا يَبْقَى عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ بَيْتٌ مَدْرٍ، وَلَا وَبَرَ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ ذُلِّ ذَلِيلٍ، إِمَّا يُعِزُّهُمْ اللَّهُ فَيَجْعَلُهُمْ مِنْ أَهْلِهَا، أَوْ يُذِلُّهُمْ فَيَكُونُونَ لَهَا»، أخرجه أحمد (٤/٦).

قال علي القاري في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح:

"لَا يَبْقَى عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ": أي وجهها من جزيرة العرب وما قرب منها، فلا ينافي ما قيل إن وراء الصين قوما لم تبلغهم إلى الآن بعثته عليه الصلاة والسلام. «بَيْتٌ مَدْرٍ، وَلَا وَبَرَ»: أي المدن والقرى والبوادي وهو من وبر الإبل أي شعرها لأنهم كانوا يتخذون منه ومن نحوه خيامهم غالبا، والمدر جمع مدرة وهي اللبنة.

وقوله: «بِعِزِّ عَزِيزٍ»: حال، أي أدخل الله تعالى كلمة الإسلام في البيت ملتبسة بعز شخص عزيز أي يعزه الله بها حيث قبلها من غير سبي وقتال.

و«ذُلِّ ذَلِيلٍ»: أي أو يذله الله بها حيث أبأها وهو يشمل الحربي والذمي، والمعنى يذله الله بسبب إبائها بذل سبي أو قتال حتى ينقاد إليها كرها أو طوعا أو يذعن لها ببذل الجزية والحديث مقتبس من قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:

وقال الشنقيطي كما في العذب النمير في بعض مجالس التفسير (١/ ٤٥٠-٤٥١)، في بيان قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]:

"﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩].

﴿لِيُظْهِرَهُ﴾: أي: ليظهر دين الإسلام أي يعليه على جميع الأديان كلها، وهذا الإعلاء يدخل فيه إظهاره بالحجة والبرهان فبراهينه قاطعة وحججه ساطعة لا شك فيه وكتابه محفوظ فلا شيء يوازيه ولا يشابهه.

قال بعض العلماء: ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾: أي ينصره ويغلبه على جميع الأديان وقد وفي الله فيما مضى وَسَيَقِي به أيضًا في المستقبل لأن الدين فيما مضى ظهر على جميع الأديان وأذل الدول العظيمة المعروفة كالدولة الكسروية والدولة القيصرية، ولم يبق منها إلا من أعطى الجزية عن يد وهو صاغر، وانتشر في أقطار الدنيا في شرقها وغربها، وظاهر على كل الأديان وأذل أهلها، وسيأتي ذلك في آخر هذا الزمان أيضًا كما جاء في أحاديث صحيحة كثيرة أنه لا يبقى في آخر الزمان إلا من كان مسلمًا ولم يكن في المعمورة غير دين الإسلام، وهذا معنى قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]. اهـ



لا فلاح إلا بالإسلام

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: كَانَتْ ثَقِيفٌ حُلَفَاءَ لِبَنِي عُقَيْلٍ فَأَسْرَتْ ثَقِيفُ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ وَأَسَرَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ رَجُلًا مِنْ بَنِي عُقَيْلٍ وَأَصَابُوا مَعَهُ الْعُضْبَاءَ فَأَتَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ وَهُوَ فِي الْوَثَاقِ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: «مَا شَأْنُكَ؟»، فَقَالَ: بِمِ أَخَذْتَنِي وَبِمِ أَخَذْتَ سَابِقَةَ الْحَاجِّ؟ فَقَالَ: «إِعْظَامًا لِذَلِكَ أَخَذْتُكَ بِجَرِيرَةِ حُلَفَائِكَ ثَقِيفَ»، أخرجه مسلم (١٦٤١).

قال النووي في شرح مسلم: قوله لِلْأَسِيرِ حِينَ قَالَ: إِنِّي مُسْلِمٌ: «لَوْ قُلْتَهَا وَأَنْتَ تَمْلِكُ أَمْرُكَ أَفْلَحْتَ كُلُّ الْفَلَاحِ»، مَعْنَاهُ: لَوْ قُلْتَ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ قَبْلَ الْأَسْرِ حِينَ كُنْتَ مَالِكٌ أَمْرُكَ أَفْلَحْتَ كُلُّ الْفَلَاحِ، لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَسْرُكَ لَوْ أَسْلَمْتَ قَبْلَ الْأَسْرِ، فَكُنْتَ فُزْتَ بِالْإِسْلَامِ وَبِالسَّلَامَةِ مِنَ الْأَسْرِ، وَمِنْ إغْتِنَامِ مَالِكَ، وَأَمَّا إِذَا أَسْلَمْتَ بَعْدَ الْأَسْرِ فَيَسْقُطُ الْخِيَارُ فِي قَتْلِكَ، وَيَبْقَى الْخِيَارُ بَيْنَ الْإِسْتِرْقَاقِ وَالْمَنْ وَالْفِدَاءِ.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرَزَقَ كَفَافًا وَقَنَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ»، أخرجه مسلم (١٠٥٤).

فالإسلام دين الحق وما سواه باطل، وهدى وما سواه ضلال، ورحمة وما سواه عذاب، وسنة وما سواه بدعة، ونور وما سواه ظلام، وعلم وما سواه جهل، وشرعية يتميز عن غيره من الأديان السابقة:

بالكمال، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي أَلْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

والعموم والشمول، قال تعالى لنبيه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال النبي: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ، وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»، أخرجه مسلم عن أبي هريرة .

والبقاء إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها: قال النبي: «وَلَا تَزَالُ عَصَابَةُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، أخرجه من حديثي المغيرة ومعاوية، وجاء في مسلم عن ثوبان وجابر بن سمرة، وجابر بن عبد الله.



دين الإسلام حق بين باطلين وهدى بين ضاللتين

قال الله : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۚ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَاتَّمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ ﴾ [المائدة: ٣].

والمتمسكون بالإسلام الحق الذي أنزله الله وشرعه هم الوسط الخيار، وهم أصحاب الخيرية، وهم المنعم عليهم.

قال الله : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، والوسط: العدل الخيار.

وفي البخاري من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «يُجَاءُ بِنُوحٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ، فَتُسْأَلُ أُمَّتُهُ: هَلْ بَلَغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ شُهِدْكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيُجَاءُ بِكُمْ، فَتَشْهَدُونَ». ثُمَّ قرأ رَسُولُ اللَّهِ : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، قَالَ: «عَدْلًا» ﴿ لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۚ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال الله : ﴿ آهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، وقال الله تعالى : ﴿ كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ

أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ آل عمران: ١١٠.

والكلام على خيرية هذه الأمة، وفضلهم جميل وجليل، فهم أهل الفقه والنظر، والخير والأثر، الذين هم ملازمون لطريقة المعصوم محمد . وأما غيرهم فقد غير وبدل، ويكون بُعد وقربه بقدر ما هو عليه من التنكب عن الكتاب والسنة، واستحقوا هذا الوصف للعدالة التي لازموا في أقوالهم وأفعالهم بعيداً عن طرق النصارى الضالين الذين غلو حتى بلغ بهم الغلو أن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، وألهوا عيسى عليه السلام، فقال الله ناهياً لهم عن هذا الصنيع الذميمة: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِنَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧].

قال شيخ الإسلام في الجواب الصحيح (١٠٠/٢): "ومن تدبر حال اليهود والنصارى مع المسلمين وجد اليهود والنصارى متقابلين، هؤلاء في طرف ضلال وهؤلاء في طرف يقابله، والمسلمون هم الوسط، وذلك في التوحيد والأنبياء والشرائع والحلال والحرام والأخلاق وغير ذلك". اهـ

وقال ابن كثير: "ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا حد التصديق بعيسى ، حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله يعبدونه كما

يعبدونه، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه، ممن زعم أنه على دينه، فادَّعُوا فيهم العصمة واتبعوهم في كل ما قالوه، سواء كان حقاً أو باطلاً أو ضلالاً أو رشاداً، أو صحيحاً أو كذباً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهُ الْإِسْلَامِ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]. اهـ

وأما اليهود فقد وقع منهم الجفاء حتى قتلوا الأنبياء، قال الله : ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠].

هذا في جانب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ووقع منهم الغلو في عزيز حتى أَلْهُوهُ قال الله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]، فكل من الفريقين اليهود المغضوب عليهم والنصارى الضالون وقع منهم الغلو من جانبيه.

قال الشنقيطي في أضواء البيان : "وعليه فيكون الغلو المنهي عنه شاملاً للتفريط والإفراط". اهـ

وقال الشوكاني في فتح القدير (١/٦٣٣): "والمراد بالآية النهي لهم عن الإفراط تارة والتفريط أخرى فمن الإفراط غلو النصارى في عيسى حتى جعلوه ربا، ومن التفريط غلو اليهود فيه حتى جعلوه لغير رشدة". اهـ

وكان الصحابة الكرام، الأئمة الأعلام على غاية من الأخذ بالدين الحق، في العبادات، والمعاملات، فكانوا أبر الناس قلوباً، وأعظم برّاً، وأشدّهم تمسكاً، صوّامين، قوّامين، مجيبين للخير وناشرين، ما من خير إلا وسبقونا إليه، وما من شرّ

إلا وحذرونا منه؛ تبليغاً لما تلقوه من صاحب البلاغ المين، محمد الأمين، صلى الله عليه وعلى آله وسلم والتابعين، بعيدين كل البعد عن الغلو والجفاء، حتى خلف من بعدهم خلفٌ يقولون ما لا يفعلون ويلبسون الحقّ بالباطل، قال رسول الله عن بعضهم: «يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ، حُدَثَاءُ الْأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الْأَخْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَمُرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمُرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَا يُجَاوِزُ إِيْمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، فَأَيُّنَا لَقِيْتُمُوهُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، متفق عليه من حديث علي، البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦).

فهذا حال الخوارج، كفّروا المسلمين وخرجوا على أئمة الدين، فلما وقع الخوارج في هذه البلية العظيمة المخالفة للطريقة المستقيمة، ظهرت بالمقابل فرقة أخرى ميّعوا الدين وفرّطوا في الأوامر واستهانوا بأمر الكبائر فزعموا أنّ السارق والزاني والفساق والمغنيّ إيمانه كامل على إيمان جبريل ومكائيل عليهما الصلاة والسلام، وعلى إيمان أبي بكر الصديق وعمر الفاروق، فوقع بسببهم بلاء عظيم وخطر عظيم، كان تأثيره في البعد عن شرائع الدين أعظم من تأثير الخوارج حتى قال إبراهيم النخعي كما عند ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢٧٤/٦): "لأنّا على الأمة من هؤلاء -يعني المرجئة- أخوف من عدتهم من الأزارقة -يعني الخوارج-".

وأخرج عبد الله بن أحمد في السنة (٧٣٣)، عن يحيى بن أبي كثير وقتادة قالاً: "ليس من الأهواء أخوف عندهم على الأمة من الإرجاء". وأخرج (٢٥٨)، عن مغيرة بن مقسم كان يقول: "والله الذي لا إله إلا هو ما أعرف من هو شرّ منهم"، قيل لأبي بكر: يعني المرجئة؟ قال: "المرجئة وغير المرجئة".

وغلت الجبرية في إثبات القدر حتى زعموا أن الفاعل حقيقة هو الله ، تعالى عن قولهم علوا كبيرا، والإنسان إنما هو كالريشة في مهب الريح أو الميت بين يدي مغسله.

وبالمقابل غلت النفاة من القدرية في إثبات أفعال العباد حتى زعمت أن المخلوق المربوب هو خالق فعله وأن الله ليس بخالقٍ للشر وأخرجوا أفعال العبد من عموم قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

وغلت الجهمية في جانب التنزيه زعموا، وهو التعطيل، فزعموا أن لهم رباً لا فوق ولا تحت ولا داخل العالم ولا خارج عنه ولا حي ولا ميت وهكذا، وعند التحقيق تجد أن هذا رباً لا وجود له وإنما هو العدم، ووافقتهم المعتزلة في نفي الصفات وخالفوهم في إثبات الأسماء.

وفي الضدّ قابلتهم طائفة الممثلة فغلوا في الإثبات حتى زعموا أن الله له صفات كصفات المخلوقين المربوبين المحتاجين الناقصين، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا، ولم يلتفتوا إلى مثل قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

مع أن أهل السنة الطائفة المنصورة الفرقة الناجية أثبتوا لله ما أثبتته لنفسه وما أثبتته له رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، بل له صفات تليق بجلاله سبحانه وتعالى، كما أنه لا مثيل له في ذاته فكذلك لا مثيل له في صفاته.

وهكذا دواليك، كل فرقة من فرق الضلال في الغلو، تضادهم فرقة من فرق الضلال في الجفاء والتميع، بل وأهل الغلو والتميع تجد عند كل فريق منهم غلو من وجه وتميع من وجه آخر.

وفريق بين ذلك، وهم عوام المسلمين الذي هم أتباع كل ناعق، يأخذون من هذا وذاك، فصار الدين غريباً كما أخبر النبي : «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»، أخرجه مسلم (١٤٥) عن أبي هريرة ، وأخرجه (١٤٦) عن ابن عمر .

وفي الترمذي (٢٢٦٠)، عن أنس قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ».

وقال القاسم بن سلام: "المتبع للسنة كالقابض على الجمر، وهو أليق عندي، أفضل من ضرب السيف في سبيل الله". قال العلامة الألباني : "هذا في زمانه، فماذا يقول في زماننا".

مع هذا كله فلا زال في الناس بقية صالحة يدعون من ضل إلى الهدى، ويهدونهم من العمى، ويحيون بكتاب الله الموتى، وهم أهل السنة، الذين هم وسط بين طرفين، وهدى بين ضلالتين، وحق بين باطلين، خرجوا من بين فرث الغلو ودم التميع لبناً سائغاً للشاربين؛ لأنهم عملوا بقول الله : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

أما أهل البدع فإنما يأخذون ما وافق آرائهم وأيد أفكارهم فحادوا وزاغوا عن الصراط المستقيم والطريق القويم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين

والصديقين والشهداء والصالحين، واتبعوا سبيل المعرضين الضالين الذين أمرنا الله بالبعد عنهم بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣١].

ويجب أن يُعلم أن هذا السبيل الذي ندعو إليه ونحذّر من مخالفته هو طريق رسول الله فكان اللازم الدفاع عنه والدعوة إليه وتعلّمه وتعليمه لعل الله أن ينقذ به من يشاء.

مع أن السعادة كل السعادة في البعد عن الفتن، كما قال رسول الله : «إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِبَ الْفِتْنُ، وَلَنْ ابْتُلَى فَصَبَرَ، فَوَاهَا»، الحديث أخرجه أبو داود (٤٢٦٣) عن المقداد بن الأسود، وهو في الصحيح المسند .

وتجنب الفتن يكون بأسباب، منها: طلب العلم النافع، وملازمة العمل الصالح، ففي حديث معقل بن يسار: «الْعِبَادَةُ فِي الْمَرْجِ كَهَجْرَةِ إِلَيَّ»، أخرجه مسلم (٢٩٤٨).

وتكون بالبعد عن الفتن واتخاذ الملاجئ الشرعية، ففي الصحيح من حديث أبي بكرة قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنٌ، أَلَا تَمَّ تَكُونُ فِتْنَةٌ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي فِيهَا، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي إِلَيْهَا، أَلَا فَإِذَا نَزَلَتْ أَوْ وَقَعَتْ فَمَنْ كَانَ لَهُ إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ فَلْيَلْحَقْ بِغَنَمِهِ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَلْحَقْ بِأَرْضِهِ»، أخرجه مسلم (٢٨٨٧).

ومن أسباب السلامة من الفتن البعد عنها وعدم غشيانها، ومنها دعاء الله واللجوء إليه، وقد ذكرت شيئاً من هذه الأسباب بأدلته في كتابي تحذير العقال من فتنة المسيح الدجال ، أعاذنا الله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وأخبر الله أن السعادة في طاعته وطاعة رسوله قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وأمر الله بالاستجابة لأمره وأمر رسوله قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فالاستجابة لله ولرسوله حياة للقلوب والأديان والأبدان دنيا وأخرى.

ويقول الله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، فطاعة الرسول طاعة الله الذي أرسله، قال الله: ﴿قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وكان الأمر هكذا، لأن النبي لا ينطق عن الهوى، ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤]، وقد أتم الله له الدين، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ويقول الله: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وهذا الكتاب الذي ما فرط الله فيه قال عنه: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وأخبر النبي أنه تركنا على مثل البیضاء، لیلها ومهارها سواء، لا یزیغ عنها إلا هالك، رواه ابن ماجه (٥) عن أبي الدرداء، وعن العرباض بن سارية (٤٤) واللفظ له .

وأخبر النبي أن الخير كل الخير في طاعته واتباعه، فقال: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى»، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»، رواه البخاري (٧٢٨٠) عن أبي هريرة .

وعند أحمد (١٥٣/٥) من حديث أبي ذر قال: "لَقَدْ تَرَكْنَا مُحَمَّدًا وَمَا يُحَرِّكُ طَائِرٌ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا أَذْكَرَنَا مِنْهُ عِلْمًا".

وفي مسلم (٢٦٢) عَنْ سَلَمَانَ قَالَ: قِيلَ لَهُ: قَدْ عَلَّمَكُم نَبِيُّكُمْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْخِرَاءَةَ! قَالَ: فَقَالَ: أَجَلْ، الْحَدِيثُ.

إلى غير ذلك مما يدل على كمال الدين وشموله وحفظه، ومع ذلك قال رسول الله : «افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَسَتَفَرِّقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»، أخرجه أبو داود (٤٥٩٦) عن أبي هريرة ، والحديث جاء عن معاوية وفيه زيادة: «كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً»، والحديث له طرق ليس هذا موطن بسطها، المهم أنه حديث محتج به، ولا أعلم ممن له جلاله وقدر طعن فيه، إلا ما كان من الإمام محمد بن إبراهيم الوزير والإمام الشوكاني من حيث أنهم زعموا نكارة فيه، وهذه النكارة ليست على ما يقولون، فقد ردَّ هذه الشبهة العلامة المَقْبِلِيُّ صاحب كتاب العَلَمَ الشَّامَخَ ، ونقلها عنه الإمام الألباني في كتابه الصحيحة عند حديث رقم (٢٠٤).



فضل القرآن الكريم علي غيره من الكتب

كتاب الله تعالى القرآن، جعله الله تعالى مهيمناً على غيره من الكتب وناسخاً لها، لأنه الكتاب المحفوظ المصان عن عبث العابثين وتحريف المبطلين، حفظه الله ووعد بذلك وأنفذ وعده بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. بعد أن أخبر سبحانه وتعالى أنه كتاب كامل لا نقص فيه بوجه من الوجوه، حيث قال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

صانه عن الاختلاف لأنه خرج من مشكاة واحدة، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. وقال تعالى في وصفه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَفِهُوا أَلْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

قال ابن كثير في تفسير قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]: "قال سفيان الثوري وغيره، عن أبي إسحاق، عن التميمي، عن ابن عباس، أي: مؤتمناً عليه. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: المهيمن: الأمين، قال: القرآن أمين على كل كتاب قبله، وروي عن عكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، ومحمد بن كعب، وعطية، والحسن، وقتادة، وعطاء الخراساني، والسُّدِّي، وابن زيد، نحو ذلك.

وقال ابن جريج: القرآن أمين على الكتب المتقدمة، فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه منها فهو باطل.

وعن الوالبي، عن ابن عباس: ﴿وَمُهَيِّمًا﴾ أي: شهيدًا. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والسُّدِّي.

وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿وَمُهَيِّمًا﴾ أي: حاكمًا على ما قبله من الكتب.

وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم (المهيمن) يتضمن هذا كله، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم، الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها، أشملها وأعظمها وأحكمها حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره؛ فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها.

وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]...". اهـ

وله صفات عظيمة وأسماء كثيرة منها في القرآن: ما ذكره القاضي أبو المعالي عزي بن عبد الملك حيث قال: "اعلم أن الله تعالى سمى القرآن بخمسة وخمسين اسمًا:

سماه كتابًا، فقال: ﴿حَمْدٌ ۝١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿[الزخرف: ٢-الدخان: ٢].

وسماه قرآنًا، فقال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧].

وسماه كلامًا، فقال: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

وسماه نورًا، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

وسماه هدى، فقال: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: ٣].

وسماه رحمة، فقال: ﴿قُلْ يَفْضَلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ فَيَذَلُكَ فَلَيفَرْحُوا﴾ [يونس: ٥٨].

- وسماه فرقانا، فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١].
- وسماه شفاء، فقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢].
- وسماه موعظة، فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [يونس: ٥٧].
- وسماه ذكرا، فقال: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠].
- وسماه كريما، فقال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧].
- وسماه عليا، فقال: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤].
- وسماه حكمة، فقال: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ [القمر: ٥].
- وسماه حكيما، فقال: ﴿الرَّتِّلَآءِ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١].
- وسماه مهيمنا، فقال: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].
- وسماه مباركا، فقال: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ﴾ [ص: ٢٩].
- وسماه جبلا، فقال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].
- وسماه الصراط المستقيم، فقال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣].
- وسماه القيم، فقال: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١-٢].
- وسماه فصلا، فقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ [الطارق: ١٣].
- وسماه نبأ عظيما، فقال: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۚ﴾ [النبا: ١-٢].
- وسماه أحسن الحديث، فقال: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣].

- وسماه تنزيلا، فقال: ﴿وإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢].
- وسماه روحا، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].
- وسماه وحيا، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنذَرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ [الأنبياء: ٤٥].
- وسماه المثاني، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧].
- وسماه عربيا، فقال: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الزمر: ٢٨]، قال ابن عباس: "غير مخلوق".
- وسماه قولاً، فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ [القصص: ٥١].
- وسماه بصائر، فقال: ﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ﴾ [الجاثية: ٢٠].
- وسماه بيانا، فقال: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨].
- وسماه علما، فقال: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [الرعد: ٣٧].
- وسماه حقا، فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢].
- وسماه الهادي، فقال: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي﴾ [الإسراء: ٩].
- وسماه عجبا، فقال: ﴿قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١-٢].
- وسماه تذكرة، فقال: ﴿وإِنَّهُ لَنَذِكْرٌ﴾ [الحاقة: ٤٨].
- وسماه بالعروة، الوثقى فقال: ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦].
- وسماه متشابهها، فقال: ﴿كُنُبًا مَّتَشَبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣].
- وسماه صدقا، فقال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ [الزمر: ٣٣]، أي بالقرآن.
- وسماه عدلا، فقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

وسماه إيماناً، فقال: ﴿سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وسماه أمراً، فقال: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [الطلاق: ٥].

وسماه بشري، فقال: ﴿هُدًى وَبُشْرَى﴾ [النمل: ٢].

وسماه مجيداً، فقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج: ٢١].

وسماه زبوراً، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وسماه مبيناً، فقال: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١].

وسماه بشيراً ونذيراً، فقال: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فصلت: ٤].

وسماه عزيزاً، فقال: ﴿وَلِإِنَّهُ لَكِنْتُ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١].

وسماه بلاغاً، فقال: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

وسماه قصصاً، فقال: ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣].

وسماه أربعة أسامي في آية واحدة فقال: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ ١٢ مَرْفُوعَةٍ

مُطَهَّرَةٍ﴾ [عبس: ١٣-١٤]، انتهى، من البرهان للسيوطي.

قلت: وقد يُخالف في بعض هذه الأسماء، وأيضاً هذا ليس بآخر الممكن،

فالقرآن هو كلام الله تعالى ووحيه وتنزيله، وصفة من صفات الله تعالى، وصفات الله

بالغة في الحسن كماله، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

و أسماء القرآن أعلام وأوصاف، فكل اسم يتضمن وصفاً للقرآن العظيم،

وتعدد الأوصاف الثبوتية يدل على الكمال.



فضل النبي على جميع الرسل وذكر طرف من فضائله

من المعلوم أن رسول الله هو دعوة إبراهيم عليه السلام، حيث قال ربنا مخبراً عنه: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وهو بشارة عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، عند البخاري أن هذه الآية التي في القرآن: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، قَالَ فِي التَّوْرَةِ: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَحَرِّزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكَّلَ لَيْسَ بِفَطٍّ وَلَا غَلِيظٌ وَلَا سَخَّابٌ بِالْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعُوجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمِيًّا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا".

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ»، أخرجه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣).

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعثَ إِلَى كُلِّ أَحْمَرٍ وَأَسْوَدٍ،

وَأَحَلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَيِّبَةً طَهُورًا وَمَسْجِدًا فَائِيًا رَجُلٌ أَذْرَكَتُهُ الصَّلَاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ»، أخرجه البخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١).

وَعَنْ حُدَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تَرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ، وَذَكَرَ خَصْلَةً أُخْرَى»، أخرجه مسلم (٥٢٢).

وفي رواية قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ فَوُضِعَتْ بَيْنَ يَدَيَّ».

وَعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَلُغُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَزْنَينِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يَهْلِكَهَا بَسَنَةٌ عَامَّةٌ وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ يَا مُحَمَّدُ: إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ وَإِنِّي أُعْطِيتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أَهْلِكَهُمْ بَسَنَةٌ عَامَّةٌ وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»، أخرجه مسلم (٢٨٨٩).

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله : «بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُحْيِي، وَجُعِلَ الذَّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»، أخرجه أحمد.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفِّعٍ»، أخرجه مسلم (٢٢٧٧)، وستأتي بقية أحاديث في باب الشفاعة إن شاء الله تعالى.

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ: «مِثْلِي وَمِثْلُ الْأَنْبِيَاءِ كَرَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلُونَهَا وَيَتَعَجَّبُونَ وَيَقُولُونَ لَوْلَا مَوْضِعُ اللَّبَنَةِ»، أخرجه البخاري (٣٥٣٤)، وأخرجه مسلم (٢٢٨٧).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ: «إِنَّ مِثْلِي وَمِثْلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمِثْلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةِ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعَجَّبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبَنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبَنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ»، أخرجه البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦).

ومن فضائله أنه صاحب الحوض المورود، فعن جندب قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ يَقُولُ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ»، أخرجه البخاري (٦٥٧٥)، ومسلم (٢٢٨٩) وسنذكر في باب الإيثار بالحوض بأوسع من هذا إن شاء الله تعالى.

ومن فضائله أنه أول من يدخل الجنة وأول من يستفتح بابها، فعن أنس بن مالك قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «أَنَا أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَفْرُغُ بَابَ الْجَنَّةِ».

وَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: قَالَ النَّبِيُّ: «أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ، لَمْ يُصَدَّقْ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا صُدِّقْتُ، وَإِنَّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيًّا مَا يُصَدِّقُهُ مِنْ أُمَّتِهِ إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ»، أخرجه مسلم (١٩٧).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «آتَى بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَاسْتَفْتَحَ فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ»، أخرجه مسلم (١٩٧).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ يَدْعُوهَا فَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِيَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، أخرجه البخاري (٧٤٧٤)، ومسلم (١٩٩).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ قَالَ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ دَعَاها لِأُمَّتِهِ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، أخرجه مسلم (٢٠٠).

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: عَنْ النَّبِيِّ : «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ قَدْ دَعَا بِهَا فِي أُمَّتِهِ، وَخَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، أخرجه مسلم (٢٢٠١).

ومن فضائله العظيمة أنه مبعوث إلى عامة الثقليين - الجن والإنس -

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (١٦٦): "أَمَّا كَوْنُهُ مَبْعُوثًا إِلَى عَامَّةِ الْجِنِّ، فَقَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ قَوْلِ الْجِنِّ: ﴿يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٣١]، وَكَذَا سُورَةُ الْجِنِّ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ أَيْضًا.

قَالَ مُقَاتِلٌ: لَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ رَسُولًا إِلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ قَبْلَهُ. وَهَذَا قَوْلٌ بَعِيدٌ. فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَمْعَشِرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وَالرُّسُلُ مِنَ الْإِنْسِ فَقَطْ، وَلَيْسَ مِنَ الْجِنِّ رَسُولٌ، كَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الرُّسُلُ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَمِنَ الْجِنِّ نُذُرٌ. وَظَاهِرُ قَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ الْجِنِّ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ [الأحقاف: ٣٠]، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُوسَى مُرْسَلٌ إِلَيْهِمْ أَيْضًا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الضَّحَّاكِ بْنِ مُزَاحِمٍ: أَنَّهُ زَعَمَ أَنَّ فِي الْجِنِّ رُسُلًا، وَاحْتَجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ. وَفِي الْإِسْتِدْلَالِ بِهَا عَلَى ذَلِكَ نَظَرٌ لِأَنَّهَا مُحْتَمَلَةٌ وَلَيْسَتْ بِصَرِيحَةٍ، وَهِيَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - كَقَوْلِهِ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُو وَالْمَرْجَاتُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، وَالْمَرَادُ: مِنْ أَحَدِهِمَا.

وَأَمَّا كَوْنُهُ مَبْعُوثًا إِلَى كَافَّةِ الْوَرَى، فَقَدْ قَالَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِيَّيَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، أَيْ: وَأُنذِرَ مَنْ بَلَغَهُ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]، الْآيَةُ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَاسْلَمْتُمْ فَإِنْ ءَسْلَمُوا فَقَدْ ءَهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وَقَالَ : «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةُ فَلْيَصِلْ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»، أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ.

وَقَالَ : « لَا يَسْمَعُ بِي رَجُلٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ »، رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَكَوْنُهُ مَبْعُوثًا إِلَى النَّاسِ كَافَّةً مَعْلُومٌ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ بِالضَّرُورَةِ.

وَأَمَّا قَوْلُ بَعْضِ النَّصَارَى أَنَّهُ رَسُولٌ إِلَى الْعَرَبِ خَاصَّةً: فَظَاهِرُ الْبُطْلَانِ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا صَدَّقُوا بِالرَّسَالَةِ لَزِمَهُمْ تَصْدِيقُهُ فِي كُلِّ مَا يُخْبِرُ بِهِ، وَقَدْ قَالَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً، وَالرَّسُولُ لَا يَكْذِبُ، فَلَزِمَ تَصْدِيقُهُ حَتْمًا، فَقَدْ أَرْسَلَ رُسُلَهُ وَبَعَثَ كُتُبَهُ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ إِلَى كِسْرَى وَفَيْصَرَ وَالنَّجَاشِيِّ وَالْمَقَوْسِ وَسَائِرِ مُلُوكِ الْأَطْرَافِ، يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ". اهـ

و هذا غيض من فيض، وقليل من كثير، وقطرة من مطرة، من فضائل هذا النبي الأعظم .



فضل أمة محمد على بقية الأمم

قال الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال ابن كثير تعالى: "إن هذه الأمة مع قصر مدتها فضلت الأمم الماضية مع طول مدتها، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وفي المسند والسنن عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله :
«أَنْتُمْ تُؤْفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً. أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ».

وإنما فازوا بهذا ببركة الكتاب العظيم الذي شرفه الله تعالى على كل كتاب أنزله، جعله مهيمنا عليه، وناسخا له، وخاتما له؛ لأن كل الكتب المتقدمة نزلت إلى الأرض جملة واحدة، وهذا القرآن نزل منجما بحسب الوقائع لشدة الاعتناء به وبمن أنزله عليه، فكل مرة كنزول كتاب من الكتب المتقدمة"، انتهى.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ، عَنْ النَّبِيِّ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارَ، قَالَ: وَمَا بَعَثَ النَّارَ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَيْنَا ذَلِكَ الْوَاحِدُ؟ قَالَ: «أَبَشِّرُوا فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلًا وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا»، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا

نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ أَوْ كَشَعْرَةِ بَيْضَاءٍ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ»، متفق عليه، البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ فِي قُبَّةٍ فَقَالَ: «اتْرَضُونْ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟»، قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «اتْرَضُونْ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟»، قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «اتْرَضُونْ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟»، قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشَّرِّ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَحْمَرِ»، متفق عليه، البخاري (٦٥٢٨)، ومسلم (٢٢١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَيْنَ أَهْمٍ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ فَهَدَانَا اللَّهُ فَالْنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ الْيَهُودُ غَدًا وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ»، البخاري (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٥).

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ : عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أَجْرَاءَ فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةٍ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ الْيَهُودُ. ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَى. ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنَ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَى قِيرَاطَيْنِ؟ فَاتُّمَّ هُمْ، فَغَضِبَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فَقَالُوا: مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلًا وَأَقَلَّ عَطَاءً؟ قَالَ: هَلْ نَقَضْتُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَذَلِكَ فَضْلِي أَوْتِيهِ مَنْ أَشَاءَ»، أخرجه البخاري (٥٥٧).

وَعَنْ أَبِي مُوسَى ، عَنْ النَّبِيِّ قَالَ: «مَثَلُ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ قَوْمًا يَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ عَلَى أَجْرٍ مَعْلُومٍ فَعَمِلُوا لَهُ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ، فَقَالُوا: لَا حَاجَةَ لَنَا إِلَى أَجْرِكَ الَّذِي شَرَطْتَ لَنَا وَمَا عَمِلْنَا بَاطِلًا. فَقَالَ لَهُمْ: لَا تَفْعَلُوا أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمْ وَخُذُوا أَجْرَكُمْ كَامِلًا. فَأَبَوْا وَتَرَكُوا وَاسْتَأْجَرَ آخِرِينَ بَعْدَهُمْ فَقَالَ لَهُمَا: أَكْمِلَا بَقِيَّةَ يَوْمِكُمَا هَذَا وَلَكُمَا الَّذِي شَرَطْتُ لَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ. فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا كَانَ حِينُ صَلَاةِ الْعَصْرِ قَالَا: لَكَ مَا عَمِلْنَا بَاطِلًا وَلَكَ الْأَجْرُ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا فِيهِ. فَقَالَ لَهُمَا: أَكْمِلَا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمَا مَا بَقِيَ مِنَ النَّهَارِ شَيْءٌ يَسِيرٌ. فَأَبَيَا، وَاسْتَأْجَرَ قَوْمًا أَنْ يَعْمَلُوا لَهُ بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ فَعَمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ وَاسْتَكْمَلُوا أَجْرَ الْفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا، فَذَلِكَ مَثَلُهُمْ وَمَثَلُ مَا قَبِلُوا مِنْ هَذَا النُّورِ»، أخرجه البخاري (٥٥٨).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمْشُونَ مَعَهُمُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ أُمَّتِي هَذِهِ؟ قِيلَ: بَلْ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، قِيلَ: انْظُرْ إِلَى الْأَفْقِ، فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلَأُ الْأَفْقَ ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ، فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلَأَ الْأَفْقَ، قِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ»، ثُمَّ دَخَلَ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ. فَافَاضَ الْقَوْمُ وَقَالُوا: نَحْنُ الَّذِينَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاتَّبَعْنَا رَسُولَهُ فَنَحْنُ هُمْ، أَوْ أَوْلَادُنَا الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَإِنَّا وُلِدْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَبَلَغَ النَّبِيُّ فَخَرَجَ فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَلَا يَكْتُمُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، فَقَالَ عُكَّاشَةُ بْنُ مُحِصَنٍ: أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، فَقَامَ آخِرُ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا؟ قَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»، أخرجه البخاري (٣٤١٠)، ومسلم (٢٢٠).

وعن الصنابحي الأحسي يقول سمعت رسول الله يقول: «أَلَا إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، وَإِنِّي مُكَاثِّرٌ بِكُمْ الْأُمَّمَ فَلَا تَقْتَتِلَنَّ بَعْدِي»، أخرجه أحمد.

وعن ابن مسعود قال: قال لنا رسول الله : «كَيْفَ أَنْتُمْ وَرُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، لَكُمْ رُبُعُهَا، وَلِسَائِرِ النَّاسِ ثَلَاثَةُ أَرْبَاعِهَا؟»، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَكَيْفَ أَنْتُمْ وَثُلُثُهَا؟»، قَالُوا: فَذَلِكَ أَكْثَرُ، قَالَ: «فَكَيْفَ أَنْتُمْ وَالشَّطْرُ؟»، قَالُوا: فَذَلِكَ أَكْثَرُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «أَهْلُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِشْرُونَ وَمِائَةٌ صَفٌّ أَنْتُمْ مِنْهَا تَمَانُونَ صَفًّا»، أخرجه أحمد.

عن ابن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله : «أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةٌ صَفٌّ، مِنْهُمْ تَمَانُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ»، وقال عفان مرة: «أَنْتُمْ مِنْهُمْ تَمَانُونَ صَفًّا».

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «خَيْرْتُ بَيْنَ الشَّفَاعَةِ وَبَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نِصْفُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ، فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ، لِأَنَّمَا أَعَمُّ وَأَكْفَى، أَتْرُونَهَا لِلْمُتَّقِينَ لَا وَلَكِنَّهَا لِلْمُذْنِبِينَ الْخَطَّائِينَ الْمُتَكَوِّثِينَ»، أخرجه أحمد.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «يَحْيَى نُوحٌ وَأُمَّتُهُ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: هَلْ بَلَغْتَ؟ يَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ. يَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَغْتُمْ؟ يَقُولُونَ: لَا، مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ. يَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ يَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ. فَتَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وَالْوَسْطُ الْعَدْلُ»، أخرجه البخاري.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، قَالَ: خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ.

قد ذكرت أكثر من هذا في كتابي الزجر والبيان لدعاة التقارب والحوار بين الأديان ،
دلالة، ودعوة إلى هذا الدين، وتحذير من الكفر، والكفرة، وأعوانهم من المنافقين.

وبعد هذا تجدد من يُزهد في هذا الدين القويم والصراط المستقيم -ودعني من
الكفار المكذبين- ولكن ممن سار على سيرهم ممن يظهر الإسلام من الزنادقة
والمنافقين، من علمانيين وحدائيين وعقلانيين ومثله في ذلك كما قال الله تعالى:
﴿كَرَّابٍ بَقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَلَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّيْهُ
حِسَابَهُ. وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ
فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكَدُهُ لَمْ يَكْدِرْنَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ
مِنْ نُّورٍ﴾ [النور: ٣٩-٤٠]، مع أن العقول السليمة والفطر المستقيمة لا يمكن بحال أن
ترغب عن الإسلام لأنه فطرة الله التي فطر الناس عليها، ومن رغب عنها فقد سفه
نفسه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي
الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

قال أبو جعفر: "يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾، إلا من سفهت
نفسه. وقد بينا أن معنى (السفه)، الجهل، فمعنى الكلام: وما يرغب عن ملة إبراهيم
الحنيفية، إلا سفيه جاهل بموضع حظ نفسه فيما ينفعها، ويضرها في معادها"، انتهى.
إذا فليعلم المخالفون لدين الإسلام، من الكفار والمنافقين أنهم أهل السفه
بنص القرآن وإن ادعوا الصلاح فما هي إلا أمانى كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا
تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ
۝١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن
لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١١-١٣].



الفصل الثاني

بيان توحيد الله عز وجل وأنواعه

في حديث ابن عباس لما أرسل رسول الله ﷺ معاذًا إلى اليمن قال: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَرُدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ»، وفي لفظ «فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ»، الحديث في البخاري (٧٣٧) ومسلم (١٩).

والتوحيد هو إفراد الله بما يجب له في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وتوحيد الله تعالى ثلاثة أقسام:

أولاً: توحيد الربوبية:

فأما توحيد الربوبية فهو الإقرار بأن الله وحده هو الخالق للعالم والمدبر له، والمالك، والرازق، إلى غير ذلك من خصائص ربوبيته، ويدخل في ذلك الإيمان بالقدر.

والإقرار بهذا النوع مركوز في الفطرة لا يكاد ينازع فيه أحد من الأمم كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، وقال

تعالى: ﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٨٤ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٥].

وهذا في القرآن كثير، ولم ينكر توحيد الربوبية، ويحمد الرب إلا شواذ من المجموعة البشرية تظاهروا بإنكار الرب مع اعترافهم به في الباطن، وإنكارهم له إنما هو من باب المكابرة كما ذكر الله عن فرعون قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وقد خاطبه موسى بقوله: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿وَحَذِّرُوا بِهَا وَاسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]، وهم لم يستندوا إلى حجة في جحودهم، كما قال: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجن: ٢٤].

ومن أكبر الشواهد على وحدانية الله آياته الكونية قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ ٣٥ ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦].

وقال الشاعر:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ومن المعلوم أن رسول الله قاتل هذه الأصناف التي كانت تقر بأن الله هو الخالق الرازق المالك المدبر مع أن بعضهم يعبد الأحجار، وبعضهم الأشجار، وبعضهم الملائكة، وبعضهم الشياطين.

وربما اتخذوهم وسائط ووسائل للقربة إلى الله تعالى فلم ينفعهم ذلك قال الله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

فمن أقر بتوحيد الربوبية لزمه الإقرار بتوحيد الألوهية قال الشيخ سليمان بن عبد الله في تيسير العزيز الحميد (١٧): "وهذا التوحيد لا يكفي العبد في حصول الإسلام، بل لا بد أن يأتي مع ذلك بلازمه من توحيد الإلهية؛ لأن الله تعالى حكى عن المشركين أنهم مقرّون بهذا التوحيد لله وحده قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا نُنْقِوْنَ﴾ [يونس: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] الآية، فهم كانوا يعلمون أن جميع ذلك لله وحده ولم يكونوا بذلك مسلمين، بل قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، قال مجاهد: في الآية: إيمانهم بالله قولهم: إن الله خلقنا وبرزقنا ويميتنا، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره". اهـ

ثانياً: توحيد الألوهية:

وهو إفراد الله بالعبادة.

والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة.

وهذا أشمل أنواع التعاريف، فالدين كله داخل في العبادة، فالعبادة المأمور بها تتضمن ثلاثة أركان المحبة والرجاء والخوف، وهذا التوحيد يسمى بتوحيد القصد والطلب، وتوحيد الإرادة، والتوحيد العملي.

وهو الذي دعت إليه جميع الرسل قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ومن أجله خلقت السموات والأرضين والإنس والشیاطین، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاریات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، في آيات كثيرات في هذا الباب.

وهذا التوحيد مبني على إخلاص التأله لله تعالى: وهي عبادته محبة وتعظيمًا ومن العبادات: المحبة، والخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرغبة، والدعاء لله وحده، ويبنى على ذلك إخلاص العبادات كلها ظاهرها، وباطنها لله وحده لا شريك له، لا يجعل فيها شيئاً لغيره لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل فضلاً عن غيرهما، وهذا التوحيد هو الذي تضمنه: ﴿يَاكَ نَعْبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِثُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، وقوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وقوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

وهذا التوحيد هو أول الأمر وآخره، وباطنه وظاهره، وهو أول دعوة الرسل، وآخرها، وهو معنى قول: (لا إله إلا الله)، فإن الإله هو المألوه المعبود بالمحبة، والخشية، والإجلال، والتعظيم، وجميع أنواع العبادات، ولأجل هذا التوحيد خلقت الخليقة، وأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكفار،

وسعداء أهل الجنة، وأشقياء أهل النار...، وهذا التوحيد هو أول واجب على المكلف.

وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الإفصاح، وأبدأ فيه وأعاد، وضرب لذلك الأمثال بحيث إن كل سورة في القرآن فيها الدلالة على هذا التوحيد.

وسأذكر من أنواع العبادة ما يكون دلالة إلى ما سواها فمن صرف شيئاً منها لغير الله مما يختص به فقد ناقض معنى لا إله إلا الله فمنها:

١ - المحبة، فمن أشرك بين الله وبين غيره في المحبة التي لا تصلح إلا لله فهو مشرك، كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُهُمْ لَكَذَّبْنَا عَنْهُمْ كَذْزَابًا مُّبِينًا كَذَلِكَ يُبْرِئُهُمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿البقرة: ١٦٥-١٦٧﴾.

٢ - ومنها التوكل، فلا يتوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، والتوكل على غير الله فيما يقدر عليه شرك أصغر.

٣ - ومنها الخوف، فلا يخاف خوف السرِّ إلا من الله، ومعنى خوف السر هو أن يخاف العبد من غير الله تعالى أن يصيبه مكروه بمشيئته وقدرته وإن لم يباشره، فهذا شرك أكبر؛ لأنه اعتقاد للنفع والضرر في غير الله، قال تعالى: ﴿فَإِنِّي فَارְهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾

وَإِنْ يُرْذَكْ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ ﴿يونس: ١٠٧﴾.

٤ - ومنها الرجاء، فيما لا يقدر عليه إلا الله، كمن يدعو الأموات، أو غيرهم راجياً حصول مطلوبه من جهتهم، فهذا شرك أكبر قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]، وقال علي : لا يرجون عبد إلا ربه.

٥ - ومنها الدعاء، فيما لا يقدر عليه إلا الله، سواء كان طلباً للشفاعة أو غيرها من المطالب، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَٰئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٣].

٦ - ومنها الصلاة والركوع والسجود، قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

٧ - ومنها الذبح، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

٨- ومنها النذر، قال تعالى: ﴿يُؤْفُونَ بِالْأَنْذَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَلْيُؤْفُوا أَنْذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩].

٩- ومنها الطواف، فلا يطاف إلا ببيت الله ، قال تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩].

١٠- ومنها التوبة، فلا يتاب إلا لله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

١١- ومنها الاستعاذة، فيما لا يقدر عليه إلا الله، قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١].

١٢- ومنها الاستغاثة، فيما لا يقدر عليه إلا الله، قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩].

فمن أشرك بين الله تعالى وبين مخلوق فيما يختص بالخالق تعالى فهو مشرك، وإنما ذكرنا هذه العبادات خاصة؛ لأن عبادة القبور صرفوها للأموات من دون الله تعالى، أو أشركوا بين الله تعالى وبينهم، وإلا فكل نوع من أنواع العبادة، من صرفه لغير الله ، أو أشرك بين الله تعالى وبين غيره فيه فهو مشرك قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

وهذا الشرك في العبادة هو الذي كفر الله به المشركين وأباح دماءهم وأموالهم ونساءهم، وإلا فهم يعلمون أن الله هو الخالق الرازق المدبر ليس له شريك في ملكه، وإنما كانوا يشركون به في هذه العبادات ونحوها وكانوا يقولون في تليبتهم: "لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك".

ومن أنواع الشرك المنتشرة في البلاد الإسلامية صرف العبادات للقبور والمقبورين، يقفون بساحاتها فتسكب العبرات وتنزل بها الحاجات، وتتعلق بها القلوب، وترجى في دفع المضرات، وجلب المنافع، وتطلب منها الأرزاق، وتنحرف في ساحاتها الجزور، ويقع عندها من الزور ما الله به عليم.

قال ابن الأمير في تطهير الاعتقاد (٥٠): "وقد عرفت من هذا كله أن من اعتقد في شجر أو حجر أو قبر أو ملك أو جني أو حي أو ميت أنه ينفع أو يضر أو أنه يقرب إلى الله أو يشفع عنده في حاجة من حوائج الدنيا، بمجرد التشفع به والتوسل إلى الرب تعالى، إلا ما ورد في حديث فيه مقال، في حق نبينا محمد أو نحو ذلك، فإنه قد أشرك مع الله غيره، واعتقد ما لا يحل اعتقاده، كما اعتقد المشركون في الأوثان، فضلا عما ينذر بهاله وولده لميت أو حي أو يطلب من ذلك الميت ما لا يطلب إلا من الله تعالى من الحاجات، من عافية مريضه أو قدوم غائبه أو نياله لأي مطلب من المطالب، فإن هذا هو الشرك بعينه الذي كان ويكون عليه عباد الأصنام.

والنذر بالمال على الميت ونحوه والنحر على القبر والتوسل به وطلب الحاجات منه هو بعينه الذي كانت تفعله الجاهلية، وإنما كانوا يفعلونه لما يسمونه وثنا وصنما، وفعله القبوريون لما يسمونه وليا وقبرا ومشهدا، والأسماء لا أثر لها ولا تغير المعاني، ضرورة لغوية وعقلية وشرعية، فإن من شرب الخمر وسهاها ماء، ما شرب إلا خمرًا وعقابه عقاب شارب الخمر، ولعله يزيد عقابه للتدليس والكذب في التسمية.

وقد ثبت في الأحاديث أنه يأتي قوم يشربون الخمر يسمونها بغير اسمها، وصدق فإنه قد أتى طوائف من الفسقة يشربون الخمر ويسمونونها نبيذا، وأول

من سمي ما فيه غضب الله وعصيانه بالأسماء المحبوبة عند السامعين إبليس لعنه الله، فإنه قال لأبي البشر: ﴿يَتَكَادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠]، فسمى الشجرة التي نهي الله آدم عن قربانها شجرة الخلد، جذبا لطبعه إليها وهزا لنشاطه لقربانها وتدليسا عليه بالاسم الذي اخترعه، كما يسمي إخوانه المقلدون له الحشيشة بلقمة الراحة، وكما يسمي الظلمة ما يقبضونه من أموال عباد الله ظلما وعدوانا أديبا، فيقولون أدب القتل وأدب السرقة وأدب التهمة، بتحريف اسم الظلم إلى اسم الأدب، كما يحرفونه في بعض المقبوضات إلى اسم (النفاة) وفي بعضها إلى اسم (السياقة) وفي بعضها أدب المكايل والموازين.

وكل ذلك اسمه عند الله ظلم وعدوان، كما يعرفه من شم رائحة الكتاب والسنة، وكل ذلك مأخوذ عن إبليس حيث سمي الشجرة المنهي عنها شجرة الخلد.

وكذلك تسمية القبر مشهدا ومن يعتقدون فيه وليا لا تخرجه عن اسم الصنم والوثن، إذ هم معاملون لها معاملة المشركين للأصنام ويطوفون بها طواف الحجاج بيت الله الحرام ويستلمونها استلامهم لأركان البيت ويخاطبون الميت بالكلمات الكفرية، من قولهم: على الله وعليك، ويهتفون بأسمائهم عند الشدائد ونحوها.

وكل قوم لهم رجل ينادونه، فأهل العراق والهند يدعون عبد القادر الجيلاني، وأهل التهائم لهم في كل بلد ميت يهتفون باسمه، يقولون: "يا زيلعي، يا ابن العجيل". وأهل مكة وأهل الطائف: "يا ابن العباس". وأهل مصر: "يا رفاعي، يا بدوي"، والسادة البكرية وأهل الجبال: "يا أبا طير". وأهل اليمن: "يا ابن علوان".

وفي كل قرية أموات يهتفون بهم وينادونهم ويرجونهم لجلب الخير ودفع الضر، وهذا هو بعينه فعل المشركين في الأصنام، كما قلنا في الأبيات النجدية:

أعادوا بها معنى سواها ومثله يغوث وود بئس ذلك من ود
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها كما يهتف المضطر بالصمد الفرد
وكم نحروا في سوحها من نحيرة أهلت لغير الله جهرا على عمد
وكم طائف حول القبور مقبلا ويستلم الأركان منهم باليد اه
إلى غير ذلك من الشرك بالله العظيم، نسأل الله السلامة، وحسن الخاتمة.

ثالثاً: توحيد الأسماء والصفات:

وهو الإقرار والإيمان بما سمي ووصف الله به نفسه في كتابه وبما سماه
ووصفه به رسوله ، من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، وسيأتي
الكثير من ذلك ضمن هذا الكتاب بما يشفي ويكفي إن شاء الله .

قال الشيخ سليمان في تيسير العزيز الحميد (١٩): "وهذا أيضاً لا يكفي في
حصول الإسلام، بل لابد مع ذلك من الإتيان بلازمه من توحيد الربوبية، والإلهية،
والكفار يقرون بجنس هذا النوع، وإن كان بعضهم قد ينكر بعض ذلك إما جهلاً،
وإما عناداً كما قالوا: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ
يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠]، قال الحافظ ابن كثير: والظاهر أن إنكارهم هذا إنما
هو جحود، وعناد وتعنت في كفرهم، فإنه قد وجد في بعض أشعار الجاهلية تسمية
الله بالرحمن قال الشاعر:

(وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق)

وقال الآخر:

(ألا قضب الرحمن ربي يمينها)

وهما جاهليان.

وقال زهير:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتن الله يعلم

قلت: ولم يعرف عنهم إنكار شيء من هذا التوحيد إلا في اسم الرحمن خاصة،

ولو كانوا ينكرونه لردوا على النبي ذلك كما ردوا عليه توحيد الآلهية، فقالوا:

﴿أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مُّجْتَبٍ﴾ [ص: ٥]، لا سيما والسور المكية مملوءة بهذا

التوحيد". اهـ



أبواب في تحقيق الإيمان بأسماء الله وصفاته

شرف هذا الباب، و فضل هذا العلم بالنسبة لبقية العلوم عظيم، وذلك لأن شرف العلم بشرف المعلوم، وبمعرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العلى تتحقق عبودية العبد لله سبحانه وتعالى من خوف وإناية، وعلم بالله سبحانه وتعالى، و لذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فهو يجبها، وجعلت بين يدي المطلوب مقدمة من العبد في الدنيا والآخرة، كما في حديث فضالة بن عبيد عند أبي داود وغيره: أن النبي رأى رجلاً دعا الله ولم يثني عليه، ولم يصل على النبي، فقال: «عَجَلَ هَذَا»، والحديث في الصحيح المسند لشيخنا مقبل .

وجاء من حديث أنس عند ابن ماجه، وهو في صحيح شيخنا أيضاً: أن رسول الله سمع رجلاً يقول: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، وَحَدَّكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، الْمَنَّانُ، بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، فَقَالَ: «لَقَدْ سَأَلَ اللَّهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أُجَابَ».

فانظر كيف بين رسول الله فضيلة من قدم بين يدي سؤاله ثناءً وحمدًا لله بأسمائه وصفاته، وبين من عَجَلَ ودعا بدونها.

ورسول الله يقول كما في حديث أنس عند البخاري (٦٥٦٥) ومسلم (١٩٤) وهو حديث الشفاعة الطويل، وحديث أبي هريرة عندهما، البخاري (٤٧١٢) ومسلم (١٩٣) أيضاً: «فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، ازْفَعْ رَأْسَكَ، قُلْ تُسْمَعُ، سَلْ تُعْطَى، اشفَعْ تُشَفَّعْ، فَاَرْفَعْ رَأْسِي، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدِ يُعَلِّمْنِيهِ رَبِّي».

فانظر كيف بدأ رسول الله قبل شفاعته لأُمته بالحمد والثناء على الله بأسمائه وصفاته؟

وجاء من حديث عائشة عند مسلم (٤٨٦) ، أنه كان يدعو الله ويقول: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»، إلى غير ذلك من النصوص الدالة على فضيلة الابتداء بأسماء الله وصفاته بين يدي المطلوب.

قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة مبيناً شرف هذا العلم وشرف معرفة الأسماء والصفات (ص ٩٣): "الوجه السابع والسبعين - من أوجه تفضيل العلم - وهو أن شرف العلم تابع لشرف معلومه؛ لوقوف النفس بأدلة وجوده وبراهينه، ولشدة الحاجة إلى معرفته وعظم النفع بها، ولا ريب أن أجل معلوم وأعظمه وأكبره فهو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين، وقيوم السماوات والأرضين، الملك الحق المبين الموصوف بالكمال كله، المنزه عن كل عيب ونقص، وعن كل تمثيل وتشبيه في كماله، ولا ريب أن العلم به وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجل العلوم وأفضلها ونسبته إلى سائر العلوم كنسبة معلومه إلى سائر المعلومات، وكما أن العلم به أجل العلوم وأشرفها فهو أصلها كلها، كما أن كل موجود فهو مستند في وجوده إلى الملك الحق المبين، ومفتقر إليه في تحقيق ذاته...

فالعلم به أصل كل علم... إلى أن قال: فمن عرف الله عرف ما سواه، ومن جهل الله فهو لما سواه أجهل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩].

فتأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفاً عظيماً، وهو أن من نسي ربه أنساه ذاته ونفسه، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحة، بل نسيَّ به صلاحه وفلاحه في معاشه ومعاده، فصار معطلاً مهملاً بمنزلة الأنعام". اهـ

ولشرف هذا العلم ومنزلته بين العلوم فقد قعد له أهل العلم قواعد مهمة، بمعرفتها يتوصل إلى فهم هذا الباب غاية الفهم وأدقه، وسوف نذكر في هذا المقام ما يحتاج المقام إلى ذكره مع تطويل غير ممل واختصارٍ غير مخل إن شاء الله.



قواعد في أسماء الله عز وجل وصفاته

القاعدة الأولى: أسماء الله تعالى كلها حسنى:

أي بالغة في الحسن كماله قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ وذلك لأنها متضمنة لصفات كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه.

وكانت أسماء الله حسنى لأربعة أمور، ذكرها السعدي في تفسيره فقال: "﴿لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨]، أي له الأسماء الكثيرة الكاملة الحسنى.

من حسننها أنها أسماء كلها دالة على المدح، فليس فيها اسم لا يدل على المدح والحمد.

ومن حسننها: أنها ليست أعلاماً محضة، وإنما هي أسماء وأوصاف.

ومن حسننها: أنها دالة على الصفات الكاملة، وأن له من كل صفة أكملها وأعمها وأجلها.

ومن حسننها: أنه أمر العباد أن يدعوه بها؛ لأنها وسيلة مقربة إليه يحبها ويحب من يحفظها، ويجب من يبحث عن معانيها ويتعبد له بها، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] اهـ.

واعلم أن الحسن في أسماء الله يكون باعتبار كل اسم على انفراده، ويكون باعتبار جمعه إلى غيره فيحصل بجمع الاسم إلى الآخر كمال فوق كمال.

قال ابن القيم في البدائع (١/١٦١): "صفة تحصل من اقتران الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو: الغني الحميد، العفو القدير، الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن، فإن الغنى صفة كمال، والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر، فله ثناء من غناه وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما، وكذلك العفو القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم، فتأمل، فإنه من أشرف المعارف". اهـ

القاعدة الثانية: أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف:

أعلام باعتبار دلالتها على الذات، وأوصاف باعتبار ما دلت عليه من المعاني، وهي بالاعتبار الأول مترادفة لدلالاتها على مسمى واحد، وهو الله ، وبالعبار الثاني: متباينة لدلالة كل واحد منها على معناه الخاص، ف"الحي العليم القدير السميع البصير الرحمن الرحيم العزيز الحكيم"، كلها أسماء لمسمى واحد، وهو الله سبحانه وتعالى، لكن معنى الحي غير معنى العليم، ومعنى العليم غير معنى القدير، وهكذا.

قال ابن القيم في البدائع (١/١٦٢): "أسماء الله تعالى الحسنى هي أعلام وأوصاف، والوصف بها لا ينافي العلمية؛ بخلاف أوصاف العباد فإنها تنافي علميتهم؛ لأن أوصافهم مشتركة فنافتها العلمية المختصة بخلاف أوصافه تعالى". اهـ

فائدة: اجتماع العلمية والوصفية إنما يكون في أسماء الله وصفاته سبحانه وتعالى، وأسماء كتابه وأسماء نبيه ، فهي أعلام دالة على معاني هي بها أوصاف، فلا تضاد فيها العلمية الوصف؛ بخلاف غيرها من أسماء المخلوقين، أفاده ابن القيم في كتابه جلاء الأفهام (ص ١٠٧).

بيانه قد يكون اسم الرجل صالح وليس فيه من الصلاح شيء، وجميل وليس فيه من الجمال شيء، وهكذا.

القاعدة الثالثة: دلالات أسماء الله المتعددية واللازمة:

أسماء الله تعالى إن دلت على وصف متعدد تضمنت ثلاثة أمور:

أحدها: ثبوت الاسم لله .

الثاني: ثبوت الصفة التي تضمنها لله .

الثالث: ثبوت حكمها ومقتضاها.

مثال ذلك السميع: يتضمن إثبات السميع اسمًا لله تعالى، وإثبات السمع صفة له، وإثبات حكم ذلك ومقتضاه وهو أنه يسمع السر والنجوى كما قال: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ خَائِرًا لِّمَا يُكَذِّبُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

وإن دلت على وصف غير متعدد تضمنت أمرين:

أحدها: ثبوت ذلك الاسم لله .

الثاني: ثبوت الصفة التي تضمنها لله .

مثل (الحي): يتضمن إثبات الحي اسمًا لله ، وإثبات الحياة صفة له.

القاعدة الرابعة: دلالات أسماء الله من حيث المطابقة والتضمن والإلتزام:

قال ابن عثيمين : " دلالة أسماء الله تعالى على ذاته، وصفاته تكون بالمطابقة وبالتضمن وبالالتزام، مثال ذلك (الخالق) يدل على ذات الله وعلى صفة الخلق بالمطابقة، ويدل على الذات وحدها وعلى صفة الخلق وحدها بالتضمن، ويدل على

صفتي العلم والقدرة بالالتزام، ولهذا لما ذكر الله خلق السماوات والأرض قال: ﴿لَعَلَّكُمْ أَنْ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. اهـ

قال شيخ الإسلام رحمة الله عليه كما في درء تعارض العقل والنقل (١٠/١٢):

"فدلالة المطابقة: هي دلالة اللفظ على جميع المعنى الذي عناه المتكلم.

ودلالة التضمن: دلالة اللفظ على ما هو داخل في ذلك المعنى.

ودلالة الالتزام: دلالة اللفظ على ما هو لازم لذلك المعنى خارج عن مفهوم اللفظ". اهـ

تنبيه: دلالة التضمن تكون في الأسماء الحسنى على الذات، كأن الاسم لم يدل إلا على صفته تعالى دون ذاته، أو على الذات دون الصفة في الافتراض فقط، وإلا فإن الاسم لا ينفك عن الدلالة عليهما مجتمعين؛ لأنه لا يعقل أنه تُجرد الذات عن الصفة أو الصفة عن الذات، أو أن توجد ذات لا صفات لها، أو صفة مجردة عن القيام بالوصوف. أفاده البريكاني في القواعد الكلية (ص ٢٣٨-٢٣٩).

القاعدة الخامسة: باب أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية لا مجال للعقل فيها:

قال ابن القيم تعالى في البدائع (١/١٦٢): "باب الأسماء والصفات توقيفي". اهـ

وقال في شفاء العليل (ص ٢٧٠): "أسماء الله تعالى توقيفية ولم يسم نفسه إلا بأحسن الأسماء". اهـ

قال ابن عثيمين تعالى: "وعلى هذا فيجب الوقوف فيها على ما جاء به الكتاب والسنة، فلا يُزاد فيها ولا يُنقص؛ لأن العقل لا يمكنه إدراك ما يستحقه الله تعالى من الأسماء، فوجب الوقف في ذلك على النص لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] الآية، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]". اهـ

وقال ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى (٣/٣): "فالأصل في هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفته به رسله نفيًا وإثباتًا، فيثبت لله ما أثبتته لنفسه وينفي عنه ما نفاه عن نفسه". اهـ

وقال (٥/١٩٥): "ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكيف ولا تمثيل، فلا يجوز نفي صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه، ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين، بل هو سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته". اهـ

القاعدة السادسة: أسماء الله تعالى غير محصورة بعدد معلوم لنا:

لحديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله : ﴿أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْذَنْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ﴾، رواه أحمد وابن حبان والحاكم وهو صحيح، وقد خرجته في كتابي التبيين لخطأ من حصر أسماء الله في تسعة وتسعين .

ويدل على عدم الحصر حديث عائشة عند الإمام مسلم: أنه كان يقول وهو ساجد: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»، والثناء على الله تعالى إنما يكون بالصفات العلى والأسماء الحسنى.

قال شيخ الإسلام كما في درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٣٣٢-٣٣٣) في كلامه على حديث عائشة الآنف الذكر: "فأخبر أنه لا يحصي ثناء عليه، ولو أحصى أسمائه تعالى لأحصى صفاته كلها، فكان يحصي الثناء عليه؛ لأن صفاته إنما يعبر بها عن أسمائه". اهـ

وجاء في حديثي أبي هريرة وأنس : أن النبي : عند أن يأتي إلى ربه يستأذنه في الشفاعة، قال: «فَأَحْذَرُ رَبِّي بِمَحَامِدَ عَلَّمَنِيهَا رَبِّي»، وفي رواية: «بِمَحَامِدَ لَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ الْآنَ»، وهذا يدل على أن من أسماء الله تعالى وصفاته ما لم يطلع عليه رسوله في الدنيا.

وأما من ذهب إلى أنها محصورة فقد اضطربوا غاية الاضطراب، فذهب بعضهم إلى أنها ثلاثمائة فقط، وقال بعضهم: ثلاثمائة وواحد، وذهب بعضهم إلى أنها خمسة آلاف، وقال بعضهم: أربعة آلاف، ولا دليل على هذه الأقوال كلها.

وحصرها بعضهم بتسعة وتسعين اسماً مستدلين بحديث أبي هريرة عند الشيخين: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، ولا دلالة لهم فيه، وإنما قال بهذا القول ابن حزم -ومخالفاته في هذا الباب مشهورة- وظاهر كلام ابن كجب، وله ما ينتقد كما أشار إلى ذلك ابن كثير في البداية.

قال ابن حزم: "إنه لو جاز أن يكون له اسم زائد على العدد المذكور لزم أن يكون له مائة اسم، فبطل قوله: مائة إلا واحد".

ورد عليه شيخ الإسلام وغيره، قال في درء تعارض العقل والنقل (٣/٣٣٢): "والصواب الذي عليه الجمهور: أن قول النبي: ﴿إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا﴾، من أحصاها دخل الجنة؛ معناه: أن من أحصى التسعة والتسعين من أسمائه دخل الجنة، وليس المراد أنه ليس له إلا تسعة وتسعين اسمًا". اهـ وقال: "فإن الذي عليه جماهير المسلمين أن أسماء الله أكثر من تسعة وتسعين، قالوا -ومنهم الخطابي-: قوله: ﴿إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِّنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ﴾، التقيد بالعدد عائد إلى الأسماء الموصوفة بأنها هذه الأسماء". اهـ

قال ابن القيم في شفاء العليل (ص ٢٧٧): قوله: "﴿إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا﴾، لا ينفي أن يكون له غيرها، والكلام جملة واحدة أي له اسمًا موصوفة بهذه الصفة، يقال لفلان مائة عبد أعدهم للتجارة، وله مائة فرس أعدهم للجهاد، وهذا قول الجمهور، وخالفهم ابن حزم، فزعم أن أسماء الله تنحصر". اهـ

وقال النووي: "اتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه، وتعالى فليس معناه أن ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين، وإنما المقصود من الحديث أن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء". اهـ

فائدة: قال ابن القيم في البدائع (١/١٦٤):

"المرتبة الأولى: إحصاء ألقاظها وعددها.

المرتبة الثانية: فهم معانيها، ومدلولها.

المرتبة الثالثة: دعاء بها كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وهو مرتبتان:

أحدها: دعاء ثناء وعبادة.

والثاني: دعاء طلب ومسألة. "اه

وقد بسطت القول على هذه المسألة في رسالتي المسماة "التبيين لخطأ من حصر أسماء الله في تسعة وتسعين".

القاعدة السابعة: الإلحاد في أدلة الأسماء والصفات:

قال ابن عثيمين: "الإلحاد في أسمائه: هو الميل بها عما يجب فيها، وهو أنواع:

الأول: أن ينكر شيئاً منها، أو مما دلت عليه الصفات والأحكام كما فعل أهل التعطيل -كالجهمية ومن سار على سيرهم-.

الثاني: أن يجعلها دالة على صفات تشابه صفات المخلوقين كما فعل أهل التشبيه.

الثالث: أن يسمي الله تعالى بما لم يسم به نفسه كتسمية النصارى له (الأب) والفلاسفة (العلة الفاعلة).

الرابع: أن يشتق من أسمائه أسماء للأصنام، كما فعل المشركون في اشتقاق العزى من العزيز، واللات من الإله. "اه

قال ابن القيم في البدائع (١/١٦٩): "العشرون: معرفة الإلحاد في أسمائه حتى لا يقع فيه، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

والإلحاد في أسمائه: هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل كما يدل عليه أصل مادته (ل ح د) ثم ذكر تلك الأقسام المتقدمة، ومنها: وصفه تعالى بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص كقول أخبث اليهود: إنه فقير". اهـ



مسألة أسماء الله سبحانه وتعالى غير مخلوقة؟

معتقد أهل السنة والجماعة: أنهم يؤمنون بأن الله الذي سمي نفسه بأسمائه الحسنی وتكلم بها حقيقة، وهي غير مخلوقة، وليست من وضع البشر.

وقالت الجهمية والمعتزلة: إن أسماء الله مخلوقة، وأن الله ليس هو الذي سمي نفسه بهذه الأسماء، وكذلك لم يتكلم بها حقيقة، وإنما خلقها في غيره أو سماه بها بعض خلقه^(١).

وذهبت الكلاية والأشاعرة والماتريدية: أن أسماء الله غير مخلوقة، ولكن مقصودهم بهذه العبارة أن الله بذاته غير مخلوق، وهذا مما لا تنزع فيه مع الجهمية والمعتزلة.

وأطلقوا القول بأن التسميات مخلوقة والتسميات عندهم هي الأسماء كالعليم والعزیز والرحيم، وبهذا وافقوا الجهمية والمعتزلة في المعنى^(٢).

وذلك لما يأتي:

حديث ابن مسعود : «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ...»، دل على أن أسماء الله تعالى غير مخلوقة، بل هو تكلم بها وسمى بها نفسه؛ ولذلك لم يقل بكل اسم خلقته لنفسك، ولا قال: سماك بها خلقك، أفاده ابن القيم في شفاء العليل (ص ٢٧٧).

(١) مجموع الفتاوى (١٨٦/٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١٩٢/٦)، أفاده التميمي في معتقد أهل السنة والجماعة في الأسماء والصفات .

قال ابن يتيمة : "إن أسماء الله من كلامه، وكلامه تعالى غير مخلوق، فأسماءه غير مخلوقة، فهو المسمي لنفسه بتلك الأسماء.

إن الله تعالى يُسأل بهذه الأسماء، ولو كانت مخلوقة لم يجز أن يُسأل بها، فإن الله تعالى لا يقسم عليه بشيء من خلقه.

إن اليمين بهذه الأسماء منعقد، فمن حلف باسم من أسماء الله فهو حالف بالله.

إن أسماء الله مشتقة من صفاته وصفاته قديمة به، فصفاته غير مخلوقة". اهـ



هل الاسم هو المسمى

ذهب أكثر أهل السنة في هذه المسألة: أن الاسم للمسمى، وهذا القول تدعمه الأدلة، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر: ٢٤].

وقول النبي: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ».

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٠٦/٦-٢٠٧): "وأما الذين يقولون: الاسم للمسمى كما يقول أكثر أهل السنة، فهؤلاء وافقوا الكتاب والسنة والمعقول". اهـ

وقال ابن القيم في شفاء العليل (ص ٢٧٧): "والاسم للمسمى ولا يقال غيره". اهـ



قواعد في صفات الله سبحانه وتعالى

القاعدة الأولى: صفات الله كلها صفات كمال لا نقص فيها:

قال ابن عثيمين تعالى: "صفات الله كلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه كالحياء والعلم والقدرة والرحمة والعزة والحكمة وغير ذلك، وقد دل على هذا السمع والعقل، قال الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]، ثم بين أن الصفات من حيث هي تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، وهذه تثبت لله سبحانه.

القسم الثاني: صفات نقص لا كمال فيها بوجه من الوجوه، فهذه تنفى عن الله سبحانه.

القسم الثالث: صفات كمال من وجه ونقص من وجه، فهذه تثبت لله سبحانه وتعالى، حال كمالها، وتنفى عنه في حال النقص كما هو معلوم فيما يسمى بصفات المقابلة كالكر والكيد والخداع والاستهزاء، فإنها في مقابلة من يعملها كمال"، اهـ بتصرف من القواعد المثلى .

قال ابن القيم في البدائع (١/١٦٧): "إن الصفات ثلاثة أنواع: صفات كمال، وصفات نقص، وصفات لا تقتضي كمالاً ولا نقصاً، وإن كانت القسمة التقديرية تقتضي قسمًا رابعًا، وهو ما يكون كمالاً ونقصاً باعتبارين، والرب تعالى منزّه

عن الأقسام الثلاثة، وموصوف بالقسم الأول وصفاته كلها صفات كمال محض، فهو موصوف من الصفات بأكملها، وله من الكمال أكمله". اهـ

وقال شيخ الإسلام (٦/ ٧١-٨٧ بتصرف): "إن الكمال ثابت لله، بل الثابت له هو أقصى ما يمكن من الأكملية، بحيث لا يمكن وجود كمال لا نقص فيه إلا وهو ثابت لله تعالى يستحقه بنفسه المقدسة، وثبوت ذلك مستلزم نفي نقيضه، وأن هذا الكمال ثابت له بمقتضى الأدلة العقلية والبراهين اليقينية مع دلالة السمع على ذلك..." اهـ

القاعدة الثانية: باب الصفات أوسع من باب الأسماء:

لأن كل اسم متضمن لصفة؛ ولأن من الصفات ما يتعلق بأفعال الله، وأفعاله لا تنتهي لها.

قال ابن القيم في البدائع (١/ ١٦١): "إن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في أسمائه وصفاته كالشيء والموجود والقائم بنفسه، فإنه يخبر به عنه، ولا يدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العلى". اهـ

القاعدة الثالثة: الصفات الثبوتية والمنفية:

فالثبوتية ما أثبتته الله لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله ، وكلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، كالحياة والعلم والقدرة.

والصفات السلبية: ما نفاها الله سبحانه وتعالى عن نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ، وكلها صفات نقص في حقه كالموت والنوم والجهل والنسيان والعجز.

فيجب نفيها عن الله سبحانه وتعالى مع إثبات ضدها على الوجه الأكمل؛ وذلك لأن ما نفاه الله عن نفسه فالمراد به انتفائه لثبوت كمال ضده لا لمجرد نفيه؛ لأن النفي ليس بكمال إلا أن يتضمن ما يدل على الكمال، وذلك لأن النفي عدم والعدم ليس بشيء.

مثال ذلك: ﴿وَمَا كَانُ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤]، فنفي العجز يتضمن كمال علمه وقدرته، كما قال بعده: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]؛ لأن العجز سببه الجهل بأسباب الإيجاد أو قصور القدرة، وبهذا يعلم أن الصفة المنفية قد تتضمن أكثر من كمال.

القاعدة الرابعة: صفات الإثبات صفات مدح:

قال العثيمين : "الصفات الثبوتية صفات مدح وكمال، فكلما كثرت وتنوعت دلالتها ظهر من كمال الموصوف بها ما هو أكثر، ولهذا كانت الصفات الثبوتية التي أخبر الله بها عن نفسه أكثر بكثير من الصفات السلبية كما هو معلوم.

وأما الصفات السلبية فلم تذكر غالباً إلا في الأحوال التالية:

الأول: بيان عموم كماله، كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:

[١١].

الثاني: دفع ما ادعاه في حقه المبطلون، كقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا

أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢].

الثالث: دفع توهم النقص من كماله فيما يتعلق بهذا الأمر المعني، كما في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ﴾ [الدخان: ٣٨]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]. اهـ

القاعدة الخامسة: الصفات الذاتية والفعلية:

قال العثيمين : "الصفات الثبوتية تنقسم إلى قسمين: ذاتية وفعلية. فالذاتية هي التي لم يزل الله ولا يزال متصفًا بها كالعلم والقدرة والسمع والبصر والعزة والحكمة والعلو والعظمة، ومنها الصفات الخبرية كالوجه واليدين. تنبيه: المراد بالصفات الخبرية أنها متلقاة من الخبر، الكتاب والسنة، لأن عقولنا لا تدلنا عليها.

والفعلية هي التي تتعلق بمشيئة الله إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها كالاستواء على العرش والنزول إلى السماء الدنيا.

وقد تكون الصفة ذاتية فعلية باعتبارين كالكلام فإنه باعتبار أصله صفة ذات؛ لأن الله تعالى لم يزل ولا يزال متكلمًا، وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية؛ لأن الكلام يقع بمشيئته يتكلم متى شاء بما شاء، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. اهـ

القاعدة السادسة: محاذير الإثبات والنفي:

قال العثيمين : "يلزم في إثبات الصفات التخلي من محذورين عظيمين:

إحدهما: التمثيل وهو اعتقاد المثلث أن ما أثبتته الله مماثل لصفات المخلوقين، وهذا اعتقاد باطل بدليل السمع والعقل، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

الثاني: التكيف: فهو أن يعتقد المثلث أن كيفية صفات الله تعالى كذا وكذا من غير أن يقرها بمماثل، وهذا اعتقاد باطل بدليل السمع، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] اهـ.

وإن ألقى الشيطان هذا التكيف في عقلك فقل «آمَنْتُ بِاللَّهِ»، وانه كما دل عليه حديث أبي هريرة في الصحيح وفي رواية: «فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»، ولهذا جاء في الحديث «تَفَكَّرُوا فِي الْخَلْقِ، وَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ»؛ الحديث مخرج في الصحيحة (١٧٨٨)، وقد ساق طرقه وشواهد أبو الشيخ في كتابه العظمة (١/ ٢١٠-٢٧٠)، وإنما يكون الفكر في مخلوقات الله، لأنَّ الْفِكْرَةَ فِي الرَّبِّ تَقْدَحُ الشَّكَّ فِي الْقَلْبِ، الفكر في الله وفي صفاته من البدع المحدثه في الدين؛ لما يجر إليه من التخيلات والتوهمات والظنون والشكوك، فهو سبحانه لا تتوهمه القلوب بالتصوير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قال أبو الشيخ في العظمة (١/ ٢٧١): "قال الله: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]؛ فإذا تفكر العبد في ذلك استنارت له آيات الربوبية، وسطعت له أنوار اليقين، واضمحلت عنه غمرات الشك، وظلمة الريب، وذلك إذا نظر إلى نفسه وجدها مكونة مكنونة مجموعة مؤلفة مجزأة منضدة مصورة متركبة

بعضها في بعض، فيعلم أنه لا يوجد مدبر إلا بمدبر، ولا مكون إلا بمكون، وتجد تدبير المدبر فيه شاهدا دالا عليه كما تنظر إلى حيطان البناء، وتقديرها، وإلى السقف المسقف فوقه بجذوعه، وعوارضه، وتطين ظهره، ونصب بابه، وإحكام غلقه، ومفتاحه للحاجة إليه؛ فكل ذلك يدل على بانيه، ويشهد له". اهـ



قواعد في أدلة الأسماء والصفات وكيفية التعامل معها

القاعدة الأولى: الأدلة التي تثبت بها أسماء الله وصفاته هي: كتاب الله وسنة رسوله ، فلا تثبت أسماء الله وصفاته بغيرها.

القاعدة الثانية: الواجب في نصوص القرآن والسنة إجراؤها على ظاهرها دون تحريف؛ لا سيما نصوص الصفات، حيث لا مجال للعقل فيها.

القاعدة الثالثة: ظواهر نصوص الصفات معلومة لنا باعتبار، ومجهولة لنا باعتبار آخر، فباعتبار المعنى هي معلومة، وباعتبار الكيفية التي هي عليها مجهولة.

وهذه القاعدة ردٌ على المفوضة الذين يقولون: نحن نثبت اللفظ ونتوقف في المعنى، فهم أهل التجهيل للصحابة والتابعين لهم بإحسان، بل للنبي لأنه كان يخاطبنا بألفاظ لا يعلم معناها، بل هذا القول يؤدي إلى أنه قرط فيما أمر به، وهذا لازم قولهم والمفوضة شر أهل البدع وبسبب مذهبهم انتشر الاعتزال وغيره من البدع.

القاعدة الرابعة: ظاهر النصوص ما يتبادر إلى الذهن من المعاني، وهو يختلف بحسب السياق، وما يضاف إليه الكلام، وقد انقسم الناس في هذا الظاهر إلى ثلاثة أقسام.

القسم الأول: من جعلوا الظاهر منها حقاً يليق بالله تعالى، وأبقوا دلالتها على ذلك، وهؤلاء هم السلف الذين اجتمعوا على ما كان عليه النبي وأصحابه.

القسم الثاني: جعلوا الظاهر المتبادر من نصوص الصفات معنى باطلاً لا يليق بالله، وهو التشبيه وأبقوا دلالتها على ذلك، وهذا جناية في حق الله تعالى إذ يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

القسم الثالث: من جعلوا المعنى المتبادر من نصوص الصفات معنى باطلاً لا يليق بالله وهو التشبيه، ثم إنهم من أجل ذلك أنكروا ما دلت عليه النصوص من المعاني اللائقة بالله، وهم أهل التعطيل سواء كان تعطيلهم عاماً في الأسماء والصفات أم خاصاً فيهما، أو في أحدهما.

انتهى بتصرف، من القواعد المثل .



دلالة الكتاب والسنة على الصفة

يدل الكتاب والسنة على الصفة بثلاثة أوجه:

الأول: التصريح بالصفة كالعزة والقوة، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

الثاني: تضمن الاسم لها مثل الغفور متضمن للمغفرة، وقد تقدم الكلام على هذا في القاعدة الثالثة من قواعد الأسماء.

الثالث: التصريح بفعل أو وصف دال عليها، كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والمجيء للفصل بين العباد، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].



أنواع الإضافات إلى الله تعالى

قال العثيمين في القول المفيد (١/ ٨٨)، ط العاصمة: "اعلم أن ما أضافه الله إلى نفسه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: العين القائمة بنفسها وإضافتها إليه من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، وهذه الإضافة قد تكون على سبيل عموم الخلق كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الحاثية: ١٣]، وقوله: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

وقد تكون على سبيل الخصوص لشرفه كقوله تعالى: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦]، وكقوله: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٣]، وهذا القسم مخلوق.

الثاني: أن يكون شيئاً مضافاً إلى عين مخلوقة يقوم بها، مثل قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، فإضافة هذه الروح إلى الله من إضافة المخلوق إلى خالقه تشریفاً، فهي من الأرواح التي خلقها الله، وهذا القسم مخلوقاً.

الثالث: أن يكون وصفاً غير مضاف إلى عين مخلوقة، مثاله: ﴿إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسْلَتِي وَبِكَلِمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، فالرسالة والكلام أضيفا إلى الله من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، فإذا أضاف إلى نفسه صفة، فهذه الصفة غير مخلوقة". اهـ وقسمها بعضهم إلى قسمين: قال في القواعد الكلية (ص ٢١٩-٢٢٠): "المضاف إلى الله نوعان: أعيان وصفات.

فالأعيان هي الذوات المستقلة بنفسها عما سواها، والمراد بها هنا ما نسب إلى الله نسبة خلق وإيجاد.

والصفات هي المعاني القائمة بالذوات، والمراد بها هنا ما نسب إلى الله على أنه وصف قائم بذاته"، انتهى باختصار.



انقسام الناس في باب الأسماء والصفات

المذهب الحق في هذا الباب هو منهج أهل السنة والجماعة وهو الذي نقرره في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، قال شيخ الإسلام في منهاج السنة (٥٢٣/٢): "وطريقة سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل، إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل، إثبات الصفات ونفي مماثلة المخلوقين، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فقولهم في الصفات مبني على أصليين: الأول: أن الله تعالى منزّه عن صفات النقص كالسنة والنوم والعجز.

الثاني: أنه متصف بصفات الكمال التي لا نقص فيها على وجه الاختصاص بما له من الصفات، فلا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من الصفات". اهـ
وأما المخالفون لطريقهم فكلهم على ضلال ميين، وطريق غير مستقيم وهم أقسام عدة، يبينه قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وهذه الأقسام مجموعة في:

القسم الأول: قول الجهمية والقرامطة ومن نحا نحوهم، وذلك أنهم يصفون الله بالسلوب على وجه التفصيل ولا يثبتون إلا وجودًا مطلقًا لا حقيقة له عند التحصيل، وإنما يرجع إلى وجود في الأذهان يمتنع تحققه في الأعيان، فقولهم يستلزم غاية التعطيل، وغاية التمثيل، فإنهم يمثلونه بالمتنعات والمعدومات والجمادات ويعطلون الأسماء والصفات تعطيلًا يستلزم نفي الذات، فغالبيتهم يسلبون عنه النقيضين فيقولون: لا موجود ولا معدوم ولا حي ولا ميت، ولا جاهل ولا عالم؛

لأنهم بزعمهم إذا وصفوه بالإثبات شبهوه بالموجودات، وإذا وصفوه بالنفي شبهوه بالمعدومات ولا يخفى فساد قولهم.

القسم الثاني: طائفة من الفلاسفة وأتباعهم فوصفوه بالسلوب والإضافات دون صفات الإثبات، فيقولون: ليس بعالم ليس بسميع ولا بصير، ثم يرجعون وينفون النفي فيقولون: ولا ليس بعالم ولا ليس بسميع ولا هو خارج العالم ولا هو داخله ^(١).

القسم الثالث: المعتزلة ومن وافقهم فأثبتوا له الأسماء دون ما تضمنته من الصفات، فمنهم من جعل العليم والسميع والبصير كالأعلام المحضة المترادفات، ومنهم من قال: عليم بلا علم، قدير بلا قدرة، سميع بصير بلا سمع ولا بصر، فأثبتوا الاسم دون ما تضمنه من الصفات.

(١) (السلوب) أي بالصفات السلبية أي بالنفي، فالسلب هو النفي.

(والإضافات) هي الصفات الإضافية، والإضافة هي النسبة والشئ الإضافي هو الشئ النسبي، فهو ليس أمراً وجودياً بل أمر اعتباري معنوي، فالصفة الإضافية هي المعنى الذي لا يعقل إلا بوجود مقابل له، ومثال ذلك القبلية والبعدية والأبوة والبنوة، فالقبلية مثلاً ليست صفة ذاتية للشئ، بل صفة باعتبار ما بعده وكذا الأبوة فهي صفة باعتبار ابنه وإن كان هذا الأب ابناً باعتبار أبيه، فهو اكتسب الصفة بالنسبة لغيره، وليست صفة ملازمة له كيداه وطوله ولونه.

ويلاحظ أن هذه الصفات الإضافية لا وجود لها حقيقة، وإنما وجودها عقلي معنوي. ومن الأمثلة التي تذكر لذلك تسمية الفلاسفة لله تعالى العلة الأولى، وهذا مثل تسمية المتكلمين لله تعالى بالقديم.

فكون الشئ علة يقتضي معلولاً، فالعلية صفة إضافية باعتبار وجود معلول، فهي صفة إضافية نسبية لا وجود لها حقيقة، بخلاف صفة الخلق واسم الخالق فالله تعالى هو الخالق اسماً ووصفاً، ولو لم يوجد خلق فهو لم يكتسب هذه الصفة من شئ خارج عنه -وهو الخلق- كما تكتسب العلة وصف العلية باعتبار وجود المعلول، وكما يكتسب الأب وصف الأبوة بوجود ابن له.

وكل هذه الطوائف معطلة، ويدخل فيهم الأشاعرة، فهم يثبتون بعض الصفات، وينفون غيرها على ما يأتي تقريره إن شاء الله تعالى.

القسم الرابع: أهل التمثيل وهم الذين يثبتون لله سبحانه وتعالى الصفات، ولكنهم يشبهونها بصفات المخلوقين رادّين قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فتعالى الله عن أقوال هذه الأقسام علواً كبيراً.

القسم الخامس: وهم أهل التجهيل، وهم من أشر أهل البدع كما قال شيخ الإسلام، وهم المفوضة الذين يثبتون ألفاظ الصفات كما وردت في الكتاب والسنة مع تفويضهم العلم بمعانيها إلى الله تعالى، فلا يعلم معناها لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، ولا أحد أبداً.

ولازم قولهم أن الله خاطبنا بكلام لا نعرف معناه، والله يقول: ﴿حَمَّ ۝١ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كَتَبْتُ فَصَّلْتُ ءَايَتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ١-٣].

وقوله: ﴿الرَّكَتُبُ أَحْكَمْتُ ءَايَتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِّنْ لَّدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١]، ويجهلون رسول الله وأصحابه الكرام وأنهم لم يعرفوا مراد الله سبحانه وتعالى إلى غير ذلك، أو أنهم عرفوا ثم كتموا، وكلا القولين ضلال مبين، ولا حول ولا قوة إلا بالله الملك الحق المبين.



معنى التحريف

توحيد الأسماء والصفات له ضدان:

١ - التعطيل.

٢ - التمثيل.

فمن نفى صفات الرب وعطلها فقد كذب تعطيله توحيده.

ومن شبهه بخلقه ومثله بهم فقد كذب تشبيهه توحيده.

والتحريف لغة: التغير والتبديل والإمالة.

وشرعاً: الميل بالنصوص على ما هي عليه إما بالطعن فيها أو بإخراجها عن حقائقها مع الإقرار بلفظها، أو بعبارة مختصرة هو العدول بالكلام عن وجهه وصوابه إلى غيره.

وينقسم التحريف إلى قسمين:

تحريف اللفظ، وله أربع صور:

بالزيادة في اللفظ.

بالنقصان في اللفظ.

تغير حركة إعرابية.

تغير حركة غير إعرابية.

من أمثلة ذلك تحريف إعراب قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، من الرفع إلى النصب وقال: (وَكَلَّمَ اللَّهُ) أي موسى كَلَّمَ الله، ولم يكلمه الله.

تحريف المعنى: وهو صرف اللفظ من معناه الصحيح إلى غيره مع بقاء صورة اللفظ، ومن أمثلته قول المعطلة في معنى استوى استولى، وفي معنى اليد القدرة والنعمة، في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]^(١).



(١) أفاده التميمي في معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات (ص ٧٠).

معنى التعطيل

التعطيل في اللغة مأخوذ من العطل الذي هو الخلو والفراغ والترك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَبْرُئُ مَعْطَلَةٍ﴾ [الحج: ٤٥]، أي أهملها أهلها وتركوا وردّها. والتعطيل في حق الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تعطيل مصنوع عن صانعه وخالقه، وهو المتمثل فيمن ينكر وجود خالق لهذا الكون، مثل تعطيل الإشتراكيين والطبائعيين ومن إليهم من الملحدين.

القسم الثاني: ما يجب له من حقيقة التوحيد وإفراده بالعبادة، وهو المتمثل في أهل الشرك الذين صرفوا شيئاً من العبادة لغير الله .

القسم الثالث: تعطيل الله سبحانه وتعالى عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وأوصافه وأفعاله، وهذا القسم هو المراد هنا.



معنى التكييف والتمثيل

التكييف هو حكاية كيفية الصفة من غير أن يقيد بها بمماثل.

والتمثيل: هو اعتقاد أنها مثل صفات المخلوقين.

والتكييف أعم من التمثيل، فكل تمثيل تكييف؛ لأن من مثل صفات الخالق بصفات المخلوقين فقد كَيَّف تلك الصفة.

وليس كل تكييف تمثيل؛ لأن من التكييف ما ليس فيه تمثيل مثل قولهم: طوله كعرضه.

ومعنى قول أهل السنة: من غير تكييف: أي من غير تكييف يعقله البشر، وليس المراد أنهم ينفون الكيف مطلقاً، فإن كل شيء لا بد أن يكون له كيفية ما، ولكن المراد أنهم ينفون علمهم بالكيف إذ لا يعلم كيفية ذاته وصفاته إلا هو سبحانه.

تنبيه: التمثيل والتشبيه بمعنى واحد في هذا الباب، وإن كان قد وقع بينهما فروق عند أهل اللغة.

فالمماثلة هي: المساواة من كل وجه.

والمشابهة هي: مساواة الشيء لغيره في أكثر الوجوه، والأولى التعبير بنفي التمثيل لمجئ القرآن به.



كل معطل ممثل والعكس

أما كون وكل ممثل معطل، فتعطيلهم في نفيهم لما يستحقه الله تعالى من الصفات والأسماء اللائقة به.

وأما تمثيل المعطلة فإنهم ما وقعوا في التعطيل حتى مثلوا صفات الله بصفات خلقه، زد على ذلك أن تعطيلهم فيه تمثيل بالجمادات والممتنعات.

قال شيخ الإسلام في التدمرية (ص ٧٩-٨٠) في بيان المحاذير التي يقع فيها المعطل:

"أحدها: كونه مثّل ما فهمه من النصوص بصفات المخلوقين، وظن أن مدلول الصفات هو التمثيل.

الثاني: أنهم عطّلوا النصوص عما دلت عليه من الصفات اللائقة بالله تعالى.

الثالث: أنه ينفي هذه الصفات عن الله بغير علم، فيكون معطلاً لما يستحقه الرب تعالى.

الرابع: أنه يصف الرب بنقيض تلك الصفات من صفات الأموات والجمادات أو صفات المعدومات.

فيكون عطل صفات الكمال التي يستحقها الرب تعالى، ومثله بالمنقوصات والمعدومات وعطل النصوص عما دلت عليه من الصفات، وجعل مدلولها هو التمثيل بالمخلوق". اهـ

وأما تعطيل الممثل فمن وجوه ثلاثة:

أحدها: أنه عطل نفس النص الذي أثبت الصفة، حيث صرفه عن مقتضى ما يدل عليه، فإن النص دال على إثبات صفة تليق بالله لا على مشابهة الخلق.

الثاني: أنه إذا مثل الله بخلقه فقد عطله عن كماله الواجب، حيث شبه الرب الكامل بال مخلوق الناقص.

الثالث: أنه إذا مثل الله بخلقه فقد عطل كل نص يدل على نفي مشابهة الله لخلقه مثل قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].



معاني التأويل

يطلق التأويل عند المتقدمين على معنيين:

- تفسير اللفظ وبيان معناه.

- الحقيقة التي يؤول إليها الشيء.

ومعناه في اصطلاح المتأخرين: هو صرف اللفظ عن ظاهره لدليل يصير به المرجوح راجحاً، قاله الطوفي^(١).

والتأويل ينقسم إلى قسمين:

تأويل صحيح: وهو حقيقة المعنى وما يؤول إليه في الخارج أو تفسيره وبيان معناه، وهو التأويل الذي يوافق ما دلت عليه النصوص وجاءت به السنة ويطابقها. قال جابر بن عبد الله في حديث حجة الوداع ورسول الله بين أظهرنا ينزل عليه القرآن وهو يعلم تأويله.

تأويل باطل: هو الذي يخالف ما دلت عليه النصوص وجاءت به السنة، اهـ بتصرف من الصواعق (١/ ١٨١-١٨٧).

وبمعنى آخر: هو صرف الكلام عن ظاهره إلى المحتمل المرجوح بدليل لا يصيره راجحاً أو صرفه بغير دليل، اهـ من جناية التأويل (ص ١٨).

وقد بين العلماء رحمهم الله تعالى: أن التأويل الفاسد أصل كل بدعة ظهرت في الإسلام.

(١) من جناية التأويل الفاسد (٨-١١) مختصراً.

قال ابن القيم في النونية:

هذا وأصل بلية الإسلام من	تأويل ذي التحريف والبطلان
وهو الذي قد فرق السبعين بل بل	زادت ثلاثاً قول ذي البرهان
وجميع ما في الكون من بدع وأحد	اث تخالف موجب القرآن
فأساسها التأويل ذو البطلان لا	تأويل أهل العلم والإيمان
إذ ذاك تفسير المراد وكشفه	وبيان معناه إلى الأذهان اه

وبنى المتكلمون قولهم بالتأويل على أصول فاسدة تعارض العقل والنقل، فمن هذه الأصول: تقديم العقل على النقل، والمعلوم أن العقل تابع للنقل، حتى قال ابن تيمية : "العقل الصحيح لا يعارض النقل الصحيح". وألف كتاباً ماتعاً سماه درء تعارض العقل والنقل .

بل ولا يمكن للدليل العقلي أن يخالف الدليل النقلي إلا عند فساد أحد الدليلين، وإلا فإن العقل الصحيح يوافق النقل الصحيح، إذ أن النقل من عند الله تعالى، وما كان من عند الله تعالى فهو الحق الذي لا ريب فيه، واليقين الذي لا شك فيه.

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (١٦٦):

فإذا كان النقل صحيحاً فذلك الذي يدعى أنه معقول إنما هو مجهول، ولو حقق النظر لظهر ذلك. وإن كان النقل غير صحيح فلا يصلح للمعارضة، فلا يتصور أن يتعارض عقل صريح ونقل صحيح أبداً. ويعارض كلام من يقول ذلك بنظيره، فيقال: إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم النقل، لأن الجمع بين المدلولين جمع بين النقيضين، ورفعها رفع النقيضين، وتقديم العقل ممتنع، لأن العقل

قد دل على صحة السمع ووجوب قبول ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم، فلو أبطلنا النقل لكنا قد أبطلنا دلالة العقل، ولو أبطلنا دلالة العقل لم يصلح أن يكون معارضا للنقل، لأن ما ليس بدليل لا يصلح لمعارضة شيء من الأشياء، فكان تقديم العقل موجبا عدم تقديمه، فلا يجوز تقديمه. وهذا بين واضح، فإن العقل هو الذي دل على صدق السمع وصحته، وأن خبره مطابق لمخبره، فإن جاز أن تكون الدلالة باطلة لبطلان النقل لزم أن لا يكون العقل دليلا صحيحا، وإذا لم يكن دليلا صحيحا لم يجوز أن يتبع بحال، فضلا عن أن يقدم، فصار تقديم العقل على النقل قدحا في العقل. انتهى

والأصل الآخر: القول بالمجاز في نصوص الشرع، فعطلوا صفات الباري، وحرفوا الكلم عن مواضعه بهذه الشبهة المريضة، فيد الله تعالى عندهم مجاز على النعمة، ووجهه مجاز على الثواب، وهكذا.

والمجاز هو ضد الحقيقة، والحقيقة: ما أقر في الاستعمال على وصفه في اللغة، والمجاز ما كان بضد ذلك.

وقد نفى كثير من السلف المجاز من المتقدمين والمتأخرين كابن القيم وشيخه ابن تيمية، وابن عبد البر، والشنقيطي، والسعدي، وابن باز، والألباني، والشيخ مقبل بن هادي الوادعي، رحمهم الله، وشيخنا الحجوري، وغيرهم كثير، حتى سماه بعضهم حمار المبتدعة - أي عليه يتسلقون إلى بث أقوالهم الباطلة -.

الأصل الثالث: القول بأن نصوص الشرع أدلة لفظية لا تفيد اليقين، وأول من قال بهذا القول الرازي كما أشار إلى ذلك ابن القيم في الصواعق (٢/ ٦٤٠).

وهذا قول باطل، بل هي أدلة يقينية تدل على العلم، سواء ما كان منها متواترا على زعمهم، أو آحاد، فكل ما جاء في القرآن وصح عن النبي ، وجب الإيمان به لفظاً ومعنى سواء في العقيدة أو غيرها.

ولم يفرق الله سبحانه وتعالى بين متواتره وآحاده، قال الله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢، التغابن: ١٢]، وهذا التقسيم محدث ليس من عند السلف، بل هو من عند المعتزلة الضلال، فلنكن على حذر منه، رسول الله بعثه الله إلى العالم يخرجهم من الظلمات إلى النور، وهو واحد وبعوث النبي للأمراء والدعاة والجابة والعلماء كلهم آحاد لم يبلغوا حد التواتر على زعمهم، ومع ذلك أخذ منهم في باب العقيدة وغيره.

قال رسول الله لمعاذ: «إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُؤَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى»، وتوحيد الله هو العقيدة، توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات.

وقد ضمن الإمام البخاري كتابه الصحيح كتاب قبول خبر الآحاد ، وهذه الشبهة قد تصدى لها علماء المسلمين سلفاً وخلفاً، فله الحمد والمنة.



الرد على أنواع أهل البدع في هذا الباب

إن أهل الزيغ والضلال قد تخبطوا وخلطوا في هذا الباب وغيره غاية التخليط والتخييط، بل تجد العجب العجيب من تناقضاتهم، فيفرون من شيء فيقعون في شر منه، وسنناقش بإذن الله تعالى هذا التناقض باختصار غير مغل، فالله يوفق ويسدد.

الرد على الجهمية:

تقدم معتقد الجهمية في الأسماء والصفات، وأنهم انقسموا إلى قسمين: قسمٌ منهم يصفونه بالصفات السلبية على وجه التفصيل ولا يثبتون إلا وجودًا مطلقًا لا حقيقة له عند التحصيل. وقسم يصفونه بالسلوب والإضافات دون صفات الإثبات وجعلوه هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق.

معنى: قولهم أنهم يصفون الله بالصفات السلبية على وجه التفصيل، أي كقولهم: ليس بمستوي على عرشه، ولا يغضب، ولا يحب، ولا ينزل... إلى غير ذلك، وهذا خلاف معتقد السلف، فإن طريقة الرسل وأتباعهم هو الإثبات المفصل: تقول سميع بصير حي مريد... إلى غير ذلك، والنفي المجمل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

وأما قولهم بإثبات الوجود المطلق، فمعناه أن الوجود المطلق هو المجرد عن جميع الصفات، وهذا الوجود لا حقيقة له إلا في الذهن، وليس له وجود خارجي بتاتًا؛ لأن الذات لا تتحقق بلا صفة أصلاً، كمن يقول: أثبت نخلة لا جذع لها ولا ساق ولا ليف ولا غير ذلك.

قال شيخ الإسلام في التدمرية بعد ذكر قولهم السابق (ص ١٥-١٦):
 "فقولهم يستلزم غاية التعطيل وغاية التمثيل، فإنهم يمثلونه بالممتنعات والمعدومات
 والجمادات، ويعطلون الأسماء والصفات تعطيلًا يستلزم نفي الذات، فغالبيتهم
 يسلبون عنه النقيضين، فيقولون: لا موجود ولا معدوم ولا حي ولا ميت، ولا عالم
 ولا جاهل؛ لأنهم -بزعمهم- إذا وصفوه بالإثبات شبهوه بالموجودات، وإذا
 وصفوه بالنفي شبهوه بالمعدومات، فسلبوا عنه النقيضين، وهذا ممتنع في بدائه
 العقول، وحرفوا ما أنزل الله من الكتاب، وما جاء به الرسول ، ووقعوا في شر
 مما فروا منه، فإنهم شبهوه بالممتنعات". اهـ

ولتعلم أن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان في آن واحد، بل يلزم من ثبوت
 أحدهما عدم الآخر، ومن نفي أحدهما ثبوت الآخر.

وأما قول أصحاب القسم الثاني، الذين يصفونه بالسلوب والإضافات،
 فالسلوب جمع سلب، والسلب هو النفي، وذلك مثل قولهم: إن الله ليس بجسم ولا
 عرض ولا متحيز.

والإضافات: هي الأمور المتضايفة التي لا يعقل الواحد منها إلا بتعقل مقابله،
 مثل قولهم: إن الله مبدأ الكائنات وعلة الموجودات، أي أنه لا تعقل العلة إلا
 بمعلولها، ولا المعلول إلا بعلة، ومن أمثلة الأمور المتضايفة الأبوة والبنوة، فلا تعقل
 الأبوة إلا ببنوة ولا بنوة إلا بأبوة.

وقولهم: دون صفات الإثبات، أي أن الله تعالى مجرد عن الصفات الثبوتية ليس
 له حياة ولا علم ولا قدرة ولا كلام.

قوله: "وجعلوه هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق"، يعني أن وجود الله مشروط بسلب كل أمر ثبوتي وعدمي، أو بسلب الأمور الثبوتية كما قال بعضهم، أفاده صاحب التحفة المهدية (٥٢).

قال شيخ الإسلام في التدمرية (ص ١٧): "وقد علم بصريح العقل أن هذا لا يكون إلا في الذهن، لا فيما خرج عنه من الموجودات، وجعلوا الصفة هي الموصوف، فجعلوا العلم عين العالم مكابرة". اهـ

شبهة الجهمي والرد عليها:

ويقال لهذا الجهمي: لماذا تنفي الأسماء والصفات؟ فسيقول: لأن إثبات ذلك يستلزم التشبيه بالموجود الحي العليم القدير.

قيل له: وكذلك إذا قلت: ليس بموجود ولا حي ولا عليم ولا قدير كان ذلك تشبيهاً بالمعدومات، وذلك أقبح من التشبيه بالموجودات؟

فإن قال: أنا أنفي النفي والإثبات؟ قيل له: فيلزمك التشبيه بالمتنوعات، فإنه يمتنع أن يكون الشيء موجوداً معدوماً أو لا موجود ولا معدوم، اهـ، التدمرية (ص ٣٦).

الرد على المعتزلة الذين أثبتوا الأسماء دون ما تضمنته من صفات:

فهم انقسموا إلى قسمين كما بين ذلك شيخ الإسلام في التدمرية قسم جعلوا أسماء الله كالأعلام المحضة المترادفات -أي الأعلام الخالصة الخالية من الدلالة على شيء آخر- والمترادفات على ذات واحدة.

وقسم قالوا: عليم بلا علم، قدير بلا قدرة، فأثبتوا الاسم دون ما تضمنته من الصفات، أهد بزيادة.

وهؤلاء عطلوا الله مما يختص به سبحانه وتعالى فراراً من التشبيه فوقعوا في شر منه -أي التشبيه بالمعدومات والممتنعات-، مع ما يلزمهم من التحريفات والتعطيلات.

قال شيخ الإسلام في التدمرية (ص ٢٠): وإذا كان من المعلوم بالضرورة أن في الوجود ما هو واجب قديم بنفسه -أي خالق وهو الله تعالى-، وما هو محدث ممكن -أي مخلوق- يقبل الوجود والعدم، فمعلوم أن هذا موجود وهذا موجود ولا يلزم من اتفاقهما في مسمى الوجود أن يكون وجود هذا مثل وجود هذا، بل وجود هذا يخصه ووجود هذا يخصه... فلا يقول عاقل: (العرش شيء موجود وأن البعوض شيء موجود)، إن هذا هو هذا لاتفاقهما في مسمى الشيء والوجود...

ولهذا سمي الله نفسه بأسماء، وسمى صفاته بأسماء، فكانت تلك الأسماء مختصة به، إذا أضيفت إليهم توافق تلك الأسماء إذا قطعت عن الإضافة والتخصيص، ولم يلزم من تماثل الاسمين تماثل مساهما، واتحاده عند الإطلاق والتجريد عن الإضافة والتخصيص...

فقد سمي الله نفسه حياً قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥، آل عمران: ٢]، وسمى بعض عباده حياً، فقال: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الروم: ١٩]، وليس هذا الحي مثل هذا الحي؛ ثم استطرد في ذكر بعض ما سمي الله به نفسه وسمى به بعض مخلوقاته والخالق منزّه عن مشابهة المخلوق.

شبهة المعتزلي والرد عليها:

ويقال للمعتزلي الذي يثبت الأسماء وينفي الصفات، ما ذكره شيخ الإسلام في التدمرية (ص ٣٥): "لا فرق بين إثبات الأسماء وبين إثبات الصفات، فإنك إن قلت: إثبات الحياة والعلم والقدرة يقتضي تشبيهًا وتجسيمًا لأننا لا نجد في الشاهد متصفًا بالصفات إلا ما هو جسم؟

قيل له: ولا تجد في الشاهد مسمى بأنه حي عليم قدير إلا ما هو جسم، فإن نفيت الصفات لكونه لا يوجد في الشاهد إلا ما هو جسم فانف الأسماء، بل وكل شيء؛ لأنك لا تجد في الشاهد إلا ما هو جسم". اهـ

وإن قال المعتزلة: إثبات العلم والقدرة والإرادة يستلزم تعدد الصفات، وهذا تركيب ممتنع.

قيل: وإذا قلتم أنه موجود واجب وعقل وعاقل ومعقول، أفليس المفهوم من هذا هو المفهوم من هذا، فهذه معاني متعددة متغايرة في العقل، وهذا تركيب عندكم؟

فإن قالوا: هذا توحيد في الحقيقة وليس تركيبًا ممتنعًا.

قيل: واتصاف الذات بالصفات اللازمة لها توحيدًا في الحقيقة، وليس هو تركيبًا ممتنعًا.

قال ابن عثيمين تعالى في القواعد المثلثي : في القاعدة الثانية من قواعد الأسماء رادًا على هؤلاء المعتزلة الذين يقولون: يلزم من تعدد الصفات تعدد القدماء، قال: فهذه العلة عليلة، بل ميتة لدلالة السمع والعقل على بطلانها.

أما السمع، فقال الله تعالى يصف نفسه: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿[البروج: ١٢-١٦]، فهذه أوصاف كثيرة لموصوف واحد.

وأما العقل فلأن الصفات ليست ذوات بائنة من الموصوف حتى يلزم من ثبوتها التعدد، وإنما هي صفات من اتصف بها، فهي قائمة به وكل موجود لا بد له من تعدد صفاته، ففيه صفة الوجود وكونه واجب الوجود أو ممكن الوجود وكونه عيناً قائماً بنفسه أو وصفاً في غيره. اهـ

القول في الصفات كالقول في الذات

وكذلك من الرد عليهم: أن القول في الصفات كالقول في الذات، فإذا أثبت لله ذاتاً حقيقية لا تماثل الذوات، فالذات متصفة بصفات حقيقية لا تماثل صفات سائر الذوات.

قال ابن القيم في الصواعق المرسله (٢/٧٢٨): ومن ذلك خروجهم عن صريح العقل في قولهم: إن الرب عالم بلا علم، سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، قدير بلا قدرة، حي بلا حياة، فأنكر عليهم ذلك طوائف العقلاء. اهـ

الرد على الأشاعرة ومن وافقهم ممن يثبتون الأسماء وبعض الصفات فقط:

من المعلوم أن الأشاعرة ومن وافقهم يثبتون سبع صفات جمعها أحدهم نظماً: حيٌّ مريدٌ قادرٌ علامٌ له السمع والبصر والكلام

ويقولون هذه الصفات دل عليها العقل، فيجعلونها حقيقة، ثم ينازعون في المحبة والرضا والسخط ويفسرونها إما بالإرادة أو ببعض المخلوقات من النعم والعقوبات.

قيل له: القول في بعض الصفات كالقول في بعض؟

فإن قلت: له إرادة كإرادة المخلوقين، فكذلك محبته وغضبه وهذا هو التمثيل بعينه، وإن قال له: إرادة تليق به، قيل له: وكذلك له محبة تليق به.

فإن قال: الغضب غليان الدم في القلب لطلب الانتقام؟ قيل له: الإرادة ميل النفس إلى جلب منفعة ودفع مضرة.

فإن قال: هذه إرادة المخلوق؟ قيل له: هذا غضب المخلوق.

فإن قال: هذه الصفات السبع إثباتها بالعقل؛ لأن الحادث دل على قدرة والتخصيص دل على الإرادة والإحكام دل على العلم، وهذه الصفات مستلزمة للحياة، والحي لا يخلو من السمع والبصر والكلام أو ضد ذلك؟
قيل له: لك جوابان:

الأول: افرض أن العقل لم يدل عليها، فقد دل عليها دليل آخر وهو الكتاب والسنة، وانتفاء الدليل لا يلزم منه انتفاء المدلول.

الثاني: يمكن إثبات هذه الصفات بنظير ما أثبت به تلك -أي العقل-، فيقال: نفع العباد بالإحسان إليهم يدل على الرحمة وإكرام الطائعين يدل على محبتهم وعقاب الكفار يدل على بغضهم؟ وهكذا دوليك.

الرد على الممثلة:

أقسام الممثلة:

الأول: من شبه ذات الرب بذات المخلوق، ومن أمثلة هذه السبئية والهاشمية.

السبئية: هم الذين قالوا إن علياً إله، وشبهوه بذات الله.

والهاشمية: هم أتباع هشام بن الحكم لعنه الله الذي قال: إن الله سبعة أشبار بشبر نفسه، تعالى الله عن هذا البهتان علواً كبيراً.

الثاني: من شبه صفات رب العالمين بصفات غيره من المخلوقات، وضلال مذهبهم ظاهر البطلان، فالله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، اهـ من القواعد الكلية (ص ٤٣-٤٤).

قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٢٦٤/١٢): فليس فيها "أي النصوص والآثار" أن صفة المخلوق هي صفة الخالق، بل ولا مثلها، بل فيها الدلالة على الفرق بين صفة الخالق وبين صفة المخلوق، فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله. اهـ

وقال في (٣٢٥/٥): فإن التماثل في الصفات والأفعال يتضمن التماثل في الذات، فإن الذاتين المختلفين يمتنع تماثل صفاتهما وأفعالهما؛ إذ تماثل الصفات والأفعال يستلزم تماثل الذات. اهـ

وقال (٨٧/٣): فإن الحقيقتين إذا تماثلتا جاز على كل واحدة ما يجوز على الأخرى، ووجب لها ما وجب للأخرى، فيلزم أن يجوز على الخالق القديم الواجب بنفسه ما يجوز على المحدث المخلوق من العدم والحاجة، وهذا مما يعلم به بطلان قول المشبهة؛ اهـ بتصرف.

فُعُلم من هذا أن الله تعالى مُتَّصِف بالكمال المقدس من كل وجه، وقد تقدم معنا أن المثبت لا بد أن يتخلى من محضوري التكيف والتمثيل، لأن من أثبت المثل لله تعالى فقد وصفه بالنقص وعطله من كماله المقدس، ثم عطل أدلة الأسماء والصفات مما دلت عليه من الكمال، ولهذا قيل كل مثل معطل.

ثم من المحال أن يكون القيوم الصمد مماثلاً للمخلوق المحتاج الناقص.

الرد على أهل التفويض:

سماهم ابن القيم أهل التجهيل لأنهم جهلوا السلف والأنبياء رضوان الله وسلامه عليهم أجمعين، فقال في الصواعق المرسلة (٤٢٢/٢): الصنف الثالث أهل التجهيل الذين قالوا نصوص الصفات ألفاظ لا تعقل معانيها، ولا ندري ما أراد الله ورسوله بها، ولكن نقرها ألفاظاً لا معاني لها، ونعلم أن لها تأويلاً لا يعلمه إلا الله وهي عندنا بمنزلة ﴿كَهَيْعَصَ﴾ [مريم: ١]، ﴿حَمَّ﴾ ﴿عَسَقَ﴾ [الشورى: ١-٢]، ﴿الْمَصَّ﴾ [الأعراف: ١]،... إلى أن قال : وبنا هذا المذهب على أصليين:

أحدهما: أن هذه النصوص من المتشابه.

الثاني: أن للمتشابه تأويلاً لا يعلمه إلا الله.

فنتج من هذين الأصلين تجهيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وسائر الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأنهم كانوا يقرءون ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، ويروون «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا»، ولا يعرفون معنى ذلك.

ولازم قولهم: أن الرسول كان يتكلم بذلك ولا يعلم معناه، ثم تناقضوا أقبح تناقض، فقالوا: تجري على ظواهرها وتأويلها مما يخالف الظواهر باطل، ومع ذلك فلها تأويل لا يعلمه إلا الله، فكيف يشبتون لها تأويلاً ويقولون تجري على ظواهرها، ويقولون: الظاهر منها غير مراد، والرب منفرد بعلم تأويلها، وهل في التناقض أقبح من هذا.

فهؤلاء غلطوا في التشابه وفي كون التشابه لا يعلم معناه إلا الله، وفي جعل هذه النصوص من التشابه، فأخطئوا في المقدمات الثلاث. اهـ

ومن الأدلة على بيان فساد منهجهم قول الله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقال تعالى واصفاً القرآن بأنه عربي، والكلام العربي يُعقل ويعرف المراد منه، قال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٣٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥]، إلى غير ذلك من الآيات في هذا الباب.

وقد دلت النصوص على تيسير القرآن للناس حتى يفهموه ويعقلوه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ٤٠، ٣٢، ٢٢، ١٧].

وأمر بالتدبر سبحانه، وإنما يكون التدبر لما يعقل ويفهم قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، ﴿أَفَلَا يَتَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، إلى غير ذلك من النصوص الواردة في الكتاب والسنة.

وكذلك كثرة الآيات الدالة على إثبات الصفات، ولم يرد في حرف واحد أن الصحابة رضوان الله عليهم سألوا عن معانيها، أو ما المراد بها؛ لأنهم فقهوا قول الله ومرار الله سبحانه وتعالى.

ويستحال عقلاً أن النبي الذي علمنا كل شيء حتى الخراءة كما قال سلمان ، وترك هذا الباب بدون بيان، وهو القائل: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرٍ مَا يَعْلَمُهُ هُمْ، وَيُنْذِرُهُمْ شَرٍّ مَا يَعْلَمُهُ هُمْ».

وعلم الأسماء والصفات هو أشرف العلوم، فمن المحال أنهم لا يعرفون معاني الآيات ورسول الله بين أظهرهم لا يسألونه ولا يعلمهم، وقد تقدم النقل عن ابن القيم في بيان تناقض مذهبهم، وما هذا إلا لبطلانه وفساده.

نقل بزيادة ونقصان من كتاب مذهب أهل التفويض .



الفصل الثالث

ذكر بعض الصفات الثبوتية الذاتية والخبرية والفعلية

الكلام على صفتي العلو والاستواء

الله متصف بجميع أنواع العلو علو القهر، وعلو القدر، وعلو الذات؛ بينما الحلولية والاتحادية يزعمون أن الله عز وجل في كل مكان بذاته تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، فالقول بأن الله في كل مكان بذاته يؤدي إلى أن الله حال في الحشوش والطرق، وأن الله حال في القاذورات إلى غير ذلك من اللوازم التي ينزه الله عنها.

وتنوعت دلالة القرآن والسنة على إثبات هذه الصفة لله سبحانه وتعالى، فتارة تأتي بلفظ الفوقية قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وقال: ﴿وَهُوَ أَلْقَاهُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]، وقال كما في حديث أبي هريرة عند الشيخين: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي».

ولا يقال: إن الآيتين يثبت بهما فوقية القدر فقط، بل يثبت له سبحانه فوقية القدر والقهر والذات، وفوقية القدر والقهر متفق عليهما بين الأمة، وإنما نازع المبتدعة في فوقية الذات.

قال شيخ الإسلام في الفتوى الحموية في نقله عن الأشعري: وقد قال القائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية إن معنى قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، أنه استولى وقهر وملك وأن الله في كل مكان وجحدوا أن يكون الله على عرشه

كما قال أهل الحق، وذهبوا في الاستواء إلى القدرة، فلو كان كما ذكره كان لا فرق بين العرش والأرض السابعة؛ لأن الله قادر على كل شيء والأرض فالله قادر عليها وعلى الحشوش وعلى كل ما في العالم فلو كان الله مستويا على العرش بمعنى الاستيلاء -وهو مستول على الأشياء كلها- لكان مستويا على العرش وعلى الأرض وعلى السماء وعلى الحشوش والأقذار؛ لأنه قادر على الأشياء مستول عليها وإذا كان قادرا على الأشياء كلها لم يجوز أن يكون الاستواء على العرش الاستيلاء الذي مستو على الحشوش والأخلية لم يجوز أن يكون الاستواء على العرش الاستيلاء الذي هو عام في الأشياء كلها ووجب أن يكون معنى الاستواء يختص العرش دون الأشياء كلها. وذكر دلالات من القرآن والحديث والإجماع والعقل. اهـ

وتارة يأتي بلفظ العلو، قال تعالى: ﴿سَبِّحْ أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وجاء من حديث حذيفة عند مسلم: أنه صلى مع رسول الله فسمعه يقول في سجوده: «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى».

وتارة يأتي بلفظ الاستواء، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، في عدة سور من القرآن، وقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وتارة يأتي بلفظ في السماء، قال الله تعالى: ﴿ءَامِنُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦] الآيتين، أي على السماء فإن أحرف الجر تتناوب، قال تعالى عن فرعون: ﴿وَأَصْلَبَنَّاكُمْ فِي جُدُوغِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، أي على جذوع النخل، وقال تعالى: ﴿فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]، والمراد بـ ﴿فِي﴾ في إجماع العقلاء (على)، إذا لا يعقل أن يمشي في باطن الأرض.

وقال رسول الله كما في حديث أبي سعيد عند البخاري ومسلم: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينٌ مَنْ فِي السَّمَاءِ».

وجاء من حديث معاوية بن الحكم عند الإمام مسلم: أن رسول الله سأل الجارية: «أَيُّنَ اللَّهِ؟»، قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟»، قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: «أَعْتَقْتُهَا، فَإِنَّهَا مُؤَمَّنَةٌ».

وتارة يأتي بلفظ نزول الأشياء من عنده: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، إلى غير ذلك من الآيات، وكقول رسول الله: «يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ...»، الحديث، أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة وجاء عن عدة من الصحابة رضوان الله عليهم. والنزول إنما يكون من الأعلى والصعود من أسفل إلى أعلى

وتارة يأتي بلفظ صعود الأشياء إليه، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ﴾ [فاطر: ١٠].

وتارة يأتي بلفظ العروج، كقوله: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، والعروج يكون صعودًا من الأسفل إلى الأعلى.

ومن أصرح الأدلة أيضًا على ذلك حديث المعراج، وأن النبي عرج به حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، أخرجه الشيخان في حديث أبي حبة الأنصاري وابن عباس، وحديث أنس.

وتارة يأتي بلفظ الرفع إليه، قال تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنِي مَرْيَمُ ارْقُطِي فِي الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٥٥].

وتارة يأتي بالإشارة إلى السماء، فقد أخرج الإمام مسلم من حديث جابر أن رسول الله ﷺ خطب يوم عرفة وكان يرفع أصبعه إلى السماء وينكتها إلى الأرض ويقول: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ».

وهذا التنوع يدل على أن صفة العلو ثابتة لله تعالى، والأدلة على علوه كثيرة جداً، وإنما ذكرنا بعضها فائدة للمستبصر وحجة على المتكبر.

وقد أجمع السلف رضوان الله عليهم قاطبة على علو الله سبحانه وتعالى بذاته، وأنه مستوي على عرشه، بائن من خلقه، تعالى الله عن قول الحلولية علواً كبيراً.

والفطرة السليمة تدل على أن الله في السماء، فلا يصيب الإنسان خطب من الخطوب إلا وتعلق قلبه بالسماء.

فقد جاء عن أبي جعفر الهمداني: أنه حضر مجلساً لأبي المعالي الجويني المعروف بإمام الحرمين وهو يتكلم في نفي صفة العلو وهو يقول: كان الله ولا عرش، وهو الآن على ما كان، فقال أبو جعفر: أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، فإنه ما قال عارف قط يا الله إلا وجد في قلبه ضرورة تطلب العلو لا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف ندفع هذه الضرورة عن أنفسنا؟ فلطم أبو المعالي على رأسه ونزل، قال: وبكى وقال: حيرني الهمداني حيرني الهمداني، أراد الشيخ أن هذا أمر فطر الله عليه عباده من غير أن يتلقوه من المعلمين يجدون في قلوبهم طلباً ضرورياً يتوجه إلى الله ويطلبه في العلو، اهـ من شرح الطحاوية .

قال ابن القيم :

والله أيدي السائلين توجهت	نحو العلو بفطرة الرحمن
والله آمال العباد توجهت	نحو العلو بلا تواصٍ ثاني

بل فطرة الله التي لم يفطروا إلا عليها الخلق والثقلان
ونظير هذا أنهم فطروا على إقرارهم لا شك بالديان
لكن أولوا التعطيل منهم أصبحوا مرضى بداء الجهل والخذلان
وقال في موضع آخر:

وعلوه فوق الخليقة كلها فطرت عليه الخلق والثقلان
لا يستطيع معطل تبديلها أبداً وذلك سنة الرحمن
كل إذا ما نابِه أمرٌ يُرى متوجّهاً بضرورة الإنسان
نحو العلو فليس يطلب خلفه وأمامه أو جانب الإنسان

قال ابن القيم في الصواعق (/ ١٢٨١): وجميع الطوائف تنكر قول المعطلة؛ إلا من تلقاه منهم، وأما العامة من جميع الأمم ففطروهم جميعهم مقرة بأن الله فوق العالم. اهـ

ومع أن العلو ثابت بالكتاب والسنة حتى ولو لم تدل عليه العقول لوجب الإيمان بما أخبر الله تعالى به وانتفاء الدليل لا يدل على انتفاء المدلول، فالعلو ثابت بدلالة السمع الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومع ذلك قد دل العقل على هذه الصفة من عدة وجوه:

الوجه الأول: أنه ليس ثم إلا علو أو سفلى، والعلو صفة كمال، والسفلى صفة نقص، والله جل وعز متنزّه عن النقائص. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧]، ومعلوم من عقيدة أهل السنة والجماعة أن الله لا تحيطه المخلوقات ولا تحويه جل وعز، وقد تقدم أنه متنزّه عن السفلى، فثبت أنه في

العلو جل وعز، ولكن المعطلة قومٌ بهت لا يعقلون حديثاً، مسخت فطرهم وتبلدت أذهانهم، فلا يعرفون إلا ما أشرب من هواهم، فنعوذ بالله من الخذلان.

وزاد ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص ٣٢٥): الثاني: أنه لما خلق العالم، فإما أن يكون خلقه في ذاته أو خارجاً عن ذاته، والأول باطل:

أما أولاً: فبالاتفاق، وأما ثانياً: فلأنه يلزم أن يكون محلاً للخسائس والقاذورات -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً-.

والثاني: يقتضي كون العالم واقعاً خارج ذاته، فيكون منفصلاً، فتعينت المباينة؛ لأن القول أنه غير متصل بالعالم وغير منفصل غير معقول.

الثالث: أن كون الله لا داخل العالم ولا خارجه ينفي وجوده بالكلية. اهـ

وكما هي عادة أهل الزيغ والريب أنهم يتمسكون بالطحلب ويظنون به حبلاً، فقد ذهب بعضهم إلى أن المراد بالفوقية أنه خير من عباده وأفضل، وأنه خير من العرش وأفضل منه، وما أسمع وأسخف أصحاب هذا القول الذين يتنقصون به الله تعالى وتقدس عن النقائص وهم لا يشعرون.

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص ٣٢٣): فإن قول القائل: ابتداء الله خير من عباده، وخير من عرشه هو من جنس قول القائل: الثلج بارد والشمس حارة، والشمس أضوء من السراج، ورسول الله أفضل من فلان اليهودي، والسماء فوق الأرض، وليس في ذلك تمجيد ولا تعظيم، ولا مدح، بل هو من أرذل الكلام وأسمجه وأهجنه، فكيف بكلام الله الذي لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لما أتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، بل في ذلك تنقص كما قيل:

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

ولو قال قائل: الذهب فوق قشر البصل، وقشر السمك، لضحك منه العقلاء للتفاوت الذي بينهما، فإن التفاوت بين الخالق والمخلوق أعظم وأعظم بخلاف ما إذا كان المقام يقتضي ذلك، بأن كان احتجاجاً على مبطل كما في قول يوسف: ﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، وقوله: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [القصص: ٦٠]، وإنما يثبت هذا المعنى من الفوقية في ضمن إثبات الفوقية المطلقة من كل وجه، فله سبحانه وتعالى فوقية القهر وفوقية القدر وفوقية الذات، من أثبت البعض ونفى البعض فقد تنقص، وعلوه سبحانه مطلق من كل الوجوه. اهـ

وقال الإمام ابن القيم في الكافية في رده على من قال: إن الفوقية فوقية القدر والقهر:

والفوق وصف ثابت بالذات من	كل الوجوه لفاطر الأكوان
لكن نفاة الفوق ما وافوا به	جحدوا كمال الفوق للديان
بل فسروه بأن قدر الله أعـ	لى لا بفوق الذات للرحمن
قالوا وهذا مثل قول الناس في	ذهب يرى من خالص العقبان
هو فوق جنس الفضة البيضاء لا	بالذات بل في مقتضى الأثمان
والفوق أنواع ثلاث كلها	لله ثابتة بلا نكران
هذا الذي قالوا وفوق القهر والـ	فوقية العليا على الأكوان

وأما الأدلة التي فيها ذكر استواء الله سبحانه وتعالى على عرشه فقد صرفها أهل التعطيل عن ظاهرها بدون مسوغ ولا دليل من الكتاب أو السنة، أو قول صاحب أو تابع، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ

أَهْدَى ﴿[النجم: ٢٣]﴾، فقالوا: هي بمعنى استولى وعمدتهم في ذلك قول قاله الأخطل النصراني:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف أو دم مهراق

وقد أحسن شيخ الإسلام إذ يقول:

قبحاً لمن نبذ القرآن ورآه وإذا استدللّ يقول قال الأخطل

وقال ابن القيم في نونيته:

ودليلهم في ذاك قول قاله فيما يُقال الأخطل النصراني

وهم والله شابهوا اليهود حين قيل لهم: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا

حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]، فدخلوا الباب يزحفون على أساتهم وقالوا: حبة في شعيرة.

وقد قال ابن القيم في ذلك:

نون اليهود ولا مذهبهم في وحي دين الله زائدتان

وهم يردون خبر الأحاد ويقبلون خبر هذا الواحد الكافر.

وإن سلمنا أنه مسلم، فهو من الشعراء المولدين الذين لا يحتج بشعرهم في

اللغة.

وكذلك رجل قد تعكرت عقيدته بالمعتقدات السابقة، فلم يتخلص منها،

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقد رد ابن القيم هذه الشبهة السقيمة العليلة التي هي أوهى من خيط

العنكبوت كما في مختصر الصواعق (١٢٦/٢) بوجوه كثيرة نورد بعضها

باختصار:

الأول: أن لفظ الاستواء في لغة العرب التي خاطبنا الله بلغتهم، وأنزل بها كلامه، نوعان: مطلق ومقيد، فالمطلق ما لم يوصل معناه بحرف مثل قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ [القصص: ١٤]، وهذا معناه كمل وتم، وأما المقيد فثلاثة أضراب:

أحدها: مقيد بـ(إلى) كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩]، وهذا مذكور في موضعين من كتاب الله في سورة البقرة وسورة فصلت، وهذا بمعنى العلو والارتفاع بإجماع السلف.

قال العثيمين: "فيكون المعنى قصد إليه علوًا وارتفاعًا".

الثاني: المقيد بـ(على) كقوله: ﴿لِاسْتَوِيٍّ عَلَى ظُهُورِهِ﴾ [الزخرف: ١٣]، ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤]، وقوله: ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وهذا أيضًا معناه العلو والارتفاع بإجماع أهل اللغة.

الثالث: المقرون بواو مع التي تعدي الفعل إلى المفعول معه نحو: استوى الماء والخشبة، بمعنى ساواها، وهذه معاني الاستواء المعقولة في كلامهم ليس فيها معنى استولى البتة، ولا نقله أحد من أئمة اللغة الذين يعتمد قولهم، وإنما قاله متأخرو النحاة ممن سلك طريق المعتزلة والجهمية.

وقال : الوجه الثالث: أن أهل اللغة لما سمعوا ذلك -أي استوى بمعنى استولى- أنكروه غاية الإنكار ولم يجعلوه من لغة العرب.

قال ابن العربي: عند أن سئل: هل استوى بمعنى استولى: لا تعرف العرب ذلك، وهذا من أكابر أئمة اللغة.

الوجه الرابع -نقل قول الخطابي -: لو كان الاستواء هاهنا بمعنى الاستيلاء لكان الكلام عديم الفائدة؛ لأن الله تعالى قد أحاط علمه وقدرته بكل شيء، فما معنى تخصيص العرش بالذكر، ثم إن الاستيلاء إنما يتحقق معناه عند المنع من الشيء، فإذا وقع الظفر به قيل: استولى عليه، فأى منع كان هناك، حتى يوصف بالاستيلاء. اهـ

قال ابن القيم في نونيته:

أمر اليهود بأن يقولوا حطة	فأبوا وقالوا حنطة لهوان
وكذلك الجهمي قيل له: استوى	فأبى وزاد الحرف للنقصان
قال استوى استولى وذا من جهله	لغة وعقلاً ما هما سيان
نون اليهود ولام جهمي هما	في وحي رب العرش زائدتان
وكذلك الجهمي عطل وصفه	ويهود قد وصفوه بالنقصان
فهما إذاً في نفيهم لصفاته الـ	عُليا كما يبتته أخوان

وهذا الذي ذكرنا قليل من كثير، وغيض من فيض، يسترشد به المستبصر، ويعمى عنه المعرض المتكبر.

نسأل الله العون والسداد والتوفيق والرشاد، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

وقد اعترض أهل الضلال والريب على الدليل الفطري وأن القلوب مفطورة على التعلق بالعلو، أن الساء قبلة الدعاء.

والرد عليهم من وجوه:

الأول: لو كانت السماء قبلة الدعاء للزم التوجه إليها عند الدعاء، وهذا لم يرد عن رسول الله ﷺ ولا عن الصحابة الكرام ولا التابعين لهم بإحسان، بل ورد أنه كان يستقبل القبلة في كثير من دعائه كما في حديث عبد الله بن زيد المتفق عليه أنه خرج يستسقي فاستقبل القبلة يدعو، وكما في حديث جابر عند مسلم في وصف حجة الوداع وأنه استقبل القبلة يدعو طويلاً في كل وقوف على الصفا والمروة، ولما كان في عرفة استقبل القبلة يدعو.. الحديث بطوله، إلى غير ذلك من الأدلة.

الثاني: أنه قد ورد النهي عن استقبال السماء ورفع البصر إليها عند الدعاء قال رسول الله ﷺ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ رَفْعِهِمْ أَبْصَارَهُمْ عِنْدَ الدُّعَاءِ فِي الصَّلَاةِ إِلَى السَّمَاءِ، أَوْ لَتُخَطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ»، الحديث أخرجه مسلم من حديث جابر بن سمرة وجاء من حديث أبي هريرة بمعناه.

الثالث: أن رسول الله ﷺ قد رغب في الدعاء في السجود وحال الساجد مستدبراً للسماء كما هو معلوم، قال رسول الله ﷺ كما في حديث ابن عباس: «وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنْ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ»، أخرجه مسلم .

الرابع: قولهم: إن السماء قبلة الدعاء قول محدث لم يقله أحد من السلف إلى غير ذلك من الأوجه التي ذكرها أهل العلم.



الكلام على معية الله تعالى لخلقه

الله معنا بعلمه وسلطانه وإحاطته وغير ذلك من خصائص ربوبيته وهو على عرشه استوى وعلمه بكل مكان، وسلطانه بكل مكان، هكذا قال الله : ﴿أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [المالك: ١٦]، فالله أخبر أنه في العلو، وأما قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، فهو على ظاهره، لكن ظاهرة معية العلم والإحاطة وغير ذلك من خصائص ربوبيته؛ لأن الله افتتح الآية بالعلم وختمها بالعلم، قال الله : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

وجمع بين استواءه على عرشه وبين معيته، والقرآن لا يناقض بعضه بعضاً، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]، فهو معنا وهو على عرشه بائن من خلقه منفصل عنهم.

قال شيخ الإسلام في أواخر الفتوى الحموية: ولا يحسب الحاسب أن شيئاً من ذلك يناقض بعضه بعضاً ألبتة؛ مثل أن يقول القائل: ما في الكتاب والسنة من أن الله فوق العرش يخالفه الظاهر من قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]. وقوله : ﴿إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ يُصَلِّي فَإِنَّ اللَّهَ قَبْلَ وَجْهِهِ﴾، ونحو ذلك فإن هذا غلط.

وذلك أن الله معنا حقيقة وهو فوق العرش حقيقة كما جمع الله بينهما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا

يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ [الحديد: ٤].

فأخبر أنه فوق العرش يعلم كل شيء وهو معنا أينما كنا كما قال النبي في حديث الأوعال: «...ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ الْعَرْشُ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ شَيْءٌ». وذلك أن كلمة (مع) في اللغة إذا أطلقت فليس ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة؛ من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال؛ فإذا قيدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنى. فإنه يقال: مازلنا نسير والقمر معنا أو والنجم معنا. ويقال: هذا المتاع معي لمجامعته لك؛ وإن كان فوق رأسك.

فالله مع خلقه حقيقة وهو فوق عرشه حقيقة. ثم هذه (المعية) تختلف أحكامها بحسب الموارد فلما قال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ [الحديد: ٤]، إلى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]. دل ظاهر الخطاب على أن حكم هذه المعية ومقتضاها أنه مطلع عليكم؛ شهيد عليكم ومهيمن عالم بكم. وهذا معنى قول السلف: إنه معهم بعلمه وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته.

وكذلك في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، إلى قوله: ﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧] الآية. ولما قال النبي لصاحبه في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنْكَ اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، كان هذا أيضا حقا على ظاهره ودلت الحال على أن حكم هذه المعية هنا معية الاطلاع والنصر والتأييد.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وكذلك قوله لموسى وهارون: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]. هنا المعية على ظاهرها وحكمها في هذه المواطن النصر والتأييد.

وقد يدخل على صبي من يخيفه فيبكي فيشرف عليه أبوه من فوق السقف فيقول: لا تخف؛ أنا معك أو أنا هنا؛ أو أنا حاضر ونحو ذلك. ينبهه على المعية الموجبة بحكم الحال دفع المكروه؛ ففرق بين معنى المعية وبين مقتضاها؛ وربما صار مقتضاها من معناها. فيختلف باختلاف المواضع.

فلفظ (المعية) قد استعمل في الكتاب والسنة في مواضع يقتضي في كل موضع أمورا لا يقتضيها في الموضع الآخر؛ فإما أن تختلف دلالتها بحسب المواضع أو تدل على قدر مشترك بين جميع مواردّها - وإن امتاز كل موضع بخاصية - فعلى التقديرين ليس مقتضاها أن تكون ذات الرب مختلطة بالخلق حتى يقال قد صرفت عن ظاهرها؛ انتهى.

بعض شبه الحلولية، والإتحادية:

فإن احتجوا بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤].

وبقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣].

وبقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

وَزَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ بِنَفْسِهِ وَذَاتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى جَدَهُ قِيلَ: لَا خِلَافَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ وَبَيْنَ سَائِرِ الْأُمَّةِ، أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ دُونَ السَّمَاءِ بِذَاتِهِ، فَوَجِبَ حَمْلُ هَذِهِ الْآيَاتِ عَلَى الْمَعْنَى الصَّحِيحِ الْمَجْمَعِ عَلَيْهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ مَعْبُودٌ مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ، وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ مَعْبُودٌ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَكَذَا قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالتَّفْسِيرِ، وَظَاهِرُ هَذَا التَّنْزِيلِ يَشْهَدُ أَنَّهُ عَلَى الْعَرْشِ، فَالْاِخْتِلَافُ فِي ذَلِكَ سَاقِطٌ وَأَسْعَدُ النَّاسَ بِهِ مَنْ سَاعَدَهُ الظَّاهِرُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى (وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ) فَالْإِجْمَاعُ وَالِاتِّفَاقُ قَدْ بَيَّنَّ أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ مَعْبُودٌ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَتَدْبِرُ هَذَا فَإِنَّهُ قَاطِعٌ.

وَمِنْ الْحُجَّةِ أَيْضًا فِي أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْعَرْشِ فَوْقَ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ: أَنَّ الْمُوَحِّدِينَ يَجْمَعِينَ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ إِذَا كَرِهَهُمْ أَمْرٌ، أَوْ نَزَلَتْ بِهِمْ شِدَّةٌ رَفَعُوا وَجُوهَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ وَنَصَبُوا أَيْدِيَهُمْ رَافِعِينَ مُشِيرِينَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ يَسْتَغِيثُونَ اللَّهَ رَحِمَهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَهَذَا أَشْهَرُ وَأَعْرَفُ عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ مِنْ أَنْ يَحْتَاجَ فِيهِ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ حَكَايَتِهِ، لِأَنَّهُ اضْطِرَّارِيٌّ لَمْ يَخَالِفْهُمْ فِيهِ أَحَدٌ، وَلَا أَنْكَرَهُ عَلَيْهِمْ مُسْلِمٌ، وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْأُمَّةِ الَّتِي أَرَادَ مَوْلَاهَا عَتَقَهَا، إِنْ كَانَتْ مُؤْمِنَةً، فَاخْتَبَرَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ قَالَ لَهَا: «أَيْنَ اللَّهُ» فَأَشَارَتْ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: «مَنْ أَنَا» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ. قَالَ: «أَعْتَقَهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ» فَكَتَفَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهَا بَرَفْعَ رَأْسِهَا إِلَى السَّمَاءِ وَاسْتَغْنَى بِذَلِكَ عَمَّا سِوَاهُ ^(١).



(١) انتهى من إجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم.

إثبات صفة الكلام لله تعالى بحرف وصوت

متى شاء وكيف شاء

صفة الكلام لله ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع السلف ونذكر بعض الأدلة التي تثبت بها هذه الصفة:

فمن القرآن:

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].
وقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

وقوله: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٣-١٤].

وقوله: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَّ إِبْرَاهِيمُ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

وقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

وقوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام:

[١١٥].

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعَكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥].

﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَا مَنَّهُ﴾ [التوبة: ٦].

وغيرها في القرآن كثير جدًا.

ومن السنة:

والأحاديث في السنة بلغت حد التواتر في إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى نذكر منها قطعاً تكون نوراً للمستبصر وحجة على الزائغ المتكبر.

ومنها: ما أخرجه البخاري رقم (٣٢٢٨) ومسلم رقم (٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة : أن النبي قال: «احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى، اضطفاك الله بكلاميه، وخط لك بيده، أتلو مني على أمرٍ قدره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟». فقال النبي: «فحج آدم موسى، فحج آدم موسى».

وما أخرجه أحمد وغيره (٣/ ٣٩٠) من حديث جابر بن عبد الله : أن رسول الله كان يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول: «هل من رجلٍ يحملني إلى قومه، فإنّ قرئشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربّي»، الحديث صحيح وهو في الصحيح المسند .

ومنها: حديث أبي أمامة عند ابن حبان وغيره (٢٠٨٥) أن رجلاً قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أُنَبِّئُكَ أَنَّ آدَمَ؟ قَالَ: «نَعَمْ، مُعَلَّمٌ مُكَلَّمٌ»، الحديث صحيحه شيخنا الوادعي في صحيحه المسند.

ومنها: حديث أبي سعيد عند الشيخين البخاري رقم (٣١٧٠) ومسلم رقم (٢٢٢): أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ: يَا آدَمُ فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، قَالَ يَقُولُ: أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارَ قَالَ: وَمَا بَعَثَ النَّارَ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ قَالَ: فَذَلِكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا»، الحديث.

ومنها: حديث أنس عندهما، البخاري رقم (٣١٦٢) ومسلم رقم (١٩٣): أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ الطَّوِيلِ: «فَيَقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ: يُسْمَعُ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعَ...»، الحديث.

وحديث عدي بن حاتم: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَكَلِّمُهُ رَبُّهُ»، متفق عليه.

ثالثاً: إجماع السلف رحمهم الله على إثبات صفة الكلام لله، وأن

كلام الله غير مخلوق:

النصوص عن السلف الصالح من الصحابة وغيرهم على إثبات كلام الله سبحانه وتعالى كثيرة جداً نذكر منها ما تيسر:

منها: ما أخرجه البخاري (٢٥١٨) ومسلم (٢٧٧٠) من حديث عائشة قالت: "والله ما كنت أظن أن الله ينزل براءتي وحيّاً يتلى، ولشأني في نفسي أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمرٍ يتلى..."، الحديث.

وأخرج الدارمي في رده على الجهمية عن عمرو بن دينار (٨٨) قال: "أدركت أصحاب النبي فمن دونهم منذ سبعين سنة يقولون: الله خالق وما سواه مخلوق، والقرآن كلام الله منه خرج وإليه يعود".

قال إسحاق بن راهويه بعد ذكر قول عمرو بن دينار كما عند البيهقي في الأسماء والصفات: "وقد أدرك عمرو بن دينار أجلة أصحاب النبي من البدرين والمهاجرين والأنصار مثل: جابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وأجلة التابعين وعلى هذا مضي صدر هذه الأمة".

وأخرج الدارمي أيضًا بسند صحيح (ص ٨٨) عن جعفر بن محمد: أنه سئل عن القرآن خالق أو مخلوق؟ قال: "ليس بخالق ولا مخلوق، ولكنه كلام الله".

وأخرج أيضًا بسنده عن عبد الله بن المبارك، عند أن سئل عن القرآن: فقال: "هو كلام الله غير مخلوق". وبهذا القول قال بقية بن الوليد والقاسم الجزري، والمعافي بن عمران وغيرهم كثير، وهو قول أهل السنة قاطبة من السلف والخلف ولا يخالف هذا إلا جهمي خبيث.

قال البخاري في خلق أفعال العباد (ص ٣٧): "القرآن كلام الله غير مخلوق".

قال الصابوني في رسالته في السنة: "ويشهد أصحاب الحديث ويعتقدون أن القرآن كلام الله وكتابه وخطابه ووحيه وتنزيله، غير مخلوق، ومن قال بخلقه واعتقده فهو كافر عندهم".

وقد قال اللالكائي: وهو أبو القاسم هبة الله بن الحسن الطبري في كتابه شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣١٢/١) رقم (٣٩٣) بعد أن ذكر العلماء الذين قالوا: بأن القرآن كلام الله غير مخلوق من البلخين والنيسابورين وأهل خراسان وأهل الحجاز واليمن والشام ومصر وغيرها من البلدان، قال: قالوا: القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال مخلوق فهو كافر، فهؤلاء خمسمائة وخمسون نفساً أو أكثر من التابعين والأئمة المرضيين سوى الصحابة الخيرين على اختلاف الأعصار ومضي السنين والأعوام.

وقد أفتى كثير من العلماء بقتل من قال: إن القرآن مخلوق، نقل ذلك أبو القاسم هبة الله اللالكائي عن جماعة منهم: مالك بن أنس إمام دار الهجرة، ومفتيها، قال: "من قال القرآن مخلوق يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه".

وأفتى به أيضاً سفيان بن عيينة وعبد الرحمن بن مهدي، ووكيعة بن الجراح وغيرهم كثير.

وقد أفتى أيضاً غير واحد من أهل العلم: أن امرأته تحرم عليه لأنه كافر وامرأته مسلمة، كعبد الله بن المبارك وأبو الوليد الطوسي.

وقد أفتى أيضاً جمع منهم أحمد بن حنبل وسفيان بن عيينة وحامد بن زيد والثوري ويزيد بن هارون، وأبو معاوية الضرير والربيع بن سليمان المرادي وغيرهم أنهم لا يورثون ولا يصلى خلفهم ولا تعاد مرضاهم ولا تشهد جنازتهم وإن موالاة الإسلام انقطعت بينهم وبين المسلمين. اهـ

فانتبهوا أيها المسلمون من هذا القول الخطير الذي تبناه في هذا العصر الرافضة والمعتزلة من أمثال حزب التحرير وغيرهم!

افتراق الناس في مسألة الكلام:

قال ابن أبي العزّ تعالى في شرح الطحاوية (١٧٩): وقد افترق الناس في مسألة الكلام إلى تسعة أقوال:

الأول: أن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من معاني إما من العقل الفعال عن بعضهم أو من غيره، وهذا قول الصابئة والفلاسفة.

الثاني: أنه مخلوق خلقه الله منفصلاً عنه، وهذا قول المعتزلة.

الثالث: أنه معنى واحد قائماً بذات الله هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآنًا وإن عبر عنه بالعبرانية كان تورا، وهذا قول ابن كلاب والأشعري وغيره.

الرابع: أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل، وهذا قول طائفة من أهل الكلام ومن أهل الحديث.

الخامس: أنه حروف وأصوات؛ لكن تكلم الله بها بعد إن لم يكن متكلمًا، وهذا قول الكرامية وغيرهم.

السادس: أن كلامه يرجع إلى ما يُحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته، وهذا يقوله صاحب المعتبر ويميل إليه الرازي في كتابه المطالب العلية.

السابع: أن كلامه يتضمن معنى قائماً بذاته هو ما خلقه في غيره، وهو قول الماتريدي.

الثامن: أنه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات، وهذا قول أبي المعالي وأتباعه.

التاسع: أنه تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وهو يتكلم بصوت يسمع، وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديمًا، وهذا قول أئمة الحديث والسلف. اهـ

العاشر: زاد ابن القيم كما في مختصر الصواعق (٢/٢٨٦) مذهب أهل الاتحاد القائلون بوحدة الوجود أن كل كلام في الوجود هو كلام الله نظمه ونثره، وحقه باطله سحره وكفره، والسبب والشتم والهجر والفحش كما قال قائلهم: وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه وهذا مبني على مذهبهم الذي أصلوه، أن الله تعالى وتنزه عن قولهم عين الوجود. اهـ

الرد على الفلاسفة والصائبة في تعريف الكلام:

الناظر في تعريفهم للكلام يرى أنهم جعلوا كلام الله لا وجود له خارج نفس الرسول، وإنما هو ما يفيض على النفوس من المعاني أو هو ما يفيض من العقل الفعال أو غيره.

وربما قالوا: العقل الفعال هو جبريل وربما قالوا غيره.

ويقولون: كلام الله محدث في نفس النبي، والكلام الذي سمعه موسى كان موجودًا في نفسه لم يسمع موسى كلامًا خارجًا عن نفسه.

وقد كفر شيخ الإسلام أصحاب هذا القول بقوله: "وهذا القول أبعد عن الإسلام ممن يقول القرآن مخلوق"، مجموع الفتاوى (١٢/١٦٣).

وقول (٤٢ / ١٢) وقد تنازعوا في كلام الله نزاعاً كثيراً، وأبعدهم عن الإسلام قول من يقول من المتفلسفة والصائبة - ثم ذكر بعض الأقوال السابقة-، وقول هؤلاء في الحقيقة:

تعطيل صفة الكلام لله رب العالمين على الحقيقة.

تكذيب المعلوم من دين الإسلام أن القرآن منزل على الحقيقة.

تكذيب المعلوم من دين الإسلام أن الذي كان ينزل القرآن هو جبريل عليه السلام، وليس هو العقل الفعال.

عدهم ألفاظ القرآن وحروفه من إنشاء النبي لأن العقل الفعال فاض عليه بالمعاني والألفاظ.

موافقتهم الجهمية في كونه مخلوقاً.

قاله صاحب العقيدة السلفية في كلام رب البرية (ص ٢٩٥-٢٩٦).

وأما الرد على المعتزلة والجهمية القائلين بخلق القرآن: أن المعتزلة والجهمية يرون أن القرآن مخلوق خلقه الله منفصلاً عنه.

وقد استدلت المعتزلة على هذا القول ببعض الشبه التي سرعان ما تتهاوى أمام البراهين الدامغة من الكتاب والسنة والحجج الساطعة من أئمة السنة.

الشبهة الأولى: القرآن شيء، وقد قال الله: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]،

ولفظ (كل) يفيد العموم، فالقرآن داخل في هذا العموم.

قال ابن أبي العز (ص ١٨٣) وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ

شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، والقرآن شيء فيكون داخلاً في عموم (كل) فيكون مخلوقاً، فمن

أعجب العجب وذلك أن أفعال العباد عندهم غير مخلوقة لله تعالى، وإنما يخلقها العباد جميعاً لا يخلقها الله فأخرجوها من عموم (كل) وأدخلوا كلام الله في عمومها مع أنه صفة من صفاته به تكون الأشياء المخلوقة والأمر، فلو كان الأمر مخلوقاً للزم أن يكون مخلوقاً بأمر آخر والآخر بآخر...

إلى أن قال : وعموم (كل) في كل موضع بحسبه، ويعرف ذلك بالقرائن، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، ومساكنهم شيء ولم تدخل في عموم كل شيء دمرته الريح، وذلك أن المراد بالتدمير كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة وما يستحق التدمير، وكذلك قوله سبحانه حكاية عن بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، المراد من كل شيء يحتاج إليه الملوك، وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام.

والمراد بقوله: ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، أي كل شيء مخلوق وكل موجود سوى الله، فهو مخلوق فدخل في هذا العموم أفعال العباد حتماً، ولم يدخل في العموم الخالق تعالى وصفاته ليست غيره. اهـ

والله سبحانه وتعالى قد وصف نفسه بأنه نفس، قال تعالى عن عيسى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فهل يدخل الجهمي نفس الله تعالى في هذا العموم؟

الشبهة الثانية: قالوا القرآن مجعول، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، والجعل الخلق.

قال ابن أبي العزّ تعالى (ص ١٨٦): وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، فما أفسده من استدلال، فإن (جعل) إذا كان بمعنى خلق يتعدى إلى مفعول واحد كقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وإذا تعدى إلى مفعولين لم يكن بمعنى خلق.

قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، وقوله: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١]، وغيرها إلى قوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنِئِنَّ﴾ [الزخرف: ١٩]. اهـ

فلو كان جعل بمعنى خلق لكان من أفسد الفساد كيف يجوز أن يقال: "وقد خلقتهم الله"، فنعوذ بالله من الضلال ومن اتباع الهوى.

الشبهة الثالثة: قالوا القرآن محدث والمحدث مخلوق، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٌ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء: ٥].

والجواب عن هذه الشبهة: اعلم أن محدث في اللغة هو كون الشيء بعد أن لم يكن، قال أبو عبيد القاسم بن سلام، كما في خلق أفعال العباد للبخاري (ص ٣٧)، (محدث) حدث عند النبي وأصحابه لما علّمه الله ما لم يكن يُعلّم.

وقال ابن قتيبة في "الاختلاف في اللفظ": المحدث ليس هو في موضع بمعنى مخلوق، فإن أنكروا ذلك فليقولوا في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١]، أنه يخلق كذلك قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣]،

أي يحدث لهم القرآن ذكرًا، والمعنى يجدد عندهم ما لم يكن، وكذلك قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، أي ذكر حدث عندهم لم يكن قبل ذلك. اهـ

وقال شيخ الإسلام (١٢/ ٥٢٢): فإن احتج بعضهم بهذه الآية ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، قال: هذه الآية حجة عليك، فإنه لما قال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، قال علم أن الذكر منه محدث، ومنه ما ليس بمحدث.

ويُعلم: أن المحدث في الآية ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهمي، ولكنه الذي أنزل جديدًا، فإن الله كان ينزل القرآن شيئًا بعد شيء، فالمنزل أولاً هو قديم بالنسبة إلى المنزل آخرًا. اهـ

الشبهة الرابعة: قالوا جعل الله أمره مقدورًا والمقدور المخلوق، وأمره كلامه، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

قال صاحب العقيدة السلفية (ص ٣١٠): ولفظ الأمر إذا أضيف إلى الله تعالى يأتي على تفسيرين:

الأول: يراد به المصدر كقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وهو غير مخلوق، وهذا يجمع على (أوامر).

والثاني: يراد به المفعول الذي هو المأمور المقدور كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، فالأمر هنا هو المأمور، وهذا يجمع على (أمور)، وهو مخلوق، وقد قال الإمام أحمد في احتجاجه على الجهمية، قال الله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ففرق بين الخلق والأمر.

وقال أيضًا: وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فأخبر بالخلق، ثم قال: والأمر، وأخبر أن الأمر غير مخلوق، وبهذا الجواب أجاب سفيان بن عيينة شيخ الإمام أحمد رحمهما الله، فقال: ما يقول هذا الدويبة -يعني المريسي بشر-؟ قالوا: يا أبا محمد يزعم أن القرآن مخلوق، فقال: كذب، قال الله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالخلق خلق الله تبارك وتعالى، والأمر القرآن. اهـ

وقال شيخ الإسلام (٤١٢/٨): ففي قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، المراد به المأمور به المقدور، وهذا مخلوق، وأما في قوله: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ [الطلاق: ٥]، فأمره كلامه إذا لم ينزل إلينا الأفعال التي أمرنا بها، وإنما أنزل القرآن، وهذا كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، فهذا الأمر هو كلامه.

وقال قبل ذلك (٤١٢/٨): ولفظ الأمر يراد به المصدر والمفعول، فالمفعول مخلوق مثل: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١]، وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، فهنا المراد به المأمور به، ليس المراد به أمره الذي هو كلامه، ثم بين أن مصدر الأمر هو كلامه، وهو غير مخلوق. اهـ

ومما استدل بها هؤلاء الضلال على أن القرآن مخلوق قول الله تعالى: ﴿نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠]، قالوا: إن الكلام خلقه الله في الشجرة، فسمعه موسى منها.

وهذا القول بين فساده ابن أبي العز في شرح الطحاوية فقال: استدلوا بالآية على أن الكلام خلقه الله في الشجرة، فسمعه موسى منها وعموا عما قبل هذه

الكلمة وما بعدها، فإن الله تعالى قال: ﴿فَلَمَّا أَتَتْهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ [القصص: ٣٠]، والنداء هو الكلام من بعد، فسمع موسى عليه السلام النداء من حافة الوادي، ثم قال: ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠]، كما تقول: سمعت كلام زيد من البيت يكون من البيت لابتداء الغاية، لا أن البيت هو المتكلم، ولو كان الكلام مخلوقاً في الشجرة لكانت الشجرة هي القائلة: ﴿يَمْوَسَّىٰ إِنَّتَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]، وهو قال: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]، غير رب العالمين، ولو كان هذا الكلام بدأ من غير الله لكان قول فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، صدقاً؛ إذ كلا الكلامين عندهم مخلوق، قد قاله غير الله، وقد فرقوا بين الكلامين على أصلهم الفاسد أن ذلك كلام خلقه الله في الشجرة، وهذا خلقه فرعون، فحرفوا وبدلوا واعتقدوا خالقاً غير الله. اهـ

وقال شيخ الإسلام تعالى: باب ما أنكرت الجهمية من أن الله كلم موسى، فقلنا لهم: لم أنكرتم؟ قالوا: إن الله لم يتكلم ولا يتكلم، إنما كون شيئاً فعبر عن الله خلق صوتاً فأسمعه، فقلنا لهم: هل يجوز أن يكون لمكوّن غير الله أن يقول: ﴿يَمْوَسَّىٰ إِنَّتَ أَنَا رَبُّكَ﴾ [طه: ١١-١٢]، أو يقول: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤]، فمن زعم أن ذلك غير الله فقد ادعى الربوبية، ولو كان كما زعم الجهمية أن الله كون شيئاً كان يقول ذلك المكوّن يا موسى إن الله رب العالمين، ولا يجوز أن يقول: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]. اهـ

الشبهة الخامسة: قالوا قد قال الله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩، الحاقة: ٤٠]، وهذا يدل على أن الرسول أحدثه إما جبريل أو محمد.

قال شيخ الإسلام في جواب هذه الشبهة كما في مجموع الفتاوى (٥٢١/١٢): قال: وإن احتج بقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢٠]، قيل: له فقد قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ (٤١) وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠-٤٢]، فالرسول في هذه الآية محمد والرسول في الأخرى جبريل، فلو أريد به أن الرسول أحدث عبارته لتناقض الخبران، فعلم أنه أضافه إليه إضافة تبليغ لا إضافة إحداث، ولهذا قال: ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ ولم يقل ملك ولا نبي، ولا شك أن الرسول بلغه كما قال: ﴿يَتَأْتِيهَا الرِّسُولُ بِلَغٍّ مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، فكان النبي يعرض نفسه على الناس في الموسم، ويقول: «أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي». اهـ

وقال ابن أبي العزّ تعالى (ص ١٨٧): ذكر الرسول معرّف أنه مبلغ عن مرسله؛ لأنه لم يقل إنه قول ملك أو قول نبي، فعلم أنه بلغه عن مرسله به، لا أنه إنشاء من جهة نفسه، وأيضاً الرسول في إحدى الآيتين جبريل وفي الأخرى محمد، فإضافته إلى كل منهما تبين أن الإضافة للتبليغ؛ إذ لو أحدثه أحدهما امتنع أن يحدثه الآخر.

وأيضاً فقولُه: رسول أمين دليل على أنه لا يزيد في الكلام الذي أرسله بتبليغه، ولا ينقص منه، وأيضاً فإن الله قد كفر من جعله قول البشر، ومحمد بشر فمن جعله قول محمد بمعنى أنه أنشأه فقد كفر، ولا فرق بين أن يقول هو قول بشر أو جني أو ملك.

والكلام كلام من قاله مبتدأ لا من قاله مبلغاً، ومن سمع قائلاً يقول: "قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل"، قال: هذا شعر امرئ القيس، ومن سمعه يقول: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، قال هذا كلام الرسول، وإن سمعه يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ① الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿[الفاتحة: ٢-٣]، قال: هذا كلام الله، ولهذا لو سمع أحد من أحدٍ نظماً أو نثراً يقول له: هذا كلام من؟ هذا كلامك أم كلام غيرك؟

الشبهة السادسة: قالوا: إن الله سبحانه وتعالى سمي عيسى عليه السلام كلمته، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، وقال: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرِيئُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥]، وعيسى مخلوق، فالكلمة مخلوقة.

ومعنى الآية: أن عيسى عليه السلام مخلوق خلقه الله بأمره حين قال له: ﴿كُنْ﴾ كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]، وقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

والكلمة ﴿كُنْ﴾ لا عين عيسى، والمكون هو عيسى عليه السلام، وبهذا أجاب غير واحد من الأئمة؛ اهـ، أفاده صاحب كتاب العقيدة السلفية .

وقال السلطان في الكواشف الجليلة عن معاني الواسطية (ص ٣٨٠-٣٨١): وأما قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، فالمعنى أنه خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ فيها من الروح، فعيسى ناشئ عند الكلمة وليس هو نفس الكلمة، وقوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، يعني أنه كائن منه تعالى، أي موجدته وخالقه فهو روح من الأرواح التي خلقها الله كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الحاثية: ١٣]، أي مخلوقة بأمره. اهـ

ومن شبه هؤلاء النوكا أنهم يقولون يلزم من إثبات كلام الله التشبيه والتجسيم، فيقال لهم: إذا قلنا إنه تعالى يتكلم كما يليق بجلاله انتفت شبهتهم، ألا تر أنه قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، فنحن نؤمن أنها تتكلم ولا نعلم كيف تتكلم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١]، وكذلك تسييح الحصى والطعام وسلام الحجر على رسول الله كل ذلك بلا فم يخرج منه الصوت الصاعد من الرئة المعتمد على مقاطع الحروف، أفاده ابن أبي العز (ص ١٨١).

ومن قولهم أيضًا قالوا: القرآن ترد عليه سمات الحدود والخلق من وجوه عدة:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ آيَةٍ﴾ [النحل: ١٠١]، فأخبر عن وقوع النسخ فيه.

هو حروف متعاقبة يسبق بعضها بعضًا.

لا يكون إلا بمشيئة واختيار، فيلزم منه أن تسبقه الحوادث ويتأخر عنها. له ابتداء وانتهاء وأول وآخر.

هو متبعض متجزئ.

منزل والنزول لا يكون إلا بحركة وانتقال وتحول.

مكتوب في اللوح والمصاحف وما حد وحصر فهو مخلوق.

وهذه الصفات وما يشبهها صفات للمخلوق المحدث.

قال شيخ الإسلام في درء تعارض العقل والنقل (٩٩/٢): هذه المعاني جميعاً مبنية على أصلهم الذي ابتدعوه لإثبات خلق العالم، وقدم الصانع، وهو الاستدلال على حدوث العالم بطريقة الحركة، فقالوا: لا يمكن معرفة الصانع إلا بإثبات حدوث العالم، ولا يمكن إثبات حدوث العالم إلا بإثبات حدوث الأجسام والاستدلال على حدوث الأجسام إنما هو بحدوث الأعراض القائمة بها الحركة والسكون، فهذا الأصل المبتدع هو الذي جرهم إلى القول بخلق القرآن ونفي الصفات والأفعال لله تعالى. اهـ

ولو أنهم استسلموا لله سبحانه وتعالى وامتلوا قوله وصاروا على هدي رسول الله وطريقة السلف لما وقعوا في هذه الأصول الفاسدة، فنسأل الله السلامة.

ومن شبه المعتزلة أيضاً، قولهم: إن إضافة الكلام إلى الله إضافة تشريف، كبيت الله وناقته الله.

والإضافة إلى الله سبحانه وتعالى، تنقسم إلى قسمين: إضافة أعيان، وإضافة صفات، والأعيان التي تقوم بنفسها إضافتها إلى الله تكون إضافة تشريف أو خلق وملك وغير ذلك.

وإن كانت معاني لا تقوم بنفسها، فإضافتها إلى الله تعالى إضافة صفة إلى موصوف.

فمن هنا يتبين أن إضافة الكلام إلى الله تعالى هو من النوع الثاني، أي إضافة الصفات لكلام الله، وعلم الله، وقدره الله وغيرها.

ولتعلم: أن المعتزلة قد فرخوا وباضوا، ومن هذه الأفراخ الكلامية والأشاعرة ومن وافقهم من ماتريديّة وسالمية، وإن اختلفوا في بعض التفريعات؛ لكنهم لم يُصَفُّوا معتقدهم من شوائب البدع والضلال.

فزعم الأشاعرة أن القرآن حكاية عن كلام الله، أو عبارة عنه، قال العمراني في الانتصار (٢/ ٥٤٤): وقالت الكلامية والأشاعرة: كلام الله الذي ليس بمخلوق هو معنى قائم بنفسه لا يفارق ذاته، وهذا القرآن المتلو والمسموع عبارة وحكاية عن الكلام القائم بنفسه، وكذلك القول عندهم في كلام البشر هو معنى قائم بذات المتكلم، وهذه الحروف والأصوات المسموعة عبارة عن المعنى القائم بالذات لا تسمى كلامًا حقيقة بل مجازًا أو توسعًا. اهـ

ومؤدى القول بأن الكلام عبارة أو حكاية عن كلام الله إلى أن هذا القرآن الذي بين أيدينا مخلوق، إما لأنه كلام محمد، أم كلام جبريل عليه السلام، ومع ذلك فقد صرح بعضهم بالقول بالخلق، قال الجويني في الإرشاد (١١٧): فإن معنى قولهم يعني المتعزلة وهذه العبارات كلام الله، إنها مخلوقة، ونحن لا ننكر إنها خلق لله، ولكن نمتنع من تسمية خالق الكلام متكلمًا به، فقد أطبقنا على المعنى وتنازعنا بعد الاتفاق في تسميته. اهـ

وقد صرح بخلقه من الأشاعرة شارح جوهرية التوحيد وغيرهم كثير، وقال الجويني في إرشاده (١٣٠): المعنى بالإنزال أن جبريل صلوات الله عليه أدك كلام الله تعالى وهو في مقامه فوق سبع سموات، ثم نزل إلى الأرض فأفهم الرسول ما فهمه عند سدره المنتهى من غير نقل لذات الكلام. اهـ

قال ابن القيم في نونيته:

وَحَوَاصُّهُمْ لَمْ يَقْرَءُوهُ تَدْبِيرًا	بَلْ لِلتَّبَرُّكِ لَا لِفَهْمٍ مَعَانٍ
وَعَوَامُّهُمْ فِي السُّبُعِ أَوْ فِي خَتْمِهِ	أَوْ تُرْبَةٍ عَوْضًا لِذِي الْأَثْمَانِ
هَذَا وَهُمْ حَرْفِيَّةُ التَّجْوِيدِ أَوْ	صَوْتِيَّةُ الْأَنْغَامِ وَالْأَلْحَانِ
يَا رَبِّ قَدْ قَالُوا بِأَنَّ مَصَاحِفَ الْ-	إِسْلَامِ مَا فِيهَا مِنَ الْقُرْآنِ
إِلَّا الْمِدَادَ وَهَذِهِ الْأُورَاقُ وَال-	حِجْلُ الَّذِي قَدْ سُلِّ مِنْ حَيَوَانِ
وَالْكُلُّ مَخْلُوقٌ وَلَسْتُ بِقَائِلٍ	أَضَلًّا وَلَا حَرْفًا مِنَ الْقُرْآنِ
إِنَّ ذَاكَ إِلَّا قَوْلُ مَخْلُوقٍ وَهَلْ	هُوَ جَبْرِيٌّ أَوْ الرَّسُولُ فَذَانِ
قَوْلَانِ مَشْهُورَانِ قَدْ قَالَتْهُمَا	أَشْيَاخُهُمْ يَا مُحِجَّةَ الْقُرْآنِ
لَوْ دَاسَهُ رَجُلٌ لَقَالُوا لَمْ يَطَأْ	إِلَّا الْمِدَادَ وَكَأَغْدَ الْإِنْسَانِ
يَا رَبِّ زَالَتْ حُرْمَةُ الْقُرْآنِ مِنْ	تِلْكَ الْقُلُوبِ وَحُرْمَةُ الْإِيمَانِ
وَجَرَى عَلَى الْأَفْوَاهِ مِنْهُمْ قَوْلُهُمْ	مَا بَيْنَنَا اللَّهُ مِنْ قُرْآنٍ
مَا بَيْنَنَا إِلَّا الْحِكَايَةُ عَنْ-	هُ وَالتَّعْيِيرُ ذَاكَ عِبَارَةٌ بِلِسَانِ

والعجب أنهم يستدلون على إثبات الكلام النفسي ببيت قاله الأخطل

النصراني، قال ابن القيم في نونيته:

وَدَلِيلُهُمْ فِي ذَاكَ قَوْلُ قَالِهِ

فِيمَا يُقَالُ الْأَخْطُلُ النَّصْرَانِي

وهذا البيت هو:

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا

جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلًا

وهذا البيت لا خطام له ولا زمام، والعجب من ردهم للأدلة المتكاثرة من

القرآن والسنة، ثم يعمدون إلى هذا الكلام الذي لم تعرفه العرب، ثم قد وجد البيت

بسياقة أخرى:

إِنَّ الْبَيَانَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلًا
 وأيضًا مما يدل على أن ما في النفس لا يسمى كلامًا هو ما جاء في الصحيح عن
 أبي هريرة قال: قال رسول الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ
 تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ﴾، أخرجه البخاري (٢٥٢٨) ومسلم (١٢٧)، فلو كان ما في النفس
 كلامًا لكتب عليهم، ولو حدث أحدهم نفسه بطلاق امرأته وقع الطلاق قبل
 التلفظ، وهكذا الظهار والعتاق وغير ذلك.

قال العمراني في الانتصار في الرد على المعتزلة والقدرية الأشرار (٢/ ٥٦٤):
 ويقال للأشعري إذا قرأ آية من القرآن: هذا قول الله أم قول البشر؟ فإن قال: هو
 قول الله فقد رجع إلى ما عليه السلف وأهل الحق، وإن قال: بل من قول البشر قلنا
 عن ذلك أجوبة: أحدها أن يقال له: فهذه أقوال الوليد بن المغيرة فيما أخبر الله عنه
 بقوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥]، فقال الله متوعدًا له على قوله هذا:
 ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ٢٦]، فلو كان قوله بذلك صحيحًا لما تواعد الله عليه.

الجواب الثاني: أن يقال له: فمن البشر الذي هذا قوله، فليس أحد يدعي أن
 هذا قوله، بل الكل منهم يقول هذا قول الله، وإذا سمعوا القارئ بهذا الكلام قالوا:
 صدق الله، ومن البشر الذي يقول: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤].

والجواب الثالث: أن يقال له: إذا كان هذا من قول البشر فأت بسورة من مثله، وإن قال: بل هو كلام البشر عبارة عن كلام الله، والمفهوم منه كلام الله، فيضاف إليه ويقال: هذا عبارة فلان، فإن أحدًا لا يدعي أنه عبارته.

فإن قال: هو عبارتي عن كلام الله، قلنا له: فحقيقة المعبر أن يسمع كلامًا فيعبر عنه، وأنت لم تسمع كلام الله حقيقة، وإنما سمعت قول معلمك عبارة معلمك إلى أن يتناهى إلى الصحابة، وهم لم يسمعوا قول الله حقيقة وإنما سمعوا عبارة النبي عن عبارة جبريل، ولا أدري عما عبر عنه جبريل. فقول الأشعري هذا لا يستقيم أنه عبارة عن كلام الله.

وقول الأشعري: إن المفهوم من هذا الكلام كلام الله فغير صحيح؛ لأن مفهوم كل إنسان معه، ولا يسيل للخلق إلى العلم بفهم ما في نفس الباري سبحانه، وقال تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦].

ولأن ما في النفس لا يسمى كلامًا حقيقة، وإنما يسمى حديث نفس، بدليل أن رجلًا لو حلف بطلاق امرأته أن لا يتكلم، فحدث نفسه بشيء أو نظم في نفسه كلامًا لم تطلق امرأته بإجماع الفقهاء، فدل ذلك على أن حقيقة الكلام هو المسموع المفهوم، ولا يكون ذلك إلا بحروف وصوت.

ويقال للأشعري: إذا قرأ آية من كتاب الله: أهذا كلام أم كلمات؟ فإن قال: بل كلام، قيل له: أهو كلام الله أم كلامك؟ فإن قال: كلام الله: رجع إلى ما عليه أهل الحق، وإن قال: كلامي، بان كفره؛ لأنه خلاف المسلمين، وإن قال: كلامي أعبر به

عن كلام الله، قلنا له: فكلام الله قديم وكلامك محدث، فميز لنا كلامك لنوقع عليه الحدث عن كلام الله لنسميه قديمصا، ولا سبيل له إلى ذلك الجملة.

ويقال للأشعري: ما القرآن الذي جاء به النبي وادعى أنه كلام ربه، فقال:

«مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي؟»، وجعله الله معجزة للنبي، ودليلاً على صحة

نبوته، أهو كلام الله القائم بذاته، أم هو هذه السور والآيات؟

فإن قال: هو هذه السور والآيات رجع إلى الحق وإلى ما عليه كافة المسلمين، وإن

قال: بل هو المعنى القائم بذات الله، قيل له: فإن هذا ما أن يقولوا: إن هذا الكلام القائم بذات الله لهم تسمعه فكيف تأتي بسورة من مثله، وإنما تأتي بمثل ما سمعناه.

ويقال للأشعري: قد أقررت بأن الله سمعاً وبصراً وعلماً وقدرة وحياة وكلاماً

لتنفي عنه ضد هذه الصفات، فلما كان السمع الذي أثبتته الله هو السمع المعهود في لغة العرب، وهو إدراك المسموعات، وكذلك ضد المنفي عنه هو المعهود في كلام العرب وهو الصمم، وكذلك البصر الذي أثبتته الله هو المعهود في كلام العرب وهو إدراك المبصرات والعلم هو إدراك المعلومات، وجب أن يكون الكلام لله هو الكلام المعهود في كلام العرب، وهو ما كان بحرف وصوت، كما أن ضده المنفي عنه وهو الخرس، والمعهود عندهم فأما أثبات الكلام لما يفهم لا يعلم فمحال. اهـ



إثبات صفة الوجه لله تعالى على ما يليق بجلاله

هذه الصفة ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع الأئمة، وهي من الصفات الذاتية الخبرية فمن أدلة الكتاب على إثباتها قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقوله: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل: ٢٠]، ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، إلى غير ذلك من الآيات.

ومن السنة ما أخرجه البخاري من حديث جابر أن رسول الله لما نزل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، قال: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، ﴿أَوْ يَلْسَكُمُ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: «هذه أيسر».

وقال رسول الله كما في حديث أبي موسى في الصحيحين : «جَتَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آتَيْتُهُمَا، وَمَا فِيهِمَا، وَجَتَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آتَيْتُهُمَا، وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِذَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ».

وفي مسلم (١٧٩) عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله بخمس كلمات فقال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ - وَفِي رِوَايَةٍ أَبِي بَكْرٍ: النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَخْرَقَتْ سُبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ».

وكان رسول الله يقول إذا دخل المسجد: «أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»، أخرجه وهو في الصحيح المسند لشيخنا مقبل .

وقال كما في حديث فضالة بن عبيد: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ...»، الحديث، وهو في الصحيح المسند .

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة في هذا الباب التي موضع بسطها في كتاب الإيذان يسر الله إتمامه.

وكما هو معلوم أن أهل السنة والجماعة أصحاب الحديث يثبتون هذه الصفة وغيرها بعيداً عن تحريف وتعطيل المعطلين وعن تكييف وتشبيه الممثلين، بل هي صفة حقيقية تليق بالله سبحانه وتعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقد اختلف المعطلون في تأويل الوجه إلى ثلاثة أقسام:

الأول: قالوا إن لفظ الوجه زائد والتقدير ويبقى ربك.

الثاني: قالوا إن الوجه بمعنى الذات وهذا هو القول الأول مع تغير في التعبير فقط.

الثالث: قالوا الوجه هو الجزاء والثواب، فجعلوه مخلوقاً منفصلاً، قالوا لأن الذي يراد هو الثواب. وهذه أقوال نعوذ بالله العظيم أن يجعلنا من أهلها؛ اهـ بتصرف من مختصر الصواعق (١٧٤ / ٢).

وفند شيخ الإسلام ابن القيم هذا التأويل الباطل من عدة وجوه كما في المرجع السابق (١٧٥) فقال :

والقول بأن لفظ الوجه مجاز من وجوه:

إحداها: أن المجاز لا يمتنع نفيه فعلى هذا لا يمتنع أن يقال ليس لله وجه ولا حقيقة لوجهه وهذا تكذيب صريح لما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله .

الثاني: أنه خروج عن الأصل بلا موجب -أي قرينة تدل عليه-.

الثالث: هذا القول يستلزم أن كل صفات الله مجاز لا حقيقة.

الرابع: دعوى المعطل أن لفظ الوجه صلة، كذب على الله وعلى رسوله وعلى اللغة، فإن هذه الكلمة ليس مما عهد زيادتها.

الخامس: أنه لو ساغ ذلك لساغ المعطل آخر أن يدعي الزيادة في قوله أعوذ بعزة الله وقدرته، ويكون التقدير أعوذ بالله وقدرته.

السادس: ما ذكره الخطابي والبيهقي وغيرهما قالوا: لما أضاف الوجه إلى الذات وأضاف النعت إلى الوجه فقال: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، فدل على أن ذكر الوجه ليس بصلة، وأن قوله: ﴿ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، صفة للوجه وأن الوجه صفة للذات. قلت -أي ابن القيم-: فتأمل رفع قوله: ﴿ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، عند ذكر الوجه وجره في قوله: ﴿نَبْرَكَ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

السابع: أنه لا يعرف في لغة من لغات الأمم وجه الشيء بمعنى ذاته ونفسه. اهـ

بين تعالى بهذه الأوجه فساد قول من قال أن الوجه هو بمعنى الذات وكذلك من قال أن الوجه صلة وتوكيد أي لفظ زائد...

الوجه الثامن: إن حملهُ على الثواب المنفصل من أبطل الباطل فإن اللغة لا تحتمل ذلك ولا يعرف أن الجزاء يسمى وجهًا للمجازي.

التاسع: أن الثواب مخلوق وقد صح عن النبي أنه استعاذ بوجه الله. كما تقدم من حديث جابر بن عبد الله عند البخاري وحديث عبد الله بن عمرو في دخول المسجد.

العاشر: أن النبي يقول في دعائه «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ»، ولم يكن ليسأل لذة النظر إلى الثواب ولا يعرف تسمية ذلك وجهًا لغة ولا شرعًا ولا عرفًا.

الوجه الحادي عشر: حديث أبي موسى عند مسلم: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ - وَفِي رِوَايَةٍ أَبِي بَكْرٍ: النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَخْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَنْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ». فأضاف السبحات التي هي الجلال والنور إلى الوجه وإضافة البصر إليه تبطل كل ما جاز وتبين أن المراد وجهه.

الثاني عشر: أن من تدبر سياق الآيات والأحاديث والآثار التي فيها ذكر وجه الله الأعلى ذي الجلال والإكرام قطع ببطلان قول من حملها على المجاز وأنه الثواب والجزاء لو كان اللفظ صالحًا في ذلك في اللغة فكيف واللفظ لا يصلح لذلك في اللغة، فمنها قوله: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقوله ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل: ٢٠].

الوجه الثالث عشر: إجماع الصحابة ومن تبعهم بإحسان من أئمة الهدى ومصابيح الدجى، كلهم مجموعون على أن المؤمنين يرون وجه ربهم سبحانه وتعالى.

الوجه الرابع عشر: إن الوجه حيثُ ورد فإنها ورد مضافاً إلى الذات في جميع موارده والمضاف إلى الرب تعالى نوعان:

أعيان قائمة بنفسها كبيت الله وناقة الله وروح الله وعبد الله فهذه إضافة تشريف. صفات لا تقوم بنفسها كعلم الله وحياة الله وقدرته وعزته ووجهه، فهذه إضافة صفة إلى موصوف.

وعن عبد الله بن عمرو عن أبي داود في دعاء دخول المسجد وأنه كان يقول :
«أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ».

قال فتأمل كيف قرن في الاستعاذة بين استعاذته بالذات وبين استعاذته بالوجه الكريم وهذا صريحٌ في إبطال قول من قال أن الوجه هو الذات نفسها وقول من قال أنه مخلوق.

الوجه الخامس عشر: تفسير وجه الله بقبلة الله، وإن قال به بعض السلف كمجاهد وتبعه الشافعي فإنما قالوه في موضع واحد لا غير، وهو قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]، فهَبْ أن هذا كذلك في هذا الموضع فهل يصح أن يقال ذلك في غيره؟

قلت: الاستدلال بهذه الآية: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]: قد اختلف فيها السلف فمنهم من جعلها من آيات الصفات وتمر كما جاءت ومنهم من قال إنها ليست من آيات الصفات.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (١٦/٦): في خلال مناظرة بينه وبين بعض المبتدعة وقول المبتدع له: ﴿فَأَيُّنَمَا تَوَلَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، قال: قلت: المراد بها قبلة الله ثم قال: إن هذه ليست من آيات الصفات أصلاً ولا تندرج في عموم قول من يقول: لا تَوَلَّوْا آيات الصفات.

إلى أن قال : والسياق يدل عليه لأنه قال: ﴿فَأَيُّنَمَا تَوَلَّوْا﴾ [البقرة: ١١٥]، وأين من الظروف، و﴿تَوَلَّوْا﴾ أي تستقبلوا، فالمعنى أي موضع استقبلتموه فهناك وجه الله، فقد جعل وجه الله في المكان الذي يستقبله هذا بعد قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥]، وهي الجهات كلها كما في الآية الأخرى ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢]، فأخبر أن الجهات له فدل على أن الإضافة تخصيص وتشريف. اهـ

وممن ذهب إلى جعلها من آيات الصفات ابن خزيمة كما في كتابه التوحيد وكذلك ابن القيم كما في مختصر الصواعق ونصره من أوجه عدة منها قوله: إنه لا يعرف الوجه في اللغة بمعنى الجهة، وقوله: إنه لا يقال فثم جهة المشرق وثم جهة المغرب، وإنما يقال هذا المشرق وهذا المغرب، وثم إشارة إلى البعيد بخلاف الإشارة إلى وجه الرب تبارك وتعالى، فإنه يشار إلى حيث يشار إلى ذاته، ولهذا قال غير واحد من السلف فثم وجه الله تحقيقاً لأن المراد وجهه الذي هو من صفات ذاته والإشارة إليه بأنه ثم كالإشارة إليه أنه فوق سماواته على العرش وفوق العالم.

واستدل بأحاديث كثيرة في هذا الباب منها: قول النبي : ﴿إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ فَإِنَّمَا يَسْتَقْبِلُ رَبَّهُ﴾، وقوله: ﴿إِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ

وَجْهَهُ لَوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ»، وقوله: «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي، فَلَا يَبْصُقْ قَبْلَ وَجْهِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَبْلَ وَجْهِهِ إِذَا صَلَّى»، إلى غير ذلك من الأحاديث.

وقال: وإذا تأملت الأحاديث الصحيحة وجدتها مفسرة للآية مشتقة منها؛ اهـ بتصرف.

وذهب أيضًا إلى أنها من آيات الصفات ابن عثيمين فقال كما في شرح الواسطية (٢٤٢) ط/ دار الثريا: ﴿فَأَيُّنَمَا تَوَلَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]: فمنهم من قال أن الوجه بمعنى الجهة لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وُجْهٍ هُوَ مَوْلَاهُ﴾ [البقرة: ١٤٨]، فالمراد بالوجه الجهة، أي فثم وجه الله أي فثم الجهة التي يقبل الله صلاتكم إليها قالوا لأنها في حال السفر إذا صلى الإنسان النافلة يصلي حيث كان وجهه.

ولكن الصحيح أن المراد بالوجه هنا وجه الله الحقيقي، أي إلى أي جهة تتوجهون فثم وجه الله سبحانه وتعالى، لأن الله محيط بكل شيء ولأنه ثبت عن النبي أن المصلي إذا قام يصلي فإن الله قبل وجهه، ولهذا نهى أن يبصق أمام وجهه لأن الله قبل وجهه إلى أن قال: فإنك إذا توجهت إلى الله في صلاتك فهي جهة الله التي يقبل الله صلاتك إليها فثم أيضًا وجه الله حقًا وحينئذ يكون المعنيان لا ينتنافيان. اهـ

وإلى هذا القول أجنح فالله يهدي ويسدد.

تنبيه: معنى قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

قال ابن عثيمين في شرح الواسطية (٢٤٣): في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، إن قلت: المراد بالوجه الذات فيخشى أن تكون حرفت،

وإن أردت بالوجه نفس الصفة أيضًا وقعت في محذور وهو ما ذهب إليه بعض من لا يقدر الله حق قدره، حيث إن الله يفتنى إلا وجهه فماذا تصنع؟

فالجواب: إن أردت بقولك إلا ذاته، يعني أن الله يبقى هو نفسه مع إثبات الوجه لله، فهذا صحيح ويكون هنا عبر بالوجه عن الذات لمن له وجه.

وإن أردت بقولك الذات أن الوجه عبارة عن الذات بدون إثبات الوجه فهذا تحريف وغير مقبول.

وعليه فنقول ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، أي إلا ذاته المتصفة بالوجه، وهذا ليس فيه شيء لأن الفرق بين هذا وبين قول أهل التحريف أن هؤلاء يقولون: أن المراد بالوجه الذات ولا وجه له. ونحن نقول: المراد بالوجه الذات لأن له وجهًا فعبر به عن الذات. اهـ

أقول: وهذا كقول القائل: اعتق رقبة، فهل المراد عتق العضو فقط أم المراد عتق الإنسان الذي يتصف بهذه الرقبة؟ لا شك أنه الإنسان المتصف بالرقبة.



إثبات صفة اليدين لله تعالى على ما يليق بجلاله

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، وقوله: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَمْلُوكُونَ﴾ [يس: ٧١].

وجاءت أحاديث كثيرة في السنة تدل على إثبات هذه الصفة.

فرسول الله كان كثيرًا ما يقسم ويقول «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ».

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله : «يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ». وَقَالَ: «أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِيضْ مَا فِي يَدِهِ». وَقَالَ: «عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى الْمِيزَانُ يُخْفِضُ وَيَرْفَعُ».

وحديث عبد الله بن عمرو عند مسلم قال: قال رسول الله : «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُّوا».

وحديث المغيرة عند الشيخين في وصف أعلى أهل الجنة منزلة قال الله: **«أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدَيَّ، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٌ»**.

وحديث عبد الله بن عمر عندهما قال: قال رسول الله : **«يَطْوِي اللَّهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ»**.

وحديث أبي هريرة في محاجة آدم وموسى عندهما البخاري (٦٦١٤) ومسلم (٢٦٥٢): عَنْ النَّبِيِّ قَالَ: **«اِحْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ لَهُ مُوسَى يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيْبَتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ. قَالَ لَهُ آدَمُ: يَا مُوسَى اضْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلَامِهِ وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ أَتْلُومُنِي عَلَى أَمْرِ قَدَرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، ثَلَاثًا»**.

وحديث أبي هريرة عند مسلم قال: قال رسول الله : **«لَا يَتَصَدَّقُ أَحَدٌ بِتَمَرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، إِلَّا أَخَذَهَا اللَّهُ بِيَمِينِهِ، فَيَرِييَهَا كَمَا يُرِيِّي أَحَدُكُمْ قُلُوبَهُ، أَوْ قُلُوبَهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ، أَوْ أَعْظَمَ»**، الحديث.

والأحاديث في هذا الباب كثيرة موضعها كتاب الإيثار عجل الله بإخراجه وسيأتي مزيد أدلة في تفريعات هذه المسألة إن شاء الله.

وصفة اليدين لله من الصفات الذاتية الخبرية وهي صفة حقيقية تليق بجلاله **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** [الشورى: ١١]، تعالى الله أن يكون بلا يد وتنزه أن تشبه يده يد المخلوق.

وذهب أهل التعطيل إلى إنكار هذه الصفة وقالوا إنها مجاز في النعمة أو القدرة، وهذا باطل من وجوه بينها شيخ الإسلام ابن القيم كما في مختصر الصواعق

(١٥٣-١٧١) نذكر بعض ما يحتاج المجال إلى ذكره بدون تطويل ممل أو اختصار نخل.

قال في رد دعواهم أنها مجاز: الأصل الحقيقة، فدعوى المجاز مخالفة للأصل، ومدعي المجاز يلزمه إقامة الدليل الصارف عن الحقيقة إلى المجاز الذي عينه بأنه المراد.

وقال : واطراد لفظها في موارد الاستعمال وتنوع ذلك وتصريف استعماله يمنع المجاز، ألا ترى إلى قوله: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، فلو كان مجازاً في القدرة والنعمة لم يستعمل منه لفظ يمين.

وقال: إن اقتران لفظ الطي والقبض والإمساك باليد يصير المجموع حقيقة هذا في الفعل، وهذا في الصفة بخلاف اليد المجازية.

وقال: إن لفظ المجاز لا يستعمل بلفظ التثنية ولا يستعمل إلا مفرداً أو مجموعاً كقوله: له عندي يد وله عندي آياد.

ولو كان بمعنى القدرة لم يفد تخصيص آدم فإنه وجميع المخلوقات حتى إبليس مخلوقون بقدرة الله، ولم تكن خصوصية في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ يَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

وقال : إن يد النعمة لا يتجاوز بها لفظ اليد، فلا يقال فيها كف ولا إصبع ولا يمين ولا شمال لا في اليد بمعنى النعمة ولا القوة.

ومن وجوه الرد عليهم أن الله أنكر على اليهود وصف الله بالبخل ولم ينكر عليهم إثبات اليدين.

وليعلم أن اليد بمعنى القدرة والقوة والنعمة لا يعرف استعماله البتة إلا فيمن له يد حقيقة.

وأما دعوى من ادعى أنه لو أثبت لله يدًا لزم التشبيه، فيلزمه نفى السمع والبصر والحياة والإرادة والقدرة، فيقول هذه ليست كصفات المخلوقين بل هي صفات تليق بالله سبحانه، قيل له وكذلك لله يد ليست كيد المخلوقين بل هي يد تليق بجلاله؛ اهـ مختصرًا.

شبهة والجواب عليها:

قد يقول قائل: إن الله أكثر من يد لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا﴾ [يس: ٧١]، فأيدينا هنا جمع.

الجواب: جاءت اليد في القرآن مفردة ومثناة وجمعًا، قال تعالى: ﴿بَرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، وقال تعالى: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. وقال تعالى: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا﴾ [يس: ٧١].

واليد المفردة جاءت مضافة، والمفرد إذا أضيف يفيد العموم أي يشمل كل ما يثبت لله من يد، ودليل عموم المفرد ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وأما المثني والجمع، فإجماع أهل السنة أن الله ليس له إلا يداً اثنتان كما ثبت ذلك في الكتاب والسنة ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾ [المائدة: ٦٤]، «وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ»، والمقام مقام تشريف فلو كان له أكثر من يدين لذكرهما.

وأما قوله: ﴿مِمَّا عَمِلْتَ أَيَّدِيَّ﴾ [يس: ٧١]، فيقال قيل إن أقل الجمع اثنان، وعليه فأيدينا لا تدل على أكثر من اثنين.

والدليل على ذلك قوله الله تعالى: ﴿إِنْ نُؤَبِّأُ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [التحريم: ٤]، ومن المعلوم أنه ليس للإنسان إلا قلب واحد قال الله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤]، والمرأة كذلك.

واحتجوا أيضاً بأن جماعة الصلاة تحصل باثنين، واحتجوا بقوله: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ [النساء: ١١]، إخوة جمع والمراد به اثنان.

أو نقول المراد بهذا الجمع التعظيم لأن الجمهور من أهل اللغة يقولون إن أقل الجمع ثلاثة، والمراد باليد هنا نفس الذات التي لها يد، وقد قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِمَّا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١].

والفساد قد يقع بالرجل والفرج واللسان لكن يعبر بمثل هذا التعبير عن الفاعل نفسه.

ولهذا نقول إن الأنعام لما يخلقها الله تعالى بيده، وفرق بين قوله: ﴿مِمَّا عَمِلْتَ أَيَّدِيَّ﴾ [يس: ٧١]، وبين قوله: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، فـ ﴿مِمَّا عَمِلْتَ أَيَّدِيَّ﴾ [يس: ٧١]، كأنه قال مما عملنا، لأن المراد باليد ذات الله التي لها يد، والمراد ﴿يَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، اليدان دون الذات. فيزول الإشكال بهذا؛ اهـ بتصرف من شرح الواسطية للعثيمين (ص ٢٥٤).

وقال أبو الحسن الأشعري في كتابه الإبانة (ص ٩٠) بعد أن ذكر الآيات الدالة على إثبات صفة اليدين لله ورادًا على أهل الزيغ والريب: وليس يجوز في لسان العرب ولا في عادة أهل الخطاب أن يقول القائل عملت كذا بيدي يريد بها النعمة. اهـ

وقال (ص ٩٢): ويقال لهم لم أنكرتم أن يكون الله عنى بقوله: ﴿يَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، يدين ليستا نعمتين؟ فإن قالوا لأن اليدين إذا لم تكن نعمة لم تكن إلا جارحة، قيل لهم إن علمتم على الشاهد وقضيتم به على الله تعالى، فكذلك لم نجد حيًا من الخلق إلا جسمًا ودما فاقضوا بذلك على الله -تعالى الله عن ذلك- وإلا كنتم لقولكم تاركين ولاعتلالكم ناقضين، وإن أثبتتم حيًا لا كالأحياء ومدبرًا حكيماً ليس كالإنسان فلا تمنعوا من إثبات يدين ليستا نعمتين ولا جارحتين. اهـ

وقال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٦/ ٦٨): فأهل السنة يقولون إثبات السمع والبصر والحياة والقدرة والعلم والكلام وغيرها من الصفات الخبرية كالوجه واليدين والعينين والغضب والرضا، والصفات الفعلية كالضحك والاستواء والنزول صفات كمال وأضدادها صفات نقص.

وقال (ص ٩٢/ ٦): وكذلك إذا قدر اثنان أحدهما يقدر أن يفعل بيديه ويقبل بوجهه والآخر لا يمكنه ذلك إما لامتناع أن يكون له وجه ويدان، وإما لامتناع الفعل والإقبال عليه باليدين والوجه، كان الأول أكمل، فالوجه واليدان لا يعدان من صفات النقص في شيء مما يوصف بذلك. اهـ

قال ابن خزيمة في التوحيد (١/ ١٩٩) رادًا على من فسر اليد بالقوة: وزعم بعض الجهمية أن معنى قوله: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ بِيَدَيْهِ»، أي بقوته، فزعم أن اليد

هي القوة وهذا من التبديل أيضًا وهو جهل بلغة العرب، والقوة إنما تسمى الأيد في لغة العرب لا اليد، فمن لا يفرق بين اليد والأيد، فهو إلى التعليم والتسليم إلى الكتاتيب أحوج منه إلى التراس والمناظرة، قد أعلمنا الله أنه خلق السموات بأيد واليدان غير الأيد، إذ لو كان الله خلق آدم بأيد كخلقه السماء دون أن يكون الله خص خلق آدم بيديه لما قال لإبليس ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِدَّتِي﴾ [ص: ٧٥].

وقال (١٩٧/١): وزعمت الجهمية أن معنى قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، أي نعمته، وهذا بتزويل لا بتأويل، والدليل على نقض دعواهم أن نعم الله كثيرة لا يحصيها إلا الله الباري، والله يدان لا أكثر منهما كما قال لإبليس ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِدَّتِي﴾ [ص: ٧٥].

فأعلمنا أنه خلق آدم بيديه فمن قال أنه خالق آدم بنعمته كان مبدلاً لكلام الله وقال الله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧]، الآية.

أفلا يعقل أهل الإيمان أن الأرض جميعاً لا تكون قبضة إحدى نعمتيه يوم القيامة ولا أن السموات مطويات بالنعمة الأخرى ولو كانت اليد بمعنى النعمة لقرأت الآية "بل يدها مبسوطة"، أو "منبسطة". اهـ

تفريعات صفات ثابتة لله متعلقة بإثبات صفة اليمين:

١ - الطي والقبض ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

٢ - الإمساك، يدل عليه حديث عبد الله بن مسعود عند الشيخين قال: جاء خبر من أحبار اليهود إلى النبي فقال: يا محمد إن الله يمسك السموات على أصبع والأرضين على أصبع والشجر على أصبع والشجر على أصبع وبقية الخلائق

على أصبع، ثم يقول: أنا الملك فضحك رسول الله تصديقاً للحبر. وجاء بلفظ: يضع، ولفظ: يجعل؛ وكلها في الصحيح.

٣- الهز: حديث عبد الله بن مسعود المتقدم ثم يهزهن ويقول: «أَنَا الْمَلِكُ».

٤- الأخذ: حديث أبي هريرة عند مسلم «لَا يَتَصَدَّقُ أَحَدٌ بِتَمَرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، إِلَّا أَخَذَهَا اللَّهُ بِيَمِينِهِ».

٥- الكف: الحديث الذي قبله وفيه «فَتَرْبُؤُنِي كَفَّ الرَّحْمَنِ».

٦- الساعد: حديث مالك بن نضلة عند أحمد «مُوسَى اللَّهِ أَحَدٌ - وَرُبَّمَا قَالَ - سَاعِدُ اللَّهِ أَشَدُّ».

٧- الأصابع: لحديث عبد الله بن مسعود المتقدم، وحديث عبد الله بن عمرو «إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلَّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ».

٨- البسط: حديث أبي موسى عند مسلم «إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيُتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيُتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا».

فائدة: «وَكِلْنَا يَدَيْهِ يَمِينٌ»، كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص المتقدم «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ، وَكِلْنَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا».

وجاء لفظ الشمال في حديث عبد الله بن عمر عند مسلم بلفظ: «يَطْوِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ

الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ. ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟»، من طريق عمر بن حمزة بن عبد الله وهو ضعيف.

وقد أخرج الحديث البخاري ومسلم من طريق عبيد الله عن نافع عن عبد الله قال: قال رسول الله : «إِنَّ اللَّهَ يَقْبِضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَرْضَ، وَتَكُونُ السَّمَوَاتُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ»، بدون ذكر الشمال.

قال الحافظ في الفتح حديث رقم (٧٤١٣): قال البيهقي تفرد بذكر الشمال فيه عمر بن حمزة وقد رواه عن ابن عمر عن نافع، وعبيد الله بن مقسم بدونها ورواه أبو هريرة وغيره عن النبي ، كذلك وثبت عند مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رفعه «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ»، وفي حديث أبي هريرة «اخْتَرْتُ يَمِينَ رَبِّي وَكِلْتَا يَدَيَّ رَبِّي يَمِينٌ»، وفي حديث ابن عباس رفعه «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْقَلَمَ، فَأَخَذَهُ بِيَمِينِهِ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ». اهـ

فتبين مما تقدم أن كلتا يدي الله جل ذكره يمين.



إثبات صفة العينين لله تعالى على ما يليق بجلاله

قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وقال: ﴿وَلِئَصْنَعَ عَلَى عَيْنَيَّ﴾ [طه: ٣٩].

هذه الصفة ثابتة لله سبحانه وتعالى بالكتاب والسنة والإجماع، وهي من الصفات الذاتية وهي حقيقة خلافاً لما يقوله المعتزلة ومن وافقهم ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، بل نثبتها بدون تحريف ولا تعطيل ولا تكيف ولا تمثيل.

ومن الأدلة من القرآن على إثباتها قوله تعالى: ﴿وَأَصْنَعَ الْفَلَكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧].

قال ابن خزيمة تعالى بعد ذكر هذه الآيات: فواجب على كل مؤمن أن يثبت لخالقه وبارئه ما أثبت الخالق البارئ لنفسه من العين. اهـ
ومن الأدلة من السنة على إثبات صفة العين لله تعالى:

ما أخرجه أبو داود (٤٧٢٨) من حديث أبي هريرة أنه قال في هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، قال رأيت رسول الله يضع إبهامه على أذنه وأصبعه التي تليها على عينه؛ الحديث صحيح وهو في الصحيح المسند لشيخنا. وقال الشيخ في تحقيقه على المستدرک هذا حديث صحيح على شرط مسلم.

وجاء عن مجموعة من الصحابة كابن عمر وأنس وابن عباس في الصحيح أن رسول الله قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، إِلَّا إِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى﴾.

وجاءت أيضًا الإشارة إلى العينين في البخاري كما في حديث عبد الله بن عمر رقم (٧٤٠٧) قَالَ ذَكَرَ الدَّجَالَ عِنْدَ النَّبِيِّ فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى عَيْنِهِ، وَإِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ﴾.

وقد تقدم إجماع السلف -رضوان الله عليهم- على إثبات هذه الصفة لله تعالى على ما يليق بجلاله، وهي من الصفات الذاتية الخبرية، وقد تقدم معنى الذاتية وأنها لا تنفك عن الذات أزلاً وأبداً، والخبرية أي أنه لا يمكن معرفتها إلا بالقرآن والسنة وهو الخبر، وسيأتي مزيد أدلة على إثبات صفة البصر والرؤية في باب إثبات صفة السمع والبصر.

وقد نفى المعتزلة صفة العينين لله سبحانه وتعالى وهم يسرون على جادتهم في نفى الصفات، وذهب الأشاعرة إلى إثبات صفة البصر ونفوا صفة العين، ويقولون يبصر ببصر ويرى بدون عين، ولو سألتهم لماذا هذا التخليط لقالوا لأننا إذا أثبتنا العين لله لزم أن تكون مشابهة لعين المخلوق؛ وهذا مذهب باطل قد تقدم الرد عليه.

فافهم تلك القواعد تلجم كل خصم مجادل في آيات الله سبحانه وتعالى ممن هم من أصحاب التأويل والمتشابه الذين قال الله عنهم: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَبْعٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧].

قال ابن عثيمين تعالى في شرح الواسطية في رده على هؤلاء المعطلة:
وقالوا ﴿بَاعَيْنَا﴾ [الطور: ٤٨]، برؤية منا ولكن لا عين والعين لا يمكن أن تثبت لله
أبدًا لأن العين جزء من الجسم فإذا أثبتنا العين لله أثبتنا تجزئة وحسيًا وهذا شيء ممتنع
فلا يجوز وإنما ذكر العين من باب تأكيد الرؤية يعني كأننا نراك ولنا عين والأمر ليس
كذلك.

فنقول لهم هذا القول خطأ من عدة وجوه:

أنه مخالف لظاهر اللفظ.

أنه مخالف لإجماع السلف.

أنه لا دليل عليه أي: أن المراد بالعين الرؤية.

أننا إذا قلنا بإثبات الرؤية وأثبت الله لنفسه عينًا فلازم ذلك أنه يرى بتلك
العين وحيثئذ يكون في الآية دليل على أنها عين حقيقة. اهـ

وقال كما في شرح القواعد المثلث (٣١٨): وقوله: ﴿وَلِصْنَعِ عَلَى
عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]، أي تربي لأن صناعة كل شيء بحسبه وليس ظاهر الآية أن موسى
على عين الله مصنوع ولا أحد يفهم هذا الفهم إطلاقًا. صحيح أن على بمعنى العلو
لكنها تأتي في كل موضع بحسبها فلو أن إنسانا قال لشخص احضر لي هذا الشيء
فقال على عيني فهل معناه أنه يحضر الشيء على عينه؟ الجواب أبدًا، وإنما معناه أنه
مستعد غاية الاستعداد.

فقوله: ﴿وَلِصْنَعِ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]، فمعناه أن هذا الشيء سيكون محل نظر وعناية منا

دائمًا.

ونقول أين ترى موسى في السماء أم في الأرض أم على عين الله؟

الجواب: في الأرض وهذا مما يبطل قولهم أن ظاهر الآية أن موسى تربى على عين الله حقيقة، وحينئذ نقول نحن لم نصرف اللفظ عن ظاهره والظاهر الذي ذكرتموه ظاهر باطل ليس مراداً ولا أحد يفهم أن هذا هو المراد، فبطل إلزامكم إيانا بالتأويل. اهـ

وقال في شرح الواسطية (٢٦٤): فإن قيل إن من السلف من فسر قوله تعالى: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، بقوله بمرأى منا وأنتم تقولون إن التحريف محرم وممتنع فما الجواب؟

فالجواب: أنهم فسروا باللازم مع إثبات الأصل وهو العين، وأهل التحريف يقولون بمرأى منا بدون إثبات العين، وأهل السنة والجماعة يقولون بمرأى منا مع إثبات العين، لكن ذكر العين هنا أشد تأكيداً وعناية من ذكر مجرد الرؤية ولهذا قال: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

وكان من قوله إن المعطلة ألزموا أهل السنة أن يسيروا على ظاهر الآية كما هو دأبهم وإذا قالوا بالظاهر كفروا.

فالرد عليهم أننا نأخذ بالظاهر وهو طريقتنا ولا نخالفه قالوا فالظاهر في قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، أي: داخل أعيننا وإذا قلتم بذلك كفرتم لأنكم جعلتم الله محلاً للخلافت. قلنا لهم: معاذ الله ثم معاذ الله ثم معاذ الله أن يكون ما ذكرتموه ظاهر القرآن وأنتم إن اعتقدتم أن هذا ظاهر القرآن كفرتم.

ثم قال فأنت إذا رأيت أساليب اللغة عرفت أن هذا المعنى الذي ذكره وألزمونا به لا يراد في اللغة العربية، فضلاً عن أن يكون مضافاً إلى الله، فإضافته إلى الرب كفر منكر وهو منكر لغةً وشرعاً.

فإن قيل بماذا تفسرون الباء في قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، قلنا نفسرها بالمصاحبة إذا قلت أنك بعيني أن عيني تصحبك. ولا يمكن أن تكون الباء هنا للظرفية لأنه يقتضي أن يكون الرسول في عين الله وهذا محال، ورسول الله خوطب بهذا وهو على الأرض. فإن قلت إنه كان في عين الله كانت دلالة القرآن كذباً، وهذا وجه آخر في بطلان دعواهم أن رسول الله في عين الله تعالى.

وكذلك في قوله: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧]، أي أن الله ينظر إليه وهو يصفه ويلهمه كيف يصنعه. اهـ

قال السلطان في الكواشف الجليلة (ص ٢٠٣): ولا حجة للمبتدعة على نفي العين في أفرادها في بعض النصوص وجمعها في البعض الآخر، لأن لغة العرب متنوعة في أفراد المضاف وتثنيته وجمعه بحسب أحوال المضاف إليه، فإن أضافوا الواحد المتصل إلى مفردة أفردوه وإن أضافوا اسم جمع ظاهراً أو مضمراً فالأحسن جمعه مشاكلة للفظ كقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وإن أضيف إلى ضمير جمع جمعت كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَكُمَا﴾ [يس: ٧١]، وإن أضيف إلى المثني فالأحسن في لغتهم جمعه كقوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحریم: ٤]، وإنهما هما قلبان. اهـ



إثبات صفتي السمع والبصر لله تعالى على ما يليق بجلاله

قال الله تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، والأدلة في القرآن كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [فاطر: ٣١].

وقال تعالى: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢٢٠].

وقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

وقوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في كتاب الله .

وأما الأدلة من السنة فتقدم في إثبات صفة العين شيء من ذلك ومنها حديث

أبي هريرة أن رسول الله وضع إصبعيه على عينه وأذنه عندما قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

في الصحيحين عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ فِي سَفَرٍ فَكُنَّا إِذَا عَلَوْنَا كَبَّرْنَا فَقَالَ: «ارْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا...»، الحديث.

وعن عائشة زوج النبي حدثته أنها قالت للنبي : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَأَنْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظْلَنَتْنِي، فَتَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِرْيَلٌ، فَتَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِيَتَأَمَّرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَتَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنَّ شِئْتَ أَنْ أُطَبِّقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ : بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»، أخرجه في الصحيحين.

وحديث عائشة عند البخاري تعليقاً وأخرجه أحمد وغيره وهو حديث صحيح أنها قالت: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى النَّبِيِّ ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١].

وحديث أبي موسى الأشعري عند مسلم مرفوعاً: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفِعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ - وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ: النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَنْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ».

وحديث عمر عند مسلم وفيه: «مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، وجاء عن أبي هريرة ، متفق عليه.

والأدلة في هذا الباب كثيرة.

قال البيهقي في الأسماء والصفات (١/٤٦٢): تحت حديث أبي هريرة أن النبي : لما قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، يضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه قال أبو هريرة رأيت رسول الله يقرأها ويضع إصبعيه.

قلت ^(١): والمراد بالإشارة المروية في هذا الخبر تحقيق الوصف لله بالسمع والبصر فأشار إلى محلي السمع والبصر لله تعالى كما يقال قبض فلان على مال فلان، ويشار باليد على معنى أنه حاز ماله، وأفاد هذا الخبر أنه سميعٌ بصيرٌ له سمعٌ وبصر لا على معنى أنه عليمٌ إذ لو كان بمعنى العلم لأشار في تحقيقه إلى القلب لأنه محل العلوم منا، وليس في الخبر إثبات الجارحة لله تعالى عن شبه المخلوقين علواً كبيراً. اهـ وقال أبو داود: تحت حديث أبي هريرة السابق وهو رقم (٤٧٢٨) وهذا ردٌ على الجهمية.

قال أبو بكر بن خزيمة في كتاب التوحيد "باب إثبات السمع والرؤية لله (جل وعل)": الذي هو كما وصف نفسه: سميع بصير، ومن كان معبودهم غير سميع بصير، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقال (في قصة المجادلة: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١] الآية.

(١) البيهقي.

قال أبو بكر: قد كنت أملت في كتاب الظهار خبر عائشة : "سبحان ربي وبحمده، وسع سمعه الأصوات، إن المجادلة تشكو إلى النبي فيخفى علي بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١]"، وقال : ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٨٠] الآية.

وقد أعلمنا ربنا -الخالق البارئ- أنه يسمع قول من كذب على الله وزعم أن الله فقير، فكذبهم الله في مقالتهم تلك، فرد الله ذلك عليهم، وخبر أنه الغني وهم الفقراء، وأعلم عباده المؤمنين أنه السميع البصير، فكذلك خبر المؤمنين: أنه قد سمع قول المجادلة، وتحاور النبي والمجادلة، وخبرت الصديقة بنت الصديق أنه يخفى عليها بعض كلام المجادلة مع قربها منها فسبحت خالقها الذي وسع سمعه الأصوات، وقالت: "سبحان من وسع سمعه الأصوات"، فسمع الله جل وعلا كلام المجادلة، وهو فوق سبع سموات مستو على عرشه وقد خفي بعض كلامها على من حضرها وقرب منها.

وقال لكليمه موسى وأخيه ابن أمه هارون، يؤمنهما فرعون، حين خافا أن يفرط عليهما أو أن يطغى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، فأعلم الرحمن جل وعلا أنه سمع مخاطبة كليمه موسى وأخيه هارون عليهما السلام وما يجيبهما به فرعون، وأعلم أنه يرى ما يكون من كل منهم، وقال جل وعلا: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١]، إلى قوله: ﴿السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وقال في سورة حم المؤمن: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّكَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]. واستقصاء ذكر قوله: ﴿السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ يطول بذكر جميعه في الكتاب. اهـ

وقال أيضاً: وتدبروا أيها العلماء ومقتبسوا العلم مخاطبة خليل الرحمن أباه وتوبيخه إياه لعبادته من كان يعبد تعقلوا بتوقيف خالقنا جل وعلا صحة مذهبنا وبطلان مذهب مخالفينا من الجهمية والمعتلة، قال خليل الرحمن صلوات الله وسلامه عليه لأبيه: ﴿لَمْ تَعْبُدْ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ [مريم: ٤٢]، أفليس من المحال يا ذوي الحجا أن يقول إبراهيم لأبيه آزر: ﴿لَمْ تَعْبُدْ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ [مريم: ٤٢]، ويعيبه بعبادة مالا يسمع ولا يبصر، ثم يدعو له بعبادة من لا يسمع ولا يبصر - ثم قال - عز ربنا وجل أن يكون غير سميع ولا بصير. اهـ



إثبات صفة الرضا لله سبحانه وتعالى

وما في بابها من الصفات الفعلية

وصفة الرضا من الصفات الفعلية التي دل عليها الكتاب والسنة وإجماع السلف، فمن القرآن قول الله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]، في عدة مواضع من القرآن، وقوله تعالى: ﴿وَلِإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ومن السنة قول رسول الله : «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا: يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَاَهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ...»، أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

وفي حديث أبي سعيد عند البخاري ومسلم أن رسول الله قال: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى؟ يَا رَبِّ وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أَحَلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا».

وحديث أنس عندهما فيما أنزل على النبي في أصحاب بئر معونة ثم نسخ «إِنَّا قَدْ لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَأَرْضَانَا».

إلى غير ذلك من الأحاديث التي ليس هذا موضع بسطها، وقد أول الأشاعرة صفة الرضا بأنها إرادة إكرام المؤمنين وقال بعضهم بقول المعتزلة أنها الثواب. والرد عليهم أن هذا التحريف ليس من طريقة السلف، وأنه صرف المعنى الحق إلى مجازه

بدون قرينة من الكتاب والسنة، وأن الرضا من المعاني التي لا تقوم بنفسها وإنما تقوم بغيرها وإضافتها إلى الله إضافة صفة إلى موصوف.

ويلزمهم إذا كان الرضا هو الثواب المخلوق أن النبي استعاذ بمخلوق فيما لا يقدر عليه، وهذا باطل في حق رسول الله ، فقد أخرج مسلم (٤٨٦) عن عائشة قالت: فقدت رسول الله ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ».

وهي من صفات الكمال وقد تقدمت القاعدة أن كل كمال فالله أولى به، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠].

وسبب فرارهم من إثبات هذه الصفة وغيرها لله هو الفرار من شبهة التجسيم والتشبيه والتركيب على زعمهم، وقد تقدم بيان هذه الثلاث الشبه في بداية الكلام على الصفات، ولو أنهم قالوا كما قال أهل السنة والسلف رضوان الله عليهم ثبت لله رضا يليق بجلاله تقدس أن يشبهه رضاه رضا المخلوقين وتنزه أن لا يتصف بالرضا، لوقفوا ولكنه الخذلان بسبب السير خلف أهل الكلام.

فأهل السنة كما يتكرر مرارًا يشبتون صفات الله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٣٥١/٥): فمن نفى النزول والاستواء أو الرضا والغضب أو العلم والقدرة أو اسم العليم أو القدير فرارا

بزعمه من تشبيه وتركيب وتجسيم فإنه يلزمه فيما أثبتته نظير ما ألزمه غيره فيما نفاه هو. اهـ

فيقال لهذا الأشعري الذي يقول الرضا من صفات الأجسام، والإرادة من صفات الأجسام، فسيقول له إرادة ليست كإرادتنا نقول: وله رضا ليس كرضانا.

وقال أيضًا شيخ الإسلام في المجموع (٣٥٨/١١): فإن قيل المحبة والرضا يقتضيان ملائمة ومناسبة بين المحب والمحبوب ويوجب للمحب بدرك محبوبه فرحًا ولذة وسرور وكذلك بغض لا يكون إلا عن منافرة... فيقال الجواب من وجهين:

أحدهما: الإلزام أن نقول الإرادة لا تكون إلا للمناسبة بين المريد والمراد وملائمته في ذلك تقتضي الحاجة وإلا فما لا يحتاج إليه الحي لا ينتفع به ولا يريده... فإذا كان الذي يثبت صفة وينفي صفة يلزمه فيما أثبتته نظير ما يلزمه فيما نفاه لم يكن في إثبات أحدهما ونفي الآخر أولى من العكس...

الجواب الثاني:... أن الله تعالى غنى واجب بنفسه، وقد علم أن قيام الصفات به لا يلزم حدوثه ولا إمكانه ولا حاجته، وأن قول القائل بلزوم افتقار إلى صفاته اللازمة بمنزلة قوله مفتقر إلى ذاته ومعلوم أنه غني بنفسه. اهـ

وأيضًا إحسان الله إلى المؤمنين يدل على رضاه عنهم، وأما إحسانه إلى الكافرين والعصاة فهو استدراجه لهم، ﴿فَلَمَّا دَسُّوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].



إثبات النفس لله تعالى وهي الذات العلية

المتصفة بصفات الجمال والجلال والكمال

دل عليها القرآن قال تعالى: ﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمْ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقوله: ﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١]، وقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وغيرها من الآيات.

والدليل عليها من السنة قال رسول الله : «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخُلُقَ، كَتَبَ بِيَدِهِ عَلَى نَفْسِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»، هذا لفظ أحمد من حديث أبي هريرة . وأخرجه البخاري ومسلم بلفظ «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخُلُقَ، كَتَبَ فِي كِتَابِهِ عَلَى نَفْسِهِ».

وأخرج الإمام مسلم من حديث جويرية بنت الحارث قالت قال رسول الله : «لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكَ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتُ مِنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنْتَهُنَّ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ».

وجاء من حديث أبي هريرة عند الشيخين أن رسول الله قال: «يَقُولُ اللَّهُ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي»، الحديث.

وحديث أبي ذر عند مسلم مرفوعاً قدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا»، إلى غير ذلك من الأحاديث.

وقد ذهب ابن خزيمة إلى أن النفس صفة من صفات الذات وبين شيخ الإسلام أن النفس هي الذات العلية التي تتصف بالصفات فقال

(١٩٢ / ٩): ويراد بالنفس الشيء ذاته وعينه كما يقال: رأيت نفسه وعينه، وقد قال تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وفي الحديث الصحيح عن جويرية «وَرَضَا نَفْسِهِ»، وللحديث الصحيح «فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ».

فهذه المواضع المراد فيها بلفظ النفس عند جمهور العلماء نفسه التي هي ذاته المتصفة بصفاته، ليس المراد بها ذاتاً منفكة عن الصفات ولا المراد بها صفة للذات، وطائفة من الناس يجعلونها من باب الصفات كما يظن طائفة أنها الذات المجردة عن الصفات وكلا القولين خطأ. اهـ



إثبات صفة السخط لله عز وجل

وهي من صفات الفعل التي دل عليها الكتاب والسنة والإجماع.

فأما الكتاب قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ [محمد: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة: ٨٠].

ويدل عليها من السنة حديث أبي سعيد الخدري المتقدم في صفة الرضا ﴿أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا﴾.

وقد فسر أهل التعطيل السخط بالانتقام، وهذا خلاف ما عليه أئمة السلف، ونقول لهم إن السخط والغضب غير الانتقام لأن الله قد فرق بينهما في قوله: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أُنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]، أي فلما أغضبونا انتقمنا منهم فغاير بين الغضب والانتقام. فكان الغضب والسخط من لوازمه الانتقام، فالله تعالى يغضب ويسخط ثم ينتقم.

ومن فسر السخط بأنه إرادة الانتقام فالرد عليه ما تقدم في غير ما صفة من صفات الفعل.

وكما يلزمكم إثبات صفة الإرادة كذلك يلزمكم إثبات صفة السخط، فإن قلت السخط يستلزم غليان الدم إلى غير ذلك قلنا والإرادة تستلزم الميل إلى المراد.

فإن قلت له إرادة ليست كإرادة المخلوقين قلنا لكم وله سخط ليس كسخط المخلوقين.

فالقاعدة أن القول في بعض الصفات كالقول في البعض، والقول في الأسماء كالقول في الصفات، فمن أثبت بعض الصفات كالأشاعرة والماتريدية لزمه إثبات جميع الصفات، ومن أثبت الأسماء ونفى الصفات كالمعتزلة لزمه إثبات الصفات، لأن باها واحد، والقول فيه نفياً أو إثباتاً واحد أيضاً جمعاً بين المتماثلات.



بيان قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾

فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿

إضافة الروح إلى الله سبحانه وتعالى هنا إضافة تشريف أو خلق وإيجاد وليس من إضافة الصفة إلى الموصوف، وقد تقدم الكلام على أنواع المضاف لله تعالى.

قال ابن كثير تعالى في تفسير الآية قوله تعالى: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١]: فقلوله في الآية والحديث -أي حديث عبادة-: «وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ».

«وَرُوحٌ مِنْهُ»: كقلوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، أي: من عنده ومن خلقه.

وقد قال مجاهد في قوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، أي: ورسولٌ منه، وقال غيره ومحبةً منه، والأظهر القول الأول وهو أنه مخلوق من روح مخلوقة، وأضيفت الروح إلى الله تعالى على وجه التشريف كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله. اهـ

وقال حسن آل الشيخ في شرح فتح المجيد (١/ ١٣٢): قوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]: قال أبي بن كعب عيسى روحٌ من الأرواح التي خلقها الله واستنطقها بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. اهـ

وقال ابن عثيمين في القول المفيد (١/ ٧٥): ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]:
 إضافة هذه الروح إلى الله من باب إضافة المخلوق إلى خالقه تشريفاً فهي من
 الأرواح التي خلقها الله وليست جزءاً أو روحاً من الله تعالى إذ أن الروح حلت في
 عيسى عليه السلام وهو عينٌ منفصلة عن الله وهذا قسم مخلوق أيضاً. اهـ

وقال ابن القيم في كتاب الروح (١٩٠): وأما استدلالهم بإضافتها
 إليه سبحانه وتعالى يقول تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩، ص: ٧٢]، فينبغي
 أن يعلم أن المضاف إلى الله سبحانه وتعالى نوعان:

صفات لا تقوم بنفسها كالعلم والقدرة والسمع والكلام والبصر فهذه إضافة
 صفة إلى موصوف بها.

إضافة أعيان منفصلة عنه كالبيت، والناقة، والعبد، والرسول، والروح، فهذه
 إضافة مخلوق إلى خالقه ومصنوع إلى صانعه، لكنها إضافة تقتضي تخصيصاً وتمييزاً
 يتميز بها المضاف عن غيره كبيت الله وناقة الله؛ فالبيوت كلها لله والنوق كلها لله لكن
 هذه إضافة إلى إلهيته تقتضي محبته له وتكريمه وتشريفه بخلاف الإضافة العامة إلى
 الربوبية حيث تقتضي خلق وإيجاد...، إلى أن قال وإضافة الروح إليه من هذه
 الإضافة الخاصة لا من العامة ولا من باب إضافة الصفات، فتأمل هذا الموضوع فإنه
 يخلصك من ضلالات كثيرة وقع فيها من شاء الله من الناس. اهـ

قال شيخ الإسلام ابن القيم في كتابه الروح (١٩٠): فأما الروح
 المضافة إلى الرب فهي روح مخلوقة أضافها إلى نفسه إضافة تخصيص وتشريف.

وأما النفخ، فقد قال الله تعالى في مريم: ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢]، وقد أخبر في موضع آخر أنه أرسل إليها الملك فنفخ في فرجها وكان النفخ مضافاً إلى الله أمراً وإذنًا وإلى الرسول مباشرة. اهـ



الإيمان بنزول الله تعالى إلى السماء الدنيا كل ليلة

في الثلث الأخير من الليل

ومن قول أهل السنة أن الله ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة في الثلث الأخير من الليل، يؤمنون بذلك من غير تكيف، فعن أبي هريرة أن رسول الله قال: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»، أخرجه البخاري رقم (١١٥٤) (٦٣٢١) (٧٤٩٤)، ومسلم رقم (٧٥٨).

وأخرج الحديث مسلم برقم (٧٥٨-١٧٢) عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة بلفظ: «إِنَّ اللَّهَ يُمَهِّلُ حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ، نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ».

وفي لفظ له من حديث أبي هريرة: «يَنْزِلُ اللَّهُ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا لِشَطْرِ اللَّيْلِ، أَوْ لثُلُثِ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، أَوْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، ثُمَّ يَقُولُ: مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ عَدِيمٍ، وَلَا ظَلُومٍ».

وفي رواية له أيضًا: «إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ، أَوْ ثُلَاثُهُ، يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ».

وفي لفظ له: «يَنْزِلُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَمْضِي ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيَءَ الْفَجْرُ».

وأخرج الإمام أحمد (٣٦٧٣/١) من طريق أبي الأحوص عن ابن مسعود أن رسول الله قال: «إِذَا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْبَاقِي، يَهْبِطُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ تُفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يَبْسُطُ يَدَهُ، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى سُؤْلُهُ؟ فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ، حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ»، قال الوادعي في الصحيح المسند: هذا حديث صحيح رجاله رجال الصحيح.

وأخرج الإمام أحمد (١٦/٤) من طريق هلال ابن أبي ميمونة عن عطاء بن يسار عن رفاعة الجهمي عن رسول الله قال: «إِذَا مَضَى نِصْفُ اللَّيْلِ - أَوْ قَالَ: ثُلَاثُ اللَّيْلِ - يَنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: لَا أَسْأَلُ عَنْ عِبَادِي أَحَدًا غَيْرِي، مَنْ ذَا يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ، مَنْ الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ»، قال الوادعي: هذا حديث صحيح رجاله رجال الصحيح.

وأخرج الإمام أحمد في مسنده (٨١/٤) وابن أبي عاصم رقم (٥١٩) وغيرهما، من طريق حماد بن سلمة عن عمرو بن دينار عن نافع بن جبير عن أبيه أن رسول الله قال: «يَنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟»، إسناده صحيح، وأخرجه ابن خزيمة رقم (١٨٥) من هذه الطريق.

وقد جاء عن غيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم حتى قال ابن القيم: هذا الحديث روي عن ثلاثة وعشرين صحابياً، وإنما سقنا بعض هذه الطرق للاستفادة. وقد جاءت في بعض الطرق زيادات مثل «حتى ترحل الشمس»، وهي شاذة، نصّ على ذلك الحافظ في الفتح (٤١/٣).

قال ابن القيم في زاد المعاد (٦٧٧/٣): اعلم رحمك الله بأن حديث النزول حديث كبير جليل تنادي جلالته وفخامته وعظمته على أنه قد خرج من مشكاة النبوة. اهـ

وقال: كما في مختصر الصواعق : وهو قرة لعيون أهل الإيمان وشجى في حلوق أهل التعطيل والبهتان. اهـ

واعلم هداك الله أن الأخذ بظاهر هذا الحديث درج عليه السلف ومن تبعهم بإحسان، قال الشافعي في وصيته (٥٤): القول في السنة التي أنا عليها ورأيت أصحابنا عليها أهل الحديث الذين رأيتهم فأخذت عنهم مثل سفيان ومالك وغيرهم، الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله... وأن الله على عرشه في سماه يقرب من خلقه كيف شاء، وأن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا كيف شاء. اهـ وقال أبو العباس السراج: من لم يقر ويؤمن بأن الله تعالى يعجب ويضحك وينزل كل ليلة إلى السماء فيقول: «مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهِ»، فهو زنديق كافر يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه، ولا يُصلى عليه ولا يُدفن في مقابر المسلمين؛ العلو (ص ٥٣٤).

قال الذهبي في السير (٣٩٦/١٤) بعد سوق الأثر: إنها يكفر بعد علمه بأن رسول الله قال ذلك ثم إن جحد ذلك ولم يؤمن به. اهـ

وقد قال أبو بكر بن أبي داود في حائيته:

وقل ينزل الجبار في كل ليلة بلا كيف جل الواحد المتمدح
إلى طبق الدنيا يمن بفضله فتفرج أبواب السماء وتفتح
يقول ألا مستغفر يلقي غافراً ومستمنح خيراً ورزقاً فيمنح
روى ذلك قوم لا يرد حديثهم فلا خاب قوم كذبوهم وقبحوا

ومراده بقول: "بلا كيف"، أي بلا كيف معلوم لنا، وإلا فإن لنزوله سبحانه كيفية يعلمها هو.

قال شيخ الإسلام في التدمرية (ص ٢٠): إذا قال: كيف ينزل ربنا إلى السماء الدنيا؟ قيل له: كيف هو؟ فإذا قال: لا أعلم كيفيته قيل له: ونحن لا نعلم كيفية نزوله إذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف وهو فرع له وتابع له؛ فكيف تطالبني بالعلم بكيفية سمعه وبصره وتكليمه واستوائه ونزوله وأنت لا تعلم كيفية ذاته. وإذا كنت تقر بأن له حقيقة ثابتة في نفس الأمر مستوجبة لصفات الكمال لا يماثلها شيء فسمعه وبصره وكلامه ونزوله واستواؤه ثابت في نفس الأمر وهو متصف بصفات الكمال التي لا يشابهه فيها سمع المخلوقين وبصرهم وكلامهم ونزولهم واستواؤهم. اهـ

ولذلك يقول في لاميته :

والمؤمنون يرون حقاً ربهم وإلى السماء بغير كيف ينزل

قال الصابوني في عقيدة السلف أصحاب الحديث (٢٦-٢٧):

ويثبت أهل الحديث نزول الرب سبحانه وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا من غير

تشبيه له بنزول المخلوقين ولا تمثيل ولا تكييف، بل يثبتون له ما أثبتته رسوله ويمرون الخبر الصحيح الوارد على ظاهره ويكون علمه إلى الله تعالى. اهـ

وقال أبو الخطاب الكلواذاني كما في كتاب الكلمات الحسان في علو الرحمن :

قالوا النزول فقلت ناقله لنا	قوم تمسكهم بشرع محمد
قالوا فكيف نزوله فأجبتهم	لم ينقل التكييف لي في مسند
وما أحسن ما قال أبو عمرو الداني	في أرجوزته المنبهة:
فمن صحيح ما أتى به الأثر	وشاع في الناس قديماً وانتشر
نزول ربنا بلا امتراء	في كل ليلة إلى السماء
من غير ما حد ولا تكييف	سبحانه من قادر لطيف

ونصوص العلماء كثيرة في إثبات صفة النزول إلى السماء الدنيا لله سبحانه وتعالى وأدلة النزول استدلل بها العلماء على علو الله سبحانه وتعالى لأن النزول إنما يكون من العلو.

ولا يجوز السؤال عن كيفية الصفة كما نقل ذلك الذهبي في العلو وصحة الألباني في المختصر (ص ٢٣١) قال أبو الطيب: حضرت عند أبي جعفر الترمذي فسأله سائل عن حديث النزول، فالنزول كيف هو يبقى فوقه علو؟ فقال: النزول معقول والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

قال الذهبي عقبه: صدق فقيه بغداد و عالمها في زمانه إذ السؤال عن النزول ما هو عي لأنه إنما يكون السؤال عن كلمة غريبة في اللغة وإلا فالنزول والكلام والسمع والبصر والعلم والاستواء عبارات جلية واضحة للسامع فإذا اتصف بها

من ليس كمثله شيء فالصفة تابعة للموصوف وكيفية ذلك مجهولة عند البشر وكان هذا الترمذي من بحور العلم ومن العباد الورعين مات سنة خمس وتسعين ومائتين؛ انتهى.

وقد ذهب المبتدعة من المعتزلة والأشاعرة على طريقتهم الشنعاء في تحريف كلام الله وكلام رسوله فقالوا: إنما هو نزول ملك من الملائكة أو نزول أمر الله ورحمته، والرد عليهم من وجوه يعرف بعضها من لديه مزعة عقل وسلامة معتقد.

الوجه الأول: كيف يعقل أن يقول الملك: «مَنْ يَدْعُونِي»، «مَنْ يَسْأَلُنِي»، «مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي»، وهذه عبادات لا تصرف إلا الله سبحانه وتعالى وصرفها لغير الله سبحانه وتعالى شرك أكبر مخرج من الملة، والملائكة قد قال الله عنهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، والملك إذا تكلم عن الله لا يتكلم بصيغة المخاطب بل يقول: إن الله أمر بكذا كما في الحديث «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أَحِبُّ فَلَانًا فَأَجِبُّهُ، قَالَ: فَيَجِبُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانًا فَأَجِبُّهُ، فَيَجِبُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أَبْغَضُ فَلَانًا فَأَبْغِضُهُ، قَالَ فَيَبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فَلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيَبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبُغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ»، أخرجه مسلم (٢٦٣٧).

الوجه الثاني: في بعض ألفاظ الحديث التي تقدم ذكره يقول الله تعالى إذا نزل «أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَاسْتَجِبْ لَهُ»، وفي رواية تقدمت أيضًا «لَا أَسْأَلُ عَنْ عِبَادِي أَحَدًا غَيْرِي».

قال الحافظ المقدسي في كتابه الاقتصاد في الاعتقاد (١٠٦): وهذان الحديثان يقطعان تأويل كل متأول ويدحضان حجة كل مبطل. اه الوجه الثالث: لو علم رسول الله أن النازل ملك من الملائكة لصرح بذلك.

الوجه الرابع: من المعلوم أن الذي يغفر الذنوب ويستجيب الدعوات ويعطي السائلين هو الله تعالى لا غيره، قال تعالى: ﴿وَلِيَّ لَغَفَّارٍ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَحَمَلَ صَلِحَاتِهِمْ أَهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنِ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

الوجه الخامس: أنه قال في الحديث: «يُنْزَلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى»، وفي رواية «يُنْزِلُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ»، فكيف يسوغ لهم صرف الكلام عن ظاهره الحق إلى مجازه الباطل بدون قرينة.

الوجه السادس: أن الملائكة لا تزال تنزل بالليل والنهار إلى الأرض، كما قال تعالى: ﴿يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل: ٢]، وقوله: ﴿وَمَا نُنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «يَتَعَاقِبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةُ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ...»، الحديث.

وأما من تأول النزول بمعنى نزول أمره أو رحمته فالرد كذلك من وجوه:

الأول: ما قاله ابن عبد البر في الاستذكار (١٤٨/٨): وقد قال قوم إنه ينزل أمره وتنزل رحمته ونعمته، وهذا ليس بشيء لأن أمره بما شاء من رحمته ونعمته ينزل بالليل والنهار بلا توقيت ثلث الليل ولا غيره.

وقال ابن خزيمة كما في تذكرة الحفاظ (٧٢٨/٢): وأنه تعالى ينزل إلى السماء الدنيا ومن زعم أن علمه ينزل أو أمره ضل.

الثاني: قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٣٧٢-٨٧٣): إن من تأول ذلك بنزول رحمته أو غير ذلك قيل له: الرحمة التي تثبتها إما أن تكون عيناً قائمة بنفسها وإما أن تكون صفة قائمة في غيرها، فإن كانت عيناً وقد نزلت إلى السماء الدنيا لم يمكن أن تقول: من يدعوني فأستجيب له كما لا يمكن للملك أن يقول ذلك، وإن كانت صفة من الصفات فهي لا تقوم بنفسها بل لا بد لها من محل ثم لا يمكن للصفة أن تقول هذا الكلام ولا محلها، ثم إذا نزلت الرحمة إلى السماء الدنيا ولم تنزل إلينا فأبي منفعة لنا في ذلك. اهـ

الثالث: معلوم أنه لا يجيب الدعاء ويغفر الذنوب ويعطي كل سائل إلا الله، وأمره ورحمته لا تفعل شيئاً من ذلك؛ الكلمات الحسان (٢٧٠).

الرابع: إجماع السلف رضوان الله عليهم على إثبات نزول الله تعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل بل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

الخامس: ما ذكره الدارمي في الرد على الجهمية (ص ٨٢) ومعنى عبارته أننا أتينا بنصوص عن النبي وأصحابه والتابعين صحيحة صريحة أن الله ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة، وقد علمتم أننا لم نخترع هذه الروايات فأتوا ببعضها أنه لا ينزل منصوباً كما روينا عنهم النزول منصوباً. اهـ

وذهب بعضهم إلى أن النزول مجاز وأن المراد بالنزول الإحسان والرحمة وأيد باطله، بقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦]، قال: معلوم أن الأنعام ثمانية أزواج لم تنزل من السماء إلى الأرض، وهذا الكلام مردود على قائله.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في المجموع (٢٥٧/١٢): ليس في القرآن ولا في السنة لفظ نزول إلا وفيه معنى النزول المعروف - أي الهبوط والدنو من علو -، وهذا هو اللائق بالقرآن فإنه نزل بلغة العرب ولا تعرف العرب نزولاً إلا بهذا المعنى، ولو أريد غير هذا المعنى لكان خطأً بغير لغتها. اهـ

وقال (٢٤٧-٢٤٩/١٢): النزول في كتاب الله ثلاثة أنواع نزول مقيد بأنه منه، ونزول مقيد بأنه من السماء، ونزول غير مقيد لا بهذا ولا بهذا - أي مطلق -.

فالأول: لم يرد إلا في القرآن قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وقال: ﴿قُلْ نَزَلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١].

ولهذا قال السلف: القرآن كلام الله ليس بمخلوق منه بدأ وإليه يعود.

وأما النزول المقيد بالسماء فقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]، والسماء اسم جنس لكل ما على، فإذا قيده بشيء معين تقيد به كقوله في غير موضع من السماء مطلق أي في العلو، ثم قد قيده في موضع آخر بقوله: ﴿أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٩].

وقوله: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَّتِهِ وَيُنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَابِرُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ [النور: ٤٣].

ومما يشبه نزول القرآن قوله: ﴿يُنْزِلُ الْمَلَكُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]، فنزول الملائكة هو نزولهم بالوحي من عنده.

وأما المطلق فمنها ما ذكر في إنزال السكينة: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيْسَدَهُ لِجُنُودِهِ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠]، ومن ذلك إنزال الميزان وجهور العلماء على أنه المراد به العدل.

إلى أن بين أن المراد بإنزال الحديد هو إنزاله من رؤوس الجبال، والمراد بإنزال الأنعام نزولها من بطون أمهاتها وأصلاب آبائها؛ اهـ مختصراً.

وذكر ابن القيم أيضاً كما في مختصر الصواعق (٢/ ٢٢٤): من الأوجه التي تدل على أن النزول هنا حقيقي وبعيد عن قرينة المجاز التعبير عنه بعبارات متنوعة كالهبوط والدنو والمجيء والإتيان والطواف في الأرض قبل يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، وقال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِكَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. ففرق بين إتيان الملائكة وإتيان نفسه.

شبهات أهل التحريف في أهل النزول:

قالوا: الليل ينتقل من مكان إلى آخر، فثلث الليل مثلاً في الشرق ينتقل حتى يكون في الغرب فعلى هذا يكون الله دائماً في نزول؟

قال شيخ الإسلام (٢٤٣/٥-٢٤٤): والليل يختلف فيكون ثلثه في المشرق قبل أن يكون ثلثه بالمغرب، ونزوله الذي أخبر به رسول الله إلى سماء هؤلاء في ثلث ليلهم وإلى سماء هؤلاء في ثلث ليلهم، لا يشغله شأن عن شأن وكذلك قربته من الداعي المتقرب إليه، والساجد لكل واحد يحسبه أين كان وحيث كان والرجلان يسجدان في موضع واحد، ولكل واحد منهما قرب يخصه لا يشركه فيه الآخر.

والنصوص الواردة في الهدى والشفاء والذي بلغها بلاغاً مبيناً هو أعلم الخلق بربه وأنصحهم لخلقه وأحسنهم بياناً وأعظم بلاغاً...

وكل من من الله عليه ببصيرة في قلبه تكون معه معرفة بهذا، قال الله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦]، وقال في ضدهم: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُفُّوا فِي الْأُظْلُمَاتِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلُّهُ وَمَنْ يَشَاءُ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]. اهـ

وقال ابن رجب في فضل علم السلف على الخلف كما نقله صاحب الكلمات الحسان (٢٨٦): ومعلوم بالضرورة من دين الإسلام قبح هذا الاعتراض وأن رسول الله وخلفاءه لو سمعوا من يعترض به لما ناظروه بل بادروا إلى عقوبته وإحاقه بزمرة المخالفين المنافقين الكاذبين. اهـ

ويجب علينا أيضاً الإيمان بما جاء من نصوص صفات الله الفعلية والذاتية من المعاني والحقائق والكف عن محاولة التكييف والتمثيل أو التعطيل، فالله ليس كمثال شيء وهو السميع البصير.

فالذي تعبدنا الله تعالى به أن نؤمن أنه ينزل ولم يتعبدنا بكيف ينزل ولا غيرها من تراهاات المبتدعة بل ﴿كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

هل نقول: نزل بذاته أم لا ؟

نحن نؤمن أن الله سبحانه وتعالى ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل حقيقة، لكن هل نقول ينزل بذاته ؟

جاء حديث مرفوع من طريق نعيم بن حماد عن جرير عن ليث عن بشر عن أنس أن النبي قال: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَنْزِلَ عَنْ عَرْشِهِ نَزَلَ بِذَاتِهِ».

قال ابن تيمية (٣٩٤ / ٥) من مجموع الفتاوى : ضعف هذا اللفظ أبو القاسم إسماعيل التميمي وغيره من الحفاظ مرفوعاً، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات . اهـ

وقال ابن القيم كما في المختصر (٢٢٣ / ٢): وهذا اللفظ لا يصح عن النبي .
قال ابن القيم كما في المختصر (٢٢٣ / ٢): إن الخبر وقع عن نفس ذات الله لا عن غيره، فإنه قال: «إِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ»، فهذا خبر عن معنى لا عن لفظ.
وقوله: ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، هو خبر عن ذات الرب تعالى فلا يحتاج المخبر أن يقول الله خالق كل شيء بذاته ...

وكذلك جميع ما أخبر الله به عن نفسه إنما هو خبر عن ذاته لا يجوز أن يخص من ذلك خبراً واحداً البتة، فالسامع قد أحاط علماً بأن الخبر إنما هو عن ذات المخبر عنه ...

فلا حاجة بنا أن نقول استوى على عرشه بذاته وينزل إلى السماء بذاته كما إننا لا نحتاج أن نقول خلق بذاته وقدر بذاته وسمع وتكلم بذاته، وإنما قال أئمة السنة ذلك إبطالاً لقول المعطلة. اهـ

وممن قال إنه ينزل بذاته سبحانه وتعالى الإمام أبو حامد والإمام عبد الجليل كوتاه كما ذكر ذلك ابن رجب في فتح الباري (٢٧٨/٩).

وقد علق الذهبي على قول كوتاه السابق ومسألة النزول، فالإيمان به واجب وترك الخوض في لوازمه أولى وهو سبيل السلف فما قال هذا نزوله بذاته إلا إرغاماً لمن تأوله، وقال نزوله إلى السماء الدنيا بالعلم فقط نعوذ بالله من مرأى في الدين، وكذا قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، ونحوه فنقول جاء وتنزل، وننتهي عن القول ينزل بذاته كما لا نقول ينزل بعلمه بل نسكت ولا نتصافح على الرسول بعبارة مبتدعة، والله أعلم اهـ. السير (٣٣١/٢).

مسألة هل يخلو منه العرش أم لا ؟

قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٣٧٥ / ٥): ... ثم بعد هذا هل يخلو منه العرش أو لا يخلو؟ هذه مسألة أخرى تكلم فيها أهل الإثبات:

١ - فمنهم من قال: لا يخلو منه العرش، ونقل ذلك عن أحمد في رسالته إلى مسدد وعن إسحاق بن راهويه وحماد بن زيد وعثمان بن سعيد الدارمي وغيرهم قال: ومنهم من أنكر ذلك وطعن في هذه الرسالة وقال راويها عن أحمد مجهول لا يعرف.

ثم نقل أثر حماد بن زيد الذي ذكره الخلال في كتابه السنة وأنه سئل عن حديث النزول وقيل له: يتحول من مكان إلى مكان، فسكت حماد ثم قال: هو في مكانه يقرب من خلقه كيف شاء.

وأما أثر إسحاق فقد أخرجه ابن بطة أنه قال له ابن طاهر: تروون أن الله ينزل إلى السماء الدنيا؟ قال: نعم رواها الثقات الذين يروون الأحكام فقال ابن طاهر: ينزل ويدع عرشه فقلت: يقدر أن ينزل من غير أن يخلو منه العرش، قال: نعم، قلت: ولم تتكلم في هذا.

٢ - ومنهم من ينكر أن يقال يخلو ولا يخلو، كما يقول ذلك الحافظ عبد الغني المقدسي وغيره.

٣ - ومنهم من يقول يخلو منه العرش، وقد صنف ابن منده مصنفًا في الإنكار على من يقول: لا يخلو منه العرش. اهـ

وقال (٤١٤/٥) بعد أن ذكر الأقوال: وكثير من أهل الحديث يتوقف عن أن يقول: يخلو أولاً يخلو وجمهورهم على أنه لا يخلو منه العرش. اهـ والتوقف أسلم نقول: ينزل ربنا نزولاً حقيقياً يليق بجلاله ولا نخوض في لوازم ذلك.

الحركة والانتقال:

ويلحق بهذه المسألة هل نزول الله سبحانه وتعالى إلى السماء الدنيا يكون بحركة وانتقال أم لا؟

أولاً: يجب أن يعلم أن على المسلم أن يؤمن بما جاء عن الله سبحانه وتعالى وبما جاء عن النبي على مرادهما ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿أَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، إلى غيرها من الآيات.

فإن قول الله هو الحق المبين، ولأن الله هو أعلم بنفسه وبغيره سبحانه ولأن رسول الله أعلم الخلق بالله تعالى وأنصحهم أيضاً فما قاله قلناه وما سكت عنه يسعنا ما وسعه، والأولى في هذه المسألة هو التوقف على الدليل.

قال الذهبي في المذهب في اختصار السنن الكبرى (٤٧٠/٢): الصواب في حديث النزول ونحوه ما قاله مالك وأقرانه، يمر كما جاء بلا كيف، ولازم الحق حق ونفي الانتقال وإثباته عبارة محدثة، فإن ثبت في الأثر رويناها ونطقنا بها وإن نفيت في الأثر نطقنا بالنفي وإلا لزمنا السكوت وآمنا بما ثبت في الكتاب والسنة على مقتضاه.

وقال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٤٢٦/٦): والأحسن في هذا الباب مراعاة ألفاظ النصوص فالألفاظ التي جاء بها الكتاب والسنة في الإثبات تثبت والتي جاءت بالنفي تنفى والألفاظ المجملة كلفظ (الحركة) و(الانتقال)... يجب أن يقال إنه منزّه عن مماثلة المخلوقين من كل وجه. اهـ

قال ابن القيم كما في مختصر الصواعق (٢٥٧/٢): وأما الذين أمسكوا عن الأمرين وقالوا: لا نقول يتحرك وينتقل ولا ننفي ذلك عنه، فهم أسعد بالصواب والاتباع فإنهم نطقوا بما نطق به النص وسكتوا عما سكت، وتظهر صحة هذه الطريقة ظهوراً تاماً فيما إذا كانت الألفاظ التي سكت النص عنها مجملة محتملة لمعنيين صحيح وفاسد، كلفظ الحركة والجسم والانتقال والحيز والجهة. اهـ

وممن ذهب إلى إثبات الحركة لله تعالى عثمان بن سعيد الدارمي في رده على المريسي (ص ١٦٤)، ونقله شيخ الإسلام أيضاً في تعارض العقل والنقل عن حرب بن إسماعيل بن خلف الكرمانى صاحب الإمام أحمد قال: وغيرهما، قال: وذكر حرب أنه قول من لقيه من أئمة السنة كأحمد وإسحاق وعبد الله بن الزبير الحميدي وسعيد بن منصور، وقال عثمان بن سعيد وغيره: الحركة من لوازم الحياة فكل حي متحرك، وجعلوا نفي هذا من أقوال الجهمية.

قال: وطائفة أخرى من السلف كنعيم بن حماد والبخاري وأبي بكر بن خزيمة وغيرهم كأبي عمر بن عبد البر وأمثاله يثبتون المعنى الذي يثبت به هؤلاء ويسمون ذلك فعلاً ونحوه لكن يمتنعون عن إثبات لفظ الحركة لكونه غير مأثور.

وأصحاب أحمد منهم من يوافق هؤلاء كأبي بكر عبد العزيز وأبي عبد الله بن بطة وأمثالهما، ومنهم من يوافق الأولين كأبي عبد الله بن حماد وأمثاله. اهـ

معنى النزول عند الأشعري:

معنى النزول عند الأشاعرة ومن وافقهم ممن ينفون قيام الأفعال الاختيارية به سبحانه: تقريب العرش إلى ذاته من أجل أنه يقوم به فعل، بل يجعل أفعاله اللازمة كالنزول والاستواء كأفعاله المتعدية كالخلق والإحسان وكل ذلك هو المفعول المنفصل عنه. اهـ شرح حديث النزول لشيخ الإسلام (ص ١٨١).

وقال البيهقي في الأسماء والصفات: ... عن الأشعري أن المراد بالنزول هو فعل يحدثه الله في السماء الدنيا كل ليلة يسميه نزولاً بلا حركة ولا نقلة. اهـ

وسبب قولهم هذا أنهم ينفون قيام الحوادث به، وهذا القول مخالف لبداة العقول، فضلاً عن المنقول، وما علم من الأصول.

بينما السلف يقولون: ينزل كيف شاء ويفعل ما شاء وكما شاء.

قال الفضيل بن عياض: إذا قال لك الجهمي: أنا أكفر برب ينزل عن مكانه، فقل: أنا أؤمن برب يفعل ما يشاء.

وسواء عليك فهمت سفسطة القوم أم لا، فالذي يلزم الإيمان بكل ما جاء عن الله سبحانه وتعالى، وعن رسوله في مسائل الصفات بدون تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، والواجب على المسلم عدم الخوض فيما يعكر عليه معتقده السليم، ولكن لجأ أهل السنة والحديث إلى ذكر أقوال الجهمية والمعتزلة والأشاعرة من أجل تبين عوارها لا فرحاً بوجودها، فالله المستعان وعليه التكلان.



إثبات صفتي المجيء والإتيان لله

صفتي المجيء والإتيان من الصفات الفعلية وقد ذكر المجيء والإتيان في القرآن على وجهين:

الأول: المجيء والإتيان المطلق كقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٢١٠].

وهذا لا يكون إلا مجيئه سبحانه وتعالى، لأنه من إضافة الصفة إلى الموصوف، والإتيان والمجيء معاني تقوم بغيرها لا بنفسها فإضافتها إلى الله من إضافة الصفة إلى الموصوف.

الثاني: المجيء المقيد، فإذا كان مجيء رحمته وعذابه كان مقيداً كقوله: ﴿ثُمَّ جَاءَ اللَّهُ بِالْخَيْرِ﴾.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٥٢]، ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ [المؤمنون: ٧١]، ومن المجيء والإتيان المقيد قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَ اللَّهُ بُيُوتَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦]، فلما قيده سبحانه بالمفعول وهو البنيان وبالمجرور وهو القواعد دل ذلك على مجيء ما بينه فالله سبحانه لا يأتي من الأسفل ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتَهُمُ اللَّهُ مِّنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [الحشر: ٢].

ومعلوم أنها أتتهم الملائكة وجنود الله من المؤمنين ولا يمنع أن يكون في الآيتين إتيان على حقيقته ويدنو ممن يريد إهلاكهم بغضبه وانتقامه كما يدنو عشية عرفة؛ اهـ بتصرف من مختصر الصواعق (٢/٢٢٧).



خاتمة الفصل

وهكذا القول في بقية الصفات الخبرية كالقدم والساق والصفات، الفعلية كالضحك والغضب والسخط، إلى غير ذلك؛ فكل ما أثبتته الله تعالى ورسوله أثبتناه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، بل هو سبحانه ﴿فَعَالٌ لَّمَّا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، و ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وكل ما نفاه الله تعالى ورسوله نفيناه، وما لم يرد في الكتاب ولا السنة نفيا أو إثباتا فالقاعدة فيه التوقف في اللفظ والاستفصال في المعنى، فالمعاني الحقّة تثبت مع استخدام الألفاظ الشرعية، الثابتة في الكتاب والسنة، والمعاني الباطلة تُرد.

قال شيخ الإسلام في التدمرية في القاعدة الخامسة: ما أخبر به الرسول عن ربه فإنه يجب الإيمان به - سواء عرفنا معناه أو لم نعرف - لأنه الصادق المصدوق؛ فما جاء في الكتاب والسنة وجب على كل مؤمن الإيمان به وإن لم يفهم معناه وكذلك ما ثبت باتفاق سلف الأمة وأئمتها مع أن هذا الباب يوجد عامته منصوصا في الكتاب والسنة، متفق عليه بين سلف الأمة، وما تنازع فيه المتأخرون نفيا وإثباتا فليس على أحد بل ولا له: أن يوافق أحدا على إثبات لفظه أو نفيه حتى يعرف مراده، فإن أراد حقا قبل وإن أراد باطلا رد، وإن اشتمل كلامه على حق وباطل لم يقبل مطلقا ولم يرد جميع معناه بل يوقف اللفظ ويفسر المعنى، كما تنازع الناس في الجهة والتحيز وغير ذلك.

فلفظ الجهة قد يراد به شيء موجود غير الله فيكون مخلوقا كما إذا أريد بالجهة نفس العرش أو نفس السماوات، وقد يراد به ما ليس بموجود غير الله تعالى كما إذا أريد بالجهة ما فوق العالم، ومعلوم أنه ليس في النص إثبات لفظ الجهة ولا نفيه كما

فيه إثبات العلو والاستواء والفوقية والعروج إليه ونحو ذلك، وقد علم أن ما ثم موجود إلا الخالق والمخلوق والخالق مبين للمخلوق - سبحانه وتعالى - ليس في مخلوقاته شيء من ذاته؛ ولا في ذاته شيء من مخلوقاته.

فيقال لمن نفى الجهة: أتريد بالجهة أنها شيء موجود مخلوق؟ فالله ليس داخلا في المخلوقات أم تريد بالجهة ما وراء العالم؟ فلا ريب أن الله فوق العالم مبين للمخلوقات، وكذلك يقال لمن قال الله في جهة: أتريد بذلك أن الله فوق العالم؟ أو تريد به أن الله داخل في شيء من المخلوقات؟ فإن أردت الأول فهو حق وإن أردت الثاني فهو باطل.

وكذلك لفظ التحيز: إن أراد به أن الله تحوزه المخلوقات فالله أعظم وأكبر؛ بل قد وسع كرسیه السموات والأرض، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّى قَدَرَهُ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّتُ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]. وقد ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال: «يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَتَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟». وفي حديث ابن عباس: «مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ فِي يَدِ الرَّحْمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ».

وإن أراد به أنه منحاز عن المخلوقات؛ أي مبين لها منفصل عنها ليس حالاً فيها: فهو سبحانه كما قال أئمة السنة: فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه؛ انتهى.



الفصل الرابع

بقية المعتقد

إثبات عذاب القبر ونعيمه وما فيه من السؤال والضمة

عذاب القبر ونعيمه ثابت بالكتاب والسنة، وإجماع أهل السنة، أما الكتاب فأدلته متنوعة وإليك بعضها:

قال الله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِعَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ۖ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ۖ﴾ [غافر: ٤٥-٤٦]. قال الحافظ في الفتح (٢٩٩/٣): قال القرطبي: الجمهور على أن هذا العرض يكون في البرزخ، وهو حجة في تثبيت عذاب القبر.

وقال غيره: وقع ذكر عذاب القبر في هذه الآية مفسراً؛ لكنه حجة على من أنكر عذاب القبر. اهـ

وقال تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ۖ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۖ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۖ﴾ [الطور: ٤٥-٤٧].

قال في شرح الطحاوية: وهذا يحتمل أن يراد به القتل وغيره في الدنيا، وأن يراد به عذابهم في البرزخ وهو أظهر؛ لأن كثيراً منهم مات ولم يعذب في الدنيا، أو أن المراد أعم من ذلك. اهـ

وقول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

قال الإمام البخاري رحمه (٤٦٩٩): حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غندر،

حدثنا شعبة، عن علقمة بن مرثد، عن سعد بن عبيدة، عن البراء بن عازب

قال: قال النبي : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، «نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ».

وقال ابن رجب تعالى كما في أهوال القبور (٥٨): وأما نعيم القبر فقد

دل عليه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٨٨) ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ

كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿[الواقعة: ٨٨-٩١]﴾. وأقول: عذاب

القبر يدل عليه في هذه الآية أيضًا: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ (٩٢) ﴿فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ

﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ﴾ [الواقعة: ٩٢-٩٤]. قال ابن القيم في كتابه الروح ومنها:

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

وقد احتج بهذه الآية جماعة منهم: عبد الله بن عباس على عذاب القبر. اهـ

وقال: ومنها: ﴿يَأْتِيَنَّهَا نَفْسُ الْمُطْمَئِنَّةِ﴾ (٢٧) ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ (٢٨) فَأَدْخُلِي فِي

عِبَادِي ﴿[الفجر: ٢٧-٢٩]﴾.

قال: وقد اختلف السلف متى يقال لها ذلك فقال طائفة: يقال لها عند الموت،

وظاهر اللفظ مع هؤلاء فإنه خطاب للنفس التي تجردت عن البدن، وخرجت منه،

وقد فسر ذلك النبي بقوله في حديث البراء وغيره: «فَيَقُولُونَ: أَخْرِجِي رَاضِيَةً

مَرْضِيًّا عَنْكَ»، ﴿فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ [الفجر: ٢٩]، مطابق لقوله : «اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ

الْأَعْلَى». اهـ

وقد استدل بعضهم بقوله تعالى: ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ١ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿التكاثر: ١-٢﴾، لكن من باب الفائدة الحديث الذي أخرجه الترمذي برقم (٣٣٥٢) من طريق حجاج بن أرطاة، عن المنهال، عن زر بن حبیش، عن علي قال: "ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت: ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ١ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿التكاثر: ١-٢﴾"، ضعيف.

حجاج ابن أرطاة، الراجح: ضعفه. والمنهال بن عمرو: لم يسمع من زر، كما في التهذيب .

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، قال ابن كثير بعد ذكر الآية: تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ. اهـ

عن أبي هريرة قال: «إِذَا خَرَجَتْ رُوحُ الْمُؤْمِنِ تَلْقَاهَا مَلَكَانِ يُصْعِدَانِهَا» - قَالَ حَمَّادٌ: فَذَكَرَ مِنْ طَيْبٍ رِيحَهَا وَذَكَرَ الْمِسْكَ - قَالَ: «وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ: رُوحٌ طَيِّبَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الْأَرْضِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ وَعَلَى جَسَدٍ كُنْتَ تَعْمُرِيْنَهُ، فَيَنْطَلِقُ بِهِ إِلَى رَبِّهِ ، ثُمَّ يَقُولُ: انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الْأَجَلِ». قال: «وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ - قَالَ حَمَّادٌ وَذَكَرَ مِنْ نَتْنِهَا، وَذَكَرَ لَعْنًا - وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ رُوحٌ: خَبِيثَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الْأَرْضِ. قَالَ فَيُقَالُ: انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الْأَجَلِ». قال أبو هريرة: فرد رسول الله ربيعة كانت عليه، على أنفه، هكذا. أخرجه مسلم (٢٨٧٢).

وعن أبي هريرة قال عن رسول الله قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا قُبِضَ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِحَرِيرَةٍ بَيْضَاءَ فَتَقُولُ اخْرُجِي إِلَى رُوحِ اللَّهِ فَتَخْرُجُ كَأَطْيَبِ رِيحِ مِسْكِ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيَسَاوِلُهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا يَشْمُونَهُ حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ بَابَ السَّمَاءِ، فَيَقُولُونَ: مَا هَذِهِ

الرَّيْحُ الطَّيِّبَةُ الَّتِي جَاءَتْ مِنَ الْأَرْضِ؟ وَلَا يَأْتُونَ سَمَاءً إِلَّا قَالُوا مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ مِنْ أَهْلِ الْغَائِبِ بِغَائِبِهِمْ، فَيَقُولُونَ: مَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ فَيَقُولُونَ: دَعُوهُ حَتَّى يَسْتَرِيحَ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي غَمِّ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: قَدْ مَاتَ، أَمَّا أَمَّا تَكُمُ؟ فَيَقُولُونَ: ذُهِبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الْهَآوِيَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَأْتِيهِ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ بِمُسْحٍ، فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي إِلَى غَضَبِ اللَّهِ، فَتَخْرُجُ كَأَنَّ رِيحَ حَيْفَةٍ فَتَذْهَبُ بِهِ إِلَى بَابِ الْأَرْضِ؛ أَخْرَجَهُ ابْنُ حَبَانَ كَمَا فِي الْإِحْسَانِ رَقْم (٣٠١٤) وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ، وَأَخْرَجَهُ رَقْم (٣٠١٣) بِنَحْوِ مَا تَقْدِمُ وَفِيهِ: «فَيَسْأَلُ مَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ مَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ مَا فَعَلْتَ فُلَانَةٌ؟»؛ قَالَ: «وَأَمَّا الْكَافِرُ فَإِذَا قُبِضَتْ نَفْسُهُ وَذُهِبَ بِهَا إِلَى بَابِ الْأَرْضِ يَقُولُ حَزَنَةُ الْأَرْضِ مَا وَجَدْنَا رِيحًا أَنْتَنَ مِنْ هَذِهِ فَتَبْلُغُ بِهَا إِلَى الْأَرْضِ السُّفْلَى».

و أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ (٢٣٠٨): عَنْ هَانِيٍّ مَوْلَى عَثْمَانَ قَالَ: كَانَ عَثْمَانُ إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرِ بَكِي حَتَّى يَبْلُغَ لَحِيَّتَهُ، فَقِيلَ لَهُ: تَذَكَّرِ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ فَلَا تَبْكِي، وَتَبْكِي مِنْ هَذَا؟! قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ». قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلَّا وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ».

وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ (٨٦): عَنْ أَسْمَاءَ قَالَتْ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ وَهِيَ تَصَلِّي فَقُلْتُ: مَا شَأْنُ النَّاسِ؟ فَأَشَارَتْ إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا النَّاسُ قِيَامٌ، فَقَالَتْ: سَبْحَانَ اللَّهِ، قُلْتُ: آيَةُ فَأَشَارَتْ بِرَأْسِهَا أَيْ نَعَمْ فَقَمْتُ حَتَّى عَلَانِي الْعَشِي، فَجَعَلْتُ أَصْبُ عَلَى رَأْسِي الْمَاءَ، فَحَمَدَ اللَّهُ النَّبِيَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْ شَيْءٍ لَمْ أَكُنْ أُرِيئُهُ إِلَّا رَأَيْتُهُ فِي مَقَامِي، حَتَّى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، فَأُوحِيَ إِلَيَّ: أَنْكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ مِثْلَ أَوْ قَرِيبَ - لَا

أَذْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ - مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ، يُقَالُ مَا عَلِمَكَ بِهَذَا الرَّجُلِ؟
فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ أَوْ الْمُؤْمِنَةُ - لَا أَذْرِي بَأَيِّهِمَا قَالَتْ أَسْمَاءُ - فَيَقُولُ: هُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ،
جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى، فَأَجَبْنَا وَاتَّبَعْنَا، هُوَ مُحَمَّدٌ ثَلَاثًا، فَيَقَالُ: نَمَّ صَالِحًا قَدْ عَلِمْنَا إِنَّ
كُنْتَ لَمُؤْمِنًا بِهِ. وَأَمَّا الْمُنَافِقُ أَوْ الْمُرْتَابُ - لَا أَذْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ - فَيَقُولُ: لَا
أَذْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ، أخرجه مسلم (٩٠٥).

وأخرج البخاري (١٣٦٩): عن البراء بن عازب ، عن النبي
قال: «إِذَا أُقْعِدَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ أُتِيَ، ثُمَّ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ،
فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ قَفَّ فَقْجٌ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة بهذا، وزاد ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ
الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [إبراهيم: ٢٧]، «نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ»، أخرجه مسلم (٢٨٧١).

وأخرج رقم (١٣٧٢): عن عائشة : أن يهودية دخلت عليها فذكرت
عذاب القبر فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر، فسألت عائشة رسول الله
عن عذاب القبر، فقال: «نَعَمْ، عَذَابُ الْقَبْرِ» قالت عائشة: فما رأيت رسول الله
بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر.

وفي رواية «عَذَابُ الْقَبْرِ حَقٌّ»، أخرجه مسلم برقم (٥٨٤). ولفظه: أن عائشة
قالت: دخل على رسول الله وعندي امرأة من اليهود وهي تقول: هل شعرت
أنكم تفتنون في القبر؟ قالت: فارتاع رسول الله وقال: «إِنَّمَا تُفْتَنُ يَهُودُ»، قالت
عائشة: فلبثنا ليلي ثم قال رسول الله : «هَلْ شَعَرْتِ أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ
فِي الْقُبُورِ؟»، قالت عائشة: فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ، بَعْدُ يَسْتَعِيدُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ.

وأخرج مسلم (٥٨٥): عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله بعد ذلك يستعيد من عذاب القبر.

وأخرج البخاري (٦٣٦٦): عن عائشة قالت: دخلت عليَّ عجوزان من عجز يهود المدينة فقالتا: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم، قالت: فكذبتهما ولم أنعم أن أصدقها فخرجتا، ودخل على رسول الله فقلت له: يا رسول الله، إن عجوزين وذكرْتُ له فقال: «صَدَقْتَا، إِنَّهُنَّ يُعَذَّبُونَ عَذَابًا تَسْمَعُهُ الْبَهَائِمُ كُلُّهَا»، فما رأيته بعد في صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر. أخرجه مسلم برقم (٥٨٦).

وأخرج البخاري (١٣٧٦): عن ابنة خالد بن سعيد بن العاص: أنها سمعت النبي وهو يتعوذ من عذاب القبر.

وموسى بن عقبة: لم يسمع من أحد من الصحابة إلا منها، كما صرح بذلك هو عند أحمد.

وأخرج الترمذي (١٠٧٠): عن أبي هريرة قال: قال رسول الله : «إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ - أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ - أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ: النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوِّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ، نَمْ، فَيَقُولُ: أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرْهُمْ، فَيَقُولَانِ: نَمْ كَنُومَةِ الْعَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ، فَقُلْتُ مِثْلَهُ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ

ذَلِكَ، فَيُقَالُ لِلْأَرْضِ: التَّيْمِي عَلَيْهِ، فَتَلْتَمُّ عَلَيْهِ، فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلَاعُهُ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ».

وأخرج أحمد (٣٦/٣): عن جابر قال: خرجنا مع رسول الله يوماً إلى سعد بن معاذ حين توفي قال: فلما صلى رسول الله عليه ووضع في قبره، وسُويَّ عليه سبوح رسول الله فسبحنا طويلاً، ثم كبر فكبرنا فقليل: يا رسول الله، لم سبحت ثم كبرت قال: «لَقَدْ تَضَاقَقَ عَلَى هَذَا الْعَبْدِ الصَّالِحِ قَبْرُهُ حَتَّى فَرَّجَهُ اللَّهُ عَنْهُ»، الحديث أخرجه «الطبراني» (٥٣٤٦) والحديث حسن.

وعند ابن حبان كما في «الإحسان» (٣١١٢): عن عائشة، عن النبي قال: «لِلْقَبْرِ ضَغْطَةٌ لَوْ نَجَا مِنْهَا أَحَدٌ، لَنَجَا مِنْهَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ».

مسألة حول ضمة القبر:

قال السفاريني في لوامع الأنوار (١٦/٢): قال أبو القاسم السعدي: والفرق بين المسلم والكافر في ضمة القبر دوامها للكافر، وحصول هذه الحالة للمؤمن في أول نزوله إلى قبره، ثم يعود الانفساح له فيه...

قال: والمراد بضغطة القبر التقاء جانبيه على جسد الميت، وقال الحكيم الترمذي: سبب هذه الضغطة أن ما من أحد إلا وقد ألم بخطيئة ما، وإن كان صالحاً فجعلت هذه الضغطة جزاءً لها، ثم تدركه الرحمة، ولذلك ضغط سعد بن معاذ.

قال: وأما الأنبياء فلا نعلم أن لهم في القبور ضمة، ولا سؤالاً لعصمتهم؛ لأن السؤال عن الأنبياء وما جاء به فكيف يُسألون عن أنفسهم. اهـ

أقول قال بعضهم: أن ضمة القبر للمؤمن كضمة الأم الحنون، والحديث ردٌّ على هذا القول، فرسول الله قال: «لَقَدْ ضُمَّ ضَمَّةً، ثُمَّ فُرِّجَ عَنْهُ»، فلفظة «فُرِّجَ» تدل على شدة، والله الموفق للصواب.

وفي القبر فتنة وهي السؤال، ويستثنى منها:

١- الأنبياء

لأنهم يسأل عنهم، ولا يسألون عن أنفسهم والفتنة تكون بهم كما في حديث عائشة الذي أخرجه الإمام أحمد (١٣٩/٦) عن عائشة وفيه: «فَأَمَّا فِتْنَةُ الْقَبْرِ: فَبِي تُفْتَنُونَ، وَعَنِّي تُسْأَلُونَ...»، الحديث.

٢- الشهيد:

أخرج الإمام النسائي (٢٠٥٥): عن رجل من أصحاب النبي : أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما بال المؤمن يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال: «كَفَى بِنَارِ قَبْرِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً».

٣- المرابط في سبيل الله:

أخرج مسلم (١٩١٣): عن سلمان قال: سمعت رسول الله يقول: «رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَانُ».

وأخرج أبو داود (٢٥٠٠): عن فضالة بن عبيد: أن رسول الله قال: «كُلُّ الْمَيِّتِ يُحْتَمُّ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الْمُرَابِطُ، فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيُؤَمِّنُ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ».

وتعاد الروح إلى الجسد بعد الدفن، وأن السؤال واقع على المؤمن والكافر، ويقع على الروح والجسد، أخرج البخاري (١٣٧٤): عن أنس بن مالك : أنه حدثهم أن رسول الله قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَنَّهُ مَلَكَانِ فَيَقْعِدَانِهِ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيَقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبَدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ، فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا».

قَالَ قَتَادَةُ: وَذُكِرَ لَنَا: أَنَّهُ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى حَدِيثِ أَنَسٍ قَالَ: «وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ فَيَقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيَقَالُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ، وَيُضْرَبُ بِمِطَارِقٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ»، أخرج مسلم مختصراً (٢٨٧٠).

قال الحافظ في الفتح (٣/ ٣٠١): وقد أخذ ابن جرير وجماعة من الكرامية بهذه القصة: أن العذاب في القبر يقع على البدن فقط، وأن الله يخلق فيه إدراكاً بحيث يسمع ويعلم ويلذ ويألم.

وذهب ابن هبيرة، وابن حزم إلى أن السؤال يقع على الروح فقط، من غير عود إلى الجسد.

وذهب الجمهور فقالوا: تعاد الروح إلى الجسد أو بعضه، كما ثبت في الحديث، ولو كان على الروح فقط لم يكن للبدن بذلك اختصاص.

والحامل للقائلين أن السؤال يقع على الروح فقط: أن الميت قد يشاهد في قبره حال المسائلة، لا أثر فيه من إقعاد ولا غيره، ولا ضيق في قبره ولا سعة، وكذلك غير المقبور كالمصلوب.

وجوابهم: أن ذلك غير ممتنع في القدرة، بل له نظير في العادة، وهو النائم فإنه يجد لذة وألماً لا يدركه جليسه، وإنما أتى اللفظ على ما قبله، والظاهر أن الله صرف أبصار العباد وأسماعهم عن مشاهدة ذلك، وستره عنهم إبقاء عليهم لئلا يتدافنوا، وليست للجوارح الدنيوية قدرة على إدراك أمر الملكوت، إلا من شاء الله، وقد ثبتت الأحاديث بما ذهب إليه الجمهور. اهـ

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية نقلاً عن ابن القيم (٢٤٢): والشرع لا يأتي بما تحار فيه العقول، فإنّ عود الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا.

وليس السؤال في القبر للروح وحدها، كما قال ابن حزم وغيره، وأفسد منه قول من قال: إنه للبدن بلا روح، والأحاديث الصحيحة ترد القولين. اهـ

وقال ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى (٢٨٩/٣) بعد ذكر حديث البراء الطويل: فقد صرح الحديث بإعادة الروح إلى الجسد، وباختلاف أضلاعه، وهذا يبيّن أن العذاب على الروح والبدن مجتمعين.

ونقل ابن القيم في الروح (٩٥)، وكما هو في مجموع الفتاوى (٢٦٢/٤) عن شيخ الإسلام قوله: بل العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة والجماعة، تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن، وتنعم وتعذب متصلة بالبدن، والبدن متصل بها فيكون النعيم والعذاب عليهما مجتمعين في هذه الحالة.

ثم ذكر أقوال طوائف ممن يشبّون عذاب القبر، ومذاهبهم فقال: وهؤلاء لهم في عذاب القبر ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه على الروح فقط.

الثاني: أنه عليها وعلى البدن بواسطتها.

الثالث: أنه على البدن فقط.

ثم قال : والقول الثالث الشاذ قول من يقول إن البرزخ ليس فيه نعيم ولا عذاب، بل لا يكون ذلك حتى تقوم الساعة، ثم قال: فجميع هذه الطوائف في أمر البرزخ ضلّال، إلا أنهم خير من الفلاسفة، فإنهم مقرّون بالقيامة الكبرى.

فإذا عرفت هذه الأقوال الباطلة فلتعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحياناً، ويحصل لها النعيم أو العذاب؛ اهـ بتصرف وانظر مجموع الفتاوى (٢٨٤/٤).

وكثير من المنكرين لعذاب القبر أنكروه بسبب اضطرابهم، وجعلهم أحوال الآخرة كأحوال الدنيا، وهذا غلط محض، بل عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ثابت بالكتاب والسنة، ولا تتكلم في كيفيته إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته، لكونه لا عهد له به في هذه الدار، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول، ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول، فإن عود الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا، بل تعاد الروح إليه إعادة غير المألوفة في الدنيا؛ اهـ من شرح الطحاوية (٣٩٩).

وقال ابن القيم في الروح (٨٤) في معرض رده على ابن حزم إنكاره لعودة الروح إلى الجسد، على أن قوله ثم تعاد روحه إلى بدنه، لا يدل على حياة مستقرة، وإنما يدل على إعادة لها إلى البدن، وتعلق به، فإن الروح لم تزل متعلقة ببدنها، وإن بلي وتمزق، وسر ذلك أن الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغاير في الأحكام:

الأول: تعلقها به في بطن أمه.

الثاني: تعلقها به بعد خروجه على وجه الأرض.

الثالث: تعلقها به في حال النوم، فلها به متعلق من وجه ومفارقة من وجه.

الرابع: تعلقها به في البرزخ، فإنها وإن فارقت وتجردت عنه، فإنها لم تفارقه فراقاً كلياً بحيث لا يبقى لها التفات إليه البتة، وقد ذكرنا في أول الجواب من الأحاديث ما يدل على ردها إليه وقت سلام المسلم، وهذا رد إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة.

الخامس: تعلقها به يوم بعث الأجساد، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه، إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً. اهـ

قال ابن القيم في الروح (١٠٦): ومما ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر، هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق العذاب ناله نصيب منه، قبر أم لم يقبر، فلو أكلته السباع أو حرق حتى صار رماداً ونسف في الهواء، أو صلب أو غرق في البحر، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور. اهـ

وقال الحافظ في فتح الباري: وإنما أضيف العذاب إلى القبر؛ لكون معظمه يقع فيه، وكون الغالب على الموتى أن يقبروا، وإلا فالكافر ومن شاء الله تعذيبه من العصاة يعذب بعد موته، ولو لم يدفن، ولكن ذلك محجوب عن الخلق إلا من شاء الله. اهـ

قال صديق حسن خان ، كما في الاعتقاد (٤٩٨): إن الله يُلقي في الميت نوعاً من الحياة التي يشعر بها الألم واللذة، وهذا يستلزم إعادة الروح في الجسد، حتى يتحرك الميت ويضطرب، والغريق والمأكول في بطون السباع والمصلوب يعذبون، ونحن لا نشعر بهم، ومن تأمل في عجائب ملك الله وغرائب قدرته وجبروته لا يستبعد مثل هذه الأمور، ولا ينكرها. اهـ

وقال النووي في شرح مسلم (١٩٨/١٧) في كلامه حول عذاب الميت: ولا يمنع من ذلك كون الميت قد تفرقت أجزاؤه، كما نشاهد في العادة، أو أكلته السباع أو حيتان البحر أو نحو ذلك، فكما أن الله يعيده للحشر، وهو سبحانه وتعالى قادر على ذلك، فكذلك يعيد الحياة إلى جزء منه، أو أجزاء، وإن أكلته السباع والحيتان. اهـ

والحياة في القبر حياة برزخية حقيقية مختلفة عن الحياة الدنيا:

قال القرطبي في المفهم شرح مسلم (١٤٧/٧) تحت شرح حديث أنس بن مالك : أنه يرى مقعديه من الجنة والنار فيراهما جميعاً، يدل على أن رؤيته حقيقة بالعين، وعلى هذا فيحيا الميت في قبره حياة محققة بحيث يرى ويسمع ويتكلم، وعلى هذا تدل أدلة الكتاب والسنة في غير ما موضع. اهـ

وقال عياض في إكمال المعلم (٤٠٥/٨): والذي يحمل سماع هؤلاء هو ما يحمل عليه سماع الموتى في سائر أحاديث عذاب القبر، وفتنته والتي لا مدفع فيها، وذلك بإحيائهم وإحياء جزء منهم يعقلون به، ويسمعون ويجيبون في الوقت الذي يريد الله تعالى. اهـ

وقال العلامة ابن ملك في مبارك الأزهار شرح مشارق الأنوار الجامع بين الصحيحين في قوله عليه الصلاة والسلام: «إنه ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا»: وفيه دلالة على حياة الميت في القبر؛ لأن الإحساس بدون الحياة ممتنع عادة؛ اهـ من الآيات البينات في عدم سماع الأموات (ج ١/ ص ١٨).

ولي بحمد الله تعالى رسالة في إثبات عذاب القبر ونعيمه كتبتها ردا على الرافضة الحوثيين قبحهم الله، ومن على شاكلتهم، ممن لا يؤمنون بالغيب كما أمر الله تعالى.



الإيمان بالعرش

ومن عقيدة أهل السنة، الإيمان بالعرش العظيم، الذي هو أكبر المخلوقات وأعلاها وأولها، وأن الله تعالى مستو عليه كما يليق بجلاله.

والأدلة على إثبات العرش كثيرة منها في القرآن:

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ ۗ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ۗ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦].

وقال تعالى: ﴿فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

ومن السنة ما جاء في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: بينا رسول الله جالس، جاء يهودي فقال: يا أبا القاسم ضرب وجهي رجل من أصحابك، فقال: «مَنْ؟». قال: رجل من الأنصار، قال: «ادْعُوهُ»، فقال: «أَضْرَبْتُهُ؟». فقال: سمعته بالسوق يحلف والذي اصطفى موسى على البشر، قلت:

أي خبيث، على محمد ، فأخذتني غصبة فضربت وجهه، فقال النبي : «لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى أَخِذْ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلَا أَذْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ، أَمْ حُوسِبَ بِصَعْقَةِ الْأُولَى».

والشاهد لنا من هذا الحديث قوله: «فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى أَخِذْ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ»، حيث إن للعرش قوائم، ولم يرد في الشرع تحديد عدد لها، وهذا الحديث هو من أقوى الأدلة على أن العرش ليس المراد به الملك أو الفلك التاسع.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله يقول: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ». وفي الحديث دلالة واضحة على أن العرش كان مخلوقاً على الماء قبل خلق السماوات، والأرض.

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: كان النبي يقول عند الكرب: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَلِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ».

وعن ابن عباس عن جويرية أن النبي خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال: «مَا زِلْتُ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكَ عَلَيْهَا؟»، قالت: نعم، قال النبي : «لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكَ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتُ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ»، أخرجه مسلم.

قال ابن تيمية: فهذا يبين أن زنة العرش أثقل الأوزان.

وعن جابر بن عبد الله عن النبي قال: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلِكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ»، أخرجه أبو داود.

وعن أبي هريرة عن النبي قال: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، جَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا»، قالوا: يا رسول الله أفلا ننبئ الناس بذلك؟ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَسَلُّوهُ الْفَرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»، أخرجه البخاري.

وقال البيهقي: "وأقارب أهل التفسير على أن العرش هو السرير وأنه جسم مجسم خلقه الله وأمر ملائكته بحمله وتعبدهم بتعظيمه والطواف به كما خلق في الأرض بيتاً وأمر بني آدم بالطواف به واستقباله في الصلاة، وفي الآيات والأحاديث والآثار دلالة واضحة على ما ذهبوا إليه".

وقال ابن كثير: "هو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة وهو كالقبة على العالم، وهو سقف المخلوقات".

وقد ذهب بعض أهل البدع إلى الزعم بأن السموات والأرض كانتا مخلوقتين قبل العرش، وهم بهذا يحاولون إخراج معنى الاستواء عن حقيقته، وهذا القول يردّه ما تقدم من الأحاديث والآيات.

قال ابن القيم كما في مختصر الصواعق (٢/١٣١): وهذا لم يقله أحد من أهل العلم أصلاً وهو مناقض لما دل عليه الكتاب والسنة وإجماع المسلمين أظهر

مناقضة، فإنه تعالى أخبر أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام وعرشه حينئذ على الماء، وهذه واو الحال أي خلقها في هذه الحال فدل على سبق العرش والماء للسموات والأرضين، ثم ذكر حديث ابن عمرو السابق. اهـ

مسائل تتعلق بالبَاب:

الأولى: هل القلم أول المخلوقات أم العرش؟

للعلماء في هذه المسألة قولان الأول: أن القلم أول المخلوقات وهو أسبق من العرش في الخلق.

وهو اختيار ابن جرير وابن الجوزي وهو ما يفهم من عمل من صنف في الأوائل كابن عروبة الحراني وأبي القاسم الطبري.

واستدل أصحاب هذا القول بحديث عبادة ولفظه: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ...»، الحديث.

قال ابن جرير عقب الحديث: وقول رسول الله الذي رويناه عنه أولى قول في ذلك بالصواب، لأنه كان أعلم في ذلك قولاً بحقيقته وصحته من غير استثناء منه شيئاً من الأشياء أنه تقدم خلق الله إياه خلق القلم، بل عم بقوله: «إِنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللَّهُ الْقَلَمُ». راجع لهذه الأقوال تاريخ الطبري (١/ ٣٥-٣٦)، و البداية والنهاية (١/ ٨)، توضيح المقاصد وتصحيح القواعد .

القول الثاني: إن العرش أول المخلوقات وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وابن كثير وابن العز وهو قول جمهور العلماء واستدلوا بحديث عبد الله

بن عمرو عند مسلم «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ».

وبحديث عمران بن حصين عند البخاري (٧٤١٨): «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ». فالحديث يدل على أن العرش كان موجوداً قبل كتابة المقادير.

قال ابن القيم في نونيته (١/ ٣٧٤-٣٧٥):

والناس مختلفون في القلم الذي	كتب القضاء به من الديان
هل كان قبل العرش أو هو بعده	قولان عند أبي العلا الهمداني
والحق أن العرش قبل لأنه	قبل الكتابة كان ذا أركان
وكتابة القلم الشريف تعقبت	إيجاده من غير فصل زمان
لما براه الله قال اكتب كذا	فغدا بأمر الله ذا جريان
فجرى بما هو كائن أبداً إلى	يوم المعاد بقدره الرحمن

وهذا هو القول الراجح ^(١).



(١) وراجع للمسألة شرح النونية لابن عيسى (١/ ٣٧٥-٣٧٧)، مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢١٣/ ١٨)، إجتماع الجيوش الإسلامية (٢٥٣-٢٥٤)، مختصر الصواعق (٢/ ٣٢٣)، شرح العقيدة الطحاوية (٢٩٥).

الإيمان باللوح والقلم

ومن قول أهل السنة الإيمان باللوح المحفوظ والقلم وقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]، وقال: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، وقال: ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِیْظٌ﴾ [ق: ٤].

قال الإمام البخاري تعالى (١٣ / رقم ٧٥٥٣): باب قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]، وقوله: ﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ [الطور: ١-٢]، وذكر حديث أبي هريرة رقم (٧٥٥٤) وأخرجه مسلم (٢٧٥١): «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي، فَهُوَ مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ».

وعن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: حدثني أبي قال: دخلت على عبادة فقال: يا بني إني سمعت رسول الله يقول: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، وذكر الحديث. أخرجه الترمذي (٢١٥٥) وأبو داود الطيالسي (٥٧٧) وابن أبي عاصم (١٠٥) وابن أبي عاصم (١٠٣) وأحمد (٣١٧/٥) وغيرهم، وله طرق خرجتها في شرحي على أصول السنة لابن أبي زمنين.

وجاء عن ابن عباس في قوله: ﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١]، قال: أول ما خلق الله القلم والدواة وهي النون، فقال له ربه: اكتب، قال: رب ما أكتب، قال: اكتب القدر خيره وشره، فجرى بما كان حتى تقوم الساعة. والحديث أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (١٣١) وابن جرير في تفسيره (٥٢٣/٢٣) من طرق

عن الأعمش عن أبي ضبيان به، وأخرجه (٥٢٤/٢٣) من طريق عطاء عن أبي الضحى عن ابن عباس به، وأخرجه أبو يعلى (٢١٧/٤) من طريق القاسم بن أبي بزة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعاً.

قال الوادعي في أحاديث معلة ظاهرها الصحة رقم (٢١١): الحديث ظاهره الصحة فرجاله كلهم ثقات، وذكر طرقاً له ثم قال: وقد خالف هذه الطريق ما هو أرجح منها وإليكم بالتفصيل، ثم ذكر ما تقدم الإشارة إليه، قال بعدها: فعلم من ذلك أن المرفوع شاذ وأن الصحيح وقفه على ابن عباس.

أنواع الأقلام:

الأول: القلم العام وهو المشار إليه في حديث «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ: اكْتُبْ...».

الثاني: قلم الوحي.

ثم قال: والذي دلت عليه السنة أن الأقلام أربعة وهذا التقسيم غير التقسيم المتقدم:

القسم الأول: القلم العام الشامل لجميع المخلوقات وهو ما تقدم ذكره.

الثاني: هو القلم الذي تعلق بخلق آدم وهو قلم عام أيضاً.

الثالث: حين يرسل الله الملك إلى الجنين في بطن أمه.

الرابع: الموضوع على العبد عند بلوغه، الذي بأيدي الكرام الكاتبين؛ أفاده ابن أبي العز (٢٦٥-٢٦٦).

قلت: يدل على هذا القلم حديث علي عند أبي داود: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَخْتَلِمَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ».

ويدل على الذي قبله حديث حذيفة ابن أسيد عند مسلم: «يَدْخُلُ الْمَلِكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ، أَوْ خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَيَكْتُبَانِ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ أَذْكَرٌ أَوْ أَثْنَى؟ فَيَكْتُبَانِ، وَيُكْتُبُ عَمَلُهُ وَأَثَرُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ، ثُمَّ تُطَوَّى الصُّحُفُ، فَلَا يُزَادُ فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ».

ويدل على القلم الثاني حديث عبد الله بن عمرو في سنن الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَفِي يَدِهِ كِتَابَانِ فَقَالَ: «اتَّذَرُونَ مَا هَذَانِ الْكِتَابَانِ؟». فَقُلْنَا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنَا فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَدِهِ الْيُمْنَى: «هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا». ثُمَّ قَالَ لِلَّذِي فِي شِمَالِهِ: «هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ النَّارِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلَا يُزَادُ فِيهِمْ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا»، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: فَفِيمَ الْعَمَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كَانَ أَمْرٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ، فَقَالَ: «سَدُّوا وَقَارِبُوا فَإِنَّ صَاحِبَ الْجَنَّةِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنْ عَمِلَ أَيُّ عَمَلٍ، وَإِنَّ صَاحِبَ النَّارِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَإِنْ عَمِلَ أَيُّ عَمَلٍ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدَيْهِ فَنَبَذَهُمَا، ثُمَّ قَالَ: «فَرَعَ رَبُّكُمْ مِنَ الْعِبَادِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ».



الإيمان بأن الجنة والنار موجودتان الآن

ومن قول أهل السنة أن الجنة والنار قد خلقتا، قال: ﴿وَقُلْنَا يَكَادُمْ أَسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، وقال: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ [يس: ٢٦]، وقال: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦].

ولم يخالف في ذلك إلا أهل البدع من المعتزلة والخواارج، والأدلة على ذلك متوافرة متواترة استقصينا كثيرًا منها في كتاب الإيمان والله الحمد منها:

قوله تعالى: ﴿أَعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١]، وقوله: ﴿أَعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقوله: ﴿أَعِدَّتْ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَأَعْيُنُ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ﴾.

وقال عن النار: ﴿أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، وقوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ (١١) ﴿لِلطَّغِينِ مَأْبًا﴾ [النبا: ٢١-٢٢]، وقوله تعالى في الجنة: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ (١٣) ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ (١٤) ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ [النجم: ١٣-١٥].

ومن السنة، ما أخرجه في الصحيحين ، أخرج البخاري (٥٢٢٦): عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ النَّبِيِّ قَالَ: ﴿دَخَلْتُ الْجَنَّةَ أَوْ أَتَيْتُ الْجَنَّةَ فَأَبْصَرْتُ قَصْرًا فَقُلْتُ لِمَنْ هَذَا قَالُوا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَهُ فَلَمْ يَمْنَعْنِي إِلَّا عِلْمِي بِغَيْرَتِكَ﴾. قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَيِّ أَنْتَ وَأُمِّي يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَوْ عَلَيْكَ أَغَارُ. أخرجه مسلم (٢٣٩٤).

وأخرج (٣٢٤٢): عن أبي هريرة قَالَ بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ إِذْ قَالَ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي فِي الْجَنَّةِ فَإِذَا امْرَأَةٌ تَتَوَضَّأُ إِلَى جَانِبِ قَصْرِ فَقُلْتُ لِمَنْ هَذَا الْقَصْرُ؟ فَقَالُوا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ؛ فَذَكَرْتُ غَيْرَتَهُ فَوَلَّيْتُ مُدْبِرًا». فَبَكَى عُمَرُ وَقَالَ أَعَلَيْكَ أَغَارُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. أخرجه مسلم (٢٣٩٥).

وأخرج (٣٢٤١): حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ حَدَّثَنَا سَلَمُ بْنُ زَرِيرٍ حَدَّثَنَا أَبُو رَجَاءٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ حُصَيْنٍ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ».

وأخرج (٣٢٤٠): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ فَإِنَّهُ يُعْرَضُ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ». أخرجه مسلم (٨٦٦).

وأخرج البخاري (٤٥٠): عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ الْحَوْلَانِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ يَقُولُ عِنْدَ قَوْلِ النَّاسِ فِيهِ حِينَ بَنَى مَسْجِدَ الرَّسُولِ إِنَّكُمْ أَكْثَرْتُمْ وَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ يَقُولُ: «مَنْ بَنَى مَسْجِدًا - قَالَ بُكَيْرٌ حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ: يَتَنَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ - بَنَى اللَّهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ». أخرجه مسلم (٥٣٣).

وأخرج مسلم (٢٤٥٦): عَنْ أَنَسٍ: عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَسَمِعْتُ خَشْفَةً، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: هَذِهِ الْغَمِيصَاءُ بِنْتُ مِلْحَانَ أُمِّ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ».

وأخرج (٢٤٥٧): عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «أُرِيتُ الْجَنَّةَ فَرَأَيْتُ امْرَأَةً أَبِي طَلْحَةَ، ثُمَّ سَمِعْتُ خَشْخَشَةً أَمَامِي فَإِذَا بِلَالٌ».

وأخرج (٢٤٥٨): عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لبلال عند صلاة الغداة: «يَا بِلَالُ حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتُهُ، عِنْدَكَ فِي الْإِسْلَامِ مَنَفَعَةٌ، فَإِنِّي سَمِعْتُ اللَّيْلَةَ خَشَفَ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ». قال: مَا عَمِلْتُ عَمَلًا فِي الْإِسْلَامِ أَرْجَى عِنْدِي مَنَفَعَةٌ، مِنْ أَنِّي لَا أَتَطَهَّرُ طَهُورًا تَامًّا، فِي سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ، إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطُّهُورِ، مَا كَتَبَ اللَّهُ لِي أَنْ أُصَلِّيَ.

وأخرج (٤٢٦): عن المختار بن فلفل عن أنس قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم فلما قضى الصلاة أقبل علينا بوجهه فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي إِمَامُكُمْ، فَلَا تَسْبِقُونِي بِالرُّكُوعِ وَلَا بِالسُّجُودِ، وَلَا بِالْقِيَامِ وَلَا بِالْإِنْصِرَافِ، فَإِنِّي أَرَاكُمْ أَمَامِي وَمِنْ خَلْفِي»، ثم قال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُمْ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا». قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟ قال: «رَأَيْتُمُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ».

وأخرج البخاري (٣٥٢١): عن سعيد بن المسيب قال البَحِيرَةُ الَّتِي يُمْنَعُ دُرُّهَا لِلطَّوَاغِيتِ وَلَا يَحْلُبُهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ وَالسَّائِبَةُ الَّتِي كَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِأَهْلِيهِمْ فَلَا يُحْمَلُ عَلَيْهَا شَيْءٌ قَالَ وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرٍ بْنِ لُحِيٍّ الْخَزَاعِمِيَّ يَجْرُ قُصْبُهُ فِي النَّارِ وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ»، أخرجه مسلم (٢٨٥٦).

وأخرج مسلم (٢٨٤٦): عن أبي هريرة: عن النبي ﷺ قال: «تَحَاجَّتِ النَّارُ، وَالْجَنَّةُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ، وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فَمَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ، وَسَقَطُهُمْ، وَعَجْزُهُمْ، فَقَالَ اللَّهُ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءَ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أَعَذَّبُ بِكَ مَنْ أَشَاءَ مِنْ عِبَادِي»، أخرجه البخاري (٤٨٥٠).

وأخرج (١٩١٤): عن أبي هريرة: عن النبي قال: «لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ، فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ، كَأَنَّهُ تُؤْذِي النَّاسَ».

وأخرج البخاري (٣٤٨٢): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هَرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارُ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»، أخرجه مسلم (٢٢٤٢).

وأخرج مسلم (٢٦١٩): عن أبي هريرة عن رسول الله فذكر أحاديث منها: وقال رسول الله: «دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ مِنْ جَرَاءِ هَرَّةٍ لَهَا، أَوْ هَرٍّ، رَبَطَتْهَا فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلَا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تُرْمِرُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ هَزْلًا».

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٤٠٠): أما قوله: "الجنة والنار مخلوقتان"، فاتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يزل أهل السنة كذلك حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية وأنكرت ذلك، وقالت: بل ينشئها الله يوم القيامة وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يعلمه الله وأنه ينبغي له أن يفعل كذا ولا ينبغي له أن يفعل كذا وقاسوه على خلقه في أفعالهم، فهم مشبهة في الأفعال، ودخل فيهم التجهم فصاروا مع ذلك معطلة، وقالوا خلق الجنة قبل الجزاء عبث لأنها تصير معطلة مددًا متطاولة فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى. اهـ

فيا ليت شعري كيف سيتأولون حديث أبي هريرة عند أبي داود (٤٧٤٤): «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ قَالَ لِحَبْرَيْلَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَانْظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، ثُمَّ حَفَّهَا بِالْمَكَارِهِ، ثُمَّ قَالَ:

يَا جَبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَانْظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ. قَالَ: فَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ النَّارَ قَالَ: يَا جَبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَانْظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا، فَحَفَّهَا بِالشَّهَوَاتِ ثُمَّ قَالَ: يَا جَبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَانْظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا.

ومن الأدلة على وجودهما ما أخرجه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).
عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وعن كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله قال: «إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَيْرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يُرْجِعَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ». أخرجه مالك في الموطأ (١٨٦/١) وأحمد في المسند (٤٥٥/٣) والآجري في الشريعة (٣٩٢) وابن ماجه (٤٢٧١).

والحديث يدل على أن أرواح المؤمنين في الجنة إلا من حبس لدين أو غيره والشاهد من الحديث قوله: «طَيْرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يُرْجِعَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»، فلو كانت غير موجودة الآن لكان هذا الكلام لغوً وكذباً والعياذ بالله.

فائدة: هذا الحديث يدل على أن أرواح المؤمنين طيرٌ في الجنة، أما أرواح الشهداء فهي في أجواف طير خضر كما أخرج مسلم (١٨٨٧) في صحيحه من حديث ابن مسعود قال مسروق: سألنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْصِبَنَّ﴾

الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٩٦﴾ [آل عمران: ١٩٦]، فقال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: «أَرَوَاهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضِرَ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرُحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ».

وعن عبد الله بن عباس أنه قال: خسفت الشمس فصلى رسول الله والناس معه، ثم ذكر الحديث وفيه قالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ثم تكعكت، فقال رسول الله: «إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ، فَتَنَاولْتُ مِنْهَا عُقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتُهَ لَا كَلْتُمُ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا، وَرَأَيْتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ مَنَظَرًا قَطُّ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ»، أخرجه البخاري (١٠٥٢)، ومسلم (٩٠٧).

والحديث نص لا يحتمل التأويل والتحريف أن النبي رأى الجنة بعينه ورأى النار بعينه، فلا ينكر وجود الجنة والنار مع وجود هذه الأدلة الصراح الصحاح إلا من أزاغ الله قلبه وأعمى بصيرته، فماذا بعد الحق إلا الضلال.



الإيمان بأن الجنة والنار لا تفنيان

وأهل السنة يؤمنون بأن الجنة والنار لا تفنيان ولا يموت أهلها قال : ﴿وَلَيْتَ الذَّارِ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]. وقال: ﴿وَلِإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩]، وقال: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]. وقال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ [الدخان: ٥٦].

وقد تقدم في الباب الأول بيان أن الجنة والنار موجودتان الآن وسوق الأدلة على ذلك وبيان أن ذلك هو مذهب أهل السنة قاطبة، ولم يخالف في ذلك إلا الشواذ من أهل البدع والريب، ويلتحق بهذا الباب الكلام على أبديتهما قال شيخ الإسلام في رسالته الرد على من قال بفناء الجنة والنار (٤١): وللناس في ذلك ثلاثة أقوال: قوم قالوا ببقائهما جميعاً، وقوم قالوا بفناء دار الجزاء وبقاء دار الإفضال والإنعام والإكرام... وأما القول بفنائهما إنما حكوه عن الجهم. انتهى

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٤٠٣): قوله: "لا تفنيان أبداً ولا تبیدان"، هذا قول جمهور الأئمة من السلف والخلف، والقولان مذكوران في كثير من كتب التفسير وغيرها، وقال ببقاء الجنة وقال بفناء النار جماعة من السلف والخلف، والقولان مذكوران في كثير من كتب التفسير وغيرها. وقال بفناء الجنة والنار الجهم بن صفوان إمام المعطلة، وليس له سلف قط لا من أهل السنة، وأنكره عليه عامة أهل السنة وكفروه به وصاحوا به وبأتباعه من أقطار الأرض وهذا قاله لأصله الفاسد الذي اعتقده، وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث؛ انتهى.

والآيات البيّنات والأحاديث الصحيحة على هذه المسألة كثيرات وواضحات لا يعتقد خلافها إلا أهل الضلالات قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَنَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ﴾ [هود: ١٠٨]، أي غير مقطوع، وسيأتي الإجابة على الاستثناء إن شاء الله تعالى.

وقال ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ [ص: ٥٤]، وقال: ﴿أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال: ﴿وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧]، وقال: ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٣].

وقال مؤكداً خلود أهل الجنة فيها: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٥٦]، وهذا الاستثناء منقطع، والمراد به أنهم ماتوا في الوقت الذين لم يكونوا في الجنة.

ومن الأدلة على أبدية الجنة من السنة، ما أخرجه مسلم (٢٨٣٦) وحديث أبي هريرة قال: قال رسول الله : «مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ».

وفي حديث أبي سعيد: «يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، يَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ»، متفق عليه.

قال ابن القيم في حادي الأرواح (٣٢٣): الباب السابع والستون في أبدية الجنة وأنها لا تفنى ولا تبعد: وهذا مما يعلم بالاضطرار أن الرسول الله أخبر به، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَنَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا

مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُورٍ ﴿١٠٨﴾ [هود: ١٠٨]، أي مقطوع ولا تنافي بين هذا وبين قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٨].

وقال (ص ٣٢٨): والمقصود أن القول بفناء الجنة والنار قول مبتدع لم يقله أحد من الصحابة.

قال ابن القيم في حادي الأرواح (٣٢٩-٣٣٠): وأما أبدية النار ودوامها فقال عنها شيخ الإسلام: فيها قولان معروفان عن السلف والخلف والنزاع في ذلك معروف عن التابعين قال: وقلت هاهنا أقوال سبعة:

أحدها: أن من دخلها لا يخرج منها أبداً، بل من دخلها خلد فيها أبد الأبدين بإذن الله، وهذا قول الخوارج والمعتزلة.

الثاني: أن أهلها يعذبون فيها مدة ثم تنقلب عليهم وتبقى طبيعية نارية لهم يتلذذون بها لموافقتها لطبيعتهم، وهذا قول إمام الاتحادية ابن عربي والطائي...

الثالث: قول من يقول: إن أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود ثم يخرجون منها ويخلفهم فيها أقوام آخرون، وهذا القول حكاه اليهود للنبي فأكذبهم الله، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخِذُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ تُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَمُحَرِّضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً وَعَرَّهَمُ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣-٢٤].

الرابع: قول من يقول: يخرجون منها وتبقى نارا على حالها ليس فيها أحد يعذب، حكاة شيخ الإسلام، والقرآن والسنة أيضا يردان على هذا القول كما تقدم.

الخامس: قول من يقول: بل تفنى بنفسها لأنها حادثة بعد أن لم تكن وما ثبت حدوثه استحالة بقاءه وأبديته، وهذا قول جهم بن صفوان وشيعته ولا فرق عندهم بين الجنة والنار.

السادس: قول من يقول: تفنى حياتهم وحركاتهم ويصيرون جمادًا لا يتحركون ولا يحسون بألم، وهذا قول أبي الهذيل العلاف إمام المعتزلة.

السابع: قول من يقول بل يفنيها ربها، وخالقها تبارك وتعالى فإنه جعل لها أمداً تنتهي إليه تفنى ويزول عذابها.

قال شيخ الإسلام: وقد نقل هذا القول عن عمر وابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم. اهـ

وذكر ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٤٠٦)، هذا التقسيم وقال في آخره:

الثامن: أن الله يخرج منها من يشاء كما ورد في الحديث ثم يبقها شيئاً ثم يفنيها، فإنه جعل لها أمداً تنتهي إليه.

التاسع: أن الله تعالى يخرج منها من شاء كما ورد في السنة ويبقى فيها الكفار بقاء لا انقضاء له.

وما عدا هذين القولين الأخيرين، ظاهر البطلان وهذان القولان لأهل السنة ينظر في أدلتها. انتهى والقول الحق هو التاسع، والقول الثامن وإن كان قد قال به بعض السلف فهو قول غير صحيح، لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]،

﴿لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥]، ﴿فَلَنْ نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠]،
 ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]، ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]، ﴿وَمَا هُمْ
 بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ
 الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ
 عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، ﴿إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

قال ابن أبي العز: وقد دلت السنة المستفيضة أنه يخرج من النار من قال: "لا إله
 إلا الله"، وأحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار، وأن هذا
 حكم مختص بهم، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم، ولم يختص الخروج بأهل
 الإيمان.

فائدة: ما لا يدخل في الفناء ثمانية نُضمت في هذا البيت:

ثمانية حكم البقاء يعمهاهم	من الخلق والباقيين في حيز العدم
العرش والكرسي نار وجنة	وعجب وأروح كذا اللوح والقلم



باب في الإيمان بالحوض

وأهل السنة يؤمنون بأن للنبي محمد حوضاً أعطاه الله إياه من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً، وقد دل على إثباته القرآن والسنة والإجماع، والصحيح أنه من خصائصه .

قال الله : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۖ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۚ إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۖ ﴾ [الكوثر: ١-٣]، والكوثر هو النهر الذي يُمد منه الحوض وقد فسره رسول الله في حديث أنس الذي أخرجه مسلم (٤٠٠): بينا رسول الله ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسماً فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «أُنزِلْتُ عَلَيَّ آيَةً سُوْرَةٌ»، فقرأ: السورة ثم قال: «تَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟». فقلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرُدُّ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ، فَأَقُولُ: رَبِّ، إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحَدَثْتُ بِعَدِكَ».

وقد تواترت الأحاديث على إثبات الحوض حتى قال بعضهم:

وقد يسر الله بجمع هذه الأحاديث ضمن الصحيح المسند من أحاديث الإيثار، وقد ذكر القرطبي في المفهم أن عدد من روى أحاديث الحوض عن النبي من الصحابة نيف وثلاثين منهم في الصحيحين ما ينيف على العشرين.

وذكر الحافظ في الفتح (١١/٤٦٧) أنه أوصلها إلى خمسين صحابياً قال: وبلغني عن بعض المتأخرين أنه أوصلها إلى ثمانين صحابياً. اهـ

فمنها ما جاء، عن سهل بن سعد قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ يَقُولُ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ مَنْ وَرَدَ شَرِبَ وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا وَلَيَرَدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ»، أخرجه البخاري (٦٥٨٣)، ومسلم (٢٢٩٠).

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ الْوَرِقِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمُسْكِ وَكَيْزَانُهُ كُنُجُومُ السَّمَاءِ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَا يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا»، أخرجه البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢).

وعن أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «إِنِّي عَلَى الْحَوْضِ حَتَّى أَنْظُرَ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ مِنْكُمْ وَسَيُؤْخَذُ أَنْاسٌ دُونِي فَأَقُولُ يَا رَبِّ مَنِّي وَمَنْ أُمَّتِي فَيُقَالُ أَمَا شَعَرْتَ مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ، وَاللَّهِ مَا بَرَحُوا بَعْدَكَ يَرْجِعُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ»، قَالَ فَكَانَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَرْجِعَ عَلَى أَعْقَابِنَا أَوْ أَنْ نُفْتَنَ عَنْ دِينِنَا. أخرجه البخاري (٦٥٩٣)، ومسلم (٢٢٩٣).

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ أَنَّهُ سَمِعَ عَائِشَةَ تَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ وَهُوَ بَيْنَ ظَهْرَانِي أَصْحَابِهِ: «إِنِّي عَلَى الْحَوْضِ أَنْتَظِرُ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ مِنْكُمْ، فَوَاللَّهِ لَيُقْتَطَعَنَّ دُونِي رَجَالٌ فَلَأَقُولَنَّ أَيُّ رَبِّ مَنِّي وَمَنْ أُمَّتِي فَيَقُولُ إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ مَا زَالُوا يَرْجِعُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ»، أخرجه مسلم (٢٢٩٤).

وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ أَتَتْهَا قَالَتْ: كُنْتُ أَسْمَعُ النَّاسَ يَذْكُرُونَ الْحَوْضَ وَلَمْ أَسْمَعْ ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ فَلَمَّا كَانَ يَوْمًا مِنْ ذَلِكَ وَالْجَارِيَةُ تَمْشِي فَنِي فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «أَيُّهَا النَّاسُ»، فَقُلْتُ لِلْجَارِيَةِ اسْتَأْخِرِي عَنِّي، قَالَتْ: إِنَّمَا دَعَا الرِّجَالُ وَلَمْ يَدْعُ النِّسَاءُ. فَقُلْتُ: إِنِّي مِنَ النَّاسِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «إِنِّي لَكُمْ فَرَطٌ عَلَى الْحَوْضِ فَإِيَّايَ لَا يَأْتِيَنَّ أَحَدُكُمْ فَيَذْبُ عَنِّي كَمَا يَذْبُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ فَأَقُولُ: فِيمَ هَذَا؟ فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحَدَثُوا بَعْدَكَ. فَأَقُولُ: سُحْقًا»، أخرجه مسلم (٢٢٩٥).

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ خَرَجَ يَوْمًا فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ صَلَاتَهُ عَلَى الْمَيِّتِ ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْمَنْبَرِ فَقَالَ: «إِنِّي فَرَطُ لَكُمْ وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ، وَإِنِّي قَدْ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ أَوْ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَنَافَسُوا فِيهَا»، البخاري (٤٠٤٢)، ومسلم (٢٢٩٦).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، وَلَا نَارِ عَنْ أَقْوَامًا ثُمَّ لَا غُلْبَنَ عَلَيْهِمْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي أَصْحَابِي، فَيَقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ»، البخاري (٦٥٧٦)، ومسلم (٢٢٩٧).

وَعَنْ حَارِثَةَ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ قَالَ حَوْضُهُ مَا بَيْنَ صَنْعَاءَ وَالْمَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ الْمُسْتَوْدُ أَلَمْ تَسْمَعْهُ قَالَ الْأَوَانِي قَالَ لَا فَقَالَ الْمُسْتَوْدُ تَرَى فِيهِ الْآيَةَ مِثْلَ الْكَوَاكِبِ؛ البخاري (٦٥٩١)، ومسلم (٢٢٩٨).

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «إِنَّ أَمَامَكُمْ حَوْضًا مَا بَيْنَ نَاحِيَّتَيْهِ كَمَا بَيْنَ جَرْبَاءَ وَأَذْرُحَ»، البخاري (٦٥٧٧)، ومسلم (٢٢٩٩).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا آيَةُ الْحَوْضِ؟ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا آيَةُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا إِلَّا فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ الْمُصْحِيَةِ آيَةُ الْجَنَّةِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهَا لَمْ يَظْمَأْ آخِرَ مَا عَلَيْهِ، يَشْحَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ، عَرَضُهُ مِثْلُ طُولِهِ مَا بَيْنَ عَمَّانَ إِلَى أَيْلَةَ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ»، أخرجه مسلم (٢٣٠٠).

وَعَنْ ثَوْبَانَ: أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ قَالَ: «إِنِّي لِبَعْقَرٍ حَوْضِي أَدُوْدُ النَّاسِ لِأَهْلِ الْيَمَنِ أَضْرِبُ بِعَصَايَ حَتَّى يَرْفُضَ عَلَيْهِمْ». فَسُئِلَ عَنْ عَرَضِهِ فَقَالَ: «مِنْ مَقَامِي إِلَى عَمَّانَ».

وَسُئِلَ عَنْ شَرَابِهِ فَقَالَ: «أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، يَغُتُّ فِيهِ مِيزَابَانِ يَمُدُّانِهِ مِنَ الْجَنَّةِ أَحَدُهُمَا مِنْ ذَهَبٍ وَالْآخَرُ مِنْ وَرَقٍ»، أخرجه مسلم (٢٣٠١).

ولي بحمد الله مؤلف في أحاديث الحوض ، يسر الله إتمامه، بالنظر فيه يتبين لك أن أحاديث الحوض متواترة، وقد أفردت أحاديث الحوض من مسند بقي بن مخلد ، وهو مطبوع.

فائدة: قال الحافظ ابن كثير في النهاية (٣٦/٢) بعد أن ذكر حديث أنس الذي أخرجه الإمام الترمذي أنه قال: سألت رسول الله أن يشفع لي يوم القيامة فقال: «إني فاعل»، قال: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: فَأَيْنَ أَطْلُبُكَ، قَالَ: «أَطْلُبُنِي أَوَّلَ مَا تَطْلُبُنِي عَلَى الصَّرَاطِ». قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَلْقَكَ عَلَى الصَّرَاطِ؟ قَالَ: «فَاطْلُبُنِي عِنْدَ الْمِيزَانِ». قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَلْقَكَ عِنْدَ الْمِيزَانِ؟ قَالَ: «فَاطْلُبُنِي عِنْدَ الْحَوْضِ؛ فَإِنِّي لَا أُخْطِي هَذِهِ الثَّلَاثَ الْمَوَاطِنَ»، قال: إن الحوض قبل الصراط، قال: وظاهر هذا الحديث أن الحوض بعد الصراط وكذلك الميزان وهذا لا أعلم به قائلًا، اللهم إلا أن يكون يراد بهذا الحوض حوض آخر يكون بعد الجواز على الصراط كما جاء في بعض الأحاديث، ويكون ذلك حوضًا ثانيًا لا يزداد عنه أحد، والله سبحانه وتعالى أعلم. اهـ

المطرودون عن الحوض:

قال ابن عبد البر في التمهيد (٢٠/٢٦٢): كل من أحدث في الدين ما لا يرضاه الله ولم يأذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض، كالخوارج والروافض وأصحاب الأهواء، وكذلك الظلمة المترفون في الجور وطمس الحق وقتل أهله وإذلالهم والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي وجميع أهل الزيغ والأهواء والبدع، فكل هؤلاء يخاف عليهم أن يكونوا ممن عنوا بهذا الخبر، وقال

عقبه : ولا يخلد في النار إلا كل كافر جاحد ليس في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان.

ويطرد عنه بعض أهل المعاصي، ويدل عليه حديث جابر عند الإمام أحمد (٣٣٢/٢٢) وفيه: «فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَأُولَئِكَ لَيْسُوا مِنِّي، وَلَسْتُ مِنْهُمْ، وَلَا يَرُدُّوهُ عَلَى حَوْضِي».

وجاء بمعناه عن كعب بن عجرة قال: خرج علينا رسول الله أو دخل ونحن تسعة وبيننا وسادة من آدم فقال: «إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءُ يَكْذِبُونَ وَيُظْلِمُونَ، فَمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ، فَصَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَلَيْسَ مِنِّي، وَلَسْتُ مِنْهُ وَلَيْسَ بِوَارِدٍ عَلَى الْحَوْضِ، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَيُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، وَهُوَ وَارِدٌ عَلَى الْحَوْضِ»، أخرجه أحمد.

فائدة: أخرج الإمام الآجري في الشريعة (٨٣٨) أثرًا عن أنس ينكر على من أنكر الحوض من طريق حميد عن أنس قال: دخلت على ابن زياد وهم يتذاكرون الحوض، فلما رأوني طلعت عليهم قالوا: قد جاءكم أنس فقالوا: يا أنس ما تقول في الحوض؟ فقلت: والله ما شعرت أني أعيش حتى أرى أمثالكم تشكون في الحوض لقد تركت عجائز بالمدينة ما تصلي واحدة إلا سألت ربها أن يوردها حوض رسول الله .

ومن عقيدة أهل السنة أن الحوض موجود الآن لحديث أبي هريرة قال: قال النبي : «وَمَنْ بَرِيَ عَلَى حَوْضِي»، أخرجه البخاري (٦٥٨٨) ومسلم (١٣٩٠).

ولم يثبت عن النبي شيء في أن لكل نبي حوضاً فنبتى على الخصوصية والله أعلم.

قال الحافظ في فتح الباري تحت باب ما جاء في الحوض من كتاب الرقاق: وقد اشتهر اختصاص نبينا بالحوض، لكن أخرج الترمذي من حديث سمرة رفعه: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا»، وأشار إلى أنه اختلف في وصله وإرساله وأن المرسل أصح. قلت: والمرسل أخرجه ابن أبي الدنيا بسند صحيح عن الحسن قال: قال رسول الله: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى حَوْضِهِ بِيَدِهِ عَصَا يَدْعُو مَنْ عَرَفَ مِنْ أُمَّتِهِ، إِلَّا أَنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَنَّهُمْ أَكْثَرُ تَبَعًا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَبَعًا»؛ وأخرجه الطبراني من وجه آخر عن سمرة موصولاً مرفوعاً مثله وفي سنده لين.

وأخرج ابن أبي الدنيا أيضاً من حديث أبي سعيد رفعه: «وَكُلُّ نَبِيٍّ يَدْعُو أُمَّتَهُ، وَلِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضٌ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَأْتِيهِ الْفَتَاءُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْتِيهِ الْعُصْبَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْتِيهِ الْوَاحِدُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْتِيهِ الْإِثْنَانِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَأْتِيهِ أَحَدٌ، وَإِنِّي لَأَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وفي إسناده لين، وإن ثبت فالمختص بنبينا الكوثر الذي يصب من ماء في حوضه فإنه لم ينقل نظيره لغيره ووقع الامتنان عليه به في السورة المذكورة.

قال القرطبي في المفهم تبعا للقاضي عياض في غالبه مما يجب على كل مكلف أن يعلمه ويصدق به أن الله سبحانه وتعالى قد خص نبيه محمداً بالحوض المصريح باسمه وصفته وشرابه في الأحاديث الصحيحة الشهيرة التي يحصل بمجموعها العلم القطعي؛ انتهى.



الإيمان بالميزان

وأهل السنة يؤمنون بالميزان يوم القيامة قال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ [القارعة: ٦-٩]، وقال : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ٨]، ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٣].

وأما من السنة فالأحاديث في ذلك كثيرة بلغت مبلغ التواتر منها حديث أبي هريرة عند الإمام مسلم والبخاري (٤٧٢٩) قال: قال رسول الله : ﴿ إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلَ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ﴾.

ومنها حديث البطاقة، الذي أخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَسْتَخْلِصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ سَجَلًا كُلُّ سَجَلٍ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتَنْكَرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا أَظْلَمْتَكَ كَتَبْتَنِي الْحَافِظُونَ قَالَ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَلَاكَ عُذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ، فَيَبْهَتُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ، فَتُخْرَجُ لَهُ بَطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: أَحْضِرُوهُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبَطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتَوْضَعُ السَّجَلَاتُ فِي كَفِّهِ، قَالَ: فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ وَثَقُلَتِ الْبَطَاقَةُ وَلَا يَثْقُلُ شَيْءٌ مَعَ اسْمِ اللَّهِ ﴾.

ومنها حديث أبي سلمى راعي النبي : «بَخَّ بَخٍّ، لَخْمُسٌ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّى فَيَحْتَسِبُهُ، وَالِدَاهُ»، أخرجه أحمد (٤٤٣/٦).

ومنها حديث أبي مالك الأشعري عند الإمام مسلم (١٢٣) والنسائي أن رسول الله قال: «الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان».

ومنها حديث أبي الدرداء قال: قال رسول الله : «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ»، أخرجه أحمد (٤٤٦/٦).

وأخرج أحمد من طريق شعبة عن عطاء بن السائب عن أبيه، وأبو داود (٥٠٦٥) من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «خَصْلَتَانِ، أَوْ خَلَّتَانِ لَا يُحَافِظُ عَلَيْهِمَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ، هُمَا يَسِيرٌ، وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ، يُسَبِّحُ فِي ذِكْرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا، وَيَحْمَدُ عَشْرًا، وَيُكَبِّرُ عَشْرًا، فَذَلِكَ خَمْسُونَ وَمِائَةً بِاللِّسَانِ، وَأَلْفٌ وَخَمْسُ مِائَةٍ فِي الْمِيزَانِ، وَيُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ، وَيَحْمَدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَيُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَذَلِكَ مِائَةً بِاللِّسَانِ، وَأَلْفٌ فِي الْمِيزَانِ». هذا حديث حسن، وشعبة قد سمع من عطاء قبل الاختلاط.

وأخرج أحمد (٣٩٩١) عن عبد الله بن مسعود: أنه كان يجتني سواكا من الأراك وكان دقيق الساقين فجعلت الريح تكفؤه فضحك القوم منه فقال رسول الله : «مِمَّ تَضْحَكُونَ؟». قالوا: يا نبي الله، من دقة ساقيه. فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحَدٍ».

قال ابن أبي العز (٤٧٢): قال القرطبي: قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال، لأن الوزن للجزاء فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها. اهـ

واعلم أن الميزان واحد وأما قول الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، فالمراد به الموزونات فجمع باعتبار تنوع الأعمال، وهذا هو القول الصحيح، وإلا فقد قيل بأن لكل أمة ميزان.

قال ابن عطية في التفسير (١٣/٧): الناس على خلافه أي لكل أمة ميزان وإنما لكل واحد وزن يختص به والميزان واحد.

ثم اعلم أيضًا أن الميزان الذي دلت عليه السنة له كفتان حسيتان مشاهدتان والدليل على ذلك حديث عبد الله بن عمرو السابق وفيه: «فَتَوَضَّعُ السَّحِلَاتُ فِي كَفَّةٍ وَالْبَطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ».

الموزونات:

يوزن العامل كما في حديث عبد الله بن مسعود .

ويوزن العمل كما في حديث أبي هريرة: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَسْبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ»، متفق عليه. وكما في حديث أبي سلمى راعي النبي ، وكما في حديث أبي مالك الأشعري .

وتوزن الصحف كما في حديث البطاقة.

والذين أنكروا الميزان من الملاحدة وأهل الاعتزال وغيرهم شبهتهم أن الأعمال أعراض لا تقبل الوزن وإنما يقبل الوزن الأجسام فإن الله يقلب الأعراض أجساماً ففي حديث أبي سعيد أنه: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحٍ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَسْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَاهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَسْرَبُونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَأَاهُ، فَيَذْبَحُ...»، أخرجه البخاري ومسلم.

والحكمة من نصب الميزان، مع أن الله محيط بكل شيء علماً، إظهار العدل وبيان الفضل حيث أن الله يزن مثاقيل الذر من خير وشر، انتهى أفاده ابن أبي العز .

مسألة: وزن أعمال الكفار:

للعلماء في هذه المسألة قولان:

الأول: أنها توزن لعموم قوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩]، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [١٠٣] تَلَفَحَ وَجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُنْزِلَ عَلَيْكَ فَاكْتُرَ بِهَا تُكْذِبُونَ ﴿[المؤمنون: ١٠٣-١٠٥]﴾.

وفي البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة أن النبي قال: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزَنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَقَالَ: اقْرَأُوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]». والحديث ليس فيه نص أنه لا يوزن وإنما فيه أن وزنه لا مقدار له لأنه لا حسنات له.

وقد رجح هذا القول القرطبي في التذكرة (٢٧٢-٢٧٣) قال: فإن قيل أما وزن أعمال المؤمنين فظاهر وجهه فتقابل الحسنات بالسيئات فتوجد حقيقة الوزن، والكافر لا يكون له حسنات فما الذي يقابل بكفره وسيئاته وأنى يتحقق في أعماله الوزن؟

فالجواب أن ذلك من وجهين:

أحدهما: أن الكافر يُحضر له ميزان فيوضع كفره وسيئاته في إحدى كفتيه ثم يقال له هل لك من طاعة تضعها في الكفة الأخرى فلا يجد فيشال الميزان وترفع الكفة الفارغة وتقع المشغولة، فهذه خفت موازينه وهذا ظاهر الآية.

الثاني: أن الكافر يكون منه صلة الأرحام ومواساة الناس وعتق مملوك وغيرها مما لو كانت للمسلم لكانت طاعة فمن كانت له مثل هذه الخيرات من الكفار فإنها تجمع وتوضع في ميزانه غير أن الكفر إذا قابلها رجح بها؛ انتهى.

هل يقام الوزن لكل الناس؟

قال القرطبي في التذكرة (ص ٢٧١): الميزان حق ولا يكون في حق كل أحد بدليل قوله عليه السلام فيقال: «يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مَنْ أُمِّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ...»، الحديث، وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١]، وإنما يكون لمن بقي من أهل المحشر ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً من المؤمنين وقد يكون للكافرين على ما ذكرنا؛ انتهى.

قال ابن كثير في النهاية بعد نقل كلام القرطبي: إن من لا حساب عليه ولا عذاب لا توزن أعماله وكذلك المجرمون الذين يعرفون بسيماهم، وفي هذا نظر والله أعلم.

وقد توزن أعمال السعداء وإن كانت راجحة لإظهار شرفهم وفضلهم على رؤوس الأشهاد والتنويه بسعادتهم ونجاتهم وإن كانوا لا حساب عليهم.

وأما الكفار فتوزن أعمالهم وإن لم يكن لهم حسنات تنفعهم يقابل بها كفرهم... فتوزن لإظهار شقائهم وتوبيخهم وفضيحتهم على رؤوس الأشهاد.

فائدة: نقل ابن كثير في النهاية عن القرطبي قوله: وقد روى عن مجاهد والضحاك والأعمش أن الميزان هنا بمعنى العدل والقضاء، وذكر الوزن والميزان ضرب مثل، كما يقال هذا الكلام في وزن هذا قلت: أي ابن كثير لعل هؤلاء إنما فسروا هذا عند قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ (٧) ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿[الرحمن: ٧-٩]. فهنا المراد بالميزان أن الله تعالى وضع العدل بين عباده وأمر عباده أن يتعاملوا به فيما بينهم، فأما الميزان الموضوع يوم القيامة فقد تواترت بذكره الأحاديث كما رأيت وهو ظاهر القرآن العظيم: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الأعراف: ٨]، ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الأعراف: ٩]، وهذا إنما يكون لشيء محسوس.



الإيمان بالصراط

وأهل السنة يؤمنون بالصراط وأن الناس يمرون عليه يوم القيامة على قدر أعمالهم، وهو جسر ممدود على متن جهنم، سلمنا الله تعالى عليه. وقد وردت أدلة كثيرة في صفة الصراط منها:

ما أخرجه الإمام البخاري (٧٤٣٨) ومسلم (١٨٣) في صحيحهما من حديث أبي سعيد الخدري وفيه: «ثُمَّ يُؤْتَى بِالْجَسْرِ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرِي جَهَنَّمَ»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْجَسْرُ؟ قَالَ: «مَدْحَضَةٌ مَزَلَّةٌ عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكَةٌ مُقْلَطَحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عُقِيفَاءُ تَكُونُ بِنَجْدٍ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ، الْمُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرَّيْحِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرَّكَابِ فَنَاجٍ مُسَلِّمٌ وَنَاجٍ مُحْدُوْشٌ وَمَكْدُوْشٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا».

وجاء في وصفه أيضًا في حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٥٧٣) ومسلم (١٨٢): «وَيُضْرَبُ جِسْرُ جَهَنَّمَ»، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ، وَدُعَاءُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَبِهِ كَلَالِيبٌ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، أَمَا رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟»؛ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهَا لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عَظَمِهَا إِلَّا اللَّهُ، فَتَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ مِنْهُمْ الْمُؤَبَّقُ بِعَمَلِهِ وَمِنْهُمْ الْمُخْرَدُلُ ثُمَّ يَنْجُو».

ومعنى مدحضة أي مزلقة، ومعنى مزلة من زوال الأقدام وسقوطها.

وله جنتان كما في حديث أبي بكرة أن رسول الله قال: «يُحْمَلُ النَّاسُ عَلَى الصَّراطِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتَقَادَعُ بِهِمْ جَنَبَتَا الصَّراطِ تَقَادَعُ الْفَرَّاشِ فِي النَّارِ»، أخرجه بن أبي عاصم (٤٠٣/٢).

ومعنى تقادع أي تسقطهم فيها بعضهم فوق بعض؛ اهـ، قاله ابن الأثير في النهاية .

وأما مرور الناس عليه فقد بينه حديث أبي هريرة وحذيفة في مسلم (١٩٥)، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «يَجْمَعُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُم مِّنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ، لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ أَذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ قَالَ: فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلًا مِّنْ وَرَاءَ وَرَاءَ ائْتُوا إِلَى مُوسَى، الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ تَكْلِيمًا، فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ أَذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلِمَةَ اللَّهِ وَرُوحِهِ، فَيَقُولُ: عِيسَى لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا، فَيَقُومُ فَيُؤَذِّنُ لَهُ وَيُرْسِلُ الْأَمَانَةَ وَالرَّحِمَ، فَتَقُومَانِ جَنَبَتَا الصَّراطِ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَيَمُرُّ أَوْلَاكُمْ كَالْبَرْقِ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَايَ أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرَّ الْبَرْقِ، قَالَ: «أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ، ثُمَّ كَمَرَّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرَّ الطَّيْرِ، وَشَدَّ الرَّجَالِ تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ، وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصَّراطِ يَقُولُ: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ، حَتَّى تَعْجَزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ، فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا قَالَ: وَفِي حَافَتِي الصَّراطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَّأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أَمَرَتْ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوشٌ فِي النَّارِ، وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ إِنَّ قَعَرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيفًا».

ويعطى الناس أنوارا يمرون بها ويستعينون بها في الرؤية على قدر أعمالهم فينطفئ نور المنافق ويبقى نور المؤمن، كما في حديث جابر عند مسلم (١٩١).

وتكون الأمانة والرحم على جنبتي الصراط، يدل على ذلك حديث أبي هريرة وحديث حذيفة عند الإمام مسلم: «وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحْمُ، فَتَقُومَانِ جَنْبَيْ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا».

وأول من يجيز على جسر جهنم هو النبي وأمته كما في حديث أبي هريرة السابق: «فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ».

والأنبياء يقفون على الصراط يدعون ويقولون: «اللَّهُمَّ سَلِّمْ، سَلِّمْ»، كما في حديث أبي هريرة السابق.

وكما في حديث أبي سعيد عند ابن أبي عاصم (٦٣٤) مرفوعاً: «وَالْأَنْبِيَاءُ بِجَنْبَيْ الصِّرَاطِ وَأَكْثَرُ قَوْلِهِمْ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ».

وأما حال الناس على الصراط فقد تقدم في حديث أبي سعيد وأبي هريرة وأن الناس على ثلاثة أقسام ناج بلا خدوش، ناج مخدوش، وهالك من أوله، وهذا كله على قدر أعمالهم.

فإذا خلاص الناجون منه فرحوا كثيراً كما في حديث ابن مسعود: «فَإِذَا خَلَصُوا قَالُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنْكَ بَعْدَ الَّذِي أَرَانَاكَ، لَقَدْ أَعْطَانَا اللَّهُ مَا لَمْ يُعْطِ أَحَدًا»، أخرجاه.

ثم بعد الصراط يخلص الناس إلى القنطرة التي دل عليها حديث أبي سعيد عند البخاري قال رسول الله: «يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ

بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَقْصُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِ مَظَالِمٍ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا».

والقنطرة هي تنمة الصراط وطرفه الذي يلي الجنة كما رجح ذلك الحافظ في الفتح من كتاب المظالم.

وقد قال الله مخبراً عن مرور المؤمنين من على متن جهنم: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۖ ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١-٧٢].

ويتميز المنافقون عن المؤمنين على الصراط كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَوْمَ جَنَّتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝١٣﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَفَقُّونَ وَالْمُتَفَقِّتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْظِرُونَا نَقِيسَ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۝١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ۝١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَتْكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٢-١٥].

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحریم: ٨].



الإيمان بالإسراء والمعراج

ومن عقيدة أهل السنة أن الله تعالى أكرم نبيه محمداً بالإسراء والمعراج، وأنه كان يقظة لا مناما، قال الله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]. والعبد عبارة عن مجموع الجسد والروح، كما أن الإنسان اسم لمجموع الجسد والروح.

والإسراء كان بالنبي إلى بيت المقدس ثم عرج به إلى السماء يدل على ذلك ما في البخاري ومسلم (١٦٢) عن أنس بن مالك أن رسول الله قال: «أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ، وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ قَوْقُ الْحِمَارِ، وَدُونَ الْبَغْلِ، يَضَعُ حَافِرُهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرَفِهِ»، قال: «فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ»، قَالَ: «فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ»، قال: «ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ، فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِابْنِي الْحَالَةَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَيَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا، فَرَحَّبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ، إِذَا هُوَ قَدْ

أَعْطَيْ شَطْرَ الْحُسَيْنِ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قَالَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، قَالَ اللَّهُ: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ ، فَرَحَّبَ، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ.

ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى السُّدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَإِذَا وَرَقُهَا كَأَذَانِ الْفِيلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقَلَالِ. قَالَ: ﴿فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى ، فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ.﴾

قال: ﴿فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ، خَفَّفْ عَلَى أُمَّتِي، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ.﴾

قال: «فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعْ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَبَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّهُمْ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلُّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ».

قال: «فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ». فقال رسول الله : «فَقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ». وفي حديث المعراج دليل على ثبوت صفة العلو لله تعالى من وجوه، لمن تدبره، وبالله التوفيق.

تنبيه: وقعت في رواية شريك بن عبد الله بن أبي نمر التي أخرها البخاري في كتاب التوحيد عدة أخطاء ذكرها الحافظ في الفتح فقال: ومجموع ما خالفت فيه رواية شريك غيره من المشهورين عشرة أشياء بل تزيد على ذلك:

الأول: أمكنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في السماوات وقد أفصح بأنه لم يضبط منازلهم وقد وافقه الزهري في بعض ما ذكر.

الثاني: كون المعراج قبل البعثة.

الثالث: كونه مناما.

الرابع: مخالفته في محل سدره المنتهى وأنها فوق السماء السابعة بما لا يعلمه إلا الله، والمشهور أنها في السابعة أو السادسة.

الخامس: مخالفته في النهرين، وهما النيل والفرات، وأن عنصرهما في السماء الدنيا والمشهور في غير روايته أنها في السماء السابعة، وأنها من تحت سدره المنتهى.

السادس: شق الصدر عند الإسراء وقد وافقته رواية غيره كما بينت ذلك في شرح رواية قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة وقد أشرت إليه أيضا هنا.

السابع: ذكر نهر الكوثر في السماء الدنيا، والمشهور في الحديث أنه في الجنة.

الثامن: نسبة الدنو والتدلي إلى الله والمشهور في الحديث أنه جبريل كما تقدم التنبيه عليه.

التاسع: تصريحه بأن امتناعه من الرجوع إلى سؤال ربه التخفيف كان عند الخامسة، ومقتضى رواية ثابت عن أنس أنه كان بعد التاسعة.

العاشر: قوله فعلا به الجبار فقال وهو مكانه.

الحادي عشر: رجوعه بعد الخمس والمشهور في الأحاديث أن موسى عليه الصلاة والسلام أمره بالرجوع بعد أن انتهى التخفيف إلى الخمس فامتنع.

الثاني عشر: زيادة ذكر التور في الطست وقد تقدم ما فيه.

فهذه أكثر من عشرة مواضع في هذا الحديث لم أرها مجموعة في كلام أحد ممن تقدم وقد بينت في كل واحد إشكال من استشكله والجواب عنه إن أمكن وبالله التوفيق. وقد جزم ابن القيم في الهدي بأن في رواية شريك عشرة أوهام لكن عد مخالفته لمحال الأنبياء أربعة منها، وأنا جعلتها واحدة، فعلى طريقته تزيد العدة ثلاثة، وبالله التوفيق؛ انتهى مختصراً.



الإيمان بالدجال ونزول عيسى عليه السلام

ومن عقيدة أهل السنة الإيمان بخروج الدجال وأنه موجود الآن ونزول عيسى عليه السلام لقتله، وييسر الله على يديه الخير العظيم.

فقد أخرج مسلم (٢٩٤٢) عن عامر بن شراحيل الشعبي شعب همدان: أنه سأل فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس وكانت من المهاجرات الأول فقال حديثني حديثاً سمعته من رسول الله لا تسنديه إلى أحد غيره؛ فقالت: لئن شئت لأفعلن. فقال لها: أجل حديثني فقالت: ... فلما انقضت عدتي سمعت نداء المنادي منادي رسول الله ينادي الصلاة جامعة فخرجت إلى المسجد فصليت مع رسول الله فكنيت في صف النساء التي تلي ظهور القوم، فلما قضى رسول الله صلاته جلس على المنبر وهو يضحك، فقال: «لِيلَزَمَ كُلُّ إِنْسَانٍ مُصَلَّاهُ». ثم قال: «أَتَدْرُونَ لِمَ جَمَعْتُكُمْ؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «إِنِّي وَاللَّهِ مَا جَمَعْتُكُمْ لِرَغْبَةٍ وَلَا لِرَهْبَةٍ، وَلَكِنْ جَمَعْتُكُمْ، لِأَنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ كَانَ رَجُلًا نَضْرَانِيًّا، فَجَاءَ فَبَايَعَ وَأَسْلَمَ، وَحَدَّثَنِي حَدِيثًا وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْ مَسِيحِ الدَّجَالِ، حَدَّثَنِي أَنَّهُ رَكِبَ فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ، مَعَ ثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْ لَحْمٍ وَجَدَامَ، فَلَعِبَ بِهِمُ الْمَوْجُ شَهْرًا فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ أَرْفَتُوا إِلَى جَزِيرَةٍ فِي الْبَحْرِ حَتَّى مَغْرِبِ الشَّمْسِ، فَجَلَسُوا فِي أَقْرَبِ السَّفِينَةِ فَدَخَلُوا الْجَزِيرَةَ فَلَقِيَتْهُمْ دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرِ الشَّعْرِ، لَا يَدْرُونَ مَا قُبْلُهُ مِنْ دُبُرِهِ، مِنْ كَثَرَةِ الشَّعْرِ، فَقَالُوا: وَيْلَكَ مَا أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: أَنَا الْجُسَّاسَةُ، قَالُوا: وَمَا الْجُسَّاسَةُ؟ قَالَتْ: أَيُّهَا الْقَوْمُ انْطَلِقُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ، فَإِنَّهُ إِلَى خَيْرِكُمْ بِالْأَشْوَاقِ، قَالَ: لَمَّا سَمِعْتُ لَنَا رَجُلًا فَرَقْنَا مِنْهَا أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً، قَالَ: فَأَنْطَلَقْنَا سِرَاعًا، حَتَّى دَخَلْنَا الدَّيْرَ، فَإِذَا فِيهِ أَعْظَمُ إِنْسَانٍ رَأَيْنَاهُ قَطُّ خَلْقًا، وَأَشَدَّهُ وَثَاقًا، مَجْمُوعَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ، مَا بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى كَعْبَيْهِ

بِالْحَدِيدِ، قُلْنَا: وَيَلَكَ مَا أَنْتَ؟ قَالَ: قَدْ قَدَرْتُمْ عَلَى خَبْرِي، فَأَخْبِرُونِي مَا أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ أَنْاسٌ مِنَ الْعَرَبِ رَكِبْنَا فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ، فَصَادَفْنَا الْبَحْرَ حِينَ اغْتَلَمَ فَلَعَبَ بِنَا الْمَوْجُ شَهْرًا، ثُمَّ أَرْفَأْنَا إِلَى جَزِيرَتِكَ هَذِهِ، فَجَلَسْنَا فِي أَقْرِبِهَا، فَدَخَلْنَا الْجَزِيرَةَ، فَلَقِينَا دَابَّةً أَهْلَبُ كَثِيرِ الشَّعْرِ، لَا يُدْرَى مَا قُبْلُهُ مِنْ دُبُرِهِ مِنْ كَثَرَةِ الشَّعْرِ، فَقُلْنَا: وَيَلَكَ مَا أَنْتَ؟ فَقَالَتْ: أَنَا الْجَسَّاسَةُ، قُلْنَا: وَمَا الْجَسَّاسَةُ؟ قَالَتْ: اعْمِدُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ، فَإِنَّهُ إِلَى خَبْرِكُمْ بِالْأَشْوَاقِ، فَأَقْبَلْنَا إِلَيْكَ سِرَاعًا، وَفَزَعْنَا مِنْهَا، وَلَمْ نَأْمَنْ أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً، فَقَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ نَحْلِ بَيْسَانَ، قُلْنَا: عَنْ أَيِّ شَأْنٍ تَسْتَخْبِرُ؟ قَالَ: أَسْأَلُكُمْ عَنْ نَحْلِهَا، هَلْ يُثْمِرُ؟ قُلْنَا لَهُ: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ لَا تُثْمِرَ، قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ بُحِيرَةِ الطَّيْرِ، قُلْنَا: عَنْ أَيِّ شَأْنٍ تَسْتَخْبِرُ؟ قَالَ: هَلْ فِيهَا مَاءٌ؟ قَالُوا: هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ، قَالَ: أَمَا إِنَّ مَاءَهَا يُوشِكُ أَنْ يَذْهَبَ، قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ عَيْنِ زُعَرَ، قَالُوا: عَنْ أَيِّ شَأْنٍ تَسْتَخْبِرُ؟ قَالَ: هَلْ فِي الْعَيْنِ مَاءٌ؟ وَهَلْ يَزْرَعُ أَهْلُهَا بِمَاءِ الْعَيْنِ؟ قُلْنَا لَهُ: نَعَمْ، هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ، وَأَهْلُهَا يَزْرَعُونَ مِنْ مَائِهَا، قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ نَبِيِّ الْأُمِّيِّينَ مَا فَعَلَ؟ قَالُوا: قَدْ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ وَنَزَلَ يَثْرِبَ، قَالَ: أَقَاتَلَهُ الْعَرَبُ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: كَيْفَ صَنَعَ بِهِمْ؟ فَأَخْبَرَنَا أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ عَلَى مَنْ يَلِيهِ مِنَ الْعَرَبِ وَأَطَاعُوهُ، قَالَ لَهُمْ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا إِنَّ ذَاكَ خَيْرٌ لَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، وَإِنِّي مُحِبُّكُمْ عَنِّي، إِنِّي أَنَا الْمَسِيحُ، وَإِنِّي أَوْشِكُ أَنْ يُؤَدَّنَ لِي فِي الْخُرُوجِ، فَأَخْرَجَ فَاسِيرَ فِي الْأَرْضِ فَلَا أَدَعُ قَرْبَةً إِلَّا هَبَطْتُهَا فِي أَرْبَعِينَ لَيْلَةً غَيْرَ مَكَّةَ وَطَبِئَةَ، فَهِيَ مُحَرَّمَتَانِ عَلَيَّ كِلْتَاهُمَا، كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَ وَاحِدَةً - أَوْ وَاحِدًا - مِنْهُمَا اسْتَقْبَلَنِي مَلَكٌ بِيَدِهِ السَّيْفُ صَلَّتَا، يَصُدُّنِي عَنْهَا، وَإِنَّ عَلَى كُلِّ نَقَبٍ مِنْهَا مَلَائِكَةً يَحْرُسُونَهَا». قالت: قال رسول الله وطعن بمخصرته في المنبر: «هَذِهِ طَبِئَةُ، هَذِهِ طَبِئَةُ، هَذِهِ طَبِئَةُ، -يعني المدينة-، أَلَا هَلْ كُنْتُ حَدَّثْتُكُمْ ذَلِكَ؟». فقال الناس: نعم. «فَإِنَّهُ أَعْجَبَنِي حَدِيثُ تَيْمٍ، أَنَّهُ وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ

أَحَدْتُكُمْ عَنْهُ، وَعَنِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ، أَلَا إِنَّهُ فِي بَحْرِ الشَّامِ، أَوْ بَحْرِ الْيَمَنِ، لَا بَلْ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ، مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ، مَا هُوَ، وَأَوْماً بِيَدِهِ إِلَى الْمَشْرِقِ، قَالَتْ فَحَفِظْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ .

بهذا الحديث استدلل العلماء على أن الدجال موجود الآن ولا مطعن في الحديث على ما بيته في كتابي تحذير العقول من فتنة المسيح الدجال .

وأخرج مسلم (٢٩٣٧) عن النواس بن سمعان الكلابي قال: ذكر رسول الله الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا فقال ما شأنكم؟ قلنا يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: «غَيْرُ الدَّجَالِ أَخَوْفُنِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ، فَأَنَا حَاجِبُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَاْمُرُّوْا حَاجِبُ نَفْسِهِ وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ، عَيْنُهُ طَائِفَةٌ، كَأَنِّي أَشَبَّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قَطَنِ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ، فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ، إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةَ بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالًا، يَا عِبَادَ اللَّهِ فَانْتَبِهُوا». قلنا: يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟ قال: «أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشْهَرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ». قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «لَا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ». قلنا: يا رسول الله وما إسرعه في الأرض؟ قال: «كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ، فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَحْيُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالْأَرْضَ فَتَنْبِتُ، فَتَرْوِحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتَهُمْ، أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًّا، وَأَسْبَعَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ، فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ، فَيُضْبِحُونَ مُمَجِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرْبَةِ،

فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكَ، فَتَتَّبِعُهُ كُنُوزُهَا كَيْعَاسِيبِ النَّحْلِ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مُتَمَلِّئًا شَبَابًا، فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزَلَتَيْنِ رُمِيَّةَ الْغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيَقْبَلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ، يَضْحَكُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ، بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَينِ، إِذَا طَاطَأَ رَأْسَهُ قَطْرًا، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفْسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بَبَابٍ لُدٍّ، فَيَقْتُلُهُ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي، لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرَّرْتُ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ.

وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَاجُوجَ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بَحِيرَةٍ طَرِيقَ فَيْشَرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ هَذِهِ مَرَّةً مَاءً، وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمْ الْيَوْمَ.

فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّغْفَ فِي رِقَابِهِمْ، فَيَضْبَحُونَ فَرَسِي كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرِ إِلَّا مَلَأَهُ زَهْمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا لَا يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتٌ مَدْرٍ وَلَا وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلْفَةِ.

ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ: أَنْبِئِي ثَمَرَتِكَ، وَرُدِّي بَرَكَتَكَ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا، وَيُبَارَكُ فِي الرَّسْلِ، حَتَّى أَنَّ اللَّقْحَةَ مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ، وَاللَّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ وَاللَّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخْدَ مِنَ النَّاسِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ أَبَاطِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ، يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارَجَ الْحُمُرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ».

وخروج الدجال من علامات الساعة الكبرى فعن عوف بن مالك الأشجعي، قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك، وهو في قبة من آدم، فقال: «اغْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: مَوْتِي، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، ثُمَّ مَوْتَانِ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ، ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ الْمَالِ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ فَيَظِلُّ سَاحِطًا، ثُمَّ فِتْنَةٌ لَا يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا دَخَلَتْهُ، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الْأَصْفَرِ، فَيَغْدِرُونَ فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً، تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا». وروي «راية»، بالراء والغين، وهما بمعنى؛ رواه البخاري (٣١٧٦).

وفي الصحيحين، واللفظ للبخاري (٧١٢٨) ومسلم (٢٩٣٤)، عن ابن عمر ، قال: ذكر الدجال عند النبي ﷺ ، فقال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيْسَ بِأَعْوَرَ، أَلَا وَإِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَائِفَةٌ».

وعن أنس بن مالك ، قال: قال رسول الله ﷺ : «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الْأَعْوَرَ الْكَذَّابَ، أَلَا إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَمَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كُفٌّ رَ»، أي كافر.

وروى البخاري وغيره، عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله :
 «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ،
 وَيَقْتُلَ الْخَنَزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ
 الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا». ثم يقول أبو هريرة: واقراءوا إن شئتم: ﴿وَإِنْ مِنْ
 أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿[النساء: ١٥٩]،
 وأحاديث الدجال متواترة على ما بينته في كتابي المذكور.

وينزل وعيسى ابن مريم عليه السلام، ينزل من السماء ويقتله عند باب لد،
 ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام ثابت ومجمع عليه عند أهل السنة والجماعة وقد
 تقدم حديث النواس بن سمعان وفيه: أنه ينزل عليه السلام فيقتل الدجال ويصلي
 مع المسلمين.

وفي حديث أبي هريرة عند البخاري (٢٢٢٢)، ومسلم (١٥٥): قال:
 قال رسول الله : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا
 مُقْسِطًا؛ فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخَنَزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ
 لَنَا، فَيَقُولُ: لَا إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ، تَكْرِمَةَ اللَّهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ».

وقد قال الله : ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١]، فنزوله من علامات
 الساعة الكبرى، قال القرطبي في تفسيره (٩١ / ١٦): قال ابن عباس ومجاهد
 والضحاك والسدي وقتادة أيضًا: إنه خروج عيسى عليه السلام، وذلك من أعلام
 الساعة، لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، كما أن خروج الدجال من أعلام
 الساعة، وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة ومالك بن دينار والضحاك ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ
 لِّلسَّاعَةِ﴾ -بفتح العين واللام- أي أمارة.

وفي حديث عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ عِنْدَ مُسْلِمٍ (٢٩٠١) قَالَ: أَطَّلَعَ النَّبِيُّ عَلَيْنَا، وَنَحْنُ نَتَذَكَّرُ، فَقَالَ: «مَا تَذَاكُرُونَ؟». قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ، قَالَ: «إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ: فَذَكَرَ الدُّخَانَ، وَالْدَّجَالَ، وَالْدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خُسُوفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخُسُوفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخُسُوفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مُحْشَرِهِمْ».

ويقع في عهده خير عظيم، ففي مسلم (٢٩٤٠) من حديث عبد الله بن عمرو: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «يَخْرُجُ الدَّجَالُ فِي أُمْنِي فَيَمُكُّثُ أَرْبَعِينَ لَا أَذْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا؛ فَيَبْعَثُ اللَّهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، كَأَنَّهُ عُرْوَةٌ بَيْنَ مَسْعُودٍ فَيَطْلُبُهُ فَيَهْلِكُهُ، ثُمَّ يَمُكُّثُ النَّاسُ سِتْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عِدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ»، قَالَ: سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ، قَالَ: «فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السَّبَاعِ، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: أَلَا تَسْتَحْيُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا نَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌ رَزَقُهُمْ حَسَنٌ عَيْشُهُمْ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ، إِلَّا أَصْغَى لَيْتًا وَرَفَعَ لَيْتًا، قَالَ: وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ، قَالَ: فَيَصْعَقُ وَيَصْعَقُ النَّاسُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ، أَوْ قَالَ: يُنْزِلُ اللَّهُ مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوْ الظِّلُّ نِعْمَانُ الشَّاكِّ، فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ ﴿وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]»، قَالَ: «ثُمَّ يُقَالُ: أَخْرِجُوا بَعَثَ النَّارِ،

فَيُقَالُ: مِنْ كَمْ فَيُقَالُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ وَتِسْعِينَ»، قَالَ: «فَذَاكَ يَوْمٌ» □ □ □ □ □ [المزمل: ١٧]، وَذَلِكَ □ □ □ □ □ [القلم: ٤٢].

وعند أحمد (٤٨٢ / ٢) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله :
 «يُنْزَلُ ابْنُ مَرْيَمَ إِمَامًا عَادِلًا، وَحَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخَنَزِيرَ،
 وَيَرْجِعُ السَّلَامَ، وَيَتَّخِذُ السُّيُوفَ مَنَاجِلَ، وَتَذْهَبُ حُمَةُ كُلِّ ذَاتِ حُمَةٍ، وَتُنْزَلُ السَّمَاءُ
 رِزْقَهَا، وَتُخْرِجُ الْأَرْضُ بَرَكَتَهَا، حَتَّى يَلْعَبَ الصَّبِيُّ بِالثُّعْبَانِ، فَلَا يَضُرُّهُ، وَيُرَاعِي
 الْغَنَمَ الذُّئْبُ، فَلَا يَضُرُّهَا، وَيُرَاعِي الْأَسَدُ الْبَقْرَ، فَلَا يَضُرُّهَا».

وقد وصفه رسوله وصفًا بليغًا فقال: «الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَاتٍ، أُمَمُهُمْ شَتَّى
 وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ، وَإِنِّي أَوَّلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ
 نَازِلٌ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ: رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، عَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُخَصَّرَانِ
 كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ، وَإِنْ لَمْ يُصْبِهِ بَلَلٌ، فَيَدُقُّ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخَنَزِيرَ، وَيَضَعُ الْحَزِيَّةَ،
 وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَيَهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الْمَلَلُ كُلُّهَا إِلَّا الْإِسْلَامَ، وَيُهْلِكُ اللَّهُ فِي
 زَمَانِهِ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ، ثُمَّ تَقَعُ الْأَمَنَةُ عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى تَرْتَعَ الْأَسُودُ مَعَ الْإِبِلِ، وَالنَّارُ
 مَعَ الْبَقَرِ، وَالذُّئَابُ مَعَ الْغَنَمِ، وَيَلْعَبُ الصَّبِيَانُ بِالْحَيَّاتِ، لَا تَضُرُّهُمْ، فَيَمُكُّ أَرْبَعِينَ
 سَنَةً، ثُمَّ يَتَوَفَّى، وَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ»، أخرجه أحمد.



الإيمان بالملائكة والرسل والكتب السماوية

المنزلة على رسل الله تعالى

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بالملائكة والرسل والكتب المنزلة، والإيمان بها من أصول الإيمان التي اتفقت عليها الشرائع، قال تعالى: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] الآيات، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية.

فجعل الله سبحانه وتعالى الإيمان هو الإيمان بهذه الجملة، وسمى من آمن بهذه الجملة مؤمنين، كما جعل الكافرين من كفر بهذه الجملة، بقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]. وقال ، في الحديث المتفق على صحته، حديث جبرائيل وسؤاله للنبي عن الإيمان، فقال: ﴿أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ﴾. فهذه الأصول التي اتفقت عليها الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم وسلامه، ولم يؤمن بها حقيقة الإيمان إلا أتباع الرسل؛ انتهى من شرح ابن أبي العز على الطحاوية.

الإيمان بالملائكة:

وأما الملائكة فهم الموكلون بالسموات والأرض، فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة، كما قال تعالى: ﴿فَالْمُدْرِبَاتِ أُمَرَاءُ﴾ [النازعات: ٥]، ﴿فَالْمَقْسِمَاتِ

أَمْرًا [الذاريات: ٤]. وهم الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل، وأما المكذبون بالرسل المنكرون للصانع فيقولون: هي النجوم.

وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة، وأنها موكلة بأصناف المخلوقات، وأنه سبحانه وكلّ بالجبّال ملائكة، ووكّل بالسحاب والمطر ملائكة، ووكّل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها، ثم وكّل بالعبد ملائكة لحفظ ما يعمل به وإحصائه وكتابته، ووكّل بالموت ملائكة، ووكّل بالسؤال في القبر ملائكة، ووكّل بالأفلاك ملائكة يحركونها، ووكّل بالشمس والقمر ملائكة، ووكّل بالنار وإيقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة، ووكّل بالجنة وعمارتها وغرسها وعمل آلائها ملائكة، فالملائكة أعظم جنود الله، ومنهم: المرسلات عرفاء، والناشرات نشراء، والفارقات فرقا، والملقيات ذكرا. ومنهم: النازعات غرقا، والناشطات نشطا، والسابحات سبحا، والسابقات سبقا. ومنهم: الصافات صفا، فالزاجرات زجرا، فالتاليات ذكرا.

ومعنى جمع التأنيث في ذلك كله: الفرق والطوائف والجماعات، التي مفردها: (فرقة) و(طائفة) و(جماعة)، ومنهم ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، وملائكة قد وكّلوا بحمل العرش، وملائكة قد وكّلوا بعمارة السماوات بالصلاة والتسبيح والتقديس، إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يحصيها إلا الله.

ولفظ (الملك) يشعر بأنه رسول منفذ لأمر مرسله، فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله لله الواحد القهار، وهم ينفذون أمره: ﴿لَا يَسْأَلُونَكَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ [الأنبياء: ٢٧-٢٨]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا

يُؤْمَرُونَ ﴿[النحل: ٥٠] فهم عباد مكرمون، منهم الصافون، ومنهم المسبحون، ليس منهم إلا له مقام معلوم، ولا يتخطاه، وهو على عمل قد أمر به. لا يقصر عنه ولا يتعداه، وأعلامهم الذين عنده: ﴿لَا يَسْتَكَبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠].

ومنهم الأملاك الثلاثة: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، الموكّلون بالحياة، فجبريل موكّل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل موكّل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل موكّل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم.

فهم رسل الله في خلقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عباده، ينزلون الأمر من عنده في أقطار العالم، ويصعدون إليه بالأمر، قد أظت السماوات بهم، وحق لها أن تتط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك قائم أو راقع أو ساجد لله، ويدخل البيت المعمور منهم كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم. والقرآن مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم ومراتبهم، فتارة يقرن الله تعالى اسمه باسمهم، وصلاته بصلاتهم، ويضيفهم إليه في مواضع التشريف، وتارة يذكر حفيهم بالعرش وحملهم له، وبراءتهم من الدنو، وتارة يصفهم بالإكرام والكرم، والتقريب والعلو والطهارة والقوة والإخلاص.

قال تعالى: ﴿كُلُّ عَامِنٍ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿الَّذِينَ يَجُلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٧]، ﴿وَتَرَى

أَلْمَلَكِيَّةَ حَافِيَةً مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴿الزمر: ٧٥﴾، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ ﴿[الأنبياء: ٢٦]﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ ﴿[الأعراف: ٢٠٦]﴾، ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ ﴿[فصلت: ٣٨]﴾، ﴿كَرَامًا كُنِينًا﴾ ﴿[الانفطار: ١١]﴾، ﴿كَرَامًا بَرَرَةً﴾ ﴿[عبس: ١٦]﴾، ﴿يَسْهَدُهُ الْمُفْرَبُونَ﴾ ﴿[المطففين: ٢١]﴾، ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ ﴿[الصافات: ٨]﴾.

وكذلك الأحاديث طافحة بذكرهم، فلهذا كان الإيمان بالملائكة أحد الأصول الخمسة التي هي أركان الإيمان؛ انتهى من شرح الطحاوية .

والملائكة خلقت من نور ففي مسلم (٢٩٩٦): عن عائشة قالت: قال رسول الله : «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ».

وهم مخلوقات عظيمة ففي البخاري (٣٢٣٥): عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ : فَأَيْنَ قَوْلُهُ ﴿ثُمَّ دَنَّا فَقَدَلْنَا﴾ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿[النجم: ٨-٩]﴾، قَالَتْ ذَاكَ جَبْرِيلُ كَانَ يَأْتِيهِ فِي صُورَةِ الرَّجُلِ وَإِنَّهُ أَتَاهُ هَذِهِ الْمَرَّةَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي هِيَ صُورَتُهُ فَسَدَّ الْأُفُقَ.

وأخرج (٣٢٣٢): فَقَالَ حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الشَّيْبَانِيُّ قَالَ سَأَلْتُ زُرَّ بْنَ حُبَيْشٍ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ ﴿١﴾ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴿[النجم: ٩-١٠]﴾. قَالَ حَدَّثَنَا ابْنُ مَسْعُودٍ: أَنَّهُ رَأَى جَبْرِيلَ لَهُ سِتْمِائَةٌ جَنَاحٍ.

وأخرج أبو يعلى (٣٣٩ / ٢): عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدْ التَقَمَ الْقَرْنَ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ وَأَصْغَى بِسَمْعِهِ يَنْتَظِرُ مَتَى

يُؤْمَرُ». قَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَيْفَ نَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟
قال: ﴿قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

وأخرج أبو داود (٣٦ / ١٣): عن جابر بن عبد الله: عن النبي قال: ﴿أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلِكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ﴾.

وقد سقت شيئاً من أوصافهم في كتاب الإيمان عجل الله تعالى أمره.

الإيمان بالأنبياء:

وأما الأنبياء والمرسلون، فعلينا الإيمان بمن سمي الله تعالى في كتابه من رسله، والإيمان بأن الله تعالى أرسل رسلاً سواهم وأنبياء، لا يعلم أسماءهم وعددهم إلا الله تعالى الذي أرسلهم. فعلينا الإيمان بهم جملة؛ لأنه لم يأت في عددهم نص. وقد قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

وعلى الإيمان بأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به، على ما أمرهم الله به، وأنهم بينوه بياناً لا يسع أحداً ممن أرسلوا إليه جهله، ولا يحل خلافه. قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٨٢]، ﴿وَلِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرُّسُلَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢].

وأما أولو العزم من الرسل فقد قيل فيهم أقوال أحسنها: ما نقله البغوي وغيره عن ابن عباس وقتادة: أنهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، صلوات الله

وسلامه عليهم. قال: وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وأما الإيمان بمحمد ، فتصديقه واتباع ما جاء به من الشرائع إجمالا وتفصيلا.

الإيمان بالكتب:

وأما الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين، فنؤمن بما سمي الله تعالى منها في كتابه، من التوراة والإنجيل والزرور، ونؤمن بأن الله تعالى سوى ذلك كتبها أنزلها على أنبيائه، لا يعرف أسماؤها وعددها إلا الله تعالى.

وأما الإيمان بالقرآن، فالإقرار به، واتباع ما فيه، وذلك أمر زائد على الإيمان بغيره من الكتب.

فعلينا الإيمان بأن الكتب المنزلة على رسل الله أتتهم من عند الله، وأنها حق وهدى ونور وبيان وشفاء. قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]، إلى قوله: ﴿وَمَا أَوْقَى النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٣٦]، ﴿الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١-٢]، إلى قوله: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٤]. ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تكلم بها، وأنها نزلت من عنده. وفي ذلك إثبات صفة الكلام والعلو. وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ

مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴿البقرة: ٢١٣﴾، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿فصلت: ٤١-٤٢﴾، ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ ﴿سبأ: ٦﴾، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿يونس: ٥٧﴾، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴿فصلت: ٤٤﴾، ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورَ الَّذِي أُنْزِلَنَا ﴿التغابن: ٨﴾. وأمثال ذلك كثيرة في القرآن، انتهى من شرح الطحاوية لابن أبي العز (٢٨٦) وما بعده.

الإيمان بالقضاء والقدر:

ومن عقيدة أهل السنة الإيمان بالقضاء والقدر من أركان الإيمان، والمراد بالقدر هو تعلق علم الله بالكائنات وإرادته لها ألا قبل وجودها.

قال الله : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿القمر: ٤٩﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿الحجر: ٢١﴾.

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ خَلَقَكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ ﴿المرسلات: ٢٠-٢٣﴾.

وفي حديث عمر عن مسلم (٨) في أركان الإيمان وفيه: «وَتُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، وفي حديث أبي هريرة عند مسلم: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ»، والقدر سر الله لم يُطلع عليه نبيا مرسلًا ولا ملكًا مقربًا.

فتقدير الله للأشياء على وجهين، أحدهما: بإعطاء القدرة، والثاني: بأن يجعلها على مقدار مخصوص ووجه حسبها اقتضت الحكمة؛ قاله الراغب.

قال القرطبي في المفهم (١/ ١٤٥): والإيمان بالقدر: هو التصديق بما تقدّم ذكره، وحاصله: هو ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦]، وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩]، وإجماع السلف والخلف على صدق قول القائل: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. اهـ

قال النووي في شرح كتاب القدر من صحيح مسلم: سبيل معرفة هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة دون محض القياس ومجرد العقول، فمن عدل عن التوقيف فيه ضل وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ شفاء النفس، ولا يصل إلى ما يطمئن به القلب؛ لأن القدر سر من أسرار الله تعالى التي ضربت من دونها الأستار، واختص الله به، وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم؛ لما علمه من الحكمة. وواجبنا أن نقف حيث حد لنا، ولا نتجاوزه، وقد طوى الله تعالى علم القدر على العالم، فلم يعلمه نبي مرسل، ولا ملك مقرب. وقيل: إن سر القدر ينكشف لهم إذا دخلوا الجنة، ولا ينكشف قبل دخولها. والله أعلم.

ومراتبه أربعة: ولا يتم الإيمان بالقدر إلا بتحقيقها:

الأولى: العلم:

ودليها قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الحشر: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿عَلِمِ الْغَيْبُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وفي البخاري عن ابن عباس قال: سئل رسول الله عن أبناء المشركين فقال: «اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ».

ويتم الإيمان بهذه المرتبة بأن تعتقد وتقر بأن الله تعالى عالم بكل شيء جملة وتفصيلاً أزلاً، وأبداً سواء كان ذلك مما يتعلق بأفعاله أو بأفعال عباده فعلمه محيط بما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، ويعلم الموجود والمعدوم، والممكن، والمستحيل، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، وقد علم جميع خلقه قبل أن يخلقهم، فعلم أرزاقهم وآجالهم وأقوالهم، وأعمالهم وجميع حركاتهم وسكناتهم، وأهل الجنة، وأهل النار، - ومرتبة العلم السابق - اتفق عليها الرسل من أولهم إلى آخرهم، واتفق عليها جميع الصحابة ومن تبعهم من هذه الأمة، وخالفهم مجوس هذه الأمة - القدريّة الغلاة - ^(١).

(١) الإيمان بالقضاء والقدر (٣) لإبراهيم الحمد (٦٢).

المرتبة الثانية: الكتابة:

يدل على هذه المرتبة قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]. وقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، وقال تعالى في ذكر محاجة موسى لفرعون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ۚ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَىٰ﴾ [طه: ٥١-٥٢].

وفي حديث عبد الله بن عمرو عند مسلم (١١٧/١٣): «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»؛ قَالَ: «وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ».

وفي حديث علي: «مَا مِنْ نَفْسٍ مِنْفُوسَةٍ إِلَّا وَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا وَقَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةٌ، أَوْ سَعِيدَةٌ»، متفق عليه.

وفي حديث عباد بن الصامت المتقدم في باب الإيمان بالقلم: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ: اكْتُبْ، فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الْأَبَدِ».

فيجب على المسلم أن يؤمن بأن الله تعالى كتب ما سبق به علمه من مقادير الخلائق إلى يوم القيامة في اللوح المحفوظ، وقد أجمع الصحابة، والتابعون وجميع أهل السنة، والحديث على أن كل كائن إلى يوم القيامة، فهو مكتوب في أم الكتاب التي هي اللوح المحفوظ، والذكر والإمام المبين والكتاب المبين^(١).

(١) الإيمان بالقضاء والقدر (٦٣).

المرتبة الثالثة: المشيئة:

يدل على هذه المرتبة قول الله : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:

٦٨].

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِسَائِيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۖ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ

اللَّهُ ۚ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤].

وقوله : ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:

٣٩].

وفي حديث عبد الله بن عمر عند مسلم (٢٦٥٥): «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ

إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ».

وفي صحيح مسلم : «فَإِنَّ اللَّهَ صَانِعٌ مَا شَاءَ لَا مُكْرَهَ لَهُ».

وهذه المرتبة هي المعبر عنها بقول الناس: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن،

وتكون بالإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن،

وأنه لا حركة ولا سكون ولا هداية ولا إضلال إلا بمشيئته وهذه المرتبة قد دل

عليها إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم، وجميع الكتب المنزلة من عند الله، والفطرة

التي فطر الله الناس عليها خلقه وأدلة العقل والبيان.

ومما ينسب إلى الإمام الشافعي:

ما شئتُ كان وإن لم أشأ وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن

ومشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة يجتمعان فيما كان وما سيكون، ويفترقان فيما لم يكن ولا هو كائن فما شاء الله كونه فهو كائن بقدرته لا محالة وما لم يشأ كونه فإنه لا يكون لعدم مشيئته لا لعدم قدرته عليه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَكَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فعدم اقتتالهم ليس لعدم قدرته ولكن لعدم مشيئته ذلك^(١).

المرتبة الرابعة: الخلق:

قال الله : ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

وعن حذيفة قال: قال رسول الله : «إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ صَانِعٍ وَصَنَعَتِهِ»، أخرجه البخاري في كتاب أفعال العباد.

وهذه المرتبة تقتضي أن جميع الكائنات مخلوقة لله بذواتها وصفاتها وحركاتها وبأن كل ما سوى الله مخلوق مُوجدٌ من العدم كائن بعد أن لم يكن، وهذه المرتبة دلت عليها الكتب السماوية، وأجمع عليها الرسل عليهم الصلاة والسلام، واتفقت عليها الفطر القويمة، والعقول السليمة.

وقد جمعت هذه المراتب الأربع في قول الناظم:

علمٌ كتابه مولانا مشيئته وخلقُه وهو إيجاد وتكوين

فلا يتم إيمان عبد بالقضاء والقدر حتى يؤمن بهذه المراتب الأربع.

(١) الإيمان بالقضاء والقدر (٦٥).

أنواع التقدير:

الأول: التقدير العام الشامل: وهو شامل لجميع الكائنات وهو المكتوب في اللوح المحفوظ وقد تقدم دليله.

الثاني: التقدير المفصل للتقدير العام، وينقسم إلى نوعين.

النوع الأول: التقدير العمري؛ كما في حديث عبد الله قال حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمُصَدِّقُ قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ عُلِقَتْ مِثْلُ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعٍ: بِرِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، فَوَاللَّهِ إِنْ أَحَدَكُمْ أَوْ الرَّجُلُ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ بَاعٍ أَوْ ذِرَاعٍ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ ذِرَاعٍ أَوْ ذِرَاعَيْنِ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا»، قَالَ آدَمُ: «إِلَّا ذِرَاعٌ»، متفق عليه.

النوع الثاني: التقدير الحولي، وهو ما يقدر في ليلة القدر من وقائع العام؛ كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

النوع الثالث: التقدير اليومي، وهو ما يقدر من حوادث اليوم من حياة وموت وعز وذل... إلى غير ذلك؛ كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

ولا بد للمسلم من الإيثار بالقدر العام وتفصيله؛ فمن جحد شيئاً منها؛ لم يكن مؤمناً بالقدر، ومن لم يؤمن بالقدر؛ فقد جحد ركناً من أركان الإيمان^(١).

(١) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد للفرزاني (٣٠٧-٣٠٨).

وبعضهم يضيف نوعاً رابعاً وهو التقدير البشري وهو المنصوص عليه في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

الإرادة الربانية: تنقسم إرادة الله إلى إرادة كونية، وإرادة شرعية:

١ - فالإرادة الكونية: هي المعبر عنها بمشيئة الله تعالى، وهذه الإرادة لا يخرج عنها شيء، فالكافر والمسلم تحت هذه الإرادة الكونية سواء، فالطاعات، والمعاصي كلها بمشيئة الرب وإرادته، ومن أمثلتها قوله: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ [الرعد: ١١].

٢ - والإرادة الشرعية: تتضمن محبة الله ورضاه، ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]، وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

الفرق بين الإرادة الكونية والشرعية:

١ - الإرادة الكونية تكون فيما يحبه الله تعالى وما لا يحبه.

- الإرادة الشرعية لا تكون إلا فيما يحبه الله .

٢ - الإرادة الكونية لا بد أن تقع.

- الإرادة الشرعية قد تقع وقد لا تقع.

٣ - الإرادة الكونية مرادفة للمشيئة.

- الإرادة الشرعية مرادفة للمحبة والرضا.

٤ - الإرادة الكونية مقصودة لغيرها كخلق إبليس، فإنه رأس الشر لكن خلقه الله لحكمة، فتحقق بسبب وجوده الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك.

- الإرادة الشرعية مقصودة لذاتها.

٥ - الإرادة الكونية متعلقة بربوبية الله وخلقها.

- الإرادة الشرعية متعلقة بألوهية الله وشرعه.

٦ - الإرادتان تجتمعان في حق المطيع وتفرقان في حق العاصي مثاله إيمان أبي بكر أراد الله كوناً وشرعاً، إما كونه أراد كونه كوناً فوقوقه دليل عليه، وأما أنه أراد شرعاً، فالإيمان محبوب إلى الله ، بينما إيمان أبي جهل أراد الله شرعاً ولم يرد كونه، ولو أراد كونه لوقع^(١).

مذاهب الناس في الإيمان بالقدر:

والناس في هذا الباب ينقسمون إلى طرفين ووسط:

أما الوسط فهم أهل السنة والجماعة الطائفة المنصورة الفرقة الناجية أهل الحديث السلفيون.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٨/٤٤٩-٤٥٠): مذهب أهل السنة والجماعة في هذا الباب وغيره ما دل عليه الكتاب والسنة، وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان: وهو أن الله خالق كل

(١) انظر منهاج السنة (٣/١٨٠-١٨٣)، الطحاوية (١١٤)، الإيمان بالقضاء والقدر (٩٧-٩٩).

شيء وربه ومليكه، وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها وصفاتها القائمة بها من أفعال العباد وغير أفعال العباد، وأنه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ فلا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئته وقدرته، لا يمتنع عليه شيء شاء؛ بل هو قادر على كل شيء ولا يشاء شيئاً إلا وهو قادر عليه، وأنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وقد دخل في ذلك أفعال العباد وغيرها وقد قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم: قدر آجالهم، وأرزاقهم، وأعمالهم، وكتب ذلك، وكتب ما يصيرون إليه من سعادة، وشقاوة فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء.

وقال (٤٥٢ / ٨): وسلف الأمة وأئمتها متفقون أيضاً على أن العباد مأمورون بما أمرهم الله به، منهيون عما نهاهم الله عنه، ومتفقون على الإيمان بوعده ووعيده الذي نطق به الكتاب والسنة، ومتفقون أنه لا حجة لأحد على الله في واجب تركه، ولا محرم فعله بل لله الحجة البالغة. اهـ

وأما الطرفان المخالفان في هذا الباب فهما:

الجبرية: أصل قولهم من جهنم بن صفوان، وأن فعل العبد بمنزلة طوله ولونه، وغُلُو في إثبات القدر حتى أنكروا أن يكون للعبد فعل حقيقة، بل هو في زعمهم لا حرية له، ولا فعل كالريشة في مهب الريح، وإنما تُسند إليه الأفعال مجازاً فيقال: صلى وصام، وقتل وسرق كما يقال طلعت الشمس وجرت الريح، ونزل المطر، ومؤدى قولهم إلى اتهام الله بالظالم، وتكليف العباد ما لا قدرة لهم عليه، ومجازاتهم على ما ليس من أفعالهم واتهموه بالعبث في تكليف العباد وأبطلوا الحكمة والأمر والنهي، ألا ساء ما يحكمون.

وهؤلاء في الحقيقة يزعمون أن الله هو الفاعل الحقيقي لأفعالهم بخلاف ما عليه أهل السنة الذين يقولون إن الله هو الخالق والعبد هو الفاعل، ولذا ترتب على فعله الثواب والعقاب.

ومن أسماء الجبرية القدرية المشركة؛ لأنهم شابهوا المشركين في قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾^(١) [الأنعام: ١٤٨].

وبلغ الجبر لدى غلاة الصوفية حتى قال بعضهم:

أصبحت منفعلًا لما يختاره مني ففعلي كله طاعات

وهؤلاء يرون كل ما يصدر من العبد من ظلم وكفر، وفسوق هو طاعة محضه؛ لأنها إنما تجري وفق ما قضاه الله وقدره، فهو محبوب لديه مرضي عنده، فإذا كان قد خالف أمر الشرع بارتكاب هذه المحظورات، فقد أطاع بإرادة الله ونفذ مشيئته فمن أطاع الله في قضاءه وقدره هو كمن أطاعه في أمره ونهيه كلاهما قد قام بحق العبودية لله^(٢).

وعلى هذا القول فالكل مطيع، قوم نوح الذين أهلكهم الله وقوم فرعون وقوم لوط وقوم هود وقوم صالح، ولازمه أن يكون الله ظالمًا لهم، تعالى الله عما افتراه الظالمون علوًا كبيرًا.

القدرية: وهم نفاة القدر وينقسمون إلى قسمين:

الأول: نفاة العلم: وهم الذين يقولون بأن الله لا يعلم الشيء إلا عند وقوعه، وكان أول ظهورهم في أواخر عهد الصحابة قال يحيى بن يعمر: كان أول من قال في

(١) الإيمان بالقضاء والقدر (١٧٥).

(٢) شرح النونية للهراش (١/٣٧٢).

القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحيد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي أحداً عن يمينه، والآخر عن شماله فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلى فقلت: أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن ويتقفرون العلم -وذكر من شأنهم-، وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف، قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم برآء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر، لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً، فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر. الحديث في صحيح مسلم رقم (٨)، وهذه الطائفة قد كفرها العلماء، وقد حكى النووي ، وكذا شيخ الإسلام انقراضهم ^(١).

قال النووي : هذه الفرقة قدرية لإنكارهم القدر، قال أصحاب المقالات من المتكلمين: وقد انقرضت القدرية القائلون بهذا القول الشنيع الباطل، ولم يبق أحد من أهل القبلة عليه، وصارت القدرية في الأزمان المتأخرة تعتقد إثبات القدر، ولكن يقولون: الخير من الله والشر من غيره تعالى الله عن قولهم.

وهذه القدرية تسمى: مجوس هذه الأمة. قال النووي : وقد قال رسول الله : «الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ»، شبههم بهم لتقسيمهم الخير والشر في حكم الإرادة، كما قسمت المجوس، فصرفت الخير إلى يزدان، والشر إلى أهرمن.

قال الخطابي: إنما جعلهم مجوساً لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس في قولهم بالأصلين النور والظلمة، يزعمون أن الخير من فعل النور والشر من فعل

(١) شرح صحيح مسلم (١/١٥٣).

الظلمة، فصاروا ثنوية، وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله تعالى والشر إلى غيره، والله سبحانه وتعالى خالق الخير والشر جميعاً لا يكون شيء منهما إلا بمشيئته، فهما مضافان إليه سبحانه وتعالى خلقاً، وإيجاداً، وإلى الفاعلين لهما من عبادة فعلاً واكتساباً. اهـ

و مما يدل على أن الله خالق الخير والشر قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦]، وقول النبي: «إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ صَانِعٍ وَصَنَعَةٍ».

والعجب أن هؤلاء يخرجون أفعال العباد المخلوقة المربوبة من عموم قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، ويدخلون في عموم هذه الآية القرآن الذي هو صفة الله .

وملخص القول أن سبب ضلال من ضل من هذه الفرق عدم جمعه بين الأدلة من القرآن والسنة، فعلى هذا كل دليل صحيح يستدل به الجبري فيه رد على القدرية النفاة، وكل دليل صحيح يستدل به القدري فيه رد على الجبرية، ولشيخنا الوادعي كتاب قيم بعنوان الجامع الصحيح في القدر ألفه للرد على الشيعة القدرية النفاة.



الإيمان بالشفاعة لأهل الكبائر من أمة محمد

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أن النبي يشفع في أهل الكبائر من أمته خلافا للخوارج والمعتزلة.

والشفاعة أنواع: منها ما هو متفق عليه بين الأمة، ومنها ما خالف فيه المعتزلة ونحوهم من أهل البدع.

النوع الأول: الشفاعة الأولى، وهي العظمى، الخاصة بنبينا من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين. في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة أجمعين، أحاديث الشفاعة.

منها: عن أبي هريرة ، قال: أتى رسول الله بلحم، فدفع إليه منها الذراع، وكانت تعجبه، فنهس منها نهسة، ثم قال: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَذَرُونَ لِي ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسَمِعُهُمُ الدَّاعِيَ، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصْرَ، وَتَذْنُو الشَّمْسُ فَيُلْغُ النَّاسُ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ، وَلَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ إِلَى مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَبُوكُمْ آدَمُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ: آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ،

أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟ فَيَقُولُ نُوحٌ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ فَذَكَرَ كَذِبَاتِهِ، نَفْسِي نَفْسِي، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، اضْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ، وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُؤْمَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، قَالَ: هَكَذَا هُوَ، وَكَلَّمَتِ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَيَأْتُونِي فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ، وَمَا تَأَخَّرَ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَّغْنَا؟ فَأَقُومُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقْعُ سَاجِدًا لِلرَّبِّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ، شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، فَيَقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهُ، اشفَعْ تُشَفِّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبَّ أُمَّتِي أُمَّتِي، يَا رَبَّ أُمَّتِي أُمَّتِي، يَا رَبَّ أُمَّتِي أُمَّتِي،

يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، أَذْخَلَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْإِيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِي مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَبْوَابِ، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَمَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيحِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى». أخرجاه في الصحيحين بمعناه، واللفظ للإمام أحمد في المسند (٩٦٢١).

النوع الثاني والثالث من الشفاعة: شفاعته في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة، وفي أقوام آخرين قد أمر بهم إلى النار أن لا يدخلوها.

النوع الرابع: شفاعته في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم. وقد وافقت المعتزلة هذه الشفاعة خاصة، وخالفوا فيما عداها من المقامات، مع تواتر الأحاديث فيها.

النوع الخامس: الشفاعة في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب، ويحسن أن يستشهد لهذا النوع بحديث عكاشة بن محصن، حين دعا له رسول الله أن يجعله من السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، والحديث مخرج في الصحيحين .

النوع السادس: الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه، كشفاعته في عمه أبي طالب أن يخفف عنه عذابه. ثم قال القرطبي في التذكرة بعد ذكر هذا النوع: فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المذثر: ٤٨]. قيل له: لا تنفعه في الخروج من النار، كما تنفع عصاة الموحدين، الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة.

النوع السابع: شفاعته أن يؤذن لجميع المؤمنين في دخول الجنة، كما تقدم. وفي صحيح مسلم عن أنس ، أن رسول الله قال: «أنا أول شفيع في الجنة».

النوع الثامن: شفاعته في أهل الكبائر من أمته، ممن دخل النار، فيخرجون منها، وقد تواترت بهذا النوع الأحاديث. وقد خفي علم ذلك على الخوارج والمعتزلة، فخالفوا في ذلك، جهلا منهم بصحة الأحاديث، وعنادا ممن علم ذلك واستمر على بدعته. وهذه الشفاعة تشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون أيضا. وهذه الشفاعة تتكرر منه أربع مرات.

ومن أحاديث هذا النوع، حديث أنس بن مالك ، قال: قال رسول الله : «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي». رواه الإمام أحمد .

وروى البخاري في كتاب التوحيد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا معبد بن هلال العنزي، قال: اجتمعنا وناس من أهل البصرة، فذهبنا إلى أنس بن مالك، وذهبنا معنا ب ثابت البناني إليه، يسأله لنا عن حديث الشفاعة، فإذا هو في قصره، فوافقناه يصلي الضحى، فاستأذنا، فأذن لنا وهو قاعد على فراشه، فقلنا لثابت: لا تسأله عن شيء أول من حديث الشفاعة، فقال: يا أبا حمزة، هؤلاء إخوانك من أهل البصرة، جاؤوك يسألونك عن حديث الشفاعة، فقال: حدثنا محمد ، قال: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللَّهِ، فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ: لَسْتُ هَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى فَإِنَّهُ رُوحُ اللَّهِ، وَكَلِمَتُهُ، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ هَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ ، فَيَأْتُونِي، فَأَقُولُ: أَنَا هَا،

فَاسْتَأْذَنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لَا تَحْضُرُنِي الْآنَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ
 الْمَحَامِدِ، وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ،
 وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ
 مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ
 سَاجِدًا، فَيَقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ،
 فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ -
 أَوْ خَرْدَلَةٍ - مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجْهُ، فَأَنْطَلِقُ، فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ
 أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ
 تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَذْنَى أَذْنَى
 أَذْنَى مِثْقَالِ حَبَّةٍ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ. قال: فلما
 خرجنا من عند أنس، قلت لبعض أصحابنا لو مررنا بالحسن، وهو متوار في منزل
 أبي خليفة، فحدثناه بما حدثنا به أنس بن مالك، فأتيناه، فسلمنا عليه، فأذن لنا، فقلنا
 له: يا أبا سعيد، جئناك من عند أخيك أنس بن مالك، فلم نر مثل ما حدثنا في
 الشفاعة، فقال: هيه؟ فحدثناه بالحديث، فانتهى إلى هذا الموضع، فقال: هيه؟ فقلنا لم
 يزد لنا على هذا، فقال: لقد حدثني وهو جميع منذ عشرين سنة، فلا أدري، أنسي أم
 كره أن تتكلوا؟ فقلنا: يا أبا سعيد، فحدثنا، فضحك، وقال: خلق الإنسان عجولا!
 ما ذكرته إلا وأنا أريد أن أحدثكم، حديثي كما حدثكم به، قال: (ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ
 فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ،
 وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَقُولُ:
 وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لَأَخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وهكذا
 رواه مسلم.

وروى الحافظ أبو يعلى عن عثمان ، قال: قال رسول الله : «يَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْعُلَمَاءُ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ»، وفي الصحيح من حديث أبي سعيد مرفوعا، قال: «فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ»، الحديث.

ثم إن الناس في الشفاعة على ثلاثة أقوال:

فالمشركون والنصارى والمبتدعون من الغلاة في المشايخ وغيرهم: يجعلون شفاعة من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا.

والمعتزلة والخوارج أنكروا شفاعة نبينا وغيره في أهل الكبائر.

وأما أهل السنة والجماعة، فيقرون بشفاعة نبينا في أهل الكبائر، وشفاعة غيره، لكن لا يشفع أحد حتى يأذن الله له ويحد له حدا، كما في الحديث الصحيح، حديث الشفاعة أنهم يأتون آدم، ثم نوحا، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، فيقول لهم عيسى عليه السلام: «اَتُّوا مُحَمَّدًا ، فَقَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَأْتُونِي، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُقَالُ لِي: ارْفَعْ رَأْسَكَ: سَلْ تُعْطَهُ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَخْبِدُ رَبِّي بِتَحْمِيدِ يُعَلِّمُنِي، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيُحَدِّثُ لِي حَدًّا، ثُمَّ أَخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ، وَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَقْعُ سَاجِدًا مِثْلَهُ فِي الثَّالِثَةِ، أَوِ الرَّابِعَةِ...»، ذكرها ثلاث مرات.

التوسل بذوات الصالحين:

وأما الاستشفاع بالنبي وغيره في الدنيا إلى الله تعالى في الدعاء، ففيه تفصيل: فإن الداعي تارة يقول: بحق نبيك أو بحق فلان، يقسم على الله بأحد من مخلوقاته، فهذا محذور من وجهين:

أحدهما: أنه أقسم بغير الله.

والثاني: اعتقاده أن لأحد على الله حقا.

ولا يجوز الحلف بغير الله، وليس لأحد على الله حق إلا ما أحقه على نفسه، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]. وكذلك ما ثبت في الصحيحين من قوله لمعاذ ، وهو رديفه: «يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟». قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «أَنْ يُعْبَدَ اللَّهُ وَلَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ»، قال: «أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟». قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ». فهذا حق وجب بكلماته التامة ووعد الصديق، لا أن العبد نفسه مستحق على الله شيئا كما يكون للمخلوق على المخلوق، فإن الله هو المنعم على العباد بكل خير، وحقهم الواجب بوعده هو أن لا يعذبهم، وترك تعذيبهم معنى لا يصلح أن يقسم به، ولا أن يسأل بسببه ويتوسل به، لأن السبب هو ما نصبه الله سببا.

وكذلك الحديث الذي في المسند من حديث أبي سعيد عن النبي ، في قول الماشي إلى الصلاة: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ، وَأَسْأَلُكَ بِحَقِّ مَمْشَايَ هَذَا»، فهذا حق السائلين، هو أوجهه على نفسه، فهو الذي أحق للسائلين أن يجيبهم، وللعابدين أن يشيهم، ولقد أحسن القائل:

ما للعباد عليه حق واجب كلا ولا سعي لديه ضائع

إن عذبوا فبعده، أو نعموا فبفضله وهو الكريم الواسع
فإن قيل: فأبي فرق بين قول الداعي: «بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ» وبين قوله: "بحق
نبيك"، أو نحو ذلك؟

فالجواب: أن معنى قوله: «بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ»، أنك وعدت السائلين
بالإجابة، وأنا من جملة السائلين، فأجب دعائي، بخلاف قوله: بحق فلان -فإن
فلانا وإن كان له حق على الله بوعده الصادق- فلا مناسبة بين ذلك وبين إجابة دعاء
هذا السائل. فكأنه يقول: لكون فلان من عبادك الصالحين أجب دعائي! وأي
مناسبة في هذا وأي ملازمة؟ وإنما هذا من الاعتداء في الدعاء! وقد قال تعالى:
﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

وهذا ونحوه من الأدعية المبتدعة، لم ينتقل عن النبي ، ولا عن الصحابة،
ولا عن التابعين، ولا عن أحد من الأئمة، وإنما يوجد مثل هذا في الحروز والهيكل
التي يكتب بها الجهال والطريقة.

والدعاء من أفضل العبادات، والعبادات مبناه على السنة والاتباع، لا على
الهُوى والابتداع. وإن كان مراده الإقسام على الله بحق فلان، فذلك محذور أيضا،
لأن الإقسام بال مخلوق على المخلوق لا يجوز، فكيف على الخالق؟! وقد قال :
«مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ».

ولهذا قال أبو حنيفة وصاحبه رحمهم الله: يكره أن يقول الداعي: أسألك بحق
فلان، أو بحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت الحرام، والمشعر الحرام، ونحو ذلك
حتى كره أبو حنيفة ومحمد أن يقول الرجل: اللهم إني أسألك بمعقد العز من
عرشك، ولم يكرهه أبو يوسف لما بلغه الأثر فيه.

وتارة يقول: بجاه فلان عندك، يقول: نتوسل إليك بأنبيائك ورسلك وأوليائك. ومراده أن فلانا عندك ذو وجهة وشرف ومنزلة فأجب دعاءنا. وهذا أيضا محذور، فإنه لو كان هذا هو التوسل الذي كان الصحابة يفعلونه في حياة النبي لفعلوه بعد موته، وإنما كانوا يتوسلون في حياته بدعائه، يطلبون منه أن يدعو لهم، وهم يؤمنون على دعائه، كما في الاستسقاء وغيره. فلما مات قال عمر - لما خرجوا يستسقون-: "اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقيننا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا". معناه بدعائه هو ربه وشفاعته وسؤاله، ليس المراد أنا نقسم عليك به، أو نسألك بجاهه عندك، إذ لو كان ذلك مرادا لكان جاه النبي أعظم وأعظم من جاه العباس.

وتارة يقول: باتباعي لرسولك ومحبي له وإيماني به وسائر أنبيائك ورسلك وتصديقي لهم، ونحو ذلك. فهذا من أحسن ما يكون في الدعاء والتوسل والاستشفاع.

فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به فيه إجمال، غلط بسببه من لم يفهم معناه: فإن أريد به التسبب به لكونه داعيا وشافعا، وهذا في حياته يكون، أو لكون الداعي محبا له، مطيعا لأمره، مقتديا به، وذلك أهل للمحبة والطاعة والافتداء، فيكون التوسل إما بدعاء الوسيلة وشفاعته، وإما بمحبة السائل واتباعه، أو يراد به الإقسام به والتوسل بذاته، فهذا الثاني هو الذي كرهوه ونهوا عنه.

وكذلك السؤال بالشيء، قد يراد به التسبب به، لكونه سببا في حصول المطلوب، وقد يراد به الإقسام به.

ومن الأول: حديث الثلاثة الذين أوا إلى الغار، وهو حديث مشهور في الصحيحين وغيرهما، فإن الصخرة انطبقت عليهم، فتوسلوا إلى الله بذكر أعمالهم الصالحة الخالصة، وكل واحد منهم يقول: فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون. فهؤلاء: دعوا الله بصالح الأعمال، لأن الأعمال الصالحة هي أعظم ما يتوسل به العبد إلى الله، ويتوجه به إليه، ويسأله به، لأنه وعد أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله.

فالخاص أن الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند البشر، فإن الشفيع عند البشر كما أنه شافع للطالب شفعه في الطلب، بمعنى أنه صار شفعا فيه بعد أن كان وترا، فهو أيضا قد شفّع المشفوع إليه، وبشفاعته صار فاعلا للمطلوب، فقد شفّع الطالب والمطلوب منه، والله تعالى وتر، لا يشفعه أحد، فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فالأمر كله إليه، فلا شريك له بوجه.

فسيد الشفعاء يوم القيامة إذا سجد وحمد الله تعالى فقال له الله: ﴿ارْفَعْ رَأْسَكَ وَسَلْ تُعْطَهُ، وَقُلْ يُسْمَعْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعْ رَأْسِي، فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدِ يُعَلِّمْنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعْ فَيَحْدُثْ لِي حَدًّا، فَأَدْخِلْهُمْ الْجَنَّةَ﴾، فالأمر كله لله. كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَمْرُكُمْ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فإذا كان لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه لمن يشاء، ولكن يكرم الشفيع بقبول شفاعته، كما قال : ﴿اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ﴾.

وفي الصحيح أن النبي قال: «يَا صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ».

وفي الصحيح أيضا عن النبي : «لَا أُلْفِيَنَّ يَحْيَى أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ يَحْيَى أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدُكُمْ يَحْيَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حِمَحِمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ يَحْيَى أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيَاخٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أُلْفِيَنَّ يَحْيَى أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفُقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغْنِنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا...».

فإذا كان سيد الخلق وأفضل الشفعاء يقول لأخص الناس به: «إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»، فما الظن بغيره؟ وإذا دعاه الداعي، وشفع عنده الشفيع، فسمع الدعاء، وقبل الشفاعة، لم يكن هذا هو المؤثر فيه كما يؤثر المخلوق في المخلوق، فإنه سبحانه وتعالى هو الذي جعل هذا يدعو ويشفع، وهو الخالق لأفعال العباد، فهو الذي وفق العبد للتوبة ثم قبلها، وهو الذي وفقه للعمل ثم أثابه، وهو الذي وفقه للدعاء ثم أجابه. وهذا مستقيم على أصول أهل السنة المؤمنين بالقدر، وأن الله خالق كل شيء؛ انتهى من شرح الطحاوية لابن أبي العز .



الإيمان برؤية المؤمنين لربهم عز وجل يوم القيامة

من عقيدة أهل السنة والجماعة التي خالفوا فيها المبتدعة إثبات رؤية المؤمنين لربهم سبحانه بأعينهم يوم القيامة في موطنين، المحشر والجنة، وقد يسر الله تعالى بجمع طيب أسميته رؤية المؤمنين للجبار في المحشر ودار القرار ، واعلم أن الإيمان برؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة وفي الجنة هو معتقد أهل السنة والجماعة المؤيد بالأدلة الجلية والبراهين النقلية والشواهد العقلية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في لاميته :

والمؤمنون يرون حقاً ربهم وإلى السماء بغير كيف ينزل

وقال أبو بكر بن أبي داود في حائيته :

وقل يتجلى الله للخلق جهرةً كما البدر لا يخفى وربك أوضح

وليس بمولود وليس بوالد وليس له شبه تعالى المسبح

وقد ينكر الجهمي هذا وعندنا بمصدق ما قلنا حديث مصرح

رواه جرير عن مقال محمد فقل مثل ما قد قال في ذاك تنجح

وللناس في هذا الباب ثلاثة مذاهب قال شيخ الإسلام كما في المجموع

(٢/ ٣٣٦-٣٣٧): وَالنَّاسُ فِي رُؤْيَا اللَّهِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ:

فَالصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ وَأَئِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يَرَى فِي الْآخِرَةِ بِالْأَبْصَارِ عَيْنًا

وَأَنَّ أَحَدًا لَا يَرَاهُ فِي الدُّنْيَا بِعَيْنِهِ؛ لَكِنْ يَرَى فِي الْمَنَامِ وَيَحْصُلُ لِلْقُلُوبِ -مِنْ الْمُكَاشَفَاتِ

وَالْمُشَاهَدَاتِ- مَا يُنَاسِبُ حَالَهَا.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ تَقْوَى مُشَاهَدَةَ قَلْبِهِ حَتَّى يَظُنَّ أَنَّهُ رَأَى ذَلِكَ بِعَيْنِهِ؛ وَهُوَ غَالِطٌ، وَمُشَاهَدَاتُ الْقُلُوبِ تَحْصُلُ بِحَسَبِ إِيْمَانِ الْعَبْدِ وَمَعْرِفَتِهِ فِي صُورَةٍ مِثَالِيَّةٍ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: قَوْلُ نِفَاةِ الْجَهْمِيَّةِ أَنَّهُ لَا يَرَى فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ.

وَالثَّلَاثُ: قَوْلُ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَرَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَحُلُولِيَّةُ الْجَهْمِيَّةِ يَجْمَعُونَ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ فَيَقُولُونَ: إِنَّهُ لَا يَرَى فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَإِنَّهُ يَرَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. اهـ

والمخالفون هم أهل البدع، قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (١٨٣): المخالف في الرؤية: الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإمامية. وقولهم باطل مردود بالكتاب والسنة. وقد قال بثبوت الرؤية الصحابة والتابعون، وأئمة الإسلام المعروفون بالإمامة في الدين، وأهل الحديث، وسائر طوائف أهل الكلام المنسوبون إلى السنة والجماعة.

وهذه المسألة من أشرف مسائل أصول الدين وأجلها، وهي الغاية التي شمر إليها المشمرون، وتنافس فيها المتنافسون، وحرمها الذين هم عن ربهم محجوبون، وعن بابه مردودون؛ انتهى.

ومن الأدلة على إثبات رؤية المؤمنين لربهم في المحشر ثم في الجنة، قال الله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

والشاهد من الآية قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣]، أي: تنظر إلى ربها سبحانه بعيني رأسها، فقد قال عبد الله بن أحمد في السنة (٤٨١): حَدَّثَنِي أَبُو مَعْمَرٍ، نَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ شَقِيقٍ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ وَاقِدٍ، عَنْ يَزِيدَ النَّحْوِيِّ، عَنْ

عِكْرَمَةً: ﴿نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣]، قَالَ: تَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظْرًا. وفي رواية ابن جرير (١٩٢/٢٩): تنظر إلى ربها نظراً. وعند الدارمي في الرد على الجهمية (ص ٢٠٠): ينظرون إلى الله نظراً.

وقال عبد الله (٤٨٢): حَدَّثَنِي أَبِي ، نا أَبُو مُعَاوِيَةَ، نا إِسْمَاعِيلُ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ: فِي قَوْلِهِ ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢]، قَالَ: حَسَنَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ. ومنها قوله سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحُجُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

قال ابن القيم في كتابه حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (٢٧٢): قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحُجُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، ووجه الاستدلال بها أنه سبحانه وتعالى جعل من أعظم عقوبة الكفار كونهم محجوبين عن رؤيته واستماع كلامه فلو لم يره المؤمنون ولم يسمعوا كلامه كانوا أيضا محجوبين عنه، وقد احتج بهذه الحجة الشافعي نفسه وغيره من الأئمة، فذكر الطبراني وغيره من المزي قال سمعت الشافعي يقول في قوله : ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحُجُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، فيها دليل على أن أولياء الله يرون ربهم يوم القيامة، وقال الحاكم: حدثنا الأصم أنبأنا الربيع بن سليمان قال حضرت محمد بن إدريس الشافعي، وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها ما تقول في قول الله : ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحُجُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، فقال الشافعي: لما أن حجب هؤلاء في السخط كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضا. اهـ

ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَقَّوهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَحْيَتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ، سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤].

واللقاء لا يكون إلا معاينة، وعلى هذا إجماع أهل اللغة، قال الآجري في الشريعة (٢/ ٩٨١ ط/ الوطن: وقال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤]، واعلم رحمك الله أن عند أهل العلم باللغة أن اللقاء هاهنا، لا يكون؛ إلا معاينة يراهم الله تعالى ويرونه، ويسلم عليهم، ويكلمهم ويكلمونه. اهـ

ومن أدلة الرؤية في السنة النبوية ما اتفق عليه البخاري ومسلم من حديث جرير قال كنا عند النبي فنظر إلى القمر ليلة -يعنى البدر- فقال: ﴿إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تَغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا﴾. ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

وعن أبي هريرة أن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: ﴿هَلْ تُمَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟﴾. قالوا: لا يا رسول الله. قال: ﴿فَهَلْ تُمَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟﴾. قالوا: لا. قال: ﴿فَإِنَّكُمْ تَرُونَهُ كَذَلِكَ، يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الشَّمْسَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الْقَمَرَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبَقَى هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمُ اللَّهُ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، فَيَدْعُوهُمْ فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانِي جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرُّسُلِ بِأَمَّتِهِ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا الرُّسُلُ، وَكَلَامُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيبٌ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟﴾. قالوا: نعم. قال: ﴿فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ

السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدَرَ عَظَمِهَا إِلَّا اللَّهُ، تَخَطَّفَ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُوبَقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْرَدُلُ ثُمَّ يَنْجُو، حَتَّى إِذَا أَرَادَ اللَّهُ رَحْمَةً مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ: أَنْ يُخْرِجُوا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ، فَيُخْرِجُونَهُمْ وَيَعْرِفُونَهُمْ بِآثَارِ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيُخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ، فَكُلُّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ النَّارُ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ، فَيُخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ، قَدْ امْتَحَشُوا فَيَصُبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي حِمِيلِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَفْرُغُ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ وَيَبْقَى رَجُلٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَهُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولًا الْجَنَّةَ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ قِبَلَ النَّارِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ اضْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ، قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا وَأَحْرَقَنِي ذِكَاؤُهَا، فَيَقُولُ: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ بِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ، فَيُعْطِي اللَّهُ مَا يَشَاءُ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ، فَيَضْرِبُ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ، فَإِذَا أَقْبَلَ بِهِ عَلَى الْجَنَّةِ، رَأَى بِهَجَّتِهَا سَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ قَدَّمَنِي عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَيْسَ قَدْ أُعْطِيتَ الْعُهُودَ وَالْمِيثَاقَ، أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنْتَ سَأَلْتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لَا أَكُونُ أَشَقَى خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: فَمَا عَسَيْتَ إِنْ أُعْطِيتَ ذَلِكَ أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ، لَا أَسْأَلُ غَيْرَ ذَلِكَ، فَيُعْطِي رَبُّهُ مَا شَاءَ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ، فَيَقْدُمُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا بَلَغَ بَابَهَا، فَرَأَى زَهْرَتَهَا، وَمَا فِيهَا مِنَ النُّضْرَةِ وَالشُّرُورِ، فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: وَيْحَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، مَا أَغْدَرَكَ، أَلَيْسَ قَدْ أُعْطِيتَ الْعُهُودَ وَالْمِيثَاقَ، أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ الَّذِي أُعْطِيتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لَا تَجْعَلْنِي أَشَقَى خَلْقِكَ، فَيَضْحَكُ اللَّهُ مِنْهُ، ثُمَّ يَأْذُنُ لَهُ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: تَمَنَّ، فَيَتَمَنَّى حَتَّى إِذَا انْقَطَعَ أُمْنِيَّتُهُ، قَالَ اللَّهُ: مِنْ كَذَا وَكَذَا، أَقْبَلَ يَذْكُرُهُ رَبُّهُ، حَتَّى إِذَا انْتَهَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ. قال أبو سعيد الخدري لأبي هريرة إن رسول الله قال: «لَكَ ذَلِكَ وَعَشْرَةٌ أَمْثَالِهِ». قال أبو

هريرة لم أحفظ من رسول الله إلا قوله: «لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ». قال أبو سعيد إنى سمعته يقول: «ذَلِكَ لَكَ وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ»، متفق عليه.

ومن أدلة رؤية المؤمنين ربهم في الجنة، قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٥) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿يونس: ٢٥-٢٦﴾.

وقال تعالى: ﴿عَلَى الْأَرْوَاحِ يُنْظَرُونَ﴾ [المطففين: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿هُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

قال ابن القيم في حادي الأرواح (٢٧٣): قال الطبراني: قال علي بن أبي طالب وأنس بن مالك: هو النظر إلى وجه الله ، وقاله من التابعين: زيد بن وهب وغيره. اهـ

وعند مسلم (١٨١): من طريق حماد بن سلمة، عَنْ ثَابِتِ الْبُنَانِيِّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، عَنْ صُهَيْبٍ، عَنْ النَّبِيِّ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ، قَالَ: فَيُكْشَفُ الْحِجَابَ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ ». ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وأخرجه الدارقطني في الرؤية رقم (١٩٢) عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: قَرَأَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، أَوْ قُرِئَتْ عِنْدَهُ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، قَالُوا: وَمَا الزِّيَادَةُ يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ؟ قَالَ: النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ .

وقد أخرج ابن جرير الطبري وغيره الآثار الموقوفة والمقطوعة التي فيها تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله . قال ابن جرير في تفسيره (١٧٦٣٩): حَدَّثَنَا ابْنُ بَشَّارٍ، قَالَ: ثَنَا هُوَذَةُ، قَالَ: ثَنَا عَوْفٌ، عَنِ الْحَسَنِ، فِي قَوْلِ اللَّهِ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، النَّظَرُ إِلَى الرَّبِّ.

وأخرج الدارمي في الرد على الجهمية (١٩٤): عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، قَالَ: الزِّيَادَةُ: النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ رَبِّهِمْ .

وقال عبد الرزاق في التفسير (٢٩٦/٢): عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ ثَابِتِ الْبُنَائِيِّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى، قَالَ: الْحُسْنَى الْجَنَّةُ، وَالزِّيَادَةُ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ.

وقال (٢٩٤/٢): عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، قَالَ: الْحُسْنَى الْجَنَّةُ، وَالزِّيَادَةُ فِيمَا بَلَّغْنَا النَّظَرَ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ.

وأخرج الدارقطني في الرؤية (٢٠٢) عَنْ حُذَيْفَةَ، فِي قَوْلِهِ : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، قَالَ: النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ .

وأخرج البخاري (٤٨٧٨): عَنْ أَبِي مُوسَى ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «جَنَّاتٍ مِنْ فِضَّةٍ أُنِيبُهَا وَمَا فِيهَا، وَجَنَّاتٍ مِنْ ذَهَبٍ أُنِيبُهَا وَمَا فِيهَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِداءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ»، الحديث أخرجه مسلم (١٨٠).

ومن أدلة الرؤية، قول الله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ

اللطيفُ الخبيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

قال ابن القيم في حادي الأرواح (٢٧٤): فقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْآبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، يدل على غاية عظمته، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لعظمته لا يدرك بحيث يحاط به؛ فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء، وهو قدر زائد على الرؤية، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢]، فلم ينف عن موسى الرؤية، ولم يريدوا بقولهم: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، إِنَّا لمرثيون، فإن موسى صلوات الله وسلامه عليه نفى إدراكهم إياهم، بقوله: ﴿كَلَّا﴾ [الشعراء: ٦٢]، وأخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا يخاف دركهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧]، فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه، فالرب تعالى يرى ولا يدرك كما يعلم ولا يحاط به، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية. اهـ

شبه المخالفين لأهل السنة في باب الرؤية:

الشبهة الأولى:

قولهم: المراد بقول الله : ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [٢٢] إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، أي: منتظرة، أو منتظرة لثوابه، ويُرد عليهم بما قاله ابن القيم في حادي الأرواح (٢٣٧-٢٣٨): وأنت إذا أجرت هذه الآية من تحريفها عن مواضعها والكذب على المتكلم بها سبحانه فيما أراده منها وجدتها منادية نداءً صريحاً أن الله سبحانه يرى عياناً بالأبصار يوم القيامة، وإن أبيت إلا تحريفها الذي يسميه المحرفون تأويلًا؛ فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والميزان والحساب أسهل على أربابه من تأويلها، وتأويل كل نص تضمنه القرآن والسنة كذلك، ولا يشاء مبطل على وجه الأرض أن

يتأول النصوص ويجرفها عن مواضعها؛ إلا وجد إلى ذلك من السبيل ما وجده متأول مثل هذه النصوص، وهذا الذي أفسد الدين والدنيا.

وإضافة النظر إلى الوجه الذي هو محله في هذه الآية وتعديته بأداة إلى الصريحة في نظر العين، وإخلاء الكلام من قرينة، تدل على أن المراد بالنظر المضاف إلى الوجه المعدى بإلى خلاف حقيقته وموضوعه، صريح في أن الله سبحانه وتعالى أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى نفس الرب جل جلاله، فإن النظر له عدة استعمالات بحسب صلاته وتعديه بنفسه فإن عدي بنفسه فمعناه التوقف والانتظار كقوله: ﴿أَنْظُرُونَا نَقْنِسَ مِنْ تَوَكُّمٍ﴾ [الحديد: ١٣]، وإن عدي بـ: (في) فمعناه التفكير والاعتبار كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وإن عدي بـ: (إلى) فمعناه المعاينة بالأبصار كقوله: ﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ٩٩]، فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر. اهـ

وقال كما في الصواعق المرسله (١/١٩٣-١٩٤): يستحيل فيها تأويل النظر بانتظار الثواب؛ فإنه أضاف النظر إلى الوجوه التي هي محله وعداه بحرف إلى التي إذا اتصل بها فعل النظر كان من نظر العين ليس إلا، ووصف الوجوه بالنصرة التي لا تحصل؛ إلا مع حضور ما يتنعم به لا مع التنغيص بانتظاره، ويستحيل مع هذا التركيب. اهـ

وقال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في نقضه على المريسي (٥٢٤-٥٢٦): قَالَ الْمَعَارِضُ: فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِهِ نَظَرًا إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى الْجَنَّةِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى الْجَنَانِ؟

فَيُقَالُ لِهَذَا الْمُعَارِضِ: قَدْ جِئْتَ بِتَفْسِيرٍ طَمَّ عَلَى جَمِيعِ تَفَاسِيرِكَ ضَحِكَةً وَجَهَالَةً، وَلَوْ قَدْ رَزَقَكَ اللَّهُ شَيْئًا مِنْ مَعْرِفَةِ الْعَرَبِيَّةِ لَعَلِمْتَ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ الَّذِي رَوَيْتَهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِهَذِهِ السِّيَاقَةِ، وَهَذِهِ الْأَلْفَافِ الْوَاضِحَةِ لَا يَحْتَمِلُ تَفْسِيرًا غَيْرَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتَلَا تَصْدِيقَ ذَلِكَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ.

وإِنَّمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِلَى وَجْهِ اللَّهِ»، وَلَمْ يَقُلْ: إِلَى وَجْهِهِ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْكَرَامَاتِ، وَمَنْ سَمَّى مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ وَجْهًا لِلَّهِ قَبْلَكَ؟ وَفِي أَيِّ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ وَجَدْتَ أَنَّ وَجْهَ اللَّهِ أَعْلَى جَنَّتِهِ؟ مَا لَقِيَ وَجْهَ اللَّهِ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ مِنْ تَفَاسِيرِكَ؟! مَرَّةً تَجْعَلُهُ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَرَّةً تَجْعَلُهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ، وَمَرَّةً تَجْعَلُهُ وَجْهَ الْقِبْلَةِ، وَمَرَّةً تُشَبِّهُهُ بِوَجْهِ الثُّوبِ وَوَجْهِ الْحَائِطِ، وَاللَّهُ سَائِلُكَ عَمَّا تَتَلَا عِبُّ بِوَجْهِهِ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.

فَإِنْ كَانَ كَمَا ادَّعَيْتَ أَنَّ أَكْرَمَهُمْ عَلَى اللَّهِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهِ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ الَّتِي يَتَوَقَّعُونَهَا مِنَ اللَّهِ، أَفَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَدِيثِكَ أَيْضًا: «إِنَّ أَذْنَاهُمْ مَنْزِلَةٌ يَنْظُرُونَ إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنْ جَنَائِهِ وَنَعِيمِهِ وَكَرَامَاتِهِ مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَةٍ، وَإِنَّ الْأَذْنَيْنِ مِنْهُمْ يَتَوَقَّعُونَ مِنْ كَرَامَاتِ اللَّهِ مَا يَتَوَقَّعُ أَكْرَمُهُمْ، وَيَنْظُرُونَ إِلَى أَعْلَى الْجَنَّةِ كَمَا يَنْظُرُ أَكْرَمُهُمْ»؟

مَا مَوْضِعُ تَمْيِيزِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالنَّظَرِ إِلَى مُلْكِهِ وَنَعِيمِهِ، وَالْأَعْلَى إِلَى وَجْهِهِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً؛ إِذْ كُلُّهُمْ عَنِ النَّظَرِ إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ فِيهَا غَيْرُ مُحْجُوبِينَ، وَلَا عَنِ التَّوَقُّعِ مَمْنُوعِينَ حَتَّى تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْأَكْرَمِينَ مِنْهُمْ مَا لَمْ يَتَلْ فِي الْأَذْنَيْنِ مِنْهُمْ تَثْبِيثًا لَوَجْهِهِ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، وَتَكْذِيبًا لِدَعْوَاكَ، فَقَالَ: ﴿وَجْهُهُ يَوْمَ ذَا نَارٍ﴾ (٢٢) إِلَى رَهَبَانَاظِرَةٍ ﴿الْقِيَامَةِ: ٢٢-٢٣﴾، وَلَمْ يَقُلْ: إِلَى كَرَامَاتِهَا نَاظِرَةً، فَسُبْحَانَ اللَّهِ! مَا أَوْحَشَهَا مِنْ

تَأْوِيلٌ، وَأَقْبَحَهَا مِنْ تَفْسِيرٍ، وَأَشَدَّهَا اسْتِحَالَةً فِي جَمِيعِ لُغَاتِ الْعَالَمِينَ، فَسُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَرْزُقْكَ مِنَ الْفَهْمِ إِلَّا مَا تَرَى، لَوْ تَكَلَّمَ بِهَذَا صَبِيانَ الْكِتَابِ لَأَسْتَضْحَكَ النَّاسُ مِنْهُمْ فَكَيْفَ رَجُلٌ يَعُدُّ نَفْسَهُ مِنْ عِدَادِ عُلَمَاءِ بِلَادِهِ. اهـ

الشبهة الثانية:

استدلّاهم بقول الله : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، قالوا: وهذه الآية دليل على أنه لا يرى سبحانه وتعالى.

وقد تقدم بيان أن (الإدراك) رؤية وزيادة، رؤية مع الإحاطة، والإحاطة منفية في حق الله ، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، فهم يرونه بغير إحاطة، وقد تقدم بيان أن هذه الآية من أدلة الرؤية إلى الله يوم القيامة.

الشبهة الثالثة:

استدلّاهم بقول الله : ﴿لَنْ تَرِنِّي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، على أنه لا يرى، وبأن «لن» تفيد التأييد.

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية (١٩١-١٩٢): فَالْأَسْتِدْلَالُ مِنْهَا عَلَى ثُبُوتِ رُؤْيَيْهِ مِنْ وَجْهِهِ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ لَا يُظَنُّ بِكَلِمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ الْكَرِيمِ وَأَعْلَمِ النَّاسِ بِرَبِّهِ فِي وَقْتِهِ، أَنْ يَسْأَلَ مَا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ، بَلْ هُوَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَعْظَمِ الْمُحَالِ.

الثَّانِي: أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ سُؤَالَهُ، وَلَمَّا سَأَلَ نُوحٌ رَبَّهُ نَجَاةَ ابْنِهِ أَنْكَرَ سُؤَالَهُ، وَقَالَ: ﴿إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

الثَّالِثُ: أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وَلَمْ يَقُلْ: إِنِّي لَا أَرَى، أَوْ لَا تَجُوزُ رُؤْيِي، أَوْ لَسْتُ بِمَرْنِي، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْجَوَائِنِ ظَاهِرٌ، أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ كَانَ فِي كُمِّهِ حَجَرٌ فَظَنَّهُ رَجُلٌ طَعَامًا فَقَالَ: أَطْعَمْنِيهِ، فَاجْوَابُ الصَّحِيحِ: أَنَّهُ لَا يُؤْكَلُ، أَمَّا إِذَا كَانَ طَعَامًا صَحَّ أَنْ يُقَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَأْكُلَهُ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ مَرْنِي، وَلَكِنْ مُوسَى لَا تَحْتَمِلُ قُوَاهُ رُؤْيِيَهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ، لِضَعْفِ قُوَى الْبَشَرِ فِيهَا عَنْ رُؤْيِيهِ تَعَالَى.

يُوضِّحُهُ الْوَجْهُ الرَّابِعُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ. فَسَوْفَ تَرِنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فَأَعْلَمَهُ أَنَّ الْجَبَلَ مَعَ قُوَّتِهِ وَصَلَابَتِهِ لَا يَثْبُتُ لِلتَّجَلِّيِّ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَكَيْفَ بِالْبَشَرِ الَّذِي خُلِقَ مِنْ ضَعْفٍ؟

الْحَامِسُ: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ الْجَبَلَ مُسْتَقَرًّا، وَذَلِكَ مُمَكِّنٌ، وَقَدْ عَلَّقَ بِهِ الرُّؤْيَةَ، وَلَوْ كَانَتْ مُحَالًا لَكَانَ نَظِيرُ أَنْ يَقُولَ: إِنْ اسْتَقَرَّ الْجَبَلَ فَسَوْفَ آكُلُ وَأَشْرَبُ وَأَنَامُ. وَالْكُلُّ عِنْدَهُمْ سَوَاءٌ.

السَّادِسُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَخَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فَإِذَا جَازَ أَنْ يَتَجَلَّى لِلْجَبَلِ، الَّذِي هُوَ جَمَادٌ لَا ثَوَابَ لَهُ وَلَا عِقَابَ، فَكَيْفَ يَمْتَنِعُ أَنْ يَتَجَلَّى لِرَسُولِهِ وَأَوْلِيَائِهِ فِي دَارِ كِرَامَتِهِ؟ وَلَكِنْ اللَّهُ أَعْلَمُ مُوسَى أَنَّ الْجَبَلَ إِذَا لَمْ يَثْبُتْ لِرُؤْيِيهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَالْبَشَرُ أَضْعَفُ.

السَّابِعُ: أَنَّ اللَّهَ كَلَّمَ مُوسَى وَنَادَاهُ وَنَاجَاهُ، وَمَنْ جَازَ عَلَيْهِ التَّكَلُّمُ وَالتَّكْلِيمُ وَأَنْ يُسْمَعَ مُحَاطَبُهُ كَلَامَهُ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ، فَرُؤْيِيَهُ أَوْلَى بِالْجَوَازِ؛ وَهَذَا لَا يَتِمُّ إِنْكَارُ رُؤْيِيهِ إِلَّا بِإِنْكَارِ كَلَامِهِ، وَقَدْ جَمَعُوا بَيْنَهُمَا.

وَأَمَّا دَعْوَاهُمْ تَأْيِيدُ النَّفْيِ بِ(لَنْ) وَأَنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ الرُّؤْيَةِ فِي الْآخِرَةِ؛ فَفَاسِدٌ، فَإِنَّهَا لَوْ قِيدَتْ بِالتَّأْيِيدِ لَا يَدُلُّ عَلَى دَوَامِ النَّفْيِ فِي الْآخِرَةِ، فَكَيْفَ إِذَا

أُطْلِقَتْ؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥]، مع قوله: ﴿وَنَادُوا بِمَلِكٍ لِّيَقْضِيَ عَلَيْهِنَّ رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا لَوْ كَانَتْ لِلتَّائِبِ الْمُطْلَقِ لِمَا جَازَ تَحْدِيدُ الْفِعْلِ بَعْدَهَا، وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي﴾ [يوسف: ٨٠]، فَثَبَّتَ أَنَّ لَنْ لَا تَقْتَضِي النَّفْيَ الْمُؤَبَّدَ.

قَالَ الشَّيْخُ جَمَالُ الدِّينِ ابْنُ مَالِكٍ :

وَمَنْ رَأَى النَّفْيَ بِلَنْ مُؤَبَّدًا فَقَوْلُهُ اِزْدُدْ وَسِوَاهُ فَاعْضُدَا

انتهى.

الشبهة الرابعة:

زعمهم أن الرؤية المراد بها العلم بالله.

قال عثمان بن سعيد الدارمي (٥٢٨-٥٣٣): وَاحْتَجَّ الْمَعَارِضُ أَيْضًا فِي انْكَارِ الرُّؤْيَةِ بِحَدِيثِ رَوَاهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ضَرَبَ الْعَزَى بِالسَّيْفِ فَقَالَ لَهُ: "كُفِّرَانُكَ، لَا سُبْحَانَكَ، إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ".

قَالَ الْمَعَارِضُ: فَهَذِهِ رُؤْيَةٌ عِلْمٌ لَا رُؤْيَةٌ بَصَرٌ. قَالَ: يَعْنِي أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَرَوْنَ رَبَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَنَحْوِ مَا رَأَى خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي دُنْيَاهُ.

قَالَ الْمَعَارِضُ: وَفَسَّرَ قَوْمٌ أَنَّ الرُّؤْيَةَ لِلشَّيْءِ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْعِلْمِ، كَمَا يُقَالُ: رَأَيْتُ الْخَلَّ شَدِيدَ الْحُمُوضَةِ، وَرَأَيْتُ الْعُودَ طَيِّبًا، يُرِيدُ رَائِحَتَهُ كَمَا قَالَ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، وَلَمْ يَرَهُ إِلَّا بِالْمَعْرِفَةِ. وَكُلُّ شَيْءٍ يُدْرِكُ بِالرُّؤْيَةِ فَلَهُ قَلَّةٌ وَكَثْرَةٌ.

فَاللّٰهُ الْمُتَعَالٰى عَنْ ذٰلِكَ اِنَّمَا يُرٰى بِدَلَالِئِهِ وَاَثَارِ صُنْعِهِ، فَهِيَ شَوَاهِدٌ لَا الَّذِي يُعْرَفُ بِمُلَاقَاةٍ وَلَا بِمُشَاهَدَةٍ حَاسَّةٍ، فَاِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ذَهَبَتِ الشُّكُوكُ وَعَرَفُوهُ عَيَانًا، لَا بِإِدْرَاكِ بَصَرٍ، ثُمَّ قَالَ: فَإِنْ كَانَ الرُّوَايَاتُ فَهَاهُنَا رَوَايَاتٌ أَيْضًا مُعَارِضَةً، وَإِنْ كَانَ يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلُ فَهَاهُنَا مَا يَحْتَمِلُ أَيْضًا.

فَيَقَالُ لِهَذَا الْمُعَارِضِ: أَمَّا الرُّوَايَاتُ فَمَا نَرَاكَ تَحْتَجُّ فِي جَمِيعِ مَا تَدَّعِي إِلَّا بِكُلِّ أَعْرَجٍ مَكْسُورٍ، بِالتَّجَهُمِ مَشْهُورٍ، وَفِي أَهْلِ السُّنَّةِ مَعْمُورٍ. وَأَمَّا الْمَعْقُولُ الَّذِي تَدَّعِيهِ مِنْ كَلَامِكَ فَقَدْ أَنْبَأْنَاكَ أَنَّهُ عِنْدَ الْعَرَبِ مَجْهُولٌ، وَعِنْدَ الْعُلَمَاءِ غَيْرُ مَقْبُولٍ، لَا يَخْفَى تَنَاقُضُهُ إِلَّا عَلَى كُلِّ جَهُولٍ.

مذهب الأشاعرة في الرؤية:

وذهب الأشاعرة إلى أن الله تعالى يرى لا في جهة، قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٨٤-٨٩): قَوْلُ هُؤُلَاءِ: "إِنَّ اللَّهَ يُرَى مِنْ غَيْرِ مُعَايِنَةٍ وَمُوَاجَهَةٍ"، قَوْلٌ انْفَرَدُوا بِهِ دُونَ سَائِرِ طَوَائِفِ الْأُمَّةِ وَجُمْهُورِ الْعُقَلَاءِ عَلَى أَنَّ فِسَادَ هَذَا مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ.

وَالْأَخْبَارُ الْمُتَوَاتِرَةُ عَنِ النَّبِيِّ تَرُدُّ عَلَيْهِمْ، كَقَوْلِهِ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَيْهِ»، وَقَوْلِهِ لَمَّا سَأَلَهُ النَّاسُ: هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تَرُونَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟». قَالُوا: نَعَمْ. «وَهَلْ تَرُونَ الْقَمَرَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟». قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ». فَشَبَّهَ الرُّؤْيَةَ بِالرُّؤْيَةِ وَلَمْ يُشَبَّهَ الْمَرْئِي بِالْمَرْئِي؛ فَإِنَّ الْكَافَ -حَرْفَ التَّشْبِيهِ- دَخَلَ عَلَى الرُّؤْيَةِ.

وَفِي لَفْظٍ لِلْبُخَارِيِّ «يَرُونَهُ عَيْنًا». وَمَعْلُومٌ أَنَّا نَرَى الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ عَيْنًا مُوَاجِهَةً فَيَجِبُ أَنْ نَرَاهُ كَذَلِكَ. وَأَمَّا رُؤْيَاهُ مَا لَا نُعَايِنُ وَلَا نُوَاجِهُهُ فَهَذِهِ غَيْرُ مُتَصَوِّرَةٍ فِي الْعَقْلِ فَضْلًا عَنْ أَنْ تَكُونَ كَرُؤْيَا الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ. وَلِهَذَا صَارَ حَدِّاقُهُمْ إِلَى انْكَارِ الرُّؤْيَا وَقَالُوا: قَوْلُنَا هُوَ قَوْلُ الْمُعْتَرِلَةِ فِي الْبَاطِنِ؛ فَإِنَّهُمْ فَسَّرُوا الرُّؤْيَا بِزِيَادَةِ انْكِشَافٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا لَا نُنَازِعُ فِيهِ الْمُعْتَرِلَةَ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِنَّ الْحَبَرَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ يَرُونَهُ لَا فِي جِهَةٍ وَقَوْلُهُ: «لَا تَضَامُونَ»، مَعْنَاهُ لَا تَضَمُّكُمْ جِهَةٌ وَاحِدَةٌ فِي رُؤْيَاهُ فَإِنَّهُ لَا فِي جِهَةٍ، فَهَذَا تَفْسِيرٌ لِلْحَدِيثِ بِمَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ وَلَا قَالَه أَحَدٌ مِنْ أَيْمَةِ الْعِلْمِ؛ بَلْ هُوَ تَفْسِيرٌ مُنْكَرٌ عَقْلًا وَشَرْعًا وَلُغَةً. فَإِنَّ قَوْلَهُ «لَا تَضَامُونَ» يُرَوَى بِالتَّخْفِيفِ. أَيْ: لَا يَلْحَقُكُمْ ضَيْمٌ فِي رُؤْيَاهُ كَمَا يَلْحَقُ النَّاسَ عِنْدَ رُؤْيَا الشَّيْءِ الْحَسَنِ كَالِهَلَالِ فَإِنَّهُ قَدْ يَلْحَقُهُمْ ضَيْمٌ فِي طَلَبِ رُؤْيَاهُ حِينَ يَرَى؛ وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَتَجَلَّى تَجَلِّيًّا ظَاهِرًا فَيَرُونَهُ كَمَا تَرَى الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِلا ضَيْمٍ يَلْحَقُكُمْ فِي رُؤْيَاهُ؛ وَهَذِهِ الرِّوَايَةُ الْمَشْهُورَةُ.

وَقِيلَ «لَا تَضَامُونَ»، بِالتَّشْدِيدِ أَيْ: لَا يَنْضَمُّ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ كَمَا يَتَضَامُ النَّاسُ عِنْدَ رُؤْيَا الشَّيْءِ الْخَفِيِّ كَالِهَلَالِ. وَكَذَلِكَ (تَضَارُونَ) وَ(تَضَارُونَ). فَإِمَّا أَنْ يُرَوَى بِالتَّشْدِيدِ وَيُقَالُ: «لَا تَضَامُونَ» أَيْ لَا تَضُمَّكُمْ جِهَةٌ وَاحِدَةٌ فَهَذَا بَاطِلٌ لِأَنَّ التَّضَامَ انْضِمَامُ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ. فَهُوَ (تَفَاعُلٌ) كَالْتِمَاسٍ وَالتَّرَادُّ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَقَدْ يُرَوَى «لَا تَضَامُونَ» بِالضَّمِّ وَالتَّشْدِيدِ أَيْ لَا يُضَامُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا. وَبِكُلِّ حَالٍ فَهُوَ مِنْ (التَّضَامِ) الَّذِي هُوَ مُضَامَةٌ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، لَيْسَ هُوَ أَنَّ شَيْئًا آخَرَ لَا يُضَمُّكُمْ، فَإِنَّ هَذَا الْمَعْنَى لَا يُقَالُ فِيهِ «لَا تَضَامُونَ» فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ «لَا يُضَمُّكُمْ شَيْءٌ».

ثُمَّ يُقَالُ: الرَّاءُونَ كُلُّهُمْ فِي جِهَةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى الْأَرْضِ. وَإِنْ قُدِّرَ أَنَّ الْمَرْئِيَّ لَيْسَ فِي جِهَةٍ فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: "لَا تَضُمُّكُمْ جِهَةٌ وَاحِدَةً"، وَهُمْ كُلُّهُمْ عَلَى الْأَرْضِ أَرْضِ الْقِيَامَةِ أَوْ فِي الْجَنَّةِ وَكُلُّ ذَلِكَ جِهَةٌ وَوُجُودُهُمْ نَفْسُهُمْ لَا فِي جِهَةٍ وَمَكَانٍ مُتَمَتِّعٍ حِسًّا وَعَقْلًا.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: "هُوَ يَرَى لَا فِي جِهَةٍ فَكَذَلِكَ يَرَاهُ غَيْرُهُ"، فَهَذَا تَمْثِيلٌ بَاطِلٌ. فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يُمَكِّنُ أَنْ يَرَى بَدَنَهُ وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَرَى غَيْرَهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ بِجِهَةٍ مِنْهُ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ أَمَامَهُ سَوَاءً كَانَ عَالِيًّا أَوْ سَافِلًا. وَقَدْ تُحَرِّقُ لَهُ الْعَادَةُ فَيَرَى مَنْ خَلْفَهُ. كَمَا قَالَ النَّبِيُّ: «إِنِّي لَأَرَاكُمْ مِنْ بَعْدِي»، وَفِي رِوَايَةٍ «مَنْ بَعْدَ ظَهْرِي»، وَفِي لَفْظٍ لِلْبُخَارِيِّ «إِنِّي لَأَرَاكُمْ مِنْ وَرَائِي»، وَفِي لَفْظٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ «إِنِّي وَاللَّهِ لَا أَبْصُرُ مِنْ وَرَائِي كَمَا أَبْصُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ». لَكِنْ هُمْ بِجِهَةٍ مِنْهُ وَهُمْ خَلْفَهُ. فَكَيْفَ تُقَاسُ رُؤْيَا الرَّائِي لِغَيْرِهِ عَلَى رُؤْيَا نَفْسِهِ؟

ثُمَّ تَشْبِيهُ رُؤْيَا نَفْسِهِ بِرُؤْيَا نَفْسِهِ بَاطِلٌ. فَإِنَّ بَصَرَهُ يُحِيطُ بِمَا رَأَاهُ بِخِلَافِ أَبْصَارِنَا. وَهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ أَثْبَتُوا مَا لَا يُمَكِّنُ رُؤْيَاهُ وَأَحْبَبُوا نَصَرَ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَالْحَدِيثِ فَجَمَعُوا بَيْنَ أَمْرَيْنِ مُتَنَاقِضَيْنِ. فَإِنَّ مَا لَا يَكُونُ دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ وَلَا يُشَارُ إِلَيْهِ يَمْتَنِعُ أَنْ يَرَى بِالْعَيْنِ لَوْ كَانَ وَجُودُهُ فِي الْخَارِجِ مُمَكِّنًا فَكَيْفَ وَهُوَ مُتَمَتِّعٌ؟ وَإِنَّمَا يَقْدَرُ فِي الْأَذْهَانِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَجُودٌ فِي الْأَعْيَانِ فَهُوَ مِنْ بَابِ الْوَهْمِ وَالْخَيَالِ الْبَاطِلِ. وَلِهَذَا فَسَّرُوا (الْإِدْرَاكُ) بِالرُّؤْيَا فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، كَمَا فَسَّرَتَهَا الْمُعْتَزَلَةُ. ثُمَّ ذَكَرَ كَلَامًا نَحْنُ مَا تَقَدَّمَ. اهـ

مسألة: هل رأى رسول الله ﷺ ربه؟

قال الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۖ أَفَتُنْكِرُونَ ۚ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۖ﴾ (١١) ﴿لَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ (النجم: ١١-١٤).

قال الإمام مسلم (١٧٧): حَدَّثَنِي زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ دَاوُدَ، عَنْ الشَّعْبِيِّ، عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: كُنْتُ مُتَكِنًا عِنْدَ عَائِشَةَ؛ فَقَالَتْ: يَا أَبَا عَائِشَةَ ثَلَاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ؛ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ: قُلْتُ: مَا هُنَّ؟ قَالَتْ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ؛ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، قَالَ: وَكُنْتُ مُتَكِنًا فَجَلَسْتُ، فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْظِرِينِي وَلَا تَعْجَلِينِي، أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿لَقَدْ رَأَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، وقال: ﴿لَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣]، فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «إِنَّمَا هُوَ جَبْرِيْلٌ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ: رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ»، فَقَالَتْ: أَوْ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، أَوْ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

قَالَتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿يَتَأْتِيَهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]، قَالَتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِي غَدٍ؛ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]. أخرجه البخاري (٤٦١٢) بالفاظ متقاربة.

وعند مسلم (١٧٨): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي ذَرٍّ: لَوْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ لَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: عَنْ أَيِّ شَيْءٍ كُنْتَ تَسْأَلُهُ؟ قَالَ: كُنْتُ أَسْأَلُهُ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ أَبُو ذَرٍّ: قَدْ سَأَلْتُ، فَقَالَ: «رَأَيْتُ نُورًا». وفي لفظ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ». والنور الذي رآه هو حجابُه.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٦/٥٠٧-٥٠٨): فِي قَوْلِهِ «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»: مَعْنَاهُ كَانَ ثَمَّ نُورٌ وَحَالَ دُونَ رُؤْيِيهِ نُورٌ فَأَنَّى أَرَاهُ؟ قَالَ: وَيَدُلُّ عَلَيْهِ: أَنَّ فِي بَعْضِ أَلْفَاظِ الصَّحِيحِ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ: «رَأَيْتُ نُورًا». وَقَدْ أُعْضِلَ أَمْرُ هَذَا الْحَدِيثِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ حَتَّى صَحَّفَهُ بَعْضُهُمْ فَقَالَ: «نُورًا إِنِّي أَرَاهُ» عَلَى أَنَّهَا يَاءُ النَّسَبِ؛ وَالْكَلِمَةُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ. وَهَذَا خَطَأٌ لَفْظًا وَمَعْنَى وَإِنَّمَا أُوجِبَ لَهُمْ هَذَا الْإِشْكَالَ وَالْخَطَأَ أَنَّهُمْ لَمَّا اعْتَقَدُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ رَأَى رَبَّهُ وَكَانَ قَوْلُهُ: «أَنَّى أَرَاهُ؟»، كَالْإِنْكَارِ لِلرُّؤْيَةِ حَارُّوا فِي الْحَدِيثِ، وَرَدَّهُ بَعْضُهُمْ بِاضْطِرَابِ لَفْظِهِ، وَكُلُّ هَذَا عُذُولٌ عَنْ مُوجِبِ الدَّلِيلِ.

وَقَدْ حَكَى عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ الدَّارِمِيُّ فِي كِتَابِ الرَّدِّ لَهُ إِجْمَاعَ الصَّحَابَةِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَرِ رَبَّهُ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ وَبَعْضُهُمْ اسْتَشْنَى ابْنَ عَبَّاسٍ مِنْ ذَلِكَ. وَشَيْخُنَا يَقُولُ: لَيْسَ ذَلِكَ بِخِلَافٍ فِي الْحَقِيقَةِ فَإِنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ لَمْ يَقُلْ رَأَاهُ بِعَيْنَيْ رَأْسِهِ، وَعَلَيْهِ اعْتَمَدَ أَحْمَدُ فِي إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ حَيْثُ قَالَ: إِنَّهُ رَأَاهُ؛ وَلَمْ يَقُلْ بِعَيْنَيْ رَأْسِهِ. وَلَفْظُ أَحْمَدَ كَلَفْظِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَيَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَ شَيْخُنَا فِي مَعْنَى حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ: قَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «حِجَابُهُ النُّورُ» فَهَذَا النُّورُ هُوَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - النُّورُ الْمَذْكُورُ فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ: «رَأَيْتُ نُورًا». اهـ



بيان فضل الصحابة رضي الله عنهم وما لهم من الحقوق

قال الله : ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْكُمْ أُولُو الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهِجَرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢].

وقال : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤-٧٥]، وقال : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهِجَرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ يُبْتَغَى فُضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصَرُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٨-٩].

وقال : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١١١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (١١٢) رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ (١١٣) رَبَّنَا وَءَاثَرْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (١١٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ

مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْتَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِ وَقَتَلُوا وَقَتِلُوا لَا تُكْفَرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخِلَتْهُمْ جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ [آل عمران: ١٩١-١٩٥].

وقال : ﴿ لَكِنَّ الرِّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٨٨) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿التوبة: ٨٨-٨٩﴾، وقال : ﴿ وَمَنْ هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٠]، وقال : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقال : ﴿ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِتَصْرِيهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦٢) وَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿[الأنفال: ٦٢-٦٣]﴾. وقال : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٠]، وقال : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَاهَرُوا لِنَبِيِّنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جُرْ الْأَخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿[النحل: ٤١-٤٢]﴾.

وقال : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحریم: ٨]، وقال : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ

السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَاثْبَهُمْ فَتَحًا قَرِيبًا ﴿[الفتح: ١٨]﴾، وقال : ﴿لَا تَحِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ
بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ
إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ
وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ
حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنْ حِزْبُ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿[المجادلة: ٢٢]﴾.

وقال : ﴿سُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ
رُكْعًا سَجَدًا يَتَعَوَّنَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ
مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى
سُقُوهِ يَعِجِبُ الزَّرَّاعُ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ
مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿[الفتح: ٢٩]﴾، وقال : ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ
لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي
شَيْئًا ﴿[النور: ٥٥]﴾.

وأفضلهم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي وأرضاهم.

فمن فضائل الصديق الأكبر: أبو بكر رضي الله؛ ما جاء عند البخاري
(٣٦٥٦) عن ابن عباس ، قال: قال رسول الله : ﴿لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي
خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ وَلَكِنْ أَخِي وَصَاحِبِي﴾.

وفي حديث أبي سعيد عند البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢)؛ أن
رسول الله جلس على المنبر؛ فقال: ﴿عَبْدٌ خَيْرُهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ زَهْرَةَ الدُّنْيَا
وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ؛ فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَبَكَى﴾، فَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِأَبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا،

قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ هُوَ الْمُخَيَّرُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا بِهِ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «إِنَّ أَمَنَ النَّاسِ عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ لَا تُبْقَيْنَ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةً؛ إِلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ».

وأخرج مسلم في صحيحه (٢٣٨٣) عن عبد الله بن مسعود ؛ قال: قال رسول الله : «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّهُ أَخِي وَصَاحِبِي، وَقَدْ اتَّخَذَ اللَّهُ صَاحِبَكُمْ خَلِيلًا».

وفي الصحيحين : البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤) عن عمرو بن العاص؛ أن رسول الله بعثه على جيش ذات السلاسل؛ فَأَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «عَائِشَةُ». فَقُلْتُ: مِنْ الرِّجَالِ؟ فَقَالَ: «أَبُوهَا». قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ»؛ فَعَدَّ رَجُلًا.

وأخرج مسلم (١٠٢٨) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله : «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ صَاحِبًا؟». قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَا، قَالَ: «فَمَنْ تَبَعَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ جَنَارَةً؟». قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَا، قَالَ: «فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟». قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَا، قَالَ: «فَمَنْ عَادَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟». قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «مَا اجْتَمَعَنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ».

وأخرج البخاري (٣٦٦١) عن أبي الدرداء قال: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ إِذْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ أَخِذًا بِطَرَفِ ثَوْبِهِ حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ : «أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ فَسَلَّمَ»، وَقَالَ: إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الْخَطَّابِ شَيْءٌ فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ، ثُمَّ نَدِمْتُ فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي فَأَبَى عَلَيَّ فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ فَقَالَ: «يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ثَلَاثًا»، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ نَدِمَ فَأَتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ فَسَأَلَ أَتَمَّ أَبُو بَكْرٍ فَقَالُوا: لَا، فَأَتَى إِلَى

النَّبِيِّ فَسَلَّمَ فَجَعَلَ وَجْهَهُ النَّبِيِّ يَتَمَعَّرُ حَتَّى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ، فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ مَرَّتَيْنِ. فَقَالَ النَّبِيُّ: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ وَوَأَسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي مَرَّتَيْنِ»، فَمَا أُودِي بَعْدَهَا.

وأخرج البخاري (٣٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨٨) عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله: «بَيْنَمَا رَاعٍ فِي غَنَمِهِ عَدَا الذُّئْبُ فَأَخَذَ مِنْهَا شَاةً فَطَلَبَهَا حَتَّى اسْتَنَقَذَهَا، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ الذُّئْبُ فَقَالَ لَهُ: مَنْ لَهَا يَوْمَ السَّيِّعِ لَيْسَ لَهَا رَاعٍ غَيْرِي». فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ: «فَلَايَ أَوْ مِنْ بِهِ وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ»، وَمَا ثُمَّ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ.

وأخرج البخاري (٣٦٦٤)، ومسلم (٢٣٩١) عن أبي هريرة قال: بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي عَلَى قَلْبٍ عَلَيْهَا دَلْوٌ فَزَعْتُ مِنْهَا مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَخَذَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ فَزَعَهَا بِهَا ذَنْبًا أَوْ ذَنْبَيْنِ وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ ضَعْفُهُ ثُمَّ اسْتَحَالَتْ غَرْبًا فَأَخَذَهَا ابْنُ الْخَطَّابِ فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَنْزِعُ نَزْعَ عُمَرَ حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بِعَظَنِ.

وفيهما البخاري (٣٦٦٦) ومسلم عن أبي هريرة قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «مَنْ أَتَفَقَّ زَوْجَيْنِ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ دُعِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَا عَبْدَ اللَّهِ، هَذَا خَيْرٌ لَكَ وَلِلْجَنَّةِ أَبْوَابٌ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرِّيَّانِ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ:

هَلْ عَلَى مَنْ يُدْعَى مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى مِنْهَا كُلُّهَا أَحَدٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: نَعَمْ وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ - يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ - .

وفي البخاري (٣٦٦٧-٣٦٧٠) عن عائشة زوج النبي أن رسول الله مات وأبو بكر بالسُّنْحِ قَالَ إِسْمَاعِيلُ: - يَعْنِي بِالْعَالِيَةِ - فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ قَالَتْ: وَقَالَ عُمَرُ: وَاللَّهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَلِكَ وَلَيَعْنَتَهُ اللَّهُ فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِي رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ، فَقَبَّلَهُ قَالَ: يَا أَبَتِي أَنْتَ وَأُمِّي طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُذِيقُكَ اللَّهُ الْمَوْتَيْنِ أَبَدًا، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: أَيُّهَا الْخَالِفُ عَلَى رِسَالِكَ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ؛ فَحَمِدَ اللَّهَ أَبُو بَكْرٍ وَأَنْتَنِي عَلَيْهِ وَقَالَ: أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وَقَالَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قَالَ: فَتَنَسَّجَ النَّاسُ يَبْكُونَ. قَالَ: وَاجْتَمَعَتِ الْأَنْصَارُ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ فَقَالُوا: مِنَّا أَمِيرٌ، وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ، فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجُرَّاحِ، فَذَهَبَ عُمَرُ يَتَكَلَّمُ فَأَسْكَنَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا أَرَدْتُ بِذَلِكَ إِلَّا أَنِّي قَدْ هَيَّأْتُ كَلَامًا قَدْ أَعْجَبَنِي خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْلُغَهُ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَتَكَلَّمَ أَبْلَغَ النَّاسِ فَقَالَ فِي كَلَامِهِ نَحْنُ الْأَمْوَاءُ، وَأَنْتُمْ الْوُزَرَاءُ؛ فَقَالَ حُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ: لَا وَاللَّهِ لَا نَفْعَ لَنَا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ؛ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَا وَلَكِنَّا الْأَمْوَاءُ، وَأَنْتُمْ الْوُزَرَاءُ هُمْ أَوْسَطُ الْعَرَبِ دَارًا وَأَعْرَبُهُمْ أَحْسَابًا فَبَايَعُوا عُمَرَ

أَوْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنِ الْجُرَّاحِ؛ فَقَالَ عُمَرُ: بَلْ نُبَايِعُكَ أَنْتَ فَأَنْتَ سَيِّدُنَا، وَخَيْرُنَا وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ فَبَايَعَهُ وَبَايَعَهُ النَّاسُ، فَقَالَ قَائِلٌ: قَتَلْتُمْ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ، فَقَالَ عُمَرُ: قَتَلَهُ اللَّهُ.

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَالِمٍ: عَنْ الزُّبَيْدِيِّ، قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْقَاسِمِ: أَخْبَرَنِي الْقَاسِمُ أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ: شَخَصَ بَصَرُ النَّبِيِّ ، ثُمَّ قَالَ: «فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى ثَلَاثًا»، وَقَصَّ الْحَدِيثَ قَالَتْ: فَمَا كَانَتْ مِنْ خُطْبَتَيْهِمَا مِنْ خُطْبَةٍ إِلَّا نَفَعَ اللَّهُ بِهَا لَقَدْ خَوَّفَ عُمَرُ النَّاسَ، وَإِنَّ فِيهِمْ لِنِفَاقًا فَرَدَّهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ.

وفي الصحيحين البخاري (٣٦٧٤) ومسلم عن أبي موسى الأشعري: أَنَّهُ تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ خَرَجَ فَقُلْتُ: لَا تَزِمَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ، وَلَا تَكُونَنَّ مَعَهُ يَوْمِي هَذَا قَالَ: فَجَاءَ الْمَسْجِدَ فَسَأَلَ عَنِ النَّبِيِّ فَقَالُوا: خَرَجَ وَوَجَّهَ هَاهُنَا، فَخَرَجْتُ عَلَى إِثْرِهِ أَسْأَلُ عَنْهُ حَتَّى دَخَلَ بَيْتُ أَرِيَسٍ، فَجَلَسْتُ عِنْدَ الْبَابِ وَبَابُهَا مِنْ جَرِيدٍ حَتَّى قَضَى رَسُولُ اللَّهِ حَاجَتَهُ، فَتَوَضَّأَ فَقُمْتُ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى بَيْتِ أَرِيَسٍ وَتَوَسَّطَ قُمَّهَا وَكَشَفَ عَنْ سَاقَيْهِ وَدَلَّاهُمَا فِي الْبَيْتِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ انْصَرَفْتُ فَجَلَسْتُ عِنْدَ الْبَابِ فَقُلْتُ: لَا تَكُونَنَّ بَوَّابَ رَسُولِ اللَّهِ الْيَوْمَ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَدَفَعَ الْبَابَ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَقُلْتُ: عَلَى رِسْلِكَ ثُمَّ ذَهَبْتُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ، فَقَالَ: «أُذِّنْ لَهُ، وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ». فَأَقْبَلْتُ: حَتَّى قُلْتُ لِأَبِي بَكْرٍ: ادْخُلْ وَرَسُولُ اللَّهِ يُبَشِّرُكَ بِالْجَنَّةِ؛ فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ رَسُولِ اللَّهِ مَعَهُ فِي الْقَفِّ وَدَلَّ رِجْلَيْهِ فِي الْبَيْتِ كَمَا صَنَعَ النَّبِيُّ وَكَشَفَ عَنْ سَاقَيْهِ، ثُمَّ رَجَعْتُ فَجَلَسْتُ، وَقَدْ تَرَكْتُ أَخِي يَتَوَضَّأُ وَيَلْحَقُنِي فَقُلْتُ: إِنْ يُرِدُ اللَّهُ بِفُلَانٍ خَيْرًا يُرِيدُ أَخَاهُ يَأْتِ بِهِ، فَإِذَا إِنْسَانٌ يُحَرِّكُ الْبَابَ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَقُلْتُ: عَلَى

رَسُولِكَ، ثُمَّ جِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ: هَذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَسْتَأْذِنُ فَقَالَ: «اُذْنُ لَهُ، وَبَشِّرُهُ بِالْجَنَّةِ»، فَجِئْتُ فَقُلْتُ: ادْخُلْ وَبَشِّرْكَ رَسُولُ اللَّهِ بِالْجَنَّةِ. فَدَخَلَ فَجَلَسَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ فِي الْقَفِّ عَنْ يَسَارِهِ وَكَرَى رِجْلَيْهِ فِي الْبِئْرِ، ثُمَّ رَجَعْتُ فَجَلَسْتُ فَقُلْتُ: إِنْ يُرِدُ اللَّهُ بِفُلَانٍ خَيْرًا يَأْتِ بِهِ فَجَاءَ إِنْسَانٌ يُحَرِّكُ الْبَابَ فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا، فَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ: فَقُلْتُ: عَلَى رَسُولِكَ فَجِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: «اُذْنُ لَهُ، وَبَشِّرُهُ بِالْجَنَّةِ عَلَى بَلْوَى تُصِيبُهُ»، فَجِئْتُ فَقُلْتُ لَهُ: ادْخُلْ وَبَشِّرْكَ رَسُولُ اللَّهِ بِالْجَنَّةِ عَلَى بَلْوَى تُصِيبُكَ فَدَخَلَ فَوَجَدَ الْقَفَّ قَدْ مُلِيَ فَجَلَسَ وَجَاهَهُ مِنَ الشَّقِّ الْآخِرِ. قَالَ شَرِيكَ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: فَأَوَّلَتْهَا قُبُورُهُمْ.

ومن فضائل عمر على ما تقدم، في البخاري (٣٦٧٩)، ومسلم عن جابر بن عبد الله قال: قال النبي: «رَأَيْتُنِي دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا أَنَا بِالرُّمَيْصَاءِ امْرَأَةِ أَبِي طَلْحَةَ وَسَمِعْتُ خَشْفَةً فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا، فَقَالَ: هَذَا بِلَالٌ، وَرَأَيْتُ قَصْرًا بِفَنَائِهِ جَارِيَةٌ فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا، فَقَالَ: لِعُمَرَ فَأَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَهُ، فَأَنْظُرُ إِلَيْهِ فَذَكَرْتُ غَيْرَتَكَ». فَقَالَ عُمَرُ: بِأَيِّ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعَلَيْكَ أَغَارُ.

وأخرج البخاري (٣٦٨١) ومسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال النبي: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ أُتِيتُ بِقَدَحٍ مِنْ لَبَنٍ فَشَرِبْتُ مِنْهُ حَتَّى إِنِّي لَأَرَى الرَّيَّ فِي ظَفَرِي، أَوْ قَالَ فِي أَظْفَارِي، ثُمَّ نَاوَلْتُ فَضْلَهُ عُمَرَ». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَوَّلَتْهُ؟ قَالَ: «الْعِلْمُ»؛ وَرُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٍ.

واتفقا على حديث أبي سعيد البخاري رقم (٣٦٩١) ومسلم قال: سمعت رسول الله: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ عُرِضُوا عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ قُمْصٌ،

فَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ النَّدَى، وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ دُونَ ذَلِكَ، وَعَرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ اجْتَرَّهُ». قَالُوا: فَمَا أَوْلَتْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الدِّينَ».

وأخرج البخاري (٢٦٨٣) ومسلم عن سعد بن أبي وقاص : اسْتَأْذَنَ عُمَرُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَعِنْدَهُ نِسَاءٌ مِنْ قُرَيْشٍ يُكَلِّمْنَهُ وَيَسْتَكْثِرْنَ عَالِيَهُ أَصْوَاتُهُنَّ، فَلَمَّا اسْتَأْذَنَ عُمَرُ قُمْنَ يَبْتَدِرْنَ الْحِجَابَ فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ وَرَسُولُ اللَّهِ يَضْحَكُ فَقَالَ عُمَرُ: أَضْحَكَ اللَّهُ سِنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «عَجِبْتُ مِنْ هَؤُلَاءِ اللَّاتِي كُنَّ عِنْدِي، فَلَمَّا سَمِعْنَ صَوْتَكَ ابْتَدَرْنَ الْحِجَابَ»، قَالَ عُمَرُ: فَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحَقُّ أَنْ يَهَبْنَ، ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: أَيُّ عَدَوَاتٍ أَنْفُسِهِنَّ أَتَهَبَنِي، وَلَا تَهَبَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ، قُلْنَ: نَعَمْ أَنْتَ أَغْلَطَ، وَأَفْطُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقَيْكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَبَجًّا إِلَّا سَلَكَ فَبَجًّا غَيْرَ فَبَجِّكَ».

وعن أنس بن مالك قال: أَنَّ النَّبِيَّ صَعِدَ أَحَدًا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ؛ فَجَعَفَ بِهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «انْبُتُّ أَحَدًا؛ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ، وَصِدِّيقٌ، وَشَهِيدَانِ»، رواه البخاري (٣٦٨٦).

ومن فضائل عثمان على ما تقدم:

وعن عثمانَ حَيْثُ حُوصِرَ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: أَنُشِدُكُمْ اللَّهَ وَلَا أَنُشِدُ إِلَّا أَصْحَابَ النَّبِيِّ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «مَنْ حَفَرَ بئرَ رُومَةَ فَلَهُ الْجَنَّةُ»، فَحَفَرْتُهَا. أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَلَهُ الْجَنَّةُ»، فَجَهَّزْتُهُمْ، فَصَدَّقُوهُ بِمَا قَالَ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

وأخرج البخاري (٣٦٩٦) عن عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ الْحَيَارِ؛ أَنَّ الْمُسَوَّرَ بْنَ مَحْرَمَةَ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْأَسْوَدِ بْنَ عَبْدِ يَغُوثَ قَالَا: مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تُكَلِّمَ عُثْمَانَ لِأَخِيهِ

الوليد؛ فَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ فِيهِ، فَقَصَدْتُ لِعُثْمَانَ حَتَّى خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ، قُلْتُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً وَهِيَ نَصِيحَةٌ لَكَ، قَالَ: يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ، قَالَ مَعْمَرٌ: أَرَاهُ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ؛ فَاَنْصَرَفْتُ فَرَجَعْتُ إِلَيْهِمْ إِذْ جَاءَ رَسُولُ عُثْمَانَ فَأَتَيْتُهُ، فَقَالَ: مَا نَصِيحَتُكَ؟ فَقُلْتُ: إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، وَكُنْتُ مِمَّنْ اسْتَجَابَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ؛ فَهَاجَرْتُ الْهَجْرَتَيْنِ، وَصَحِبْتُ رَسُولَ اللَّهِ وَرَأَيْتُ هَدْيَهُ وَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ فِي شَأْنِ الْوَلِيدِ، قَالَ: أَدْرَكَتَ رَسُولَ اللَّهِ؟ قُلْتُ: لَا، وَلَكِنْ خَلَصَ إِلَيَّ مِنْ عِلْمِهِ مَا يَخْلُصُ إِلَى الْعُذْرَاءِ فِي سِتْرِهَا، قَالَ: أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ، فَكُنْتُ مِمَّنْ اسْتَجَابَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَأَمَنْتُ بِمَا بُعِثَ بِهِ وَهَاجَرْتُ الْهَجْرَتَيْنِ كَمَا قُلْتُ، وَصَحِبْتُ رَسُولَ اللَّهِ وَبَايَعْتُهُ؛ فَوَاللَّهِ مَا عَصَيْتُهُ وَلَا عَشَشْتُهُ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، ثُمَّ أَبُو بَكْرٍ مِثْلُهُ، ثُمَّ عُمَرُ مِثْلُهُ، ثُمَّ اسْتُخْلِفْتُ؛ أَفَلَيْسَ لِي مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لَهُمْ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: فَمَا هَذِهِ الْأَحَادِيثُ الَّتِي تَبْلُغُنِي عَنْكُمْ، أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ شَأْنِ الْوَلِيدِ؛ فَسَنَأْخُذُ فِيهِ بِالْحَقِّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ دَعَا عَلِيًّا؛ فَأَمَرَهُ أَنْ يَجْلِدَهُ فَجَلَدَهُ ثَمَانِينَ.

وأخرج رقم (٣٦٩٨): عن عُثْمَانَ ابْنِ مَوْهَبٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ حَجَّ الْبَيْتَ؛ فَرَأَى قَوْمًا جُلُوسًا، فَقَالَ: مَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ؟ فَقَالُوا: هَؤُلَاءِ قُرَيْشٌ، قَالَ: فَمَنْ الشَّيْخُ فِيهِمْ؟ قَالُوا: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، قَالَ: يَا ابْنَ عُمَرَ إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ؛ فَحَدَّثَنِي: هَلْ تَعْلَمُ أَنَّ عُثْمَانَ فَرَّ يَوْمَ أُحُدٍ؟ قَالَ نَعَمْ، قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّهُ تَغَيَّبَ عَنْ بَدْرٍ، وَلَمْ يَشْهَدْ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّهُ تَغَيَّبَ عَنْ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ؛ فَلَمْ يَشْهَدْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ: تَعَالَى أَبَيْنَ لَكَ؛ أَمَّا فِرَارُهُ يَوْمَ أُحُدٍ، فَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ عَفَا عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ، وَأَمَّا تَغَيُّبُهُ عَنْ بَدْرٍ؛ فَإِنَّهُ كَانَتْ تَحْتَهُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ وَكَانَتْ مَرِيضَةً، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ: «إِنَّ لَكَ أَجْرَ رَجُلٍ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا وَسَهْمَهُ»، وَأَمَّا

تَغْيِيهِ عَنْ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ؛ فَلَوْ كَانَ أَحَدٌ أَعَزَّ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ عُثْمَانَ لَبَعَثَهُ مَكَانَهُ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُثْمَانَ، وَكَانَتْ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ عُثْمَانُ إِلَى مَكَّةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ الْيُمْنَى: «هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ»؛ فَضَرَبَ بِهَا عَلَى يَدِهِ، فَقَالَ: «هَذِهِ لِعُثْمَانَ»، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: اذْهَبْ بِهَا الْآنَ مَعَكَ.

وأخرج مسلم (٢٢٠١) عن عائشة قالت: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُضْطَجِعًا فِي بَيْتِي كَاشِفًا عَنْ فَخِذَيْهِ أَوْ سَاقِيهِ، فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ؛ فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ؛ فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ كَذَلِكَ فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَوَى ثِيَابِهِ، قَالَ مُحَمَّدٌ: وَلَا أَقُولُ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، فَدَخَلَ فَتَحَدَّثَ؛ فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ، فَلَمْ تَهْتَشْ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشْ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسَتْ وَسَوَيْتَ ثِيَابَكَ، فَقَالَ: «أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ».

ومن فضائل رابعهم وهو: علي بن أبي طالب، ما أخرجه البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦) عن سهل بن سعد؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِينَ هَذِهِ الرَّايَةَ رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ». قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيْهَمُ يُعْطَاهَا، قَالَ: فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُونَ أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟». فَقَالُوا: هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، قَالَ: «فَارْسِلُوا إِلَيْهِ»؛ فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ؛ فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ

ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ؛ فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ».

وقال عنه رسول الله : «أما ترضي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؛ إلا أنه لا نبي بعدي»، رواه البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤).

وفي مسلم عنه أنه قال: وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ؛ إِنَّهُ لَعَهْدُ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ إِلَيَّ: أَنْ لَا يُجَبِّي إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضَنِي إِلَّا مُنَافِقٌ.

وعن بريدة عند أحمد وغيره مرفوعاً: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَيْ مَوْلَاهُ».

ثم بقية العشرة وهم المذكورون في حديث عبد الرحمن بن عوف عند الترمذي (٣٧٤٧) قال: قال رسول الله : «أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الْجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي الْجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعْدُ فِي الْجَنَّةِ، وَسَعِيدُ فِي الْجَنَّةِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجُرَّاحِ فِي الْجَنَّةِ».

وجاء الحديث عن سعيد بن زيد أيضاً عند الترمذي (٣٧٤٨)، والحديث حسن وقد مات رسول الله وهو عنهم راضٍ كما في البخاري (٣٧٠٠) عن عمر ، وذكر علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وسعيداً.

هذه إشارات إلى فضائل هؤلاء القوم الذين نصر الله بهم الدين، وأعز بهم المسلمين.

ومن الواجبات تجاههم أن نترحم عليهم ونذكر فضائلهم ونكف عن مساوئهم لقول الله : ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا

وَلَاخَوْنَنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَنِ وَلَا نَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ [الحشر: ١٠].

وفي حديث عائشة في مسلم قالت: يا ابن أخي، أمروا أن يستغفروا لهم؛ فسبوهم.

وقال السفاريني في منظومته :

وليس في الأمة كالصحابه	في الفضل والمعروف والإصابه
لأنهم شاهدوا المختار	وعاينوا الأسرار والأنوار
وجاهدوا في الله حتى بانا	دين الهدى وقد سما الأديانا
وقد أتى في محكم التنزيل	من فضلهم ما يشفي للغليل
وفي الأحاديث وفي الآثار	وفي كلام القوم والأشعار
ما قد ربا من أن يحيط نظمي	عن بعضه فاقنع وخذ من علمي
واحذر من الخوض الذي قد	بفضلهم مما جرى لو تدري
فإنه عن اجتهاد قد صدر	فاسلم أذل الله من لهم هجر
وبعدهم فالتابعون أخرى	بالفضل ثم تابعوهم طرا

قال شيخ الإسلام في الواسطية (٢٤٦): ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألستهم لأصحاب رسول الله كما وصفهم الله به في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَنِ وَلَا نَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، وطاعة النبي في قوله: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ».

ويقولون: ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم، ومراتبهم ويفضلون من أنفق من قبل الفتح وهو صلح الحديبية وقاتل، على من أنفق من بعد وقاتل، ويقدمون المهاجرين على الأنصار، ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»، وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة كما أخبر به النبي ، بل لقد ورضوا عنه، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة.

ويشهدون بالجنة لمن شهد له رسول الله كالعشرة، وثابت بن قيس بن شماس، وغيرهم من الصحابة، ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، وغيره من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، ثم عمر ويثلاثون بعثان ويربعون بعلي كما دلت عليه الآثار، وكما أجمع الصحابة على تقديم عثمان في البيعة مع أن بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي -بعد اتفاقهم على تقديم أبي بكر وعمر- أيهما أفضل فقدم قوم عثمان وسكتوا، وربعوا بعلي، وقدم قوم علياً، وقوم توقفوا لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان، ثم علي وإن كانت هذه المسألة -مسألة عثمان وعلي- ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة لكن التي يضلل فيها مسألة الخلافة، وذلك أنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله أبو بكر، وعمر، ثم عثمان، ثم علي، ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء فهو أضل من حمار أهله.

ويحبون أهل بيت رسول الله ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله حيث قال يوم غدِير خَم: «أَدْكُرُّكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي»، وقال أيضاً للعباس عمه، وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفون بني هاشم فقال: «وَاللَّهِ، لَا يَدْخُلُ قَلْبَ امْرِئٍ إِيْمَانٌ

حَتَّى يُحِبَّكُمْ اللَّهُ، وَلَقَرَّابَتِي»، وقال: «إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَأَصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَأَصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَأَصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»، ويتولون أزواج رسول الله أمهات المؤمنين ويؤمنون بأنهن أزواجه في الآخرة خصوصا خديجة أم أكثر أولاده أول من آمن به وعاضده على أمره وكان لها منه المنزلة العالية، والصديقة بنت الصديق التي قال النبي: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النَّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ».

ويتبرءون من طريقة الروافض الذين يغضون الصحابة ويسبونهم، وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول، أو عمل. ويمسكون عما شجر من الصحابة ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساوئهم منها ما هو كاذب ومنها ما قد زيد فيه ونقص وغير عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون إما مجتهدون مصيئون، وإما مجتهدون مخطئون، وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره، بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة، ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر عنهم إن صدر حتى إنهم يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم؛ لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات مما ليس لمن بعدهم.

وقد ثبت بقول رسول الله إنهم خير القرون، وأن المد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهباً ممن بعدهم ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب فيكون قد تاب منه، أو أتى بحسنات تمحوه، أو غفر له بفضل سابقته، أو بشفاعه محمد الذي هم أحق الناس بشفاعته، أو ابتلى ببلاء في الدنيا كفر به عنه،

فإذا كان هذا في الذنوب المحققة فكيف الأمور التي كانوا فيها مجتهدين إن أصابوا فلهم أجران، وإن أخطأوا فلهم أجر واحد والخطأ مغفور.

ثم القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل نزر مغفور في جنب فضائل القوم، ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله، والهجرة، والنصرة، والعلم النافع والعمل الصالح.

ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة، وما من الله عليهم به من الفضائل علم يقيناً أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله تعالى.



بيان أن الإيمان قول وعمل

ومن عقيدة أهل السنة أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالجوارح يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. وهذا التعريف هو الذي تدل عليه أدلة الكتاب والسنة، وأقوال السلف.

قال اللالكائي في شرح أصول أهل السنة (٩٠٧/٥):

قال سهل بن المتوكل: أدركت ألف أستاذ أو أكثر كلهم يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

وقال يعقوب بن سفيان: أدركت أهل السنة والجماعة على ذلك.

وقال عبد الرزاق: سمعت سفيان الثوري وابن جريج ومالك بن أنس ومعمربن راشد وسفيان ابن عيينة يقولون: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

وقال عبد الرزاق أيضًا: لقيت اثنين وستين شيخًا منهم معمر والأوزاعي والثوري والوليد بن محمد القرشي ويزيد بن السائب وحماد بن سلمة وحماد بن زيد وسفيان بن عيينة وشعيب بن حرب ووکیع بن الجراح ومالك بن أنس وابن أبي ليلى وإسماعيل بن عياش والوليد بن مسلم، ومن لم يسمعه كلهم يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

فسمى الإيمان عند أهل السنة مرتكز على خمسة أمور:

١ - قول القلب وهو تصديقه وإيقانه.

٢ - قول اللسان وهو النطق بالشهادتين.

٣- عمل القلب وهو النية والإخلاص والمحبة والانقياد والتوكل وغيرها.

٤- عمل اللسان وهو الأذكار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكلام المعروف وقراءة القرآن... إلى غير ذلك.

٥- عمل الجوارح وهو العمل الذي لا يؤدي إلى بواسطتها من ركوع وسجود ومشى إلى المساجد وسفر الحج والجهاد وغير ذلك.

وهذا هو تعريف أهل الحق والهدى يدل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، فهذه فيها عمل القلب.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٣]، وهذه جمعت بين عمل القلب واللسان والجوارح.

أما المرجئة ومن وافقهم فقد ذهبوا في تعريف الإيمان مذاهب بعيدة عن الحق. فقال بعضهم: هو الإقرار باللسان وتصديق بالجنان، وإلى هذا ذهب الطحاوي.

ومنهم من يقول: إنه تصديق بالجنان فقط، والإقرار باللسان ركن زائد ليس بأصلي، وإلى هذا ذهب الماتريدي ويروى عن أبي حنيفة.

وذهب الكرامية إلى أن الإيمان هو الإقرار باللسان فقط.

وذهب الجهمية ومن وافقهم إلى أنه المعرفة بالقلب، وكل هذه الأقوال باطلة ومخالفة لطريقة الرشيد.

وأبعدها عن الحق قول الجهم، فإنه لازمه أن فرعون وقومه كانوا مؤمنين، فإنهم صدقوا موسى وهارون عليهما السلام ولم يؤمنوا بهما، ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وأهل الكتاب كانوا يعرفون النبي كما يعرفون أبناءهم، بل إبليس يكون عند جهم مؤمناً كامل الإيمان فإنه لم يجهل ربه، بل هو عارف بربه ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [ص: ٧٩]، وقوله: ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

والكفر عند جهم هو الجهل بالرب ولا أحداً أجهل منه بربه؛ اهـ^(١).

وعلى قول الكرامية: المنافقون عندهم مؤمنون كاملوا الإيمان.

وعلى قول مرجئة الفقهاء: بأن الإيمان هو إقرار باللسان واعتقاد، يكون الفسقة وقطاع الصلاة وغيرهم من أهل الإجماع كاملي الإيمان، لأنهم قد أقروا بألستهم الإسلام والإيمان واعتقدوا بقلوبهم، وأنَّ لهم هذا، ورحم الله ميمون بن مهران إذ يقول عندما رأى جارية تغني فقال: الخيبة لمن يزعم أن إيمان هذه مثل إيمان مريم بنت عمران.

وحاصل الكل يرجع إلى أن الإيمان أما أن يكون ما يقوم بالقلب واللسان وسائر الجوارح كما ذهب إليه جمهور السلف من الأئمة الثلاثة وغيرهم رحمهم الله كما تقدم أو بالقلب واللسان دون الجوارح، كما ذكر الطحاوي عن أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله، أو باللسان وحده كما تقدم ذكره عند الكرامية، أو بالقلب

(١) شرح الطحاوية (٣٣٢).

وحده وهو إما المعرفة كما قاله الجهم أو التصديق كما قاله أبو منصور الماتريدي،
وفساد قول الكرامية والجهم بن صفوان ظاهر اهـ^(٢).

وكان السبب في ضلال هذه الطوائف كونهم جعلوا الإيمان حقيقة واحدة لا
تتبعض، إما مجرد تصديق القلب كقول الجهمية، أو تصديق القلب واللسان كقول
المرجئة...

وقالت الخوارج والمعتزلة: الطاعات كلها من الإيمان فإذا ذهب بعضها ذهب
بعض الإيمان فذهب سائرهم، فحكموا أن صاحب الكبيرة ليس معه شيء من
الإيمان...

وجماع شبهتهم في ذلك أن الحقيقة المركبة تزول بزوال بعض أجزائها كالعشرة،
فإنه إذا زال بعضها لم تبق عشرة...

قالوا: فإذا كان الإيمان مركباً من أقوال وأعمال ظاهرة وباطنة لزم زواله بزوال
بعضها، وهذا قول الخوارج والمعتزلة، قالوا: ولأنه يلزم أن يكون الرجل مؤمناً بما
فيه من الإيمان كافرًا بما فيه من الكفر، فيقوم به كفر وإيمان، ثم إن هذه الشبهة هي
شبهة من منع أن يكون في الرجل الواحد طاعة ومعصية؛ لأن الطاعة جزء من
الإيمان والمعصية جزء من الكفر^(١).

يتلخص من هذا أن سبب ضلال الخوارج ومن قال بقولهم والمرجئة ومن قال
بقولهم كون الخوارج جعلوا الإيمان مع أعماله جزءاً واحداً لا يتبعض، فأدخلوا
الأعمال في مسماه، لكنهم غلطوا حين جعلوا جميع الأعمال شرط صحة في الإيمان

(٢) شرح الطحاوية (٣٣٣).

(١) راجع مجموع الفتاوى (٥١٠-٥١٢/٧).

فكفروا بسبب هذه الشبهة المسلمين، وسبب ضلال المرجئة أنهم أخرجوا العمل من مسمى الإيمان فجعلوا الإيمان هو القول فقط على قول بعضهم، وجعله بعضهم هو التصديق فقط، وجعله بعضهم قول اللسان واعتقاد القلب، فأصبح الناس عندهم مؤمنين كاملي الإيمان، وإن زنوا وفجروا وتركوا الصلاة ونافقوا، وهذا غلط عظيم حصل بسببه تضييع الفرائض وشرائع الدين، حتى قال إبراهيم النخعي: لأننا على هذه الأمة من المرجئة أخوف عليهم من عدتهم من الأزارقة - أي الخوارج - ^(١).

وكان أهل السنة هم الوسط في هذا الباب بين الخوارج والمرجئة فجعلوا الأعمال داخلة في مسمى الإيمان وفصلوا، فمنها ما هو شرط في صحة الإيمان كالنطق بالشهادتين والصلاة - على قول - من يكفر تارك الصلاة ^(٢)، أي من ترك شيئاً من ذلك كفر، وجعلوا من الأعمال ما هو شرط كمال كإزالة الأذى عن الطريق، والإحسان إلى الجيران، وجماع ذلك ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بَضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ».

والعجب من قولهم إن الأعمال غير داخلة في مسمى الإيمان، مع أن الله قد قرن العمل الصالح بالإيمان في أكثر من ستة وخمسين موضعاً في القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ في سور كثيرة. فكل هذه الآيات تبين أنه لا بد من اقتران العمل بالإيمان.

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (٦٢٠) والخلال في السنة (١٣٦٧) وغيرهم.

(٢) وهذا القول هو الصحيح للآيات والأحاديث الكثيرة في الباب. راجع رسالة كفر تارك الصلاة للعثيمين رحمه الله.

قال ابن القيم في كتاب الصلاة (٥٣): ولما كان الإيمان أصلاً له شعب متعددة، وكل شعبة منها تسمى إيماناً، فالصلاة من الإيمان، وكذلك الزكاة والحج والصيام، والأعمال الباطنة كالحياء والتوكل والخشية من الله والإنابة إليه حتى تنتهي هذه الشعب إلى إمطة الأذى عن الطريق؛ فإنه شعبة من شعب الإيمان، وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها كشعبة الشهادة، ومنها ما لا يزول بزوالها كترك إمطة الأذى عن الطريق، وبينها شعب متفاوتة تفاوتاً عظيماً منها ما يلحق بالشهادة ويكون إليها أقرب، ومنها ما يلحق بشعبة إمطة الأذى ويكون إليها أقرب. اهـ

ثم اعلم أن الإيمان عند أهل السنة والجماعة قول وعمل واعتقاد، قال الشافعي : وكان إجماع الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركنا أن الإيمان قول وعمل ونية لا يجزئ واحد من الثلاثة عن الآخر ^(١). اهـ

وقال البغوي في شرح السنة (٣٨ / ١): اتفق الصحابة والتابعون فمن بعدهم من علماء السنة أن الأعمال من الإيمان وقالوا: إن الإيمان قول وعمل وعقيدة. اهـ

وقد تقدم أن الخوارج والمرجئة جعلوا الإيمان كلية واحدة لا تتجزأ، فنتج عن قولهم البائر الوقوع في ضلالة عظيمة وهي رد القول بزيادة الإيمان ونقصانه، مع أن الأدلة قد تظاهرت على إثباتها قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤]. وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَيَزِدَادُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١].

(١) مجموع الفتاوى (٢٠٩ / ٧).

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقال كما في حديث أبي هريرة عند مسلم: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرَهُ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنْ لَوْ تَفَتَّحَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ».

الشاهد من الحديث قوله: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ» أي زائد الإيثار، والضعيف الذي نقص إيمانه.

وقال : «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلْبَّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ...»، الحديث.

وقال : «الْإِيمَانُ بِضْعٍ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٍ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ»، فذكر أعلى وأدنى.

قال ابن كثير بعد سوق الآية المتقدمة: وهذه الآية الكريمة من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء، بل قد حكى الإجماع غير واحد من أهل العلم. اهـ

ولما كان الإيمان يدخل فيه المعرفة بالقلب والقول والعمل كله كانت زيادته بزيادة الأعمال ونقصانه بنقصانها، وقد صرح بذلك مجموعة من السلف فقالوا: يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية^(١).

(١) الفتح لابن رجب (٩/١).

وفي مرتكب الكبيرة كان أهل السنة هم الوسط الخيار، قال شيخ الإسلام: ومذهب أهل السنة والجماعة: أن فساق أهل الملة ليسوا مخلصين في النار كما قالت الخوارج والمعتزلة وليسوا كاملين في الدين والإيمان والطاعة؛ بل لهم حسنات وسيئات يستحقون بهذا العقاب وبهذا الثواب^(٢).

قال ابن أبي العز في شرح الطحاوية: أن أهل السنة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفرا ينقل عن الملة بالكلية، كما قالت الخوارج، إذ لو كفر كفرا ينقل عن الملة لكان مرتدا يقتل على كل حال، ولا يقبل عفو ولي القصاص، ولا تجري الحدود في الزنا والسرقه وشرب الخمر! وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام.

ومتفقون على أنه لا يخرج من الإيمان والإسلام، ولا يدخل في الكفر، ولا يستحق الخلود مع الكافرين، كما قالت المعتزلة، فإن قولهم باطل أيضا؛ إذ قد جعل الله مرتكب الكبيرة من المؤمنين، قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُذِّبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، إلى أن قال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأْتِبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨]. فلم يخرج القاتل من الذين آمنوا، وجعله أخا لولي القصاص، والمراد أخوة الدين بلا ريب. وقال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، إلى أن قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقد ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لِأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ،

(٢) المجموع (٧/٦٧٩).

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ». أخرجاه في الصحيحين.

فثبت أن الظالم يكون له حسنات يستوفي المظلوم منها حقه. وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال: «تَذَرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟». قالوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، قال: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»، رواه مسلم.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]. فدل ذلك على أنه في حال إساءته يعمل حسنات تمحو سيئاته. وهذا مبسوط في موضعه.

ونصوص الكتاب والسنة والإجماع تدل على أن الزاني والسارق والقاذف لا يقتل، بل يقام عليه الحد، فدل على أنه ليس بمرتد^(١).

بينما الخوارج يكفرون مرتكب الكبيرة، ويستحلون دمه وماله كما تقدم، والمعتزلة يجعلونه منزلة بين المنزلتين، وقد وافقت الخوارج المعتزلة في شيئين هما: نفي الإيمان عن مرتكب الكبيرة، وخلوده في النار مع الكفار. وخالفتهما في شيئين هما: تسميته كافراً، واستحلال دمه وماله.

بينما ذهب المرجئة في مرتكب الكبيرة أنه لا يضر مع الإيمان معصية، فمرتكب الكبيرة مؤمن كامل الإيمان ولا يستحق دخول النار، وهذا مذهب بين البطلان.

(١) شرح الطحاوية (٣٦٠-٣٦١).

قال الإسفراييني: ومما اتفقت عليه المعتزلة من فضائحهم قولهم: إن حال الفاسق الملي يكون في منزلة بين المنزلتين لا هو مؤمن ولا كافر، وإن هو خرج من الدنيا قبل أن يتوب يكون مخلدًا في النار^(١).

ومما تقدم يتبين لنا جليًا أن الإيمان قول وعمل ونية يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وأن الأعمال داخلية في مسماه، ومنها ما هو شرط صحة لا يدخل العبد في الإيمان إلا بها، ومنها ما هو شرط كمال يكون العبد مؤمنًا مع غيابها وعنده من نقص الإيمان بقدرها.

ومن المسائل التي تطرق في هذا الباب هي مسألة الاستثناء في الإيمان، والمراد بالاستثناء: قول أنا مؤمن إن شاء الله أو أرجوا إلى غير ذلك، والناس في هذه المسألة انقسموا إلى ثلاثة أقسام:

قوم أوجبوا الاستثناء في الإيمان، وقوم حرموه، وقوم جوزوا الأمرين وهذا أصح الأقوال^(٢).

ويكون الاستثناء جائزًا إذا كان خائفًا من تزكية النفس وكذا باعتبار ما يختم له، وكذا إن كان عنده تقصير في فعل المأمورات، أما إن كان الاستثناء على الشك فهذا محرم لا يجوز قطعًا.

وقد نقل أبو يعلى إجماع السلف على جواز الاستثناء في الإيمان^(٣).

(١) التبصرة في الدين (٤٣).

(٢) راجع الإيمان لابن تيمية (٤١٠).

(٣) مسائل الإيمان لأبي يعلى (٤٤٥).

قال الآجري في الشريعة (٢/٦٥٦): من صفة أهل الحق ممن ذكرنا من أهل العلم الاستثناء في الإيمان لا على جهة الشك، نعوذ بالله من الشك في الإيمان، ولكن خوف التزكية لأنفسهم من استكمال الإيمان لا يدري أهو ممن يستحق حقيقة الإيمان أم لا. اهـ

ومما يطرق في هذا الباب هو العلاقة بين مسمى الإيمان والإسلام، وللسلف في هذا الباب قولان:

الأول: وهو التفريق بين مسمى الإيمان والإسلام وهذا القول ذهب إليه جمهور أهل السنة.

الثاني: عدم التفريق بينهما، وأن الإسلام والإيمان اسمان لمعنى واحد، وممن قال بهذا القول البخاري، ومحمد بن نصر المروزي، وابن مندة، وابن عبد البر.

وقد استدلل القائلون بالتفريق بمثل قول الله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، ومن الأدلة المشهورة في التفريق بين المسميين هو حديث جبريل.

قال شيخ الإسلام كما في الإيمان: قد فرق رسول كما في حديث جبريل بين مسمى الإسلام، ومسمى الإيمان، ومسمى الإحسان. اهـ

ويكون في حالة الاجتماع الإسلام يطلق ويراد به الأعمال الظاهرة كما في حديث جبريل، والإيمان يطلق ويراد به أعمال القلوب، وإذا افترقا دل كل منهما على الأعمال الظاهرة والقلبية يدل على ذلك حديث ابن عباس عند البخاري ومسلم وفيه: «أَمُرُّكُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ؟». قالوا الله ورسوله أعلم.

قال: «شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْمَغَانِمِ الْخُمْسَ».

وجماع القول أنها إذا افترقا اجتمعا، وإذا اجتمعا افترقا، وإلى هذا التفصيل ذهب الخطابي، وابن الصلاح، والبعوي، وشيخ الإسلام، وابن رجب، وغيرهم، وهو الذي تجتمع معه الأدلة.



السحر والعين وحقيقتهما

ومن عقيدة أهل السنة الإيمان بالسحر وأن له حقيقة قال الله تعالى ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِن أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لِمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَكَرُوا بِهِ ۚ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة: ١٠٢-١٠٣].

والسحر في اللغة هو: كل ما لطف وخفي سببه، ومنه سُمِّي السَّحَر سَحَرًا في آخر الليل، لأنه خفيٌّ وكل ما لطف يعني: دق، وخفي سببه عن الناس يُسَمَّى سحرًا، ومنه قوله : «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسَحَرًا»، البيان معناه: الكلام البليغ، لأنه يستميل النفوس ويؤثر فيها كما يؤثر السحر، إلا أنه ليس حرامًا وكذلك النيمة، سُمِّيَتْ سحرًا لأنها تعمل عمل السحر في الإفساد بين الناس، وإحداث البغضاء في القلوب، وإن لم تكن سحرًا في الحقيقة، لكنها سحر لغوي.

أما تعريفه في الشرع: فالسحر عبارة عن عزائم ورُقَى وعُقَد يؤثر في بدن المسحور بالقتل أو بالمرض، أو بالإخلال بعقله، أو يفرِّق بين الزوجين، أو يأخذ الزوج عن زوجته فلا يستطيع الوصول إليها، بإذن الله في المسحور، قال تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]، يعني: السواحر.

وقد سحر النبي ، وأثر فيه السحر، وصار عليه الصلاة والسلام يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يكن فعله، ورقاه جبريل فبرئ بإذن الله.

فالسحر له حقيقة، ويؤثر في بدن المسحور، ولكنه لا يؤثر إلا بإذن الله القدري، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أي: إذن الله القدري الكوني.

وقد ذكر العلماء أن السحر المحرم على نوعين:

سحر حقيقي، وهو هذا الذي ذكرنا.

والنوع الثاني: سحر تخيلي، ليس له حقيقة، وإنما هو خيال وشعوذة، وهو ما يسمّى بالقُمرَة، فالساحر يخيل للناس شيئاً وهو ليس حقيقة، كأن يخيل للناس أنه دخل في النار، وليس كذلك، أو يخيل للناس أنه يمشي على حبل، وهو ليس كذلك، أو يخيل للناس أن السيارة تمشي على بطنه، وليس كذلك، أو يخيل للناس أنه يطعن نفسه بالسلاح ولا يؤثر فيه، وليس كذلك، والحقيقة أنه عمل شيئاً من التخيل والقُمرَة فأثر على الأبصار.

كما قال الله تعالى في قوم فرعون: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، فسحروا الأعين فقط، وذلك بما يعملونه من الحيل، ويجعلون في العصي التي معهم مواد تحركها، وتجعل العصي كأنها حيّة، وهي ليست كذلك، كما قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسَعَى﴾ [طه: ٦٦]، حيث حشوها بشيء من الزئبق وشيء من الأمور التي لا يراها الناس، وظنوا أنها تتحرك.

وأنكرت المعتزلة النوع الأول، مع أن النوع الأول هو الخطير، وقالوا: السحر كله تخيلي.

وهذا غير صحيح، لأنه لو كان كذلك لما أثار في المسحور ولما قتل المسحور، ولما أمرضه، ولما فرّق بينه وبين زوجته، فدلّ على أنه حقيقي، وعمل شيطاني، لأنه عقد وعزائم، ولهذا يقول تعالى لنبيه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، إلى قوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]، فدلّ على أنه حقيقي؛ انتهى من إغاثة المستفيد .

قال ابن العربي في تفسيره (٤٤/٢): واختلف هل له حقيقة أم لا، فذكر الغزنوي الحنفي في عيون المعاني له: أن السحر عند المعتزلة خدع لا أصل له، وعند الشافعي وسوسة وأمراض.

قال: وعندنا أصله طلسم يبنى على تأثير خصائص الكواكب، كتأثير الشمس في زئبق عصيّ فرعون، أو تعظيم الشياطين ليسهلوا له ما عسر.

قلت: وعندنا أنه حق وله حقيقة يخلق الله عنده ما شاء؛ انتهى.

وقال (٤٦/٢٢): ذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة.

وذهب عامة المعتزلة وأبو إسحاق الاسترابادي من أصحاب الشافعي إلى أن السحر لا حقيقة له، وإنما هو تمويه وتخيل وإيهام لكون الشيء على غير ما هو به، وأنه ضرب من الخفة والشعوذة، كما قال تعالى: ﴿يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسْعَى﴾ [طه: ٦٦]، ولم يقل تسعى على الحقيقة، ولكن قال ﴿يُخَيِّلُ إِلَيْهِ﴾ [طه: ٦٦].

وقال أيضا: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦].

وهذا لا حجة فيه، لأننا لا ننكر أن يكون التخيل وغيره من جملة السحر، ولكن ثبت وراء ذلك أمور جوزها العقل وورد بها السمع، فمن ذلك ما جاء في هذه الآية من ذكر السحر وتعليمه، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه، ولا أخبر تعالى أنهم يعلمونه الناس، فدل على أن له حقيقة.

وقوله تعالى في قصة سحرة فرعون: ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وسورة الفلق، مع اتفاق المفسرين على أن سبب نزولها ما كان من سحر لبيد بن الأعصم، وهو مما خرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت: سحر رسول الله ﷺ يهودي من يهود بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم، الحديث. وفيه: أن النبي ﷺ قال لما حل السحر: «أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ شَفَانِي».

والشفاء إنما يكون برفع العلة وزوال المرض، فدل على أن له حقا وحقيقة، فهو مقطوع به بإخبار الله تعالى ورسوله على وجوده ووقوعه.

وعلى هذا أهل الحل والعقد الذين ينعقد بهم الإجماع، ولا عبرة مع اتفاقهم بحثالة المعتزلة ومخالفتهم أهل الحق.

ولقد شاع السحر وذاع في سابق الزمان وتكلم الناس فيه، ولم يبد من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله.

وروى سفيان عن أبي الأعور عن عكرمة عن ابن عباس قال: علم السحر في قرية من قرى مصر يقال لها: (الفرما) فمن كذب به فهو كافر، مكذب لله ورسوله، منكر لما علم مشاهدة وعيانا؛ انتهى.

وقد تنازع العلماء في حقيقة السحر وأنواعه: والأكثرون يقولون: إنه قد يؤثر في موت المسحور ومرضه من غير وصول شيء ظاهر إليه، وزعم بعضهم أنه مجرد تخيل.

واتفقوا كلهم على أن ما كان من جنس دعوة الكواكب السبعة، أو غيرها، أو خطابها، أو السجود لها، والتقرب إليها بما يناسبها من اللباس والخواتم والبخور ونحو ذلك، فإنه كفر، وهو من أعظم أبواب الشرك، فيجب غلقه، بل سده، وهو من جنس فعل قوم إبراهيم عليه السلام، ولهذا قال ما حكى الله عنه بقوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ (٨٨) ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٨-٨٩]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكُوكَبَاطِ﴾ [الأنعام: ٧٦]، الآيات إلى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

واتفقوا كلهم أيضا على أن كل رقية وتعزيم أو قسم، فيه شرك بالله، فإنه لا يجوز التكلم به، وإن أطاعته به الجن أو غيرهم، وكذلك كل كلام فيه كفر لا يجوز التكلم به، وكذلك الكلام الذي لا يعرف معناه لا يتكلم به، لإمكان أن يكون فيه شرك لا يعرف، ولهذا قال النبي: «لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ تَكُنْ شِرْكًَا».

ولا يجوز الاستعاذة بالجن، فقد ذم الله الكافرين على ذلك، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]. قالوا: كان الإنسي إذا نزل بالوادي يقول: أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه، فبييت في أمن وجوار حتى يصبح، ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]، يعني الإنس للجن، باستعاذتهم بهم، رهقا، أي إثما وطغيانا وجراءة وشرا، وذلك أنهم قالوا: قد سدنا الجن، والإنس! فالجن تعاضم في أنفسها وتزداد كفرا إذا عاملتها الإنس بهذه المعاملة، وقد قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ

جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلُؤَلَاءَ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ [سبأ: ٤٠-٤١]. فهؤلاء الذين يزعمون أنهم يدعون الملائكة ويخاطبونهم بهذه العزائم، وأنها تنزل عليهم ضالون، وإنما تنزل عليهم الشياطين.

وقد قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنَّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. فاستمتع الإنسي بالجني: في قضاء حوائجه، وامتنال أوامره، وإخباره بشيء من المغيبات، ونحو ذلك، واستمتع الجن بالإنس: تعظيمه إياه، واستعانت به، واستغاثته وخضوعه له. ونوع منهم بالأحوال الشيطانية، والكشوف ومخاطبته رجال الغيب، وأن لهم خوارق تقتضي أنهم أولياء الله! وكان من هؤلاء من يعين المشركين على المسلمين! ويقول: إن الرسول أمره بقتال المسلمين مع المشركين، لكون المسلمين قد عصوا! وهؤلاء في الحقيقة إخوان المشركين.

والناس من أهل العلم فيهم على ثلاثة أحزاب: حزب يكذبون بوجود رجال الغيب، ولكن قد عاينهم الناس، وثبت عمن عاينهم أو حدثه الثقات بما رأوه، وهؤلاء إذا رأوهم وتيقنوا وجودهم خضعوا لهم، وحزب عرفوهم، ورجعوا إلى القدر، واعتقدوا أن ثم في الباطن طريقا إلى الله غير طريقة الأنبياء! وحزب ما أمكنهم أن يجعلوا وليا خارجا عن دائرة الرسول، فقالوا: يكون الرسول هو ممدا للطائفتين، فهؤلاء معظمون للرسول جاهلون بدينه وشرعه، والحق: أن هؤلاء من أتباع الشياطين، وأن رجال الغيب هم الجن، ويسمون رجالا، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ

كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦٠﴾ [الجن: ٦٠]. وإلا فالإنس يؤنسونه، أي يشهدون ويرون، وإنما يحتجب الإنسي أحيانا، لا يكون دائما محتجبا عن أبصار الإنس، ومن ظنهم أنهم من الإنس فمن غلظه وجهله؛ انتهى من شرح الطحاوية (٥٠٧).

فالسحر تعلمه وتعليمه وإتيان متعاطيه، مع تصديقه كفر بالله تعالى لو لم يكن إلا بزعمه علم الغيب فكيف إذا انضاف إليه النذر والذبح للشياطين والاستغاثة بهم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد جاء في صحيح الإمام مسلم من طريق يحيى بن سعيد عن عبيد الله بن عمر العمري عن نافع عن صفية عن بعض أزواج النبي ﷺ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً».

والساحر بمنزلة الكاهن فمن سأل عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة؛ وأما إن صدقه بما يقول فهذا كافر بما أنزل على نبينا محمد ﷺ لما روى الحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا، أَوْ عَرَّافًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»، وجاء عن جابر عند البزار بسند حسن.

قال ابن القيم في زاد المعاد (٤ / ١٤٩):

روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين»

وفي صحيحه أيضا عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم رخص في الرقية من الحمة والعين والنملة

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : « العين حق ».

وفي سنن أبي داود عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان يؤمر العائن فيتوضأ ثم يغتسل منه المعين.

وفي الصحيحين عن عائشة قالت : أمرني النبي صلى الله عليه و سلم أو أمر أن نسترقى من العين.

وذكر الترمذي من حديث سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عروة بن عامر عن عبيد بن رفاعة الزرقى أن أسماء بنت عميس قالت : يا رسول الله ! إن بني جعفر تصيبهم العين أفأسترقى لهم ؟ فقال : « نعم فلو كان شئ يسبق القضاء لسبقته العين » قال الترمذي : حديث حسن صحيح.

وروى مالك رحمه الله : عن ابن شهاب عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال : رأى عامر بن ربيعة سهل بن حنيف يغتسل فقال : والله ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة ! قال : فلبط سهل فأتى رسول الله صلى الله عليه و سلم عامرا فتغيط عليه وقال : « علام يقتل أحدكم أخاه ألا بركت اغتسل له » فغسل له عامر وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخلته إزاره في قدح ثم صب عليه فراح مع الناس.

وروى مالك رحمه الله أيضا عن محمد بن أبي أمامة بن سهل عن أبيه هذا الحديث وقال فيه : [إن العين حق توضحاً له] فتوضأ له.

وذكر عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه مرفوعاً «العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين وإذا استغسل أحدكم فليغتسل» ووصله صحيح قال الزهري : يؤمر الرجل العائن بقدح فيدخل كفه فيه فيتمضمض ثم يمجه في القدح ويغسل وجهه في القدح ثم يدخل يده اليسرى فيصب على ركبته اليمنى في القدح ثم يدخل يده اليمنى فيصب على ركبته اليسرى ثم يغسل داخله إزاره ولا يوضع القدح في الأرض ثم يصب على رأس الرجل الذي تصيبه العين من خلفه صبة واحدة

والعين : عينان : عين إنسية وعين جنية فقد صح عن أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في بيتها جارية في وجهها سفعة فقال : « استرقوا لها فإن بها النظرة ».

قال الحسين بن مسعود الفراء : وقوله : سفعة أي نظرة يعني : من الجن يقول : بها عين أصابتها من نظر الجن أنفذ من أسنة الرماح

ويذكر عن جابر يرفعه : «إن العين لتدخل القبر والجمل القدر»

وعن أبي سعيد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ من الجان ومن عين الإنسان.

فأبطلت طائفة ممن قل نصيبهم من السمع والعقل أمر العين وقالوا : إنما ذلك أوهام لا حقيقة له وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل ومن أغلظهم حجاباً وأكثرهم طباعاً وأبعدهم معرفة عن الأرواح والنفوس وصفاتها وأفعالها وتأثيراتها وعقلاء الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم لا تدفع أمر العين ولا تنكره وإن اختلفوا في سببه وجهة تأثير العين

فقال طائفة : إن العائن إذا تكيفت نفسه بالكيفية الرديئة انبعث من عينه قوة سمية تتصل بالمعين فيتضرر قالوا : ولا يستنكر هذا كما لا يستنكر انبعث قوة سمية من الأفعى تتصل بالإنسان فيهلك وهذا أمر قد اشتهر عن نوع من الأفاعي أنها إذا وقع بصرها على الإنسان هلك فكذاك العائن

وقالت فرقة أخرى : لا يستبعد أن ينبعث من عين بعض الناس جواهر لطيفة غير مرئية فتتصل بالمعين وتتخلل مسام جسمه فيحصل له الضرر

وقالت فرقة أخرى : قد أجرى الله العادة بخلق ما يشاء من الضرر عند مقابلة عين العائن لمن يعينه من غير أن يكون منه قوة ولا سبب ولا تأثير أصلا وهذا مذهب منكري الأسباب والقوى والتأثيرات في العالم وهؤلاء قد سدوا على أنفسهم باب العلل والتأثيرات والأسباب وخالفوا العقلاء أجمعين

ولا ريب أن الله سبحانه خلق في الأجسام والأرواح قوى وطبائع مختلفة وجعل في كثير منها خواص وكيفيات مؤثرة ولا يمكن لعاقل إنكار تأثير الأرواح في الأجسام فإنه أمر مشاهد محسوس وأنت ترى الوجه كيف يحمر حمرة شديدة إذا نظر إليه من يحتشمه ويستحي منه ويصفر صفرة شديدة عند نظر من يخافه إليه وقد شاهد الناس من يسقم من النظر وتضعف قواه وهذا كله بواسطة تأثير الأرواح ولشدة ارتباطها بالعين ينسب الفعل إليها وليست هي الفاعلة وإنما التأثير للروح والأرواح مختلفة في طبائعها وقواها وكيفياتها وخواصها فروح الحاسد مؤذية للمحسود أذى بينا ولهذا أمر الله - سبحانه - رسوله أن يستعيذ به من شره وتأثير الحاسد في أذى المحسود أمر لا ينكره إلا من هو خارج عن حقيقة الإنسانية وهو أصل الإصابة بالعين فإن النفس الخبيثة الحاسدة تتكيف بكيفية خبيثة وتقابل المحسود فتؤثر فيه

بتلك الخاصية وأشبه الأشياء بهذا الأفعى فإن السم كامن فيها بالقوة فإذا قابلت عدوها انبعثت منها

قوة غضبية وتكيفت بكيفية خبيثة مؤذية فمنها ما تشد كفيته وتقوى حتى تؤثر في إسقاط الجنين ومنها ما تؤثر في طمس البصر كما قال النبي صلى الله عليه و سلم في الأبر وذي الطفتين من الحيات : « إنها يلتهمسان البصر ويسقطان الحبل »

ومنها ما تؤثر في الإنسان كفيته بمجرد الرؤية من غير اتصال به لشدة خبث تلك النفس وكفيته الخبيثة المؤثرة والتأثير غير موقوف على الإتصالات الجسمية كما يظنه من قل علمه ومعرفته بالطبيعة والشرعية بل التأثير يكون تارة بالاتصال وتارة بالمقابلة وتارة بالرؤية وتارة بتوجه الروح نحو من يؤثر فيه وتارة بالأدعية والرقى والتعوذات وتارة بالوهم والتخيل ونفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية بل قد يكون أعمى فيوصف له الشئ فتؤثر نفسه فيه وإن لم يره وكثير من العائنين يؤثر في المعين بالوصف من غير رؤية وقد قال تعالى لنبيه : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ﴾ [القلم: ٥١]، وقال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ١ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ٢ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ٣ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ٤ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق: ١-٥].

فكل عائن حاسد وليس كل حاسد عائن فلما كان الحاسد أعم من العائن كانت الإستعاذة منه استعاذة من العائن وهي سهام تخرج من نفس الحاسد والعائن نحو المحسود والمعين تصيبه تارة وتخطئه تارة فإن صادفته مكشوفاً لا وقاية عليه أثرت فيه ولا بد وإن صادفته حذراً شاكي السلاح لا منفذ فيه للسهام لم تؤثر فيه وربما ردت السهام على صاحبها وهذا بمثابة الرمي الحسي سواء فهذا من النفوس

والأرواح وذلك من الأجسام والأشباح وأصله من إعجاب العائن بالشئ ثم تتبعه كيفية نفسه الخبيثة ثم تستعين على تنفيذ سمها بنظرة إلى المعين وقد يعين الرجل نفسه وقد يعين بغير إرادته بل بطبعه وهذا أردأ ما يكون من النوع الإنساني وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء : إن من عرف بذلك حبسه الإمام وأجرى له ما ينفق عليه إلى الموت وهذا هو الصواب قطعاً.



فضل أهل الحديث حملة الآثار وحفاظها

والتحذير من الأهواء وأهلها

عن زيد بن ثابت، قال: قال رسول الله : «نَضَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا، فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ، فَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهِهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهِهِ لَيْسَ بِفِقْهِهِ»، أخرجه أبو داود (٣٦٦٠) قال الخطابي دعا له بالنضارة وهي النعمة. يقال نضر ونضر، من النضارة. وهي في الأصل حسن الوجه والبريق، وأراد حسن قدره. وقيل روى مخففا وأكثر المحدثين يقول بالثقل، والأول الصواب. والمراد ألْبَسَهُ الله النضرة وهي الحسن وخلوص اللون، أي جَمَلَهُ وزينه وأوصله الله إلى نضرة الجنة أي نعيمها ونضارتها، قال ابن عينة ما من أحد يطلب الحديث إلا وفي وجهه نضرة لهذا الحديث؛ انتهى.

وقال علي بن المديني في حديث النبي : «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ»: هم أهل الحديث، والذين يتعاهدون مذاهب الرسول، ويذبون عن العلم. لولاهم، لم تجد عند المعتزلة والرافضة والجهمية وأهل الإرجاء والرأي شيئا من السنن.

قال أبو بكر: فقد جعل رب العالمين الطائفة المنصورة حراس الدين، وصرف عنهم كيد المعاندين؛ لتمسكهم بالشرع المتين، واقتفاءهم آثار الصحابة والتابعين. فشأنهم حفظ الآثار وقطع المفاوز والقفار، وركوب البراري والبحار في اقتباس ما شرع الرسول المصطفى، لا يعرجون عنه إلى رأي ولا هوى. قبلوا شريعته قولاً وفعلاً، وحرسوا سنته حفظاً ونقلًا حتى ثبتوا بذلك أصلها، وكانوا أحق بها وأهلها.

وكم من ملحد يروم أن يخلط بالشريعة ما ليس منها. والله تعالى يذب بأصحاب الحديث عنها، فهم الحفاظ لأركانها والقوامون بأمرها وشأنها. إذا صدف عن الدفاع عنها فهم دونها يناضلون، ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، أخرجه الخطيب في شرف أهل الحديث .

ذكر ابن المبارك حديث النبي : « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ »، قال ابن المبارك: هم عندي أصحاب الحديث.

وقال: قال: أحمد بن حنبل، وذكر حديث: « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ »، فقال: إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم؟

وقال: قال: أحمد بن سنان، وذكر، حديث: « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ »، فقال: هم أهل العلم وأصحاب الآثار.

قال أبو عيسى الترمذي، وذكر، حديث معاوية بن قره، عن أبيه، قال: قال رسول الله : « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ »، وقال: عن جابر، عن النبي : « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي »، فقال البخاري: يعني أصحاب الحديث، ذكرها اللالكائي في مقدمة سنته.

فهم المنفذون لأمر رسول الله في التبليغ، فعن عبد الله بن عمرو أن النبي قال: « بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ »، أخرجه البخاري (٣٤٦١).

وفي أبي داود (٣٦٥٩) عن ابن عباس قال: قال رسول الله : « تَسْمَعُونَ وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ وَيُسْمَعُ بِكُمْ ».

إلى غير ذلك من فضل القوم الذين بلغوا دين الله، وحفظ الله بهم الدين وأعلى مناره، فالناس عالة عليهم. ورحم الله أبا عبد الله محمد بن علي الصوري إذ يقول:

قل لمن عاند الحديث وأضحى	عائبا أهله ومن يدعيه
أبعلم تقول هذا أبني لي	أم بجهل فالجهل خلق السفية
أيعاب الذين هم حفظوا الدين	من الترهات والتمويه
وإلى قولهم وما قد رووه	راجع كل عالم وفقيه



علامة أهل البدعة وبيان طريقة السلف في الامتحان

من أظهر علامات أهل البدع بغضهم لأهل السنة وتحذيرهم منهم فيمتحنون بحبهم لهم، والدليل على الامتحان بأهل السنة حديث علي عند مسلم: إنه لعهد النبي : أنه لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق. وفي أحاديث فضل الأنصار: «الْأَنْصَارُ لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ».

وقال الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (١٥٣): قال: قتيبة بن سعيد: إذا رأيت الرجل، يحب أهل الحديث، مثل يحيى بن سعيد القطان، وعبد الرحمن بن مهدي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وذكر قوما آخرين، فإنه على السنة ومن خالف هذا فاعلم أنه مبتدع.

وقال: الاستدلال على المبتدعة ببغض الحديث وأهله: قال لي الأوزاعي: يا أبا يَحْمَد ما تقول في قوم يبغضون حديث نبيهم؟ قلت: قوم سوء قال: ليس من صاحب بدعة تحدّثه عن رسول الله بخلاف بدعته بحديث إلا أبغض الحديث. قال أحمد بن سنان القطان: ليس في الدنيا مبتدع إلا وهو يبغض أهل الحديث، فإذا ابتدع الرجل نزع حلاوة الحديث من قلبه.

قال أبو نصر بن سلام الفقيه، يقول: ليس شيء أثقل على أهل الإلحاد، ولا أبغض إليهم من سماع الحديث وروايته بإسناده.

وقال أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذي، قال: كنت أنا وأحمد بن الحسن الترمذي، عند أبي عبد الله أحمد بن حنبل، فقال له أحمد بن الحسن: يا أبا عبد الله

ذكروا لابن أبي قتيلة بمكة أصحاب الحديث، فقال: أصحاب الحديث قوم سوء. فقام أبو عبد الله، وهو ينفض ثوبه، فقال: زنديق، زنديق، زنديق، ودخل بيته.

قال أبو عبد الله الفقيه: إذا رأيت البغدادي يحب أبا الحسن بن بشار، وأبا محمد البرهاري، فاعلم أنه صاحب سنة؛ اهد انظر طبقات الحنابلة (٥٨/٢).

وقال البرهاري في شرح السنة : وإذا رأيت الرجل يحب أبا هريرة، وأنس بن مالك، وأسيد بن حضير، فاعلم أنه صاحب سنة إن شاء الله، وإذا رأيت الرجل يحب أيوب، وابن عون، ويونس بن عبيد وعبد الله بن إدريس الأودي، والشعبي، ومالك بن مغول ويزيد بن زريع، ومعاذ بن معاذ، ووهب بن جرير، وحامد بن زيد، وحامد بن سلمة، ومالك بن أنس والأوزاعي، وزائدة بن قدامة، فاعلم أنه صاحب سنة، وإذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل، والحجاج بن المنهال، وأحمد بن نصر، وذكرهم بخير، وقال قولهم فاعلم أنه صاحب سنة.

قال الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٦٥ / ٨): جاء رجل إلى أبي علي الحسين بن علي الكرابيسي فقال: ما تقول في القرآن؟ فقال حسين الكرابيسي: كلام الله غير مخلوق. فقال له الرجل فما تقول في لفظي بالقرآن؟ فقال له حسين: لفظك بالقرآن مخلوق. فمضى الرجل إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل فعرفه أن حسيناً قال له إن لفظه بالقرآن مخلوق. فأنكر ذلك، وقال: هي بدعة فرجع الرجل إلى حسين الكرابيسي فعرفه إنكار أبي عبد الله أحمد بن حنبل لذلك وقوله هذا بدعة. فقال له حسين تلفظك: بالقرآن غير مخلوق فرجع إلى أحمد بن حنبل فعرفه رجوع حسين وأنه قال تلفظك بالقرآن غير مخلوق. فأنكر أحمد بن حنبل ذلك أيضاً وقال هذا أيضاً بدعة. فرجع الرجل إلى أبي علي حسين الكرابيسي فعرفه إنكار أبي عبد الله أحمد بن

حنبل وقوله هذا أيضًا بدعة. فقال حسين: أيش نعمل بهذا الصبي إن قلنا مخلوق قال بدعة وإن قلنا غير مخلوق قال بدعة! فبلغ ذلك أبا عبد الله، فغضب له أصحابه فتكلموا في حسين وكان ذلك سبب الكلام في حسين، والغمز عليه بذلك.

وقال (٦٤ / ٨): قال يحيى بن معين وقيل له إن حسينًا الكرابيسي يتكلم في أحمد بن حنبل قال ما أحوجه أن يضرب.

وقال يحيى بن معين: وقيل له، إن حسينًا الكرابيسي يتكلم في أحمد بن حنبل فقال: ومن حسين الكرابيسي لعنه الله إنما يتكلم في الناس أشكالهم ينطل حسين ويرتفع أحمد. قال جعفر: ينطل يعني ينزل وهو الدردي الذي في أسفل الدن.

وقال أبو حاتم محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلي الرازي، كما في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي : وعلامة أهل البدع الوقعة في أهل الأثر. وعلامة الجهمية أن يسموا أهل السنة مشبهة ونابته. وعلامة القدرية أن يسموا أهل السنة مجبرة. وعلامة الزنادقة أن يسموا أهل الأثر حشوية. ويريدون إبطال الآثار عن رسول الله . وفقنا الله وكل مؤمن لما يحب ويرضى من القول والعمل، وصلى الله على محمد وآله وسلم.

وقال أبو زرعة: وعلامة أهل البدع الوقعة في أهل الأثر، وعلامة الزنادقة تسميتهم أهل السنة حشوية يريدون إبطال الآثار. وعلامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة، وعلامة القدرية تسميتهم أهل الأثر مجبرة. وعلامة المرجئة تسميتهم أهل السنة مخالفة ونقصانية. وعلامة الرافضة تسميتهم أهل السنة ناصبة. ولا يلحق أهل السنة إلا اسم واحد ويستحيل أن تجمعهم هذه الأسماء.

وقال ابن أبي حاتم يقول: سمعت أبي يقول: إذا رأيتم الرجل يحب أحمد بن حنبل، فاعلموا أنه صاحب سنة.

وقال ابن أبي حاتم: وسمعت أبا جعفر محمد بن هارون المخرمي الغلاس يقول: إذا رأيتم الرجل يقع في أحمد بن حنبل، فاعلم أنه مبتدع.

وقال أبو يعلى الموصلي: سمعت أحمد بن إبراهيم الدورقي يقول: من سمعتموه يذكر أحمد بن حنبل بسوء، فاتهموه على الإسلام.

وقال أبو الحسن علي بن محمد المطيري: سمعت أبا الحسن الطرخاباذي الهمداني يقول: أحمد بن حنبل محنة به يعرف المسلم من الزنديق.

وقال أبو حاتم الرازي: إذا رأيتم البغدادي يحب أحمد بن حنبل فاعلم أنه صاحب سنة، وإذا رأيته يبغض يحيى بن معين فاعلم أنه كذاب.

وقال محمد بن هارون الفلاس: إذا رأيتم الرجل يقع في يحيى بن معين فاعلم أنه كذاب يضع الحديث، وإنما يبغضه لما يبين من أمر الكذابين؛ اهـ من تهذيب الكمال .

قال يحيى بن معين: إذا رأيتم إنسانا يقع في عكرمة، وفي حماد بن سلمة فاتهمه على الإسلام.

وكان أحمد بن حنبل يقول: إذا رأيتم الرجل يغمز حماد بن سلمة، فاتهمه على الإسلام، فإنه كان شديدا على المبتدعة.

وقال الأسود بن سالم: إذا رأيتم الرجل يغمز ابن المبارك فاتهمه على الإسلام؛ اهـ من تهذيب الكمال .

وقال أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني (٤٤٩هـ): وعلامات البدع على أهلها بادية ظاهرة، وأظهر آياتهم وعلاماتهم شدة معاداتهم لحملة أخبار النبي ، واحتقارهم لهم وتسميتهم إياهم حشوية وجهلة وظاهرية ومشبهة؛ انتهى.



الأمر بلزوم الجماعة والاتباع

والنهي عن الفرقة والابتداع

الجماعة: هي جماعة المسلمين، وهم الصحابة والتابعون ومن سار على سيرهم إلى يوم الدين. وسموا بالجماعة لاجتماعهم على الخير والصلاح، والهدى والفلاح، المتمثل في أخذ الكتاب والسنة على فهم صفوة الأمة، ومن سار على سيرهم من الأئمة.

وقد أمر ربنا سبحانه وتعالى بلزوم الجماعة، ونهى عن الفرقة، فقال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٣١] مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [الروم: ٣١-٣٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وحدث رسول الله ﷺ على الجماعة؛ لما فيها من نصرة الدين وظهور الحق المبين، ففي حديث عمر عند الأجرى في الشريعة (٦)، و السنة لابن أبي عاصم (ص ٨٨)، وأحمد (١/ ١٨) أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَنَالَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمْ الْجَمَاعَةَ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الْإِثْنَيْنِ أَبْعَدُ». وبحبوحة الجنة: وسطها كما في النهاية .

وفي حديث الحارث الأشعري عند الترمذي (٢٨٦٣)، قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «وَأَنَا أَمْرُكُمْ بِخَمْسٍ اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: السَّمْعُ، وَالطَّاعَةُ، وَالْجِهَادُ، وَالْهَجْرَةُ، وَالْجَمَاعَةُ؛ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ. وَمَنْ ادَّعَى دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُنَا جَهَنَّمَ». فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،

وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ؟ قَالَ: «وَأِنْ صَلَّى وَصَامَ، فَادْعُوا بِدَعْوَى اللَّهِ الَّذِي سَمَّاهُمْ: الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ».

ولما كانت الجماعة في الأهمية بمكان قال رسول الله : «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ، فَمَاتَ؛ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»، أخرجه مسلم (١٨٤٨) عن أبي هريرة .

وتكمن أهمية الجماعة في كونها محفوظة من الاجتماع على الخطأ بعصمة الكتاب والسنة، قال أبو مسعود : «عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّةً مُحَمَّدٍ عَلَى ضَلَالَةٍ»؛ أخرجه ابن أبي عاصم (٨٥). وجاء مرفوعاً عن ابن عباس أخرجه الحاكم (١/١١٦). والجماعة هي الإسلام الحق، والسنة تدل على ذلك.

أخرج أحمد (٣/٣٩٧) وغيره عن النّوّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ قَالَ: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَيْهِ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفْتَحَتٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَتَفَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ! لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلْجُهُ. وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْأَبْوَابُ الْمَفْتَحَةُ مُحَارِمُ اللَّهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ ، وَالدَّاعِي فَوْقَ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ».

وقال عبد الله بن مسعود كما في الشريعة رقم (١٦): إن هذا الصراط محتضر يحضره الشياطين، ينادون، يا عبد الله هلم هذا الصراط، ليصدوا عن سبيل الله تعالى، فاعتصموا بحبل الله تبارك وتعالى. فإن حبل الله هو كتاب الله جل وعلا.

ولا معرفة للصراط الحق إلا بالعلم النافع الذي هو علم الكتاب والسنة على ما قرره علماء الأمة.

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب النجدي: والعلم هو معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

وقد بين رسول الله أن الخيرة في هذا العلم، ففي الصحيحين البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) عن معاوية قال: قال رسول الله: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ».

وأخرج الآجري رقم (١٩) عن أبي العالية قوله: تعلموا الإسلام، فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم فإنه الإسلام، ولا تحرفوا عن الصراط يميناً ولا شمالاً، وعليكم بسنة نبيكم والذي عليه أصحابه، فإننا قد قرأنا القرآن من قبل أن يفعلوا الذي فعلوه خمس عشرة سنة، وإياكم وهذه الأهواء التي تلقي بين الناس العداوة والبغضاء. فحدثت به الحسن فقال: صدق ونصح. وحدثت به حفصة بنت سيرين، فقالت: أحدثت بهذا محمداً؟ قلت: لا. قالت: فحدثه إذاً.

فالواجب على المسلمين الاعتصام بالكتاب والسنة، ولن يتم ذلك إلا بالبعد عن الافتراق والبدعة، وملازمة الاتباع.

قال الله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣]، لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة. هكذا فسرها السلف.



بيان أن سبب الاختلاف والافتراق هو الأخذ بسنن اليهود والنصارى

مع بيان غيرها من الأسباب

الله هو العالم بالمصالح وأسبابها وأسباب الفساد؛ ولهذا حذر الله من أسباب الضلال، ومن أعظمها موافقة اليهود والنصارى ومشابهتهم، وأخبر الله أن الطريق الحق هو صراطه الذي هو الإسلام، قال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ (الفاتحة: ٦-٧).

والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۝﴾ [النساء: ٦٩].

والمغضوب عليهم هم اليهود، قوم عرفوا الحق وتركوه، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الشرك.

والضالون النصارى، قوم عبدوا الله عن جهل، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الشرك.

ولهذا بين النبي أسباب ضلال هذه الأمة، ومنها ما تقدم. فعن أبي سعيد الخدري، عن النبي قال: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا شِبْرًا، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحَرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ». قلنا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ»؛ رواه البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩).

قال النووي **تَعَالَى: السَّنَنُ بفتح السين والنون وهو الطريق، والمراد بالشبر والذراع وجحر الضب التمثيل بشدة الموافقة لهم، والمراد الموافقة في المعاصي والمخالفات لا في الكفر. اهـ**

وفي البخاري (٧٣١٩) **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَأْخُذَ أُمَّتِي بِأَخْذِ الْقُرُونِ قَبْلَهَا، شَبْرًا بِشِيرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ». فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَفَّارِسَ وَالرُّومِ؟ فَقَالَ: «وَمِنَ النَّاسِ إِلَّا أَوْلَئِكَ؟!».**

قال محمد بن الحسن الآجري **تَعَالَى في الشريعة بعد رقم (٣٥): من تصفح أمر هذه الأمة من عالم عاقل، علم أن أكثرهم والعام منهم تجري أمورهم على سنن أهل الكتابين، كما قال النبي ، أو على سنن كسرى وقيصر، أو على سنن الجاهلية، وذلك مثل السلطنة وأحكامهم في العمال والأمراء وغيرهم، وأمر المصائب والأفراح والمساكن واللباس والحلية، والأكل والشرب والولائم، والمراكب والخدام والمجالس والمجالسة، والبيع والشراء، والمكاسب من جهات كثيرة، وأشباه لما ذكرت يطول شرحها، تجري بينهم على خلاف السنة والكتاب، وإنما تجري بينهم على سنن من قبلنا، كما قال النبي ، والله المستعان.**

ما أقل من يتخلص من البلاء الذي قد عم الناس، وأن يميز هذا: إلا عاقل عالم قد أدبه العلم. اهـ

أقول: هذا في زمنه **تَعَالَى، فكيف لو رأى حال الناس في هذه الأعصار وفي كثير من الأمصار، وقد تسلط الكفار، وقويت شوكتهم، فقلدهم الناس في الملبس والمأكل والمشرب وأمور الدول والجيش والأعاب، فالله المستعان من غربة الزمان،**

ومع ذلك لن يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً يحفظه الله إنجازه لوعده بالطائفة المنصورة والفرقة الناجية.

ومن أسباب الوقوع في الضلال أيضاً اتباع المتشابه من الأدلة لغرض رد الكتاب والسنة بدعوى التعارض، وقد حذرنا رسول الله ﷺ من هذا الصنف كما في حديث عائشة قَالَتْ: تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ»، رواه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥).

وقد ضل المبتدعة في باب الأسماء والصفات، وباب الإيذان باليوم الآخر من هذا الباب، حيث زعموا أن أدلته من باب المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله والصحيح من الأقوال أن آيات وأحاديث الصفات من باب المحكم اليقين الواضح. ومن أسباب الضلال والانحراف عن طريق أهل الحق وعن سبيل السلف: الجدل بالباطل، قال الله ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْأَلْبَابِ﴾ [غافر: ٤]، وفي حديث أبي أمامة قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أَوْتُوا الْجَدَلَ»، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿مَا ضَلَّ صَرَبُهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]. أخرجه الترمذي (٣٢٥٣).

ويدخل في هذا الاختلاف في الكتاب والتخاصم بالباطل، ففي مسلم (٢٦٦٦) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: هَجَرْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، قَالَ:

فَسَمِعَ أَصْوَاتَ رَجُلَيْنِ اخْتَلَفَا فِي آيَةٍ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ يُعْرِفُ فِي وَجْهِهِ الْغَضَبُ، فَقَالَ: «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ».

قال النووي تَعَالَى: المراد بهلاك مَنْ قَبْلَنَا هُنَا هَلَاكِهِمْ فِي الدِّينِ بِكُفْرِهِمْ، وَابْتِدَاعِهِمْ، فَحَذَّرَ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ مِثْلِ فِعْلِهِمْ. اهـ

ومنها: الغلو في الدين، فإنه سبب للهلاك والانحراف عن طريق السلف وطريق الاستقامة إلى طريق الخلف، ففي مسلم (٢٦٧٠) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»، قَالَهَا ثَلَاثًا.

قال النووي تَعَالَى: قَوْلُهُ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»، أَيُّ: الْمُتَعَمِّقُونَ الْغَالُونَ الْمَجَاوِزُونَ الْحُدُودَ فِي أَقْوَاهُمْ وَأَفْعَالِهِمْ. اهـ

والأدلة في النهي عن الغلو كثيرة؛ لما فيه من الهلكة على صاحبه لانقطاعه بعد ذلك، وعلى غيره لأنه سبب لتنفيرهم وصددهم عن الخير. والغلو يكون بالتفريط والإفراط، قال الله: ﴿قُلْ يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ لَا تَعْلَوْا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، وأهل الكتاب يشمل اليهود والنصارى، وكلهم غلا في عيسى عليه السلام، فالنصارى ألوهه، واليهود اتهموه أنه ولد زنا، والله المستعان.

ومن أسباب الهلكة: الفتور عن السنة وعن الطريقة السلفية، ففي حديث عبد الله بن عمرو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «لِكُلِّ عَمَلٍ شَرَّةٌ، وَلِكُلِّ شَرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سِتِّي فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ»، رواه الترمذي (٢٤٥٣)، وأحمد (٢/ ٢١٠) واللفظ له.

ومن أسبابها: علماء السوء وأصحاب الرأي والأقيسة الفاسدة، ففي البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا». وفي رواية للبخاري (٧٣٠٧): «يفتون برأيهم».



هجر أهل البدع

ومن أسباب نجاة الخلق هو اتباع عقيدة السلف وطريقتهم في رد البدع والأهواء، فإن النبي كان يقول: «إِنَّ مِمَّا أَخْشَى عَلَيْكُمْ بَعْثِي بَطُونَكُمْ وَفُرُوجَكُمْ وَمُضِلَّاتِ الْأَهْوَاءِ»، أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب السنة.

وقد اختلفت الأمة وتشعبت فرقا وأحزابا، والحق واحد وهو ما كان عليه رسول الله وأصحابه رضوان الله عليهم، فالواجب على المسلم أن يحتاط لدينه وعلمه، «إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ، فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ»، أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه عن ابن سيرين .

والأصل في هجر المبطلين الباطلين من أهل البدع المخالفين لطريقة وهدى سيد المرسلين ولفهم السلف والتابعين قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وفي حديث عائشة في الصحيحين أن رسول الله تلا هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]، قالت: قال رسول الله : «فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَأَحْذَرُوهُمْ».

وهجر المسلم محرم بالسنة والإجماع، وإنما استثنى منه الهجر لأهل البدع والريب والمعاصي بضوابطها، لما في ذلك من المصلحة الدينية والدنيوية.

فقد هجر النبي ﷺ نساءه كما في البخاري (٨٩)، ومسلم (١٤٧٩) واللفظ لمسلم قال: عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ .

قال الخطابي في معالم السنن (١٢٢/٢): وأما هجران الوالد والولد والزوج والزوجة ومن كان في معنهما فلا يضيق أكثر من ثلاث، وقد هجر النبي ﷺ نساءه شهرًا. اهـ

ويكون الهجر من الإمام والمطاع كما في قصة كعب بن مالك وتخلفه عن غزوة تبوك وقد تقدم.

قال ابن القيم في الزاد (٥٧٨/٣): وفيه دليل على هجران الإمام والعالم والمطاع لمن فعل ما يستوجب العتب، ويكون هجرانه دواء له بحيث لا يضعف عن حصول الشفاء به، ولا يزيد في الكمية والكيفية عليه، إذ المراد تأديبه لا إتلافه؛ انتهى.

وأما هجر أهل البدع والأهواء فإنها دائمة على مر الزمان حتى يتوبوا من بدعتهم ويأوبوا من غيهم، ويراجعوا دينهم وسنة نبيهم التي عاشوا عنها ناكين، ولسبيلها هاجرين ولعهدا ناكين.

وقال النووي في شرح الحديث (١٧/١٠٠): فيه استحباب هجران أهل البدع والمعاصي الظاهرة، وترك السلام عليهم، ومقاطعتهم تحقيرًا لهم وزجرًا. اهـ

وقد نقل إجماع العلماء غير واحد من العلماء في وجوب هجران أهل البدع ومنابذتهم من أراد أن يقف عليها فليراجع كتاب: إجماع العلماء على المهجر والتحذير من أهل الأهواء .

وإليك بعض المواقف الدالة على منابذة السلف لأهل البدع والأهواء:

أخرج الدارمي في مقدمة سننه، واللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة (١١٣٦): عَنْ نَافِعِ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ صَبِيغًا الْعِرَاقِيَّ جَعَلَ يَسْأَلُ عَنْ أَشْيَاءَ مِنَ الْقُرْآنِ فِي أَجْنَادِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى قَدِمَ مِصْرَ فَبَعَثَ بِهِ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَلَمَّا أَتَاهُ الرَّسُولُ بِالْكِتَابِ فَقَرَأَهُ فَقَالَ أَيْنَ الرَّجُلُ قَالَ فِي الرَّحْلِ. قَالَ عُمَرُ: أَبْصُرْ أَيْكُونُ ذَهَبَ فَتُصَيِّكَ مِنْهُ الْعُقُوبَةُ الْمَوْجَعَةُ فَأَتَاهُ بِهِ. فَقَالَ عُمَرُ: تَسْأَلُ مُحَدَّثَةً وَأَرْسَلَ عُمَرُ إِلَى رَطَائِبَ مِنْ جَرِيدٍ فَضْرَبَهُ بِهَا حَتَّى تَرَكَ ظَهْرَهُ دَبْرَةً، ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى بَرَأَ ثُمَّ عَادَ لَهُ، ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى بَرَأَ، فَدَعَا بِهِ لِيَعُودَ لَهُ. قَالَ: فَقَالَ صَبِيغٌ: إِنْ كُنْتُ تُرِيدُ قَتْلِي فَأَقْتُلْنِي قَتْلًا جَمِيلًا وَإِنْ كُنْتُ تُرِيدُ أَنْ تُدَاوِينِي فَقَدْ وَاللَّهِ بَرَأْتُ. فَأَذِنَ لَهُ إِلَى أَرْضِهِ وَكَتَبَ إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ أَنْ لَا يُجَالِسَهُ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الرَّجُلِ فَكَتَبَ أَبُو مُوسَى إِلَى عُمَرَ أَنَّ قَدْ حَسَنْتُ تَوْبَتَهُ فَكَتَبَ عُمَرُ أَنَّ ائْذَنْ لِلنَّاسِ بِمُجَالَسَتِهِ.

وأسانيدها لا تخلو من مقال، لكن يشد بعضها بعضاً. وقد استوعبها الحافظ في الإصابة (١٩٨/٢-١٩٩)، وصحيح بعض أسانيدها، وصححها ابن كثير وشيخنا الحجوري في تحقيقه لمقدمة سنن الدارمي، وغيرهم كثير.

وأخرج البخاري (٥٤٧٩)، ومسلم (١٩٥٤) عن عبد الله بن مغفل أنه رأى رجلاً يخذف فقال له لا تخذف فإن رسول الله كان يكرهه أو قال ينهى عن

الخذف فإنه لا يصطاد به الصيد ولا ينكأ به العدو ولكنه يكسر السن ويفقأ العين؛ ثم رآه بعد ذلك يخذف. فقال له: أخبرك أن رسول الله كان يكره أو ينهى عن الخذف ثم أراك تخذف لا أكلمك كلمة كذا وكذا.

قال النووي في شرح الحديث (١٣/١٠٦): فيه هجران أهل البدع والفسوق ومنابذي السنة مع العلم، وأنه يجوز هجرهم دائماً والنهي عن الهجران فوق ثلاث أيام إنما هو في حق من هجر لحظ نفسه ومعايش الدنيا، وأما أهل البدع ونحوهم فهجرانهم دائماً.

وقال شيخ الإسلام كما في المجموع (٢٨/٢٤-٢٠٥): الهجر على وجه التأديب، وهو هجر من يظهر المنكرات حتى يتوب منها، كما هجر النبي والمسلمون الثلاثة الذين خلفوا حتى أنزل الله توبتهم حين ظهر منهم ترك الجهاد المتعين عليهم بغير عذر، ولم يهجر من أظهر الخير وإن كان منافقاً فهنا الهجر هو بمنزلة التعزير، والتعزير يكون لمن ظهر منه ترك الواجبات وفعل المحرمات كتارك الصلاة والزكاة والتظاهر بالمظالم والفواحش والداعي إلى البدع المخالفة للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة التي ظهر أنها بدع، وهذا حقيقة قول من قال من السلف والأئمة أن الدعاة إلى البدع لا تقبل شهادتهم ولا يصلى خلفهم ولا يؤخذ عنهم العلم ولا يناكحون فهذه عقوبة لهم حتى ينتهوا. ولهذا يفرقون بين الداعية وغير الداعية لأن الداعية أظهر المنكرات فاستحق العقوبة بخلاف الكاتم فإنه ليس شراً من المنافقين الذين كان النبي يقبل علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله مع علمه بحال كثير منهم. اهـ

قال الإمام الآجري في الشريعة (٣/ ٥٧٤): ينبغي لكل من تمسك بما رسمناه في كتابنا هذا، وهو كتاب الشريعة، أن يهجر جميع أهل الأهواء من الخوارج والقدرية والمرجئة والجهمية، وكل من ينسب إلى المعتزلة، وجميع الروافض، وجميع النواصب، وكل من نسبته أئمة المسلمين أنه مبتدع بدعة ضلالة، وصح عنه ذلك، فلا ينبغي أن يكلم ولا يسلم عليه، ولا يجالس ولا يصلى خلفه، ولا يزوج ولا يتزوج إليه من عرفه، ولا يشاركه ولا يعامله ولا يناظره ولا يجادله، بل يذله بالهوان له، وإذا لقيته في طريق أخذت في غيرها إن أمكنك. فإن قال: فلم لا أناظره وأجادله وأرد عليه قوله؟

قيل له: لا يؤمن عليك أن تناظره وتسمع منه كلاما يفسد عليك قلبك ويخدعك بباطله الذي زين له الشيطان فتهلك أنت؛ إلا أن يضطرك الأمر إلى مناظرته وإثبات الحجة عليه بحضرة سلطان أو ما أشبهه لإثبات الحجة عليه، فأما لغير ذلك فلا.

وهذا الذي ذكرته لك فقول من تقدم من أئمة المسلمين، وموافق لسنة رسول الله ، فأما الحجة في هجرتهم بالسنة، فقصة هجرة الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله في الخروج معه في غزاته بغير عذر: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع رحمهم الله تعالى فأمر النبي بهجرتهم، وأن لا يكلموا، وطردهم حتى نزلت توبتهم من الله .

وهكذا قصة حاطب بن أبي بلتعة لما كتب إلى قريش يحذرهم خروج النبي إليهم؛ فأمر النبي بهجرته وطرده، فلما أنزل الله توبته فعاتبه الله تعالى على فعله فتاب عليه، وقول النبي : «أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ».

وضرب عمر بن الخطاب لصبيغ، وبعث إلى أهل البصرة أن لا يجالسوه؛ قال: فلو جاء إلى حلقة ما هي قاموا وتركوه.

والهجر يستخدم إذا كانت فيه مصلحة للسنّة وأهلها، إما إذ لا مصلحة فيه وإنما تحصل منه مفسدة وعزلة للسنّي وظهور للبدعي فهنا يترك حتى تقوى السنّة، وهذه فتوى الإمام الوادعي، والعلامة الحجوري وعليها شيخ الإسلام.

قال كما في المجموع (٢٨/٢٠٦-٢٠٧): وهذا الهجر يختلف باختلاف المهاجرين في قوتهم وضعفهم وقتلهم وكثرتهم، فإن المقصود به زجر المهجور وتأديبه ورجوع العامة عن مثل حاله، فإن كانت المصلحة في ذلك راجحة بحيث يفضي هجره إلى ضعف الشر وخفيته كان مشروعاً وإن كان لا المهجور ولا غيره يرتدع بذلك بل يزيد الشر والمهاجر ضعيف بحيث يكون مفسدة ذلك راجحة على مصلحته لم يشرع الهجر بل يكون التأليف لبعض الناس أنفع من الهجر.

والهجر لبعض الناس أنفع من التأليف ولهذا كان النبي يتألف قوماً ويهجر آخرين. كما أن الثلاثة الذين خلفوا كانوا خيراً من أكثر المؤلفّة قلوبهم لما كان أولئك كانوا سادة مطاعين في عشائرتهم فكانت المصلحة الدينية في تأليف قلوبهم، وهؤلاء كانوا مؤمنين والمؤمنون سواهم كثير فكان في هجرهم عز الدين وتطهيرهم من ذنوبهم.

وهذا كما أن المشروع في العدو القتال تارة والمهادنة تارة وأخذ الجزية تارة كل ذلك بحسب الأحوال والمصالح، وجواب الأئمة كأحمد وغيره في هذا الباب مبني على هذا الأصل ولهذا كان يفرق بين الأماكن التي كثرت فيها البدع كما كثرت القدر في

البصرة والتنجيم بخراسان والتشيع بالكوفة وبين ما ليس كذلك ويفرق بين الأئمة المطاعين وغيرهم.

وإذا عرف مقصود الشريعة سلك في حصوله أوصل الطرق إلى... ولهذا كان يفرق بين الأماكن التي كثرت فيها البدع كما كثر القدرية في البصرة والتجهم بخراسان، والتشيع بالكوفة، وبين ما ليس كذلك، ويفرق بين الأئمة المطاعين وغيرهم، وغذا عرف مقصود الشريعة سلك في حصوله أوصل الطريق إليه.

وانظر إلى حال السلف في هذا الباب فهذا عبد الله ابن عمر كما عند اللالكائي (١١٣٥) من طريق نافع قال: بينما نحن عند عبد الله بن عمر جاءه إنسان فقال: إن فلانا يقرأ عليك السلام لرجل من أهل الشام، فقال ابن عمر: إنه قد بلغني أنه أحدث حدثاً، فإن كان كذلك فلا تقرأن عليه مني سلام؛ وسنده حسن.

وأخرج رقم (١١٤١) من طريق عمرو بن دينار قال: بينا طاووس يطوف بالبيت لقيه معبد الجهني فقال له طاووس: أنت معبد؟ قال: نعم، فالتفت إليهم طاووس فقال: هذا معبد فأهينوه.

وأخرج (١١٤٧) من طريق ابن أبي عاصم قال: قال ابن أبي رواد قد جاءكم ثور فاتقوه، لا ينطحكم بقرنيه يعني ثور بن يزيد، قال الشيخ: وكان قدرياً.

وأخرج (١١٤٨) من طريق محمود بن غيلان: سمعت مؤمل ابن إسماعيل يقول في غير مجلس يقبل علينا أخرج على كل مبتدع جهمي أو رافضي أو قدري أو مرجئ سمع مني، والله لو عرفتمكم ما حدثتكم.

وأخرج (١١٤٩) قول الفضيل بن عياض: من جلس مع صاحب بدعة فاحذره، ومن جلس مع صاحب البدعة لم يعط الحكمة، وأحب أن يكون بيني وبين

صاحب البدعة حصن من حديد. آكل عند اليهودي والنصراني أحب إلي من أن آكل عند صاحب بدعة. اهـ

وما ذلك إلا لأن اليهودي والنصراني معروف شره ولن يُعْتَرَّ به، بينما صاحب البدعة قد يجرك إلى بدعته وأنت لا تشعر.

وأخرج عبد الله بن أحمد في السنة (١٩٦): أن الناس وثبوا على بشر المريسي عند سفيان بن عيينة حتى ضربوه، وقالوا: جهمي، فقال له سفيان: يا دويبة يا دويبة، ألم تسمع الله يقول: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فأخبر الله : أن الخلق غير الأمر.

وأخرج عبد الله بن أحمد في السنة (٦٦) بسند صحيح عن هارون الرشيد أنه قال: بلغني أن بشرًا المريسي يزعم أن القرآن مخلوق، لله علي إن أظفري الله به، إلا قتلتته قتلة ما قتلتها أحدًا قط.

وأخرج بسنده (٤٣٤/٢): عن محمد بن كعب القرظي: أن الفضل الرقاشي قعد إليه فذاكره شيئًا من القدر، فقال له محمد بن كعب القرظي: تشهد، فلما بلغ: فلما بلغ من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، رفع محمد عصا معه فضرب بها رأسه وقال: قم فلما قام، فذهب قال: لا يرجع هذا عن رأيه أبداً.

وأخرج الآجري في الشريعة : بلغ عمر بن عبد العزيز أن غيلان بن مسلم يقول في القدر فبعث إليه فحجبه.

وأخرج الفريابي في القدر (٢٠٦) عن ابن عون قال: كنا جلوسًا في مسجد بني عدي، فدخل معبد الجهني المسجد فقال أبو السوار: ما يدخل هذا مسجدنا، لا تدعوه يجلس إلينا. قال الوادعي في الجامع الصحيح في القدر : أثر صحيح.

وأخرج عبد الله بن أحمد في السنة : عن أبي الزبير أنه كان يطوف مع طاووس بالبيت، فمر بمعبد الجهنني فقال قائل لطاووس هذا معبد الجهنني الذي يقول في القدر فعدل إليه طاووس حتى وقف عليه فقال أنت المفترى على الله القائل ما لا تعلم قال معبد: يكذب علي. قال أبو الزبير: فعدلت مع طاووس حتى دخلنا على ابن عباس. فقال له طاووس يا أبا عباس: الذين يقولون في القدر. فقال ابن عباس: أروني بعضهم. قال قلنا صانع ماذا؟ قال إذا أجعل يدي في رأسه ثم أدق عنقه. قال الوادعي: هذا الأثر سنده حسن.

فهذا باب عظيم لنصرة السنة وأهلها، وهو البراءة والبعد وهجر أهل الأهواء والريب والتميز عنهم، وترى زهد السلف وحرصهم على كل خير ومع ذلك لا تأخذهم في المبتدعة لومة لائم، يغضبون الله ، وينابذون من نابذ الكتاب والسنة. والعجب أن كثيراً من الناس ممن يتقمص القمص السلفي في هذه الأيام تجده سهلاً هيناً ليناً لأهل البدع، بدعوى الرحمة بالمسلمين والشفقة عليهم والحكمة في الدعوة، ما هذا والله إلا من التميع الذي يؤدي إلى زحزحة الدين والسنة، يجاملهم تارة بالابتسامات والمجالسات والمراسلات وإن ذكرهم ذكر محاسنهم وترك مساوئهم، وإن حذر المصلحون من أهل البدع خذلهم.

فلا خير في هذا الصنف ولا كرامة، بل هم والله أضر على الدعوة من المبتدعة؛ لأنهم بصنيعهم هذا يظهرون بالاعتدال والوسطية، وربما اغتر بهم بعض من لا يعرف أصحاب البدعة، فإنا لله وإنا إليه راجعون من الخذلان ومن هذه الأصناف السقيمة المريضة الذين تنكروا لطريقة السلف الصالحين والعلماء الصالحين ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].



في الحُض على لزوم السنة واتباع الأئمة

قال الله : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، والأسوة القدوة، والأسوة ما يتأسى به، أي: يتعزى به فيقتدى به في جميع أفعاله، ويتعزى به في جميع أحواله.

واختلف في هذه الأسوة بالرسول هل هي على الإيجاب أو على الاستحباب؟ على قولين: أحدهما: على الإيجاب حتى يقوم دليل على الاستحباب، والثاني: على الاستحباب حتى يقوم دليل على الإيجاب. ويحتمل أن يحمل على الإيجاب في أمور الدين، وعلى الاستحباب في أمور الدنيا؛ أفاده القرطبي.

والحق أن أمر النبي يدل على الوجوب حتى يصرفه صارف إلى الاستحباب وغيره، ففي حديث أبي هريرة قَالَ: قَالَ: رَسُولَ اللَّهِ : «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»؛ أخرجاه في الصحيحين البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧) واللفظ له.

وفي حديث عائشة في الصحيحين، البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ»، وفي رواية لمسلم: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

قال النووي تعالى: «الرَّدُّ»، هُنَا بِمَعْنَى الْمَرْدُودِ، وَمَعْنَاهُ: فَهُوَ بَاطِلٌ غَيْرُ مُعْتَدٍّ بِهِ.

وَهَذَا الْحَدِيثُ قَاعِدَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ مِنْ جَوَامِعِ كَلِمِهِ فَإِنَّهُ صَرِيحٌ فِي رَدِّ كُلِّ الْبِدْعِ وَالْمُخْتَرَعَاتِ.

وَفِي الرَّوَايَةِ الثَّانِيَةِ زِيَادَةٌ وَهِيَ أَنَّهٗ قَدْ يُعَانِدُ بَعْضُ الْفَاعِلِينَ فِي بَدْعَةٍ سَبَقَ إِلَيْهَا، فَإِذَا أُخْتُجَّ عَلَيْهِ بِالرَّوَايَةِ الْأُولَى يَقُولُ: أَنَا مَا أَحَدَثْتُ شَيْئًا فَيُحْتَجَّ عَلَيْهِ بِالثَّانِيَةِ الَّتِي فِيهَا التَّضَرُّيحُ بِرَدِّ كُلِّ الْمُحَدَّثَاتِ، سِوَاءِ أَحَدَثَهَا الْفَاعِلُ، أَوْ سَبَقَ بِإِحْدَاثِهَا.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ: دَلِيلٌ لِمَنْ يَقُولُ مِنَ الْأُصُولِيِّينَ: إِنَّ النَّهْيَ يَقْتَضِي الْفُسَادَ. وَمَنْ قَالَ: لَا يَقْتَضِي الْفُسَادَ يَقُولُ هَذَا خَبَرٌ وَاحِدٌ، وَلَا يَكْفِي فِي إِثْبَاتِ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ الْمُهَمَّةِ، وَهَذَا جَوَابٌ فَاسِدٌ.

وَهَذَا الْحَدِيثُ مِمَّا يَنْبَغِي حِفْظُهُ وَاسْتِعْمَالُهُ فِي إِبْطَالِ الْمُنْكَرَاتِ، وَإِشَاعَةِ الْإِسْتِدْلَالِ بِهِ. اهـ

والأصل في معنى السنة الطريقة والسيرة، وإذا أطلقت في الشرع فإنما يراد بها ما أمر به النبي ﷺ ونهى عنه وندب إليه قولاً وفعلاً مما لم ينطق به الكتاب العزيز، ولهذا يقال في أدلة الشرع الكتاب والسنة أي القرآن والحديث. قاله ابن الأثير في النهاية .

والسنة ضد البدعة؛ وقد رغب فيها رسول الله ﷺ في كثير من الأحاديث، بل والله سبحانه وتعالى قبل ذلك قال: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

والحكمة هي السنة كما فسرها بذلك أهل التفسير، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، ﴿وَمَاءَ أَنْتُمْ الرُّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَنْهُنَّكُمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُمْ﴾ [الحشر: ٧]، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقد ابتلى الله المسلمين بهذا الأمر وهو اتباع السنة بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقد سمي الله سبحانه وتعالى أصحاب الاتباع والمتمسكين بالسنة مفلحين، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ذَلِكُمْ يَدْعُونَ وَلَوْ لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْكَ الْكِتَابُ لَمْ يَخْلُصْ لَهُمْ لَوْلَا رَأْسُكَ عَلَيْهِمْ مَا اتَّخَذُوا الرَّسُولَ سَرًا لَكِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ولزوم السنة هي السبيل القويم والصراط المستقيم وطريق المتقين، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وغيرها من الآيات في فضل لزوم السنة والجماعة، طريق رسول الله .

وأما الأحاديث فقد حث رسول الله على اتباعه في كثير منها نورد بعضها.

أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي موسى قال: قال رسول الله : «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ فَالْنَّجَاةُ فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَذْجُوا فَأَنْطَلَقُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَنَجَّوْا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَنَحَهُمْ. فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ».

وأخرج الإمام أبو داود وهو في صحيح شيخنا من حديث أبي رافع عن أبيه أن رسول الله قال: «لَا أُفَيِّنُ أَحَدَكُمْ مُتَكِنًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي بِمَا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ لَا نَذْرِي مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ».

وأخرج الإمام أحمد في مسنده وهو في صحيح شيخنا من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله: «إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّتِي، فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، فَقَدْ هَلَكَ».

وأخرج البخاري، عن أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى. قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى».

وقد أخرج البخاري أيضًا من حديث جابر بن عبد الله قال: جَاءَتْ مَلَائِكَةُ إِلَى النَّبِيِّ وَهُوَ نَائِمٌ فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّهُ نَائِمٌ وَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ فَقَالُوا إِنَّ لِصَاحِبِكُمْ هَذَا مَثَلًا فَاضْرِبُوا لَهُ مَثَلًا فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّهُ نَائِمٌ وَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ فَقَالُوا مَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا وَجَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً وَبَعَثَ دَاعِيًا فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وَأَكَلَ مِنَ الْمَأْدُبَةِ وَمَنْ لَمْ يُجِبْ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ الْمَأْدُبَةِ فَقَالُوا أَوَلَوْهَا لَهُ يَفْقَهُهَا فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّهُ نَائِمٌ وَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ فَقَالُوا فَالدَّارُ الْجَنَّةُ وَالدَّاعِيَ مُحَمَّدٌ فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ عَصَى مُحَمَّدًا فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَمُحَمَّدٌ فَرَقٌ بَيْنَ النَّاسِ.

وأخرج أبو داود من حديث العرياض بن سارية وهو في مسند شيخنا تعالى أنه قال: وعظنا رسول الله موعظةً دمت منها العيون ووجلّت منها القلوب فقلنا يا رسول الله إن هذه موعظةٌ مودع فأوصنا، قال: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن كان عبداً حبشياً فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، فتمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة».

وفي رواية: «قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك».

وقد أخرج الإمام مسلم من حديث جابر: «أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة...»، الحديث.

وورد عن السلف كلام كثير في لزوم السنة والجماعة منها ما أخرجه البخاري من قول حذيفة قال: يا معشر القراء استقيموا فقد سبقتكم سبقاً بعيداً فإن أخذتم يميناً وشمالاً لقد ضللتكم ضلالاً بعيداً.

وقال ابن عباس كما في أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦]:

فأما الذين ابيضت وجوههم فأهل السنة والجماعة وأولوا العلم.

وأما الذين اسودت وجوههم فأهل البدع والضلالة.

وما أخرجه البخاري في قصة عمر وعيينة بن حصن وغضب عمر عليه، فلما ذكر بقول الله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وإن هذا من الجاهلين، قال ابن عباس والله ما جاوزها عمر وكان وقافاً عند كتاب الله.

وما أخرجه مسلم في صحيحه عند أن طلبوا من أبي بكر أن يقيم ميراث النبي قال سمعت رسول الله يقول: «لَا تُورَثُ، مَا تَرَكَنَاهُ صَدَقَةٌ»، وإني أخشى إن غيرت أن أزيغ.

وقول ابن مسعود: من سره أن يلقي الله غداً مسلماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادي بهم، فإنه من سنن الهدي، وإن الله شرع لنيكم سنن الهدي، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم؛ أخرجه مسلم.

و السنة دليل القرآن أي المترجمة له والمبينة لمجمله والمخصصة لعامة.

وقد قال الدارمي : باب السنة قاضية على القرآن وساق حديث المقداد بن معد كرب أن رسول الله قال: «يُوشِكُ الرَّجُلُ مُتَكِنًا عَلَى أَرِيكَتِهِ، يُحَدِّثُ بِحَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِي، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ، إِلَّا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ مِنْهُ مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ»، وهذا الحديث ضعيف بهذا الإسناد. الحسن بن جابر مجهول الحال لم يوثقه إلا ابن حبان لكن له شواهد مثل حديث أبي رافع المتقدم وغيره.

وقال يحيى بن أبي كثير : السنة قاضية على القراء، وليس القرآن يفاض على السنة؛ وهذا الأثر إسناده صحيح عند الدارمي.

و السنة والقرآن كلاهما من عند الله فقد قال الله سبحانه وتعالى عن نبيه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

و السنة والقرآن من حيث الحجية سواء إذا صحت السنة لقول الله تعالى: ﴿وَمَا ءَانَكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]، وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

والسنة لا تدرك بالقياس ولا تؤخذ بالعقول:

وإنما هي الاستسلام لله سبحانه وتعالى والانقياد، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وعن أبي هريرة قال: لما نزلت على رسول الله ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَافُكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ، فاتوا رسول الله ، ثم برکوا على الركب فقالوا: أي رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطبق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطبقها.

قال رسول الله : «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا، بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير»، قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في

إِثْرَهَا: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ تَعَالَى فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قَالَ: نَعَمْ، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قَالَ: «نَعَمْ»، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ ﴿قَالَ: «نَعَمْ»، ﴿وَاغْفِرْ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قَالَ: «نَعَمْ»؛ أخرجہ مسلم

وفيه (١٥٤٨) عن رافع بن خديج قال: كنا نحافل الأرض على عهد رسول الله فنكريها بالربع والثلث والطعام المسمى فجاءنا ذات يوم رجل من عمومتي فقال: نهانا رسول الله عن أمر كان لنا نافعاً وطواعية الله ورسوله أنفع لنا، نهانا أن نحافل بالأرض فنكريها بالثلث والربع والطعام المسمى، وأمر رب الأرض أن يزرعها، أو يزرعها، وكره كرائها وما سوى ذلك.

وقد أخرج الإمام أحمد من حديث أبي برزة وله شاهد من حديث أنس أن النبي خطب امرأةً لجليب فتردد الأب والأم فقالت البنت: أتردون على رسول الله أمره ادفعوني إليه. وعند أن نزل تحريم الخمر ما كان من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين إلا أن أجروا الخمر في شوارع المدينة استسلاماً وانقياداً لله ولرسوله .

ولم يكونوا يتأولون لم؟ وكيف؟ وإنما هو استسلام: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ

وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴿[النساء: ٦٥]﴾، فتأمل هذا الحديث الذي أخرجه الشيخان من حديث كعب بن مالك أنه كان يتقاض رجلًا دينًا، فارتفعت أصواتهما في المسجد فقال رسول الله : «يَا كَعْبُ»، قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَشَارَ بِيَدِهِ أَنْ ضَعِ الشَّطْرَ مِنْ دَيْنِكَ، قَالَ كَعْبٌ: قَدْ فَعَلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «قُمْ فَأَقْضِهِ»، وغيرها في الكتاب والسنة كثير ليس هذا محل بسطها وإنما نذكر إشارات.



الفصل الخامس

ملخص طريقة النبي في بقية أركان الإسلام

أخرج مسلم في صحيحه (٨)، عن عمر بن الخطاب قال بينما نحن عند رسول الله ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي فأسند ركبته إلى ركبته ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام. فقال رسول الله: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً». قال: صدقت. قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره». قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». قال: فأخبرني عن الساعة. قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». قال: فأخبرني عن أمارتها. قال: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان». قال: ثم انطلق فلبث ملياً، ثم قال لي: «يا عمر أتدري من السائل؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

وعن ابن عمر عن النبي قال: «بني الإسلام على خمسة، على أن يوحد الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، والحج»، متفق عليه.



بعض أحكام الصلاة

في حديث مالك بن الحويرث عند البخاري (٦٣١): «وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»، والأمر هنا للوجوب.

وأخرج البخاري (٣٩٥) ومسلم (١٢٣٤) عن عمرو بن دينار قال: سألنا ابن عمر عن رجل قدم بعمرة فطاف بالبيت ولم يطف بين الصفا والمروة أيأتي امرأته؟ فقال: قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت سبعا وصلى خلف المقام ركعتين وبين الصفا والمروة سبعا وقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة.

وأخرج مسلم (١٢٣٣)، عن وبرة قال: سأل رجل ابن عمر أطوف بالبيت وقد أحرمت بالحج؟ فقال: وما يمنعك؟ قال إني رأيت ابن فلان يكرهه وأنت أحب إلينا منه؟ قال: رأينا رسول الله ﷺ أحرم بالحج وطاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة، فسنة الله وسنة رسول الله ﷺ أحق أن تتبع من سنة فلان إن كنت صادقا.

وأخرج البخاري (١١٠١) ومسلم (٦٨٩)، عن حفص بن عاصم قال صحبت ابن عمر في طريق مكة قال فصلى لنا الظهر ركعتين ثم أقبل وأقبلنا معه حتى جاء رحله وجلس وجلسنا معه فحانت منه التفاته نحو حيث صلى، فرأى ناسا قياما فقال: ما يصنع هؤلاء؟ قلت: يسبحون. قال: لو كنت مسبحا لأتممت، يا ابن أخي صحبت رسول الله ﷺ في السفر، فلم يزد على ركعتين حتى قبضه الله، وصحبت أبا بكر فلم يزد على ركعتين حتى قبضه الله، ثم صحبت عمر فلم يزد على

ركعتين حتى قبضه الله، ثم صحبت عثمان فلم يزد على ركعتين حتى قبضه الله، وقد قال الله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وأخرج البخاري (٩٩٩) ومسلم (٧٠٠) عن سعيد بن يسار قال: كنت أسير مع عبد الله بطريق مكة، فقال سعيد: فلما خشيت الصبح نزلت فأوترت ثم لحقته فقال عبد الله بن عمر أين كنت؟ فقلت خشيت الصبح فنزلت فأوترت. فقال عبد الله: أليس لك في رسول الله أسوة حسنة؟ فقلت: بلى والله. قال: فإن رسول الله كان يوتر على البعير.

هذا بعض من كل وقليل من كثير أسوقها إليك وأقدمها تحفة بين يديك تجعلها علامة لسيرك وحجة على غيرك فخذ بغرزها تسلم ومن السنة تغنم.

فأول ما يجب على المصلي أن يسبغ الوضوء لحديث أبي هريرة عند البخاري (٦٠) ومسلم (٢٤٢): «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ أَسْبَغُوا الْوُضُوءَ»، وأخرجه مسلم (٢٤١) عن عبد الله بن عمرو.

وفي حديث عبد الله بن عمر عند مسلم (٢٢٤): «لَا تُقْبَلُ صَلَاةٌ بِغَيْرِ طُهُورٍ»، وفي حديث أبي هريرة عندهما البخاري (١٣٥) ومسلم (٢٢٥): «لَا يَقْبَلُ اللَّهُ صَلَاةَ أَحَدِكُمْ إِذَا أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ».

وأركان الوضوء هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ

وَأَيِّدِكُمْ مِّنْهُ ﴿٦﴾ [المائدة:٦]. وهذه الآية مفسرة بفعل النبي فيدخل في غسل الوجه المضمضة والاستنشاق ويدخل في مسح الرأس مسح الأذنين.

فعن عثمان بن عفان أنه دعا بوضوء فتوضأ فغسل كفيه ثلاثاً ثم مضمض واستنثر - وفي حديث عبد الله بن زيد فمضمض واستنشق من كف واحدة فعل ذلك ثلاثاً - ثم غسل وجهه ثلاث مرات ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاث مرات ثم غسل يده اليسرى مثل ذلك - يغسل اليد اليمنى واليسرى حتى يشرع في العضد لحديث أبي هريرة - ثم مسح رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه ثم غسل رجله اليمنى إلى الكعبين ثلاثاً ثم غسل اليسرى مثل ذلك - في حديث أبي هريرة أنه غسل رجله حتى شرع في الساق -.

قال ابن شهاب الزهري وكان علماءنا يقولون هذا الوضوء أسبغ ما يتوضأ به أحد للصلاة.

تنبيه: حديث عبد الله بن زيد المشار إليه أخرجه البخاري (١٨٥) ومسلم (٢٣٥) وحديث أبي هريرة بهذا اللفظ أخرجه مسلم (٢٤٦).

تنبيه آخر: مسح الأذنين يدل عليه حديث ابن عباس وفيه فمسح بأذنيه ظاهرهما وباطنهما؛ أخرجه الترمذي تعالى (١٤٣/١) وهو حديث صحيح.

تنبيه ثالث: يستحب للمتوضأ أن يبالغ في الاستنشاق إلا عند الصوم لحديث لقيط بن صبرة عند الترمذي (٤٩٩/٣) وأبي داود (٤٩٣/٦) والنسائي (٦٦/١): «بَالِغٌ فِي الْإِسْتِنْشَاقِ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ صَائِمًا»، وجاء في بعض طرق هذا الحديث: «إِذَا

تَوَضَّأَتْ فَمَضْمُضٌ»، وهي زيادة محتج بها إن شاء الله وذكرها الشيخ مقبل في الجامع الصحيح (١/ ٥٦٦) ط الآثار.

وأما الاستنشاق والاستنثار فيدل عليه حديث أبي هريرة: «إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَجْعَلْ فِي أَنْفِهِ مَاءً، ثُمَّ لِيَسْتَنْثِرْ»، أخرجه البخاري (١٦٢) ومسلم (٢٣٧)، ويجوز أن يتوضأ مرة مرة ومرتين مرتين وثلاثاً ثلاثاً، وقد بَوَّبَ البخاري على ذلك كله واستدل على الثلاث بحديث عثمان السابق. وعلى الاثنتين بحديث عبد الله بن زيد أن النبي ﷺ توضأ مرتين مرتين. وعلى الواحدة بحديث ابن عباس: أن النبي ﷺ توضأ مرة مرة؛ أخرجه رقم (١٥٧).

تنبيه آخر: يجوز للمتوضأ أن يمسح على الخفين أو ما يقوم مقامهما من الجوارب -التساخين- بشرط أن يدخلهما وهو على طاهرة لحديث المغيرة بن شعبة: فأهويت إلى خفيه لأنزعهما، فقال: «دَعُهُمَا، فَإِنِّي أَدْخَلْتُهُمَا طَاهِرَتَيْنِ»، فمسح عليهما؛ أخرجه البخاري (٢٠٦)، ومسلم (٢٧٤).

ويكون المسح على أعلى الخفين أو الجوربين لحديث علي: لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خفيه؛ أخرجه أبو داود (١/ ٢٧٨).

وهذه من أقوى وأبين الأدلة على أن الروافض ليسوا على طريقة علي وإنما هم على دينهم الباطل القائم على الزندقة والهوى، فهم يمسحون على أرجلهم المكشوفة مع أن المسح إنما يكون على الخفاف وما يقوم مقامها، فتنبه ولا تكن من الضالين.

ومدة المسح للمقيم يوم وليلة، وللمسافر ثلاثة أيام لباليهن، لحديث علي عند مسلم (٢٧٦): جعل رسول الله ﷺ ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر ويوماً وليلة للمقيم.

فإن اغتسل أجزئه الغسل مع النية لحديث ميمونة عند البخاري (٢٧٣) ومسلم (٣١٧)، فعَنْ مَيْمُونَةَ قَالَتْ: وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَضُوءًا لِحَنَابَةِ فَأَكْفَأَ يَمِينَهُ عَلَى شِمَالِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ غَسَلَ فَرْجَهُ، ثُمَّ صَرَبَ يَدَهُ بِالْأَرْضِ أَوْ الْحَائِطِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ مَضَمَضَ وَاسْتَنْشَقَ وَغَسَلَ وَجْهَهُ وَذِرَاعَيْهِ، ثُمَّ أَفَاضَ عَلَى رَأْسِهِ الْمَاءَ، ثُمَّ غَسَلَ جَسَدَهُ، ثُمَّ تَنَحَّى فَغَسَلَ رِجْلَيْهِ. قَالَتْ فَأَتَيْتُهُ بِخِرْقَةٍ فَلَمْ يُرِدْهَا فَجَعَلَ يَنْفُضُ بِيَدِهِ.

تنبيه: إن عجز المتوضئ عن استخدام الماء لفقده أو ما هو في حكمه كعوز الماء وقتله أو خوف التلف من المرض أو زيادته، فإنه يتييم. وصفة التيمم أن يضرب يديه الأرض ثم يمسح وجهه وكفيه، يدل على ذلك حديث عمار بن ياسر : «إنما كان يكفيك أن تضرب بيديك الأرض ثم تنفخ ثم تمسح بهما وجهك وكفيك»، أخرجه البخاري (٣٣٨) ومسلم (٣٨٦)، ويجوز تقديم الوجه أو الكفين.

هذا مختصر لما تستباح به الصلاة من الطهارة التي شرعها الله ﷻ وبينها رسوله ﷺ، فالزم هدى رسول الله ﷺ تسلم وتغنم، ومع ذلك لها فضائل عظيمة يتحصل عليها المؤمنون ففي حديث أبي هريرة عند مسلم (٢٥١): «تَبْلُغُ الْحِلْيَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ، حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ»، وعنه عند مسلم (٢٤٤): «إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ - أَوْ الْمُؤْمِنُ - فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ -، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ

قَطَرِ الْمَاءِ -، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَسَتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطَرِ الْمَاءِ - حَتَّى يُخْرِجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ؛ والحمد لله على إنعامه والشكر له على إحسانه.

ويجوز للمسلم أن يصلي في كل مكان طاهر لحديث جابر : «وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا»، متفق عليه، البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) وأخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد: «الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدٌ إِلَّا الْمَقْبَرَةَ وَالْحَمَامَ»^(١)، الحديث دافع عنه الإمام الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين .

وتجب الصلاة جماعة على الصحيح من أقوال أهل العلم، قال تعالى: ﴿وَأَزْكُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]، ولحديث أبي هريرة : «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَمُرَ بِحَطَبٍ، فَيُحْطَبَ، ثُمَّ أَمُرَ بِالصَّلَاةِ، فَيُؤَذَّنَ لَهَا، ثُمَّ أَمُرَ رَجُلًا فَيُؤَمِّمَ النَّاسَ، ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَى رِجَالٍ، فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ»، أخرجاه البخاري (٦٥٧)، ومسلم (٦٥١)، وفي قول ابن مسعود عند مسلم (٦٥٤): لقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق.... وإن من سنن الهدى الصلاة في المسجد الذي يؤذن فيه.

فمن صلى في بيته لغير ما عذر فقد وقع في الإثم وضيع خيرًا كثيرًا ففي حديث ابن عمر عند البخاري (٦٤٥) ومسلم (٦٥٠): «صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ تَفْضُلُ صَلَاةَ الْفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً».

وللصلاة وقت معلوم لا يجوز تقديمها قبله ولا تأخيرها بعده، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، وأصح حديث في

(١) لأخينا الشيخ الفاضل أبي بشير الحجوري محمد بن علي الزعكري المقتول يوم الثلاثاء ١٩ محرم ١٤٣١ هـ على أيدي البغاة الرافضة، نسأل الله أن يقبله شهيدًا، مبحث في الأماكن التي تبطل فيها الصلاة، يسر الله طبعه.

أوقاتها حديث عبد الله بن عمرو: «وقت صلاة الفجر ما لم يطلع قرن الشمس الأول، ووقت صلاة الظهر إذا زالت الشمس عن بطن السماء ما لم يحضر العصر، ووقت صلاة العصر ما لم تصفر الشمس ويسقط قرنها الأول، ووقت صلاة المغرب إذا غابت الشمس ما لم يسقط الشفق، ووقت صلاة العشاء إلى نصف الليل»، أخرجه مسلم (٦١٢).

واستقبال القبلة شرط في صحة الصلاة؛ قال الله تعالى: ﴿قُولِ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤]، وفي حديث أبي هريرة في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَأَسْبِغِ الوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ فَكَبِّرْ»، أخرجه البخاري (٦٢٥١) ومسلم (٣٩٧).

وفي حديث جابر: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي على راحلته حيث توجهت فإذا أراد الفريضة نزل فاستقبل القبلة، وفي حديث أنس عند البخاري (٣٩٢)، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوهَا، وَصَلُّوا صَلَاتَنَا، وَاسْتَقْبَلُوا قِبْلَتَنَا، وَدَبَّحُوا ذَبِيحَتَنَا، فَقَدْ حُرِّمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ، إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ».

قال النووي في المجموع (١٩٣/٣): استقبال القبلة شرط لصحة الصلاة إلا في الحالين المذكورين - في شدة الخوف وفي النافلة في السفر - على تفصيل، وهذا لا خلاف فيه بين العلماء من حيث الجملة...

ويجب استقبال عين الكعبة لمن كان مشاهداً لها؛ قال ابن عبد البر في التمهيد (٥٤/١٧): أجمع العلماء على أن القبلة التي أمر الله بها نبيه وعباده بالتوجه نحوها في صلاتهم هي الكعبة البيت الحرام بمكة، وأنه فرض على كل من

شاهدها وعاينها استقبلها، وأنه إن ترك استقبالها وهو معاين لها أو عالم بجهتها فلا صلاة له وعليه الإعادة كل ما صلى كذلك. اهـ

وأما من لم ير عين الكعبة فإنه يصلي إلى جهة القبلة، لقوله تعالى: ﴿قُولِ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤]، وهذا قول الجمهور.

ثم عليه أن يصلي قائماً إلا لعذر لقوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، ولقول رسول الله: «صَلِّ قَائِماً، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِداً، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»، أخرجه البخاري (١١١٧) من حديث عمران بن حصين؛ والقيام ركن.

وقبل ذلك النية لحديث عمر قال: قال رسول الله: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، متفق عليه.

ثم يكبر حال قيامه، حال استقبال القبلة، لحديث المسيء صلاته وقد تقدم: «ثُمَّ اسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ فَكَبِّرْ»، ولحديث أبي هريرة: كان رسول الله إذا دخل في الصلاة كبر حين يقوم؛ متفق عليه البخاري (٧٨٩) ومسلم (٣٩٢).

ويسن له مع التكبير أن يرفع يديه إلى حذو منكبيه ويكون الرفع مع التكبير أو قبل التكبير أو بعده لحديث عبد الله بن عمر قال: رأيت رسول الله إذا افتتح الصلاة رفع يديه حتى يحاذي منكبيه، وقبل أن يركع، وإذا رفع رأسه من الركوع، ولا يرفعهما بين السجدين. والرفع في أربعة مواطن هذا أولها، وسيأتي بيان كل موضع في موطنه.

ويكون الرفع إلى حذو المنكبين، وإلى فروع الأذنين، ففي رواية: كان إذا دخل في الصلاة رفع يديه حتى تكون حذو منكبيه ثم كبر؛ أخرجه البخاري (٧٣٦) و

مسلم (٣٩٠)؛ وفي حديث مالك بن الحويرث عندهما: البخاري (٧٣٧) ومسلم (٣٩١): كان رسول الله إذا صلى كبر ثم رفع يديه حتى يحاذي بهما فروع أذنيه.

ويكون رفعهما مدًا إلى جهة القبلة لحديث أبي هريرة : كان رسول الله إذا دخل في الصلاة رفع يديه مدًا؛ أخرجه أبو داود (٤٥٣/٢) والترمذي (٤٣/٢) والنسائي (١٢٤/٢)، وهو في الصحيح المسند.

ثم يضع يده اليمنى على اليسرى في الصلاة؛ يدل على ذلك حديث وائل بن حجر عند مسلم (٤٠١) في وصف صلاة رسول الله وفيه: ثم وضع يده اليمنى على اليسرى.

وعن سهل بن سعد قال: كان الناس يؤمرون أن يضع الرجل اليد اليمنى على ذراعه اليسرى في الصلاة؛ أخرجه البخاري (٤٧٠).

ثم يسكت هنية يدعو بهذا الدعاء الذي أخرجه البخاري (٧٤٤) ومسلم (٥٩٨) عن أبي هريرة ، وهو أصح حديث في دعاء الاستفتاح قال: كان رسول الله إذا كبر في الصلاة سكت هنية قبل أن يقرأ، فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة ما تقول؟ قال: «أقول: اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ، كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ تَقْنِي مِنَ الْخَطَايَا كَمَا يُتَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْ خَطَايَايَ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ». وهناك أدعية أخرى نكتفي بهذا.

ثم يستعيز بالله من الشيطان الرجيم، وهذه الاستعاذة مستحبة على قول جمهور العلماء.

ثم يشرع المصلي في قراءة الفاتحة وجوباً، وقراءة الفاتحة ركن من أركان الصلاة التي تبطل الصلاة بتركها على الإمام والمأموم والمنفرد في كل ركعة لحديث عبادة بن الصامت: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ»؛ أخرجه البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤).

ولحديث أبي هريرة عند الإمام مسلم (٣٩٥): «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ -ثَلَاثًا- غَيْرُ تَمَامٍ».

وفي مسند أحمد (٦٠ / ٥) من حديث رجل من أصحاب النبي قال: قال رسول الله: «لَعَلَّكُمْ تَقْرَءُونَ خَلْفَ الْإِمَامِ، وَالْإِمَامُ يَقْرَأُ؟». قالوا: إنا لنفعل ذلك. قال: «فَلَا تَفْعَلُوا، إِلَّا أَنْ يَقْرَأَ أَحَدُكُمْ بِأَمِّ الْكِتَابِ -أَوْ قَالَ- فَاتِحَةِ الْكِتَابِ»؛ هذا حديث صحيح وهو في جامع الصحيح للإمام الوادعي (١٠٧ / ٢).

وأما حديث: «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة»، فهو حديث معلّ عليه البخاري وغيره، كما في جزء القراءة خلف الإمام، حيث قال (٢٣٥): هذا حديث رواه جماعة من أصحاب أبي حنيفة موصولاً وخالفهم عبد الله بن المبارك فرواه مراسلاً.

قلت: وزد على ذلك أبو حنيفة ضعيف، ثم ساق طرقه وما فيها من العلل.

ويسن الإسرار بالبسملة قبل قراءة الفاتحة لحديث أنس عند الشيخين البخاري (٧٤٣) ومسلم (٣٩٩)، قال: صليت مع رسول الله وأبي بكر وعمر وعثمان فلم أسمع أحداً منهم يقرأ "بسم الله الرحمن الرحيم".

وأما حديث أبي هريرة عند النسائي (١٣٤ / ٢) في الجهر بـ"بسم الله الرحمن الرحيم"، فالحديث إن كان ظاهره الحسن لكن نعيم المجرم شدّ بزيادة البسملة في الحديث. قال الزيلعي في نصب الرواية (٣٣٦ / ١): إنه حديث معلول، فإن ذكر البسملة فيه مما تفرد به نعيم المجرم من بين أصحاب أبي هريرة وهم ثمانمائة ما بين صاحب وتابع ولا يثبت عن ثقة من أصحاب أبي هريرة أنه حدث عن أبي هريرة أنه كان يجهر بالبسملة في الصلاة، وقد أعرض عن ذكر البسملة في حديث أبي هريرة أصحابا الصحيحين؛ انتهى.

ثم يقرأ ما يتيسر من غير الفاتحة، هذا للإمام والمنفرد فقط، أما المأموم في الجهرية لا يقرأ إلا الفاتحة، وفي السرية له أن يقرأ مع الفاتحة ما شاء، قال الله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠]، فعن أبي قتادة قال: كان رسول الله صلى بنا فيقرأ في الظهر والعصر في الركعتين الأولين بفاتحة الكتاب وسورتين؛ أخرجه البخاري (٧٥٩) ومسلم (٤٥١).

ومن لا يحسن الفاتحة يقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، عن ابن أبي أوفى قال: أتى رجل النبي فقال: إني لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئاً، فعلمني شيئاً يُجزئني من القرآن، قال: «سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»، أخرجه أحمد (٨٥٣ / ٤) وغيره من حديث عبد الله بن أبي أوفى، وطرق الحديث في الإرواء للعلامة الألباني تعالى.

تنبيه: المأموم إذا أدرك الركعة ولم يقرأ الفاتحة، الصحيح من أقوال أهل العلم أنه غير مدرك للركعة، لحديث: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ».

وأما حديث أبي بكرة عند البخاري (٧٨٣): «زَادَكَ اللَّهُ حِرْصًا وَلَا تَعُدُّ»، وفيه أنه ركع خلف الصف، فدلالته على هذه المسألة ضعيفة والله أعلم، من حيث قد يقول القائل: لا تعد للركوع خلف الصف، أما الفاتحة فكان معلوماً عند الصحابة قراءتها فلعله أتم الركعة، هذا يقوله من يرى وجوب القرآن. أما أصحاب القول الثاني: فيستدلون به على عدم القراءة، والقاعدة: إذا دخل الدليل الاحتمال بطل الاستدلال، ولا تترك الأدلة الواضحة البينة الجليّة لاحتمال، فتنبه.

ثم يقول الإمام بعد الانتهاء من الفاتحة "آمين" يمد بها صوته، ويقولها معه المأمومون، والتأمين واجب، ففي حديث أبي موسى قال رسول الله : «إِذَا صَلَّيْتُمْ فَأَقِيمُوا صُفُوفَكُمْ ثُمَّ لِيُؤْمَمَّكُمْ أَحَدُكُمْ، فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا، وَإِذَا قَالَ: ﴿عَبْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا أَضْأَلِينَ﴾ فَقُولُوا: آمِينَ، يُجِبْكُمْ اللَّهُ...»؛ الحديث أخرجه مسلم (٤٠٤).

وفي حديث أبي هريرة عند مسلم (٤١٥) وإذا قال: «﴿عَبْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا أَضْأَلِينَ﴾ فَقُولُوا: آمِينَ».

وله عندهما البخاري (٧٨٠) ومسلم (٤١٠): «إِذَا أَمَّنَ الْإِمَامُ فَأَمَّنُوا، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»، وترك التأمين سمة رافضية، وفضيلة التأمين عظيمة، تقدم شيء منها. وفي حديث عائشة عند البخاري في الأدب المفرد (ص ٢٤٢): «مَا حَسَدْتُكُمْ الْيَهُودَ عَلَى شَيْءٍ، مَا حَسَدْتُكُمْ عَلَى السَّلَامِ وَالتَّأْمِينِ».

وأما مد الصوت بها فقد صح عن وائل بن حجر، عند أحمد (٣١٦/٤): كان رسول الله إذا قرأ: «﴿وَلَا أَضْأَلِينَ﴾» [الفاتحة: ٧]، قال: «آمِينَ»، ومد بها صوته. وفي

لفظ له أنه صلى خلف رسول الله ، فجهر بآمين. وأما ما جاء عند أحمد (٣١٦/٤) والطيالسي (ص ١٣٨)، قال آمين وخفض بها صوته؛ فهي رواية شاذة شذ بها شعبة بن الحجاج كما رجح ذلك البخاري وأبو زرعة.

ثم بعد القراءة يشرع في التكبير والانتقال من القيام إلى الركوع، ويسن له أن يرفع يديه عند الركوع لحديث ابن عمر المذكور قبل، وفيه: كان يرفع يديه حذو منكبيه في الصلاة إذا افتتح الصلاة، وإذا كبر للركوع، وإذا رفع رأسه من الركوع.

والركوع ركن، ففي حديث أبي هريرة في قصة المسيء صلاته: «ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمِئَنَ رَاكِعًا». وفي حديث أبي موسى الآنف ذكره: «فَإِذَا كَبَّرَ وَرَكَعَ فَكَبَّرُوا وَارْكَعُوا».

ويهرض ظهره، لحديث أبي حميد عند البخاري (٨٢٨): «وَإِذَا رَكَعَ أَمَكَّنَ يَدَيْهِ مِنْ رُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ هَضَرَ ظَهْرَهُ»، وعند الركوع يضع راحتي يديه على ركبتيه لحديث رفاعة بن رافع عند أبي داود (٨٥٩) أن النبي قال للمسيء صلاته: «وَإِذَا رَكَعْتَ فَضَعْ رَاكِبَتَيْكَ عَلَى رُكْبَتَيْكَ، وَامْدُدْ ظَهْرَكَ»؛ وفي حديث أبي حميد عند ابن خزيمة (٥٨٧) نحوه.

وفي حديث سعد بن أبي وقاص عند البخاري (٧٩٠) ومسلم (٥٣٥) وفيه: قد كنا نفعل هذا -أي التطبيق- وأمرنا أن نضرب بالأكف على الركب.

وأما التطبيق فإنه منسوخ بحديث سعد السابق، والتطبيق هو مذهب عبد الله بن مسعود، وصورته أن يطبق بين يديه ثم يضعهما بين فخذه، الحديث أخرجه مسلم (٥٣٤).

ويقول في الركوع "سبحان ربي العظيم"، لحديث حذيفة عند مسلم (٧٧٢)، وفي حديث ابن عباس: «فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعِظَّمُوا فِيهِ الرَّبَّ»، أخرجه مسلم (٤٧٩). ويقول في الركعة: "سبحان ربي العظيم" ثلاث مرات أو أكثر، وهنالك أذكار أخرى تراجع في مضانها.

ثم يقول حين يرفع رأسه من الركوع "سمع الله لمن حمده"، يقولها الإمام والمنفرد، أما المأموم فلا يقول حين يعتدل قائماً: «رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ: اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجُدِّ مِنْكَ الْجُدُّ»، صح هذا الحديث عن أبي سعيد أخرجه مسلم (٤٧٧)، وجاء بنحوه عن عبد الله بن أبي أوفى عند مسلم (٤٧٦) وفيه بعد قوله: «مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ»، «اللَّهُمَّ طَهِّرْني بِالثَّلْجِ وَالْبَرْدِ، وَالْمَاءِ الْبَارِدِ اللَّهُمَّ طَهِّرْني مِنَ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا، كَمَا يُنْقَى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْوَسَخِ».

وفي حديث أبي موسى عند مسلم (٤٠٤): «وَإِذَا قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ. فَقُولُوا: اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ يَسْمَعُ اللَّهُ لَكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ : سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ»، وفي حديث أبي هريرة عندهما البخاري (٧٩٦) ومسلم (٤٠٩): «إِذَا قَالَ الْإِمَامُ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فَقُولُوا: اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، فَإِنَّهُ مَنْ وَاَفَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ الْمَلَائِكَةِ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

وفي البخاري من حديث رفاعه بن رافع (٧٩٩): كنا يوماً نصلّي وراء النبي ، فلما رفع رأسه من الركعة قال: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ»، قال رجل وراءه: ربنا

ولك الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه. فلما انصرف، قال: «مَنْ الْمُتَكَلِّمُ؟». قال: أنا: قال: «رَأَيْتُ بِضْعَةَ ثَلَاثِينَ مَلَكًا يَبْتَذِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلُ».

تنبيه: رأى حذيفة رجلاً يصلي، لا يتم الركوع والسجود، قال: ما صليت ولو مت، مت على غير الفطرة التي فطر الله محمدًا عليها؛ أخرجه البخاري (٣٨٩).

وكثير من المصلين لا يتمون الركوع ولا السجود والله المستعان. مع أن النبي أمر المسيء صلاته بإعادة الصلاة لعدم إتمامه للركوع والسجود وغيرهما من الأركان، وقال له فيها: «ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا»، وقد تقدم الحديث.

ويجوز الدعاء في الركوع، فإن النبي كان يقول في ركوعه وسجوده «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»، أخرجه البخاري (٧٩٤) ومسلم (٤٨٤) من حديث عائشة .

ويجب عليه عند القيام كما تقدم أن يطمئن قائمًا وهذا القيام ركن؛ لحديث أنس في وصف صلاة النبي ، أخرجه البخاري (٨٢١) ومسلم (٤٧٢)، فكان يصلي، وإذا رفع رأسه من الركوع قام حتى نقول قد نسي، ولحديث المسيء صلاته، ثم يقوم حتى يعتدل قائمًا.

ثم يهوى بعد قيامه ساجدًا، ويقدم يديه في النزول قبل رجليه، لحديث البراء بن عازب أنهم كانوا يصلون خلف رسول الله فإذا رفع رأسه من الركوع لم يكن أحدٌ منا ظهره حتى يضع رسول الله جبهته على الأرض ثم يخر من وراءه سجدًا؛ أخرجه البخاري (٦٩٠) ومسلم (٤٧٤)، وشاهدنا من الحديث أنه لا يحتاج إلى انحناء الظهر إلا عند تقديم اليدين.

وفي حديث أبي هريرة عند أحمد (٢٨١ / ٢) وغيره: «إِذَا سَجَدَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَبْرُكُ كَمَا يَبْرُكُ الْبَعِيرُ، وَلِيَضَعَ يَدَيْهِ قَبْلَ رُكْبَتَيْهِ»، والحديث صحيح وراجع تخريجه من كتاب أصل صفة صلاة النبي للعلامة الألباني (٧٢٠ / ٢). وجاء عن ابن عمر عند الدارقطني (١٣١) وابن خزيمة (٧٦ / ١) والحاكم (٢٢٦ / ١) بلفظ: أَنَّهُ كَانَ: يَضَعُ يَدَيْهِ قَبْلَ رُكْبَتَيْهِ.

ثم يقع بعد ذلك ساجداً، ويجب أن يطمئن في السجود لقول رسول الله للمسيء صلاته: «ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِداً»، والسجود ركن من أركان الصلاة.

ويجب أن يسجد على سبعة أعظم كما في مسلم من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله: «أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظَمٍ عَلَى الْجَبْهَةِ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ عَلَى أَنْفِهِ وَالْيَدَيْنِ وَالرُّكْبَتَيْنِ، وَأَطْرَافِ الْقَدَمَيْنِ»، أخرجه البخاري (٨١٢) ومسلم (٤٩٠).

ويستقبل بأطراف قدميه القبلة لحديث أبي حميد الساعدي عند البخاري (٨٢٨) أنه قال: أنا كنت أحفظكم لصلاة رسول الله رأيته إذا كبر جعل يديه حذاء منكبيه، وإذا ركع مكن يديه من ركبتيه ثم هصر ظهره، فإذا رفع رأسه استوى حتى يعود كل فقار مكانه، فإذا سجد وضع يديه غير مفترش ولا قابضهما واستقبل بأطراف أصابع رجله القبلة، فإذا جلس في الركعتين جلس على رجله اليسرى ونصب الأخرى وقعد على مقعدته.

وعند سجوده يمكن جبهته من الأرض مع بقية الأعضاء حتى تطمئن مفاصله لحديث رفاعه بن رافع عند النسائي (٢٢٥ / ٢)؛ ويضع وجهه بين كفيه لحديث وائل

بن حجر عند مسلم (٤٠١): فلما سجد سجد بين كفيه. وفي لفظ لأحمد (٣١٨/٤) قال: رأيت النبي حين سجد ويديه قريباً من أذنيه.

ويضع أصابعه متجهة إلى القبلة غير فارش ولا قابض لهما لما تقدم من حديث أبي حميد.

ويعتدل في السجود ولا يبسط ذراعيه كانبساط الكلب، أي لا يلصق مرفقه وذراعيه في الأرض، لحديث أنس قال: قال رسول الله: «اعْتَدِلُوا فِي السُّجُودِ، وَلَا يَبْسُطُ أَحَدُكُمْ ذِرَاعَيْهِ انْبِسَاطَ الْكَلْبِ»، أخرجه البخاري (٨٢٢) ومسلم (٤٩٣).

وفي حديث البراء عند مسلم (٤٩٤) قال: قال رسول الله: «إِذَا سَجَدْتَ، فَضَعْ كَفَّيْكَ وَارْفَعْ مِرْفَقَيْكَ».

ويستحب أن يمنح يديه ويجافيها عن جنبه، لحديث عبد الله بن بحينة أن رسول الله كان إذا صلى فرج بين يديه حتى يبدوا بياض إبطيه؛ أخرجه البخاري (٣٩٠) ومسلم (٤٩٥).

وعن ميمونة عند مسلم (٤٩٦)، كان النبي إذا سجد لو شاءت بهمة أن تمر بين يديه لمرت.

ويقول في سجوده «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»، لحديث حذيفة عند مسلم ثم سجد قريباً، من قيامه فجعل يقول: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»، وأقله واحدة.

وله أن يكثر من الدعاء في السجود لما تقدم من حديث ابن عباس: «وَأَمَّا السُّجُودُ، فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنْ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ».

وقد صح عن النبي أنه كان يقول في سجوده: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ دِقَّةً، وَجِلَّةً، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ»، أخرجه مسلم عن أبي هريرة (٤٨٣)؛ وكان يقول: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»، يتأول القرآن؛ أخرجه البخاري (٨١٧) ومسلم (٤٨٤).

وعن عائشة : يقول: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ»، يقولها في ركوعه وسجوده؛ أخرجه مسلم (٤٨٧) من حديث عائشة .

ويستحب أن يضم عقبه في السجود، فعن عائشة عند مسلم (٤٨٦) قالت: فقدت رسول الله ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت بيدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان، وهو يقول: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخِطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ».

ثم يرفع رأسه من السجود، ويقول: "الله أكبر"، ثم يجلس حتى يطمئن جالساً لحديث المسيء صلاته.

يقول في جلوسه بين السجدين: «ربي اغفر لي رب اغفر لي رب اغفر لي»؛ رواه أبو داود (٨٤٧) وابن ماجه (٨٩٧) والنسائي (٢/ ٢٣١). وفي حديث ابن عباس : «رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَارْزُقْنِي، وَاهْدِنِي»، أخرجه أحمد (١/ ٣١٥) وأبو داود (٨٥٠) وسنده حسن، وقد أعله بعضهم بتفرد كامل بن العلاء، وهذه الجلسة يدل عليها أيضاً حديث مالك بن الحويرث عند البخاري (٨١٨)، وفيه: ثم ركع فكبر ثم رفع رأس هنية ثم سجد ثم رفع رأسه هنية. وفي حديث أنس عندهما: البخاري (٨٢١) ومسلم (٤٧٣): ويجلس بين السجدين حتى يقول القائل قد نسي..

ثم يفعل ذلك في صلاته كلها، كما أوضحنا وشرحنا في هذه الوريقات، يدل على ذلك حديث أبي هريرة في المسيء صلاته وفيه: «ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، وَافْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا».

تنبيه: يشرع أن يجلس بين السجدين جلسة إقعاء أحيانًا، لفعل رسول الله ذلك، ففي مسلم من حديث ابن عباس (٥٣٦) قال أبو الزبير سمع طاوسًا يقول: قلنا لابن عباس في الإقعاء على القدمين فقال: هي السنة. فقلنا: إنا لنراه جفاء بالرجل. فقال ابن عباس: بل هي سنة نبيك .

وقد وردت أحاديث في النهي عن الإقعاء لكنها ضعيفة، قال النووي تعالى في شرح مسلم: والصواب الذي لا معدل عنه أن الإقعاء نوعان أحدهما: أن يلصق إتيته بالأرض وينصب ساقيه ويضع يديه على الأرض كإقعاء الكلب، هكذا فسرهُ أبو عبيدة معمر بن المثنى وصاحبه أبو عبيد القاسم بن سلام وآخرون من أهل اللغة، وهذا النوع هو المكروه والذي ورد فيه النهي.

والنوع الثاني أن يجعل إتيته على عقبيه بين السجدين، وهذا هو مراد ابن عباس بقوله: سنة نبيكم ، وقد نص الشافعي على استحبابه في الجلوس بين السجدين. اهـ

ثم تكون له بعد السجدين وعند القيام إلى الركوع جلسة خفيفة تسمى جلسة الاستراحة ليس لها ذكر، يدل على هذه الجلسة حديث مالك بن الحويرث عند البخاري رقم (٨٢٣) ولفظه: أنه رأى رسول الله فإذا كان في وتر من صلاته لم ينهض حتى يستوي قاعدًا، ويكون نهوضه من الجلسة معتمدًا على يديه، لحديث مالك بن الحويرث عند البخاري (٨٢٤): جلس واعتمد على الأرض ثم قام.

وأما العجن فجاء من حديث ابن عمر ولفظه: رأيت رسول الله يعجن في الصلاة، أخرجه الطبراني في الأوسط (٢١٣/٤) وفي سنده الهيثم بن عمران مجهول الحال.

والشهاد الأوسط يكون بعد الركعتين في الصلاة الثلاثية والرابعة وصيغته: «التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ، وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ». متفق عليه، من حديث ابن مسعود عند البخاري (٦٣٢٨) ومسلم (٤٠٢).

ومما يدل على هذا الجلوس حديث عبد الله بن بحنة عند البخاري (٨٢٩) ومسلم (٥٧٠): أن رسول الله صلى بهم الظهر فقام في الركعتين الأوليين لم يجلس، فقام الناس معه حتى إذا قضى الصلاة وانتظر الناس تسليمه كبر وهو جالس، فسجد سجدتين قبل أن يسلم ثم سلم.

ويستحب له أن يضيف إلى التشهد في هذه الجلسة الصلاة على النبي أحياناً، لما جاء عن عائشة عند مسلم (٧٤٦): فيذكر الله فيحمده ويدعوه فإذا قام في التشهاد الأوسط ناسياً، فإنه لا يعود إليه، وإنما يسجد سجدتين قبل السلام يكبر مع كل سجدة ثم يسلم ولا يتشهد، فإذا كان في آخر صلاته تشهد التشهد الأخير. وأصح صيغته، هي صيغة ابن مسعود وقد تقدمت.

ثم بعده يصلي على النبي وصيغتها: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ وَبَارَكْتَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»؛ أخرجه مسلم عن ابن مسعود الأنصاري (٤٠٥).

ثم يتخير بعد ذلك من الدعاء ما شاء لحديث ابن مسعود السابق.

ويقول بعد التشهد: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ»، لحديث أبي هريرة عند مسلم (٥٨٨): «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ»، وذكر الحديث.

وفي حديث عائشة عندهما نحوه، البخاري (٨٣٢) ومسلم (٥٨٩). وفي حديث أبي بكر عند البخاري (٨٣٤) ومسلم (٢٧٠٥) أنه قال: يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي. قال: قل «اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاعْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ».

وأما طريقة الجلوس في التشهدين فيجلس في التشهد الأوسط كما في حديث ابن عمر عند البخاري (٨٢٧): إنما السنة في الصلاة أن تنصب رجلك اليمنى وتثني اليسرى.

وفي حديث مالك بن الحويرث، وقد تقدم، وفيه: فإذا جلس في الركعتين جلس على رجله اليسرى ونصب اليمنى وإذا جلس في الركعة الأخيرة قدم رجله اليسرى ونصب اليمنى وقعد على مقعدته؛ وهذا ما يسمى بالتورك ولا يكون إلا في ثلاثية أو رباعية، أما الثنائية فليس فيها تورك.

وفي حديث عبد الله بن الزبير عند مسلم (٥٧٩): كان رسول الله إذا قعد في الصلاة جعل قدمه اليسرى على فخذه وساقه، وفرش قدمه اليمنى، ووضع يده اليسرى على ركبته اليسرى، ووضع يده اليمنى على فخذه اليمنى، وأشار بأصبعه. وفي لفظ له: وكان إذا قعد يدعو، وضع يده اليمنى على فخذه اليمنى، ويده

اليسرى على فخذه اليسرى، وأشار بأصبعه السبابة ووضع إبهامه على أصبعه الوسطى، ويلقم كفه اليسرى ركبته.

وفي حديث ابن عمر عند مسلم (٥٨٠): كان رسول الله إذا جلس في الصلاة وضع يديه على ركبتيه ورفع إصبعه اليمنى التي تلي الإبهام فدعا بها ويده اليسرى على ركبته اليسرى باسطها عليها. وفي لفظ: ووضع يده اليمنى على ركبته اليمنى وعقد ثلاثة وخمسين وأشار بالسبابة. وفي لفظ: كان إذا جلس في الصلاة وضع كفه اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابعه كلها وأشار بأصبعه التي تلي الإبهام.

ويشار بأصبع واحدة وهي سبابة اليد اليمنى لحديث أبي هريرة عند أبي يعلى (٤٢١/١٠): أن النبي أبصر رجلاً يدعو بأصبعيه جميعاً فنهاه وقال بإحدهما باليمنى.

والإشارة بالأصبع في الصلاة في التشهد سنة لما أخرجه ابن ماجه (٢٩٥/١) عن وائل بن حجر قال: رأيت رسول الله قد حلق الإبهام والوسطى ورفع التي تليها يدعو بها في التشهد

قال الإمام الوادعي تعالى في الجامع لصحيح (١٢١/٢): هذا الحديث يدل على الإشارة بالأصبع، وأما التحريك فقد تفرد به زائدة ابن قدامة وقد خالف أربعة عشر راوياً... ثم ذكرهم .

ثم بعد ذلك يشرع في السلام وصيغته "السلام عليكم ورحمة الله" على اليمين، "السلام عليكم ورحمة الله" على اليسار.

ففي حديث سعد عند مسلم (٥٨٢)، كنت أرى رسول الله يسلم عن يمينه وعن يساره ولا يسلم حتى يسلم الإمام لحديث عتبان عند البخاري (٨٣٨): صلينا مع رسول الله فسلمنا حين سلم.

وفي حديث جابر بن سمرة عند مسلم (٤٣١): كنا إذا صلينا خلف رسول الله قلنا: السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله، وفي لفظ قلنا: السلام عليكم، السلام عليكم.

ومن السنة أن يلتفت حتى يرى بياض خده لما تقدم.

هذا وصف مختصر لصلاة رسول الله مع سوق الدليل على كل فعل وقول، وبقيت أذكار كثيرة تركناها خشية الإطالة، فمن أرادها رجع إلى مضانها كتاب الصلاة، من صحيح البخاري ومن صحيح مسلم ومن صفة الصلاة للألباني وصفة الصلاة من زاد المعاد، والحمد لله رب العالمين.

قصر الصلاة في السفر:

والقصر في السفر ثابت بالكتاب والسنة قال الله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: ١٠١].

وفي حديث عائشة في الصحيحين البخاري (٣٥٠)، ومسلم (٦٨٥): فرضت الصلاة في السفر والحضر ركعتين، ركعتين؛ فأقرت صلاة السفر، وزيد في صلاة الحضر.

وفي حديث أنس في الصحيحين البخاري (١٠٨١)، ومسلم (١٩٣) أن رسول الله مكث بمكة عشرًا يصلي ركعتين.

وابن عمر يقول: صحبت رسول الله في منى وغيرها فكان يصلي ركعتين وأبو بكر كذلك، وعمر ، وسنتين من خلافة عثمان؛ أخرجه مسلم، وفي أحمد (٣٧/١)، والنسائي (١١١/٣)، وابن ماجه (١٠٦٣)، وهو عند غيرهم عن عمر قال: «صَلَاةُ السَّفَرِ رَكْعَتَانِ وَصَلَاةُ الْجُمُعَةِ رَكْعَتَانِ، وَالْفِطْرُ وَالْأَضْحَى رَكْعَتَانِ، تَمَامٌ غَيْرُ قَصْرِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ» .

وفي النسائي (٧٩/١) بسند صحيح كما قال الألباني في حاشيته على سبل السلام (١٠٩/٢) عن أمية بن عبد الله بن أسيد: قَالَ لِابْنِ عُمَرَ: كَيْفَ تَقْصُرُ الصَّلَاةَ، وَإِنَّمَا قَالَ اللَّهُ : ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ﴾ [النساء: ١٠١]، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَتَانَا وَنَحْنُ ضُلَّالٌ فَعَلَّمَنَا، فَكَانَ فِيمَا عَلَّمَنَا أَنَّ اللَّهَ أَمَرَنَا أَنْ نُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ فِي السَّفَرِ» .

وقد اختلف العلماء في حكم هذه المسألة إلى قولين فذهب جمهور العلماء إلى جواز القصر واستحبابه، وذهب جمع من أهل العلم إلى وجوب القصر، وهو الراجح.

تنبيه: حديث عائشة : أن رسول الله كان يقصر في السفر ويتم؛ أخرجه الدارقطني رقم (٤٤)، والبيهقي في الكبرى (١٤٢/٣) وهو حديث ضعيف، وقد ضعفه جمع من أهل العلم وفيه نكارة.

والذي يظهر لي والله أعلم وجوب القصر لملازمة رسول الله وهو القائل: «وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»، أخرجه البخاري (٦٣١).

ويقول الله : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولأنه فرض من الله كما في حديث عائشة ، وأما قول من قال بأنها لم تشهد زمان الفرض فهذا قول ضعيف؛ لأن قول الصحابي فيما لا مجال للرأي فيه له حكم الرفع ولأن مرسل الصحابي حجة إلى غير ذلك من الأجوبة لو أردنا التطويل؛ من صلى من الصحابة تماماً غير قصر فهو كما قال عروة في شأن عائشة تأولت كما تأول عثمان.

ويقصر المسافر إذا كان غير متردد إلى تسعة عشر يوماً لما صح عن ابن عباس عند البخاري (١٠٨٠): عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: أَقَامَ النَّبِيُّ تِسْعَةَ عَشَرَ يَقْصُرُ؛ فَتَحْنُ إِذَا سَافَرْنَا تِسْعَةَ عَشَرَ قَصَرْنَا وَإِنْ زِدْنَا أَتَمَمْنَا.

وأما المتردد، فإنه يقصر مدة بقاءه قال ابن القيم في زاد المعاد (٣/ ٥٦١): أنه أقام بتبوك عشرين يوماً يقصر الصلاة ولم يقل للأمة لا يقصر الرجل الصلاة إذا أقام أكثر من ذلك ولكن اتفقت إقامته هذه المدة وهذه الإقامة في حال السفر لا تخرج عن حكم السفر سواء طالت أو قصرت إذا كان غير مستوطن ولا عازم على الإقامة بذلك الموضع.

قال ابن المنذر في إشرافه : أجمع أهل العلم أن للمسافر أن يقصر ما لم يجمع إقامة وإن أتى عليه سنون. اهـ

والذي يظهر لي والله أعلم أن من نزل منزلاً ولم يعزم الإقامة له أن يقصر تسعة عشر يوماً على ما جاء عن ابن عباس في صحيح البخاري (١٠٨٠): أقام رسول الله تسعة عشر يوماً يقصر بتبوك فنحن إذا أقمنا تسعة عشر قصرنا، وإذا زدنا أتممنا.

وهذا القول اختاره شيخنا يحى حفظه الله في كتاب ضياء السالكين في أحكام وآداب المسافرين هذا في غير المتردد، أما المتردد فعلى ما قاله ابن المنذر تعالى.

وأما مسافة القصر فهي من المسائل التي كما قال الشوكاني تبلدت عندها أذهان الفقهاء، وذلك لما قاله الله : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ولم يأت في الكتاب أو السنة أو حتى آثار الصحابة رضوان الله عليهم دليل صحيح على تحديد مسافة السفر وكل ما جاء أنه قصر على مسافة ثلاثة فراسخ أو حين خرج من المدينة فإن هذا لا إشكال فيه، فالمسافر يشرع في القصر بعد مجاوزة بيوت البلد، وقد بوب البخاري في صحيحه باب يقصر إذا خرج من موضعه، واستدل بحديث أنس في الصحيحين قال: صَلَّيْتُ الظُّهْرَ مَعَ النَّبِيِّ بِالْمَدِينَةِ أَرْبَعًا وَبِذِي الْحُلَيْفَةِ رَكْعَتَيْنِ.

وبوب على المسافة "باب في كم يقصر الصلاة؟"، قال الحافظ في الفتح (٧٢٠ / ٢): يريد بيان المسافة التي إذا أراد المسافر الوصول إليها ساغ له القصر، ولا يسوغ له أقل منها.

وهي من المواضع التي انتشر فيها الخلاف جدًّا، فحكى ابن المنذر فيها أكثر من عشرين قولاً، والظاهر والله أعلم، أن هذه المسألة عائدة إلى العرف؛ فالمسافة التي تعتبر في العرف سفرًا يقصر فيها، وهذا الذي رجحه شيخنا مقبل تعالى، وكذا شيخنا يحى حفظه الله، وهو ترجيح الشوكاني، وقبل ذلك ابن القيم وشيخه.

قال كما في الاختيارات الفقهية : ويجوز قصر الصلاة في كل ما يسمى سفرًا سواء قل أو كثر، ولا يتقرر بمدة وهو مذهب الظاهرية، ونصره صاحب المغني . اهـ

والكلام على هذه المسألة يطول، وليس هذا موطن بسطها، ولكن هذه إشارات يستفيد منها من أراد الله له ذلك، ومن أراد المطولات رجع إلى مضامنها والله أعلم.

صلاة الجنازة:

والصلاة على الجنازة المسلمة واجب كفائي، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين قال النبي: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتُّ»، قِيلَ: مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «إِذَا لَقِيْتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَسَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدَّهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ». الحديث أخرجه مسلم (٢١٦٣) بهذا اللفظ وهو عند البخاري (١٢٤٠) ومسلم بلفظ: «خَمْسٌ».

والتكبير أربع هو المشهور، وقد صحت به عدة أحاديث منها حديث ابن عباس عند البخاري (١٢٤٧)، ومسلم (٩٥٤) قال: مَاتَ إِنْسَانٌ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَعُودُهُ، فَمَاتَ بِاللَّيْلِ فَدَفَنُوهُ لَيْلًا، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَخْبَرُوهُ فَقَالَ: «مَا مَنَعَكُمْ أَنْ تُعَلِّمُونِي؟». قَالُوا: كَانَ اللَّيْلُ فَكَّرْهْنَا وَكَانَتْ ظُلُمَةٌ أَنْ نَشَقَّ عَلَيْكَ، فَأَتَى قَبْرَهُ فَصَلَّى عَلَيْهِ. وزاد مسلم: «فَكَبَّرَ عَلَيْهِ أَرْبَعًا».

وعن جابر في مسلم (٩٥٢): أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى عَلَى أَصْحَمَةَ النِّجَاشِيِّ فَكَبَّرَ عَلَيْهِ أَرْبَعًا. وفي حديث أبي هريرة عند مسلم (٩٥١): فَخَرَجَ بِهِمْ إِلَى الْمَصَلِيِّ وَكَبَّرَ أَرْبَعَ تَكْبِيرَاتٍ.

وأخرج مسلم رقم (٩٥٧) من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: كَانَ زَيْدٌ يَكْبُرُ عَلَى الْجَنَائِزِ أَرْبَعًا، وَإِنَّهُ كَبَّرَ عَلَى جَنَازَةِ خُمْسًا فَسَأَلَتْهُ فَقَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَكْبُرُهَا.

وقد صح عن علي أنه كبر ست تكبيرات على جنازة، وصح عن بعض الصحابة التكبير سبع تكبيرات.

وجاء أنه كبر تسع تكبيرات على حمزة ؛ روى الحديث عبد الله بن الزبير وابن عباس، قال الحافظ في الفتح (٣/٢٥٨): قوله: "باب التكبير على الجنازة أربعاً"، قال الزين بن المنير: أشار بهذه الترجمة إلى أن التكبير لا يزيد على أربع، ولذلك لم يذكر ترجمة أخرى ولا خبراً في الباب، وقد اختلف السلف في ذلك: فروى مسلم عن زيد بن أرقم أنه يكبر خمسا ورفع ذلك إلى النبي ، وروى ابن المنذر عن ابن مسعود أنه صلى على جنازة رجل من بني أسد فكبر خمسا، وروى ابن المنذر وغيره عن علي أنه كان يكبر على أهل بدر ستا وعلى الصحابة خمسا وعلى سائر الناس أربعاً، وروي أيضا بإسناد صحيح عن أبي معبد قال: صليت خلف ابن عباس على جنازة فكبر ثلاثاً.

وسنذكر الاختلاف على أنس في ذلك. قال ابن المنذر: ذهب أكثر أهل العلم إلى أن التكبير أربع، وفيه أقوال آخر، فذكر ما تقدم، قال: وذهب بكر بن عبد الله المزني إلى أنه لا ينقص من ثلاث ولا يزداد على سبع، وقال أحمد مثله، لكن قال: لا ينقص من أربع، وقال ابن مسعود: كبر ما كبر الإمام، قال: والذي نختاره ما ثبت عن عمر، ثم ساق بإسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب قال: كان التكبير أربعاً وخمسا، فجمع عمر الناس على أربع؛ وروى البيهقي بإسناد حسن إلى أبي وائل قال: كانوا يكبرون على عهد رسول الله سبعا وستا وخمسا وأربعاً، فجمع عمر الناس على أربع كأطول الصلاة. اهـ

ويقرأ المصلي في الركعة الأولى فاتحة الكتاب ففي البخاري (١٣٣٥) عن طلحة بن عبد الله قال: صَلَّيْتُ خَلْفَ ابْنِ عَبَّاسٍ عَلَى جَنَازَةٍ فَقَرَأَ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ قَالَ: لِيَعْلَمُوا أَنَّهَا سُنَّةٌ، وفي البيهقي (٤/ ٣٩-٤١) عن رجال من أصحاب النبي في الصلاة على الجنازة: أن يكبر الإمام، ثم يصلي على النبي ، ويخلص الصلاة في التكبيرات الثلاث، ثم يسلم تسليمًا خفيًا حين ينصرف، والسنة أن يفعل من وراءه مثل ما فعل أمامه. اهـ

وأما شهيد المعركة مع الكفار، فالصحيح أنه لا يُصلى عليه؛ لأن النبي لم يصل على شهداء أحد، وكذا لا يغسل، ويكفن في ملابسه التي هي عليه.

صلاة العيدين:

تُصلى العيد ركعتان في المصلي كبقية الصلوات سواء؛ إلا أن فيها زيادة التكبير في الأولى سبع تكبيرات، وفي الثانية خمس تكبيرات، وتكون السبع بتكبيرة الافتتاح على الصحيح، والخمس بغير تكبيرة النهوض. قال ابن قدامة في المغني (٣/ ٢٧١-٢٧٢): قال أبو عبد الله: يكبر في الأولى سبعًا مع تكبيرة الإحرام، ولا يعتد بتكبيرة الركوع؛ لأن بينهما قراءة، ويكبر في الركعة الثانية خمس تكبيرات، ولا يعتد بتكبيرة النهوض، ثم يقرأ في الثانية، ثم يكبر ويركع.

وروي ذلك عن فقهاء المدينة السبعة، وعمر بن عبد العزيز، والزهري، ومالك، والمزني، وروي عن أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وابن عباس، وابن عمر، ويحيى الأنصاري، قالوا: يكبر في الأولى سبعًا وفي الثانية خمسًا.

وبه قال الأوزاعي، والشافعي، وإسحاق، إلا أنهم قالوا: يكبر سبعًا في الأولى سوى تكبيرة الافتتاح؛ لقول عائشة: كان رسول الله يكبر في العيدين اثنتي عشرة تكبيرة سوى تكبيرة الافتتاح.

وروي عن ابن عباس، وأنس، والمغيرة بن شعبة، وسعيد بن المسيب، والنخعي: يكبر سبعا سبعا، وقال أبو حنيفة والثوري: في الأولى والثانية ثلاثاً ثلاثاً.

واحتجوا بحديثي أبي موسى اللذين ذكرناهما، ولنا أحاديث كثيرة، وعبد الله بن عمرو، وعائشة، التي قدمناها.

قال ابن عبد البر: قد روي عن النبي ومن طرق كثيرة حسان: أنه كبر في العيد سبعا في الأولى، وخمسا في الثانية؛ من حديث عبد الله بن عمرو، وابن عمر، وجابر، وعائشة، وأبي واقد، وعمرو بن عوف المزني، ولم يرو عنه من وجه قوي ولا ضعيف خلاف هذا، وهو أولى ما عمل به.

وحديث عائشة المعروف عنها: أن رسول الله كبر في الفطر والأضحى سبعا وخمسا سوى تكبيري الركوع؛ رواه أبو داود، وابن ماجه. وحديث أبي موسى ضعيف، يرويه أبو عائشة جليس لأبي هريرة وهو غير معروف. اهـ

وتكون القراءة بعد التكبيرات. قال ابن قدامة في المغني (٣/ ٢٧٠):
وتكون القراءة بعد التكبير في الركعتين، نص عليه أحمد، وروي ذلك عن أبي هريرة، وفقهاء المدينة السبعة وعمر بن عبد العزيز، والزهري، ومالك، والشافعي، والليث، وقد روي عن أحمد أنه يوالي بين القراءتين، ومعناه: أنه يكبر في الأولى قبل القراءة، وفي الثانية بعدها، اختارها أبو بكر، وروي ذلك عن ابن مسعود، وحذيفة، وأبي موسى، وأبي مسعود البدري والحسن، وابن سيرين، والثوري وهو قول أصحاب الرأي؛ لما روي عن أبي موسى، قال: كان رسول الله يكبر تكبيره على الجنازة، ويوالي بين القراءتين؛ رواه أبو داود.

وروى أبو عائشة، جليس لأبي هريرة: أن سعيد بن العاص سأل أبا موسى وحذيفة: كيف كان رسول الله ﷺ يكبر في الأضحى والفطر؟ فقال أبو موسى: كان يكبر أربعاً تكبيره على الجنائز؛ فقال حذيفة: صدق.

ولنا ما روى كثير بن عبد الله، عن أبيه، عن جده: أن النبي ﷺ كبر في العيدين، في الأولى سبعاً قبل القراءة، وفي الثانية خمساً قبل القراءة؛ رواه الأثرم، وابن ماجه، والترمذي، وقال: هو حديث حسن، وهو أحسن حديث في الباب. وعن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان يكبر في العيدين سبعاً وخمساً قبل القراءة؛ رواه أحمد في المسند .

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال النبي ﷺ: «التَّكْبِيرُ فِي الْفِطْرِ سَبْعٌ فِي الْأُولَى، وَخَمْسٌ فِي الْآخِرَةِ، وَالْقِرَاءَةُ بَعْدَهُمَا كِلْتَاهُمَا»، رواه أبو داود، والأثرم، ورواه ابن ماجه عن سعد مؤذن النبي ﷺ مثل ذلك، وحديث أبي موسى ضعيف، قاله الخطابي، وليس في رواية أبي داود أنه والى بين القراءتين، ثم نحمله على أنه والى بين الفاتحة والسورة، لأن قراءة الركعتين لا يمكن الموالاة بينهما لما بينهما من الركوع والسجود. اهـ يستحب أن يقرأ الإمام في الركعتين ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]، أو سورة (ق) و(القمر)، يدل على ما ذكرنا ما أخرجه مسلم (٨٧٨) عن النعمان بن بشير قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ، وَفِي الْجُمُعَةِ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى، وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ. قَالَ: وَإِذَا اجْتَمَعَ الْعِيدُ وَالْجُمُعَةُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ يَقْرَأُ بِهِمَا أَيْضًا فِي الصَّلَاتَيْنِ.

وما أخرجه رقم (٨٩١) عن عبيد الله بن عبد الله أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي: مَا كَانَ يَقْرَأُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْأَضْحَى وَالْفِطْرِ فَقَالَ: كَانَ يَقْرَأُ فِيهِمَا بِ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ وَ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾.

وفي رواية عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن أبي واقد الليثي قال: سَأَلَنِي
عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَمَّا قَرَأَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي يَوْمِ الْعِيدِ فَقُلْتُ: بِاقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ، وَقَدْ
وَالِقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٢٤/٢١٩): مهما قرأ به جاز، كما
تجوز القراءة في نحوها من الصلوات، لكن إذا قرأ بقاف واقتربت أو نحو ذلك، مما
جاء في الأثر كان حسنا.

ولي رسالة في أحكام صلاة العيدين يسر الله خروجها.

صلاة الاستسقاء:

صلاة الاستسقاء سنة إذا قحطت البلاد واحتاج الناس المطر. وللاستسقاء
ثلاث كفيات واردة عن النبي ﷺ :

الأولى: الدعاء المجرد -أي عن الصلاة-، ولم يكن في خطبة، ودليل هذه
الكيفية حديث عمير مولى أبي اللحم عند أبي داود (١١٦٨)، وفيه أنه رأى النبي ﷺ
يستسقي عند أحجار الزيت قريباً من الزوراء قائماً يدعو يستسقي رافعاً يديه قبل
وجهه لا يجاوز بهما رأسه.

الثانية: الدعاء في خطبة الجمعة، دل على هذه الكيفية: حديث أنس في
الأعرابي الذي دخل والنبي ﷺ يخطب، فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال،
وانقطعت السبل، فادع الله أن يغثنا، فقال: «اللَّهُمَّ اغْثِنَا، اللَّهُمَّ اغْثِنَا، اللَّهُمَّ اغْثِنَا»،
وفي رواية: «اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا»، الحديث متفق عليه أخرجه
البخاري (١٠١٤) ومسلم (٨٧٩).

الكيفية الثالثة: وهي أكمل هذه الكيفيات، وأفضلها، وأتمها؛ لأنها جمعت بين الصلاة، والذكر، والدعاء، والدليل عليها حديث عبد الله بن زيد بن عاصم عبد الله بن زيد، قال: خرج رسول الله ﷺ إلى المصلى، فاستسقى، واستقبل القبلة، وقلب رداءه، وصلى ركعتين؛ متفق عليه البخاري (١٠١٢) ومسلم (١٠٢٧).

وحديث عائشة عند أبي داود (١١٧٣): قالت: شكا الناس إلى رسول الله ﷺ قحوط المطر، فأمر بمنبر، فوضع له في المصلى، ووعد الناس يوماً يخرجون فيه، قالت عائشة: فخرج رسول الله ﷺ حين بدا حاجب الشمس، فقعد على المنبر، فكبر، وحمد الله ﷻ، ثم قال: «إِنَّكُمْ شَكَوْتُمْ جَذْبَ دِيَارِكُمْ، وَأَسْتِخَارَ الْمَطَرِ عَنْ إِبَّانِ زَمَانِهِ عَنْكُمْ، وَقَدْ أَمَرَكُمُ اللَّهُ أَنْ تَدْعُوهُ، وَوَعَدَكُمْ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَكُمْ»، ثم قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْغَنِيُّ وَنَحْنُ الْفُقَرَاءُ، أَنْزِلْ عَلَيْنَا الْغَيْثَ، وَاجْعَلْ مَا أَنْزَلْتَ لَنَا قُوَّةً وَبَلَاءً إِلَى حِينٍ»، ثم رفع يديه، فلم يزل في الرفع حتى بدا بياض إبطيه، ثم حول إلى الناس ظهره، وقلب، أو حول رداءه، وهو رافع يديه، ثم أقبل على الناس، ونزل، فصلى ركعتين، فأنشأ الله سبحانه، فرعدت، وبرقت، ثم أمطرت بإذن الله، فلم يأتي مسجده حتى سألت السيول، فلما رأى سرعتهم إلى الكن، ضحك حتى بدت نواجذه، فقال: «أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ».

أشار إلى هذه الكيفيات النووي في المجموع (٦٨/٥)، وفي شرح مسلم، وابن الملقن في الإعلام، والحافظ في الفتح، وغيرهم. ولي رسالة بعنوان اتحاف النبلاء بأحكام الاستسقاء.

صلاة الكسوف:

صلاة الكسوف تُصلى إذا كسفت الشمس أو خسف القمر وهي واجبة على الصحيح. واختلف العلماء في كيفية صلاة الكسوف إلى أقوال:

الأول: أنه يصلي ركعتين في كل ركعة ركوع واحد كسائر الصلوات، وهذا قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي.

الثاني: أنه يصلي ركعتين في كل ركعة ركوعان على ما جاء في الحديث، وهذا قول أحمد ومالك والشافعي وإسحاق وجمهور العلماء، واختاره ابن القيم وابن تيمية والشوكاني والصنعاني وعليه الفتوى.

الثالث: يصلي ركعتين في كل ركعة ثلاث ركوعات.

الرابع: يصلي ركعتين في كل ركعة أربع ركوعات.

التعليق على شرح العمدة (٨/٣)، شرح السنة (٢/٦٣٩)، و التمهيد (٥/٢٨٩-٢٩٠)، وهذا الاختلاف منهم رحمهم الله تعالى صادر عن تعدد الروايات عن النبي ﷺ في ذلك، وقد تكلف بعض العلماء الجمع بين هذه الروايات تارة يقولون بتعدد الحالة. قلت: وهذا بعيد؛ لأن النبي ﷺ لم يصلها إلا مرة واحدة. وأخرى يقولون بالنظر إلى امتداد الكسوف فإذا امتد زاد في عدد الركوع، وإذا نقص أنقص من عدد الركوع. راجع شرح السنة (٢/٦٤٠).

لكن الكيفية المشهورة والثابتة عن النبي ﷺ هي الكيفية الثانية، وهي أنه يصلي ركعتين في كل ركعة ركوعان على ما جاء في حديث عائشة المتفق عليه، وحديث جابر عند مسلم، وعبد الله بن عمرو، وكذا حديث ابن عباس وغيرهم، وفي

هذه الأحاديث: خسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فقام وكبر وصف الناس وراءه فاقتراً رسول الله ﷺ قراءة طويلة، ثم كبر فركع ركوعاً طويلاً، ثم رفع رأسه فقال: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ»، ثم قام فاقتراً قراءة طويلة أدنى من القراءة الأولى، ثم كبر فركع ركوعاً طويلاً هو أدنى من الركوع الأول، ثم قال: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ»، ثم سجد، ثم فعل في الركعة الأخرى مثل ذلك حتى استكمل أربع ركعات وأربع سجادات.

وما عدى هذه الكيفية من الكيفيات الواردة إما ضعيفة، وإما معلّة كما بين ذلك الحفاظ وأصحاب الشأن.

قال الترمذي في العلل الكبير (١/٢٩٩): قال محمد: يعني ابن إسماعيل البخاري: أصح الروايات عندي في صلاة الكسوف أربع ركعات في أربع سجادات.

وحديث أبي قلابة عن قبيصة الهلالي في صلاة الكسوف يقولون فيه أيضاً أبو قلابة عن رجل عن قبيصة. اهـ

لي رسالة بعنوان الذهب المسبوك في أحكام الكسوف .



بعض أحكام الزكاة

ومن طريقة أهل السنة أداء الزكاة المفروضة لأمر الله تعالى ورسوله بها، وهي الركن الثالث من أركان الإسلام وتؤدي إلى إمام المسلمين إن طلبها وتصرف في مصارفها الشمانية الشرعية.

وتجب الزكاة في عشرة أصناف على الصحيح، في النقدين الذهب والورق - الفضة-، أو ما يقوم مقامهما، ومن الغرائس التمر والزبيب، ومن الحبوب الحنطة والشعير، ومن بهيمة الأنعام البقر والغنم والإبل.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٨/٢٥): وجاء ذكر الزكاة في القرآن مجملًا فينبه الرسول ، وإن بيانه أيضًا من الوحي؛ لأنه سبحانه أنزل عليه الكتاب والحكمة. اهـ

ونقل (١٠/٢٥) عن أبي بكر ابن المنذر قوله: أجمع أهل العلم على أن الزكاة تجب في تسعة أشياء: الإبل والبقر، والغنم، والذهب، والفضة، والبر، والشعر، والتمر، والزبيب، إذا بلغ من كل صنف منها ما تجب فيه الزكاة. اهـ

وقد أمر الله بالزكاة في القرآن، وحث ورغب، وفسرتها السنة قال الله : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وكان فرض الزكاة في مكة وحددت أنصبتها بالمدينة، وأنصبتها على ما بيته السنة، قال رسول الله : «لَيْسَ فِيهَا دُونَ خَمْسَةِ أَوْسُقٍ مِنَ التَّمْرِ صَدَقَةٌ، وَلَيْسَ فِيهَا دُونَ خَمْسِ أَوَاقٍ مِنَ الْوَرِقِ صَدَقَةٌ، وَلَيْسَ فِيهَا دُونَ خَمْسِ ذَوْدٍ مِنَ الْإِبِلِ صَدَقَةٌ»،

أخرجه البخاري (١٤٠٥)، ومسلم (٩٧٩)، من حديث أبي سعيد ، ومن حديث جابر عند مسلم (٩٨٠) بنحوه.

وأخرج مسلم (٩٨١) من حديث جابر أنه سمع رسول الله : «فِيهَا سَقَتْ الْأَنْهَارُ وَالْغَنِمُ الْعُشُورُ وَفِيهَا سُقِيَ بِالسَّائِيَةِ نِصْفُ الْعُشْرِ».

قال النووي في شرح الحديث: وفي هذا الحديث وجوب العشر فيما سقي بهاء السماء والأنهار ونحوها مما ليس فيه مؤنة كثيرة، ونصف العشر فيما سقي بالنواضح وغيرها مما فيه مؤنة كثيرة وهذا متفق عليه. اهـ

فالنصاب خمس أواق، والأوقية أربعون درهماً، فنصاب الفضة مائتي درهم، والدرهم أربعة جرام تقريباً، ونصاب الذهب عشرون ديناراً، فإذا بلغ النصاب وحال عليه الحول يخرج ربع العشر من كل ألف خمسة وعشرين، ونصاب الإبل خمس ذود، فإذا بلغت خمسة ففيها شاة ثم على ما يأتي بيانه. ونصاب البقر خمسة وعشرين، ونصاب الغنم في سئمتها إذا كانت أربعين شاة، ونصاب التمر والحبوب خمسة أوسق والوسق ستون صاعاً فيكون النصاب ثلاثمائة صاع، والصاع أربعة أمداد.

وقد أخرج البخاري (١٤٥٤) وأخرجه أحمد مطولاً (١١/١-١٢) عن أنس وهذا لفظه: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَتَبَ لَهُمْ إِنَّ هَذِهِ فَرَائِضُ الصَّدَقَةِ الَّتِي فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا رَسُولُهُ فَمَنْ سَأَلَهَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ عَلَى وَجْهِهَا فَلْيُعْطِ، وَمَنْ سَأَلَ فَوْقَ ذَلِكَ فَلَا يُعْطِ، فِيمَا دُونَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ مِنَ الْإِبِلِ فِي كُلِّ خَمْسٍ ذَوْدٍ شَاةٌ؛ فَإِذَا بَلَغَتْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ فَفِيهَا بَنْتٌ مُحَاضٍ إِلَى خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ بَنْتٌ مُحَاضٍ فَابْنُ لَبُونٍ ذَكَرٌ، فَإِذَا بَلَغَتْ سِتًّا وَثَلَاثِينَ فَفِيهَا

بُنْتُ لَبُونٍ إِلَى خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ، فَإِذَا بَلَغَتْ سِتَّةً وَأَرْبَعِينَ فَفِيهَا حَقَّةٌ طُرُوقَةُ الْفَحْلِ إِلَى سِتِّينَ، فَإِذَا بَلَغَتْ إِحْدَى وَسِتِّينَ فَفِيهَا جَذَعَةٌ إِلَى خَمْسٍ وَسَبْعِينَ، فَإِذَا بَلَغَتْ سِتًّا وَسَبْعِينَ فَفِيهَا بَنْتَا لَبُونٍ إِلَى تِسْعِينَ، فَإِذَا بَلَغَتْ إِحْدَى وَتِسْعِينَ فَفِيهَا حَقَّتَانِ طُرُوقَتَا الْفَحْلِ إِلَى عِشْرِينَ وَمِائَةٍ، فَإِذَا زَادَتْ عَلَى عِشْرِينَ وَمِائَةٍ فَفِي كُلِّ أَرْبَعِينَ بَنْتَا لَبُونٍ وَفِي كُلِّ خَمْسِينَ حَقَّةٌ، فَإِذَا تَبَايَنَ أَسْنَانُ الْإِبِلِ فِي فَرَائِضِ الصَّدَقَاتِ فَمَنْ بَلَغَتْ عِنْدَهُ صَدَقَةُ الْجَذَعَةِ وَلَيْسَتْ عِنْدَهُ جَذَعَةٌ وَعِنْدَهُ حَقَّةٌ، فَإِنَّهَا تُقْبَلُ مِنْهُ الْحَقَّةُ وَيَجْعَلُ مَعَهَا شَاتَيْنِ إِنْ اسْتَيْسَرَتَا لَهُ أَوْ عِشْرِينَ دِرْهَمًا وَمَنْ بَلَغَتْ عِنْدَهُ صَدَقَةُ الْحَقَّةِ وَلَيْسَتْ عِنْدَهُ حَقَّةٌ وَعِنْدَهُ جَذَعَةٌ، فَإِنَّهَا تُقْبَلُ مِنْهُ وَيُعْطِيهِ الْمَصَدَّقُ عِشْرِينَ دِرْهَمًا أَوْ شَاتَيْنِ إِنْ اسْتَيْسَرَتَا لَهُ، وَمَنْ بَلَغَتْ عِنْدَهُ صَدَقَةُ الْحَقَّةِ وَلَيْسَتْ عِنْدَهُ بَنْتَا لَبُونٍ؛ فَإِنَّهَا تُقْبَلُ مِنْهُ وَيَجْعَلُ مَعَهَا شَاتَيْنِ إِنْ اسْتَيْسَرَتَا لَهُ أَوْ عِشْرِينَ دِرْهَمًا وَمَنْ بَلَغَتْ عِنْدَهُ صَدَقَةُ ابْنَةِ لَبُونٍ وَلَيْسَتْ عِنْدَهُ ابْنَةُ لَبُونٍ وَعِنْدَهُ بَنْتَا لَبُونٍ، فَإِنَّهَا تُقْبَلُ مِنْهُ وَيَجْعَلُ مَعَهَا شَاتَيْنِ إِنْ اسْتَيْسَرَتَا لَهُ أَوْ عِشْرِينَ دِرْهَمًا، وَمَنْ بَلَغَتْ عِنْدَهُ صَدَقَةُ ابْنَةِ مَخَاضٍ وَلَيْسَ عِنْدَهُ ابْنَةُ مَخَاضٍ وَإِلَّا حَقَّةٌ، فَإِنَّهَا تُقْبَلُ مِنْهُ وَيُعْطِيهِ الْمَصَدَّقُ عِشْرِينَ دِرْهَمًا أَوْ شَاتَيْنِ، وَمَنْ بَلَغَتْ عِنْدَهُ صَدَقَةُ ابْنَةِ مَخَاضٍ وَلَيْسَ عِنْدَهُ ابْنَةُ مَخَاضٍ وَإِلَّا ابْنُ لَبُونٍ ذَكَرٌ فَإِنَّهُ يُقْبَلُ مِنْهُ وَلَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ إِلَّا أَرْبَعٌ مِنَ الْإِبِلِ فَلَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبُّهَا وَفِي صَدَقَةِ الْغَنَمِ فِي سَائِمَتِهَا إِذَا كَانَتْ أَرْبَعِينَ فَفِيهَا شَاةٌ إِلَى عِشْرِينَ وَمِائَةٍ، فَإِذَا زَادَتْ وَاحِدَةً فَفِيهَا شَاتَانِ إِلَى مِائَتَيْنِ، فَإِذَا زَادَتْ وَاحِدَةً فَفِيهَا ثَلَاثُ شِيَاهٍ إِلَى ثَلَاثِ مِائَةٍ، فَإِذَا زَادَتْ فِي كُلِّ مِائَةٍ شَاةٌ وَلَا يُؤْخَذُ فِي الصَّدَقَةِ هَرِمَةٌ وَلَا ذَاتُ عَوَارٍ وَلَا تَيْسُ الْغَنَمِ؛ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الْمَصَدَّقُ وَلَا يُجْمَعُ بَيْنَ مُتَفَرِّقٍ وَلَا يُفَرَّقُ بَيْنَ مُجْتَمِعٍ خَشْيَةَ الصَّدَقَةِ وَمَا كَانَ مِنْ خَلِيطَيْنِ فَإِنَّهُمَا يَتَرَا جَعَانِ بَيْنَهُمَا بِالسَّوِيَّةِ فَإِذَا كَانَتْ سَائِمَةُ الرَّجُلِ نَاقِصَةً

مِنْ أَرْبَعِينَ شَاةً وَاحِدَةً فَلَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبُّهَا وَفِي الرَّقَّةِ رُبْعُ الْعُشْرِ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ إِلَّا تِسْعِينَ وَمِائَةً دِرْهَمٍ فَلَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبُّهَا.

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (١٤/٢٥): والحوّل شرط في وجوب الزكاة في العين والماشية كما كان يفعل ذلك النبي ﷺ يبعث عماله على الصدقة كل عام وعمل بذلك الخلفاء في الماشية والعين لما علموه من سنته . اهـ

ويشترط في وجوب الزكاة في البقر والغنم زيادة على ما تقدم: أن تكون سائمة أي: راعية في جميع الحول أو أكثره في الصحاري أو الغابات؛ فإن لم تكن سائمة فلا زكاة فيها، ويزاد في البقر أن تكون معدة للاستفادة من ألبانها ونسلها؛ فإن كانت للحرث والزراعة فلا زكاة فيها.

وأما الفرس فليس فيه زكاة، لقول رسول الله ﷺ: «لَيْسَ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي فَرَسِهِ وَغُلَامِهِ صَدَقَةٌ»، أخرجه البخاري (١٤٦٣)، ومسلم (٩٨٢) عن أبي هريرة .

قال النووي في شرح الحديث: هذا الحديث أصل في أن أموال القنية لا زكاة فيها، وأنه لا زكاة في الخيل والرقائق إذا لم تكن للتجارة، وبهذا قال العلماء كافة من السلف والخلف، إلا أن أبا حنيفة وشيخه حماد بن أبي سليمان ونفرا أوجبوا في الخيل إذا كانت إناثاً، أو ذكورا في كل فرس ديناراً، وإن شاء قومها وأخرج عن كل مائتي درهم خمسة دراهم، وليس لهم حجة في ذلك، وهذا الحديث صريح في الرد عليهم. اهـ

مسألة زكاة عروض التجارة؟

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (١٥/٢٥): وأما العروض التي للتجارة ففيها الزكاة، وقال ابن المنذر: أجمع أهل العلم أن في العروض التي يراد بها

التجارة الزكاة إذا حال عليها الحول، روي ذلك عن عمر وابنه وابن عباس وبه قال الفقهاء السبعة والحسن وجابر بن زيد وميمون بن مهران وطاوس والنخعي والثوري والأوزاعي وأبو حنيفة وأحمد وإسحاق وأبو عبيد وحكي عن مالك وداود: لا زكاة فيها.

وفي سنن أبي داود عن سمرة قال: كان النبي ﷺ يأمرنا أن نخرج الزكاة مما نعهده للبيع، وروي عن حماس قال: مر بي عمر فقال: أد زكاة مالك؟ فقلت: مالي إلا جعاب وأدم، فقال: قومها ثم أد زكاتها، واشتهرت القصة بلا منكر فهي إجماع.

وأما مالك فمذهبه أن التجار على قسمين: متربص ومدير؛ فالمتربص: وهو الذي يشتري السلع ويبتظر بها الأسواق فربما أقامت السلع عنده سنين فهذا عنده لا زكاة عليه، إلا أن يبيع السلعة فيزكيها لعام واحد وحجته أن الزكاة شرعت في الأموال النامية؛ فإذا زكى السلعة كل عام -وقد تكون كاسدة- نقصت عن شرائها فيتضرر؛ فإذا زكيت عند البيع فإن كانت ربحت فالربح كان كامناً فيها فيخرج زكاته ولا يزكي حتى يبيع بنصاب ثم يزكي بعد ذلك ما يبيعه من كثير وقليل، وأما المدير: وهو الذي يبيع السلع في أثناء الحول فلا يستقر بيده، سلعة فهذا يزكي في السنة الجميع يجعل لنفسه شهراً معلوماً يحسب ما بيده من السلع والعين والدين الذي على الميء الثقة ويزكي الجميع هذا إذا كان ينض في يده في أثناء السنة ولو درهم فإن لم يكن يبيع بعين أصلاً فلا زكاة عليه عنده. اهـ

مصارف الزكاة:

ثمانية لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوقِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

ويستحب أن تصرف في البلد لحديث ابن عباس في إرسال رسول الله معاذ إلى اليمن وفيه: «فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُوْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ»، أخرجه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩).

وإن طلبها الإمام تدفع إليه لقول الله : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣]. ولحديث ابن عباس في إرسال رسول الله معاذ إلى اليمن.

وإن قسمها هو وأخرجها لمستحقيها ولم تكن ثم فتنة بعدم دفعها للإمام قسمها في مصارفها الشرعية.

ويجوز أن يقدم صاحب الزكاة زكاته لما أخرج مسلم (٩٨٣) عن أبي هريرة قال: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ عُمَرَ عَلَى الصَّدَقَةِ، فَقِيلَ: مَنَعَ ابْنُ جُمَيْلٍ، وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَالْعَبَّاسُ عَمَّ رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «مَا يَنْقُمُ ابْنُ جُمَيْلٍ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ اللَّهُ، وَأَمَّا خَالِدٌ فَإِنَّكُمْ تَظْلِمُونَ خَالِدًا قَدْ احْتَبَسَ أَدْرَاعَهُ وَأَعْتَادَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَمَّا الْعَبَّاسُ فَهِيَ عَلَيَّ وَمِثْلُهَا مَعَهَا»، ثُمَّ قَالَ: «يَا عُمَرُ أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنُوْ أَبِيهِ».

ومن تعمد ترك الزكاة؛ فإنه لا يكفر إلا إذا جحد وجوبها، والدليل حديث أبي هريرة في مسلم (٩٨٧): «مَا مِنْ صَاحِبٍ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلَّا إِذَا

كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صَفَّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ فَأُحْمِي عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيَكْوَى بِهَا جَنَّهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ، قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: فَالْإِبِلُ؟ قَالَ: «وَلَا صَاحِبُ إِبِلٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا وَمَنْ حَقَّهَا حَلَبُهَا يَوْمَ وَرْدِهَا إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرَقَرٍ أَوْفَرَ مَا كَانَتْ لَا يَفْقِدُ مِنْهَا فَصِيلًا وَاحِدًا تَطْوُهُ بِأَخْفَافِهَا وَتَعَضُّهُ بِأَفْوَاهِهَا كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولَاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أَخْرَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ؟ قَالَ: «وَلَا صَاحِبُ بَقَرٍ وَلَا غَنَمٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا؛ إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرَقَرٍ لَا يَفْقِدُ مِنْهَا شَيْئًا، لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءٌ وَلَا جَلْحَاءٌ وَلَا عَضْبَاءٌ تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطْوُهُ بِأَظْلَافِهَا كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولَاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أَخْرَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ».

والشاهد من الحديث: «فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»، فهذا في حق

المسلم الذي هو تحت المشيئة إن شاء الله عذبه وإن شاء عفا عنه، والله أعلم.



بعض أحكام صيام رمضان

ومن طريقة أهل السنة صيام شهر رمضان من كل عام كما صام رسول الله بعيدا عن الاستحسانات لأمر الله تعالى بذلك ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٨٣) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿[البقرة: ١٨٣-١٨٥]، وتقدم حديث عبد الله بن عمر في بيان أركان الإسلام وفيه: «وَصَوْمُ رَمَضَانَ».

وَعَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدٍ أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثَائِرَ الرَّأْسِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي مَاذَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ؟ فَقَالَ: «الصَّلَوَاتُ الْخُمْسُ إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ شَيْئًا». فَقَالَ: أَخْبِرْنِي مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الصِّيَامِ؟ فَقَالَ: «شَهْرَ رَمَضَانَ إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ شَيْئًا». فَقَالَ: أَخْبِرْنِي بِمَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الزَّكَاةِ؟ فَقَالَ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَالَ: وَالَّذِي أَكْرَمَكَ لَا أَتَطَوَّعُ شَيْئًا وَلَا أَنْقُصُ مِمَّا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ شَيْئًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ أَوْ دَخَلَ الْجَنَّةَ إِنْ صَدَقَ».

فيصومون لدخول الشهر ويعرف دخوله برؤية الهلال أو إكمال عدة شعبان، ففي البخاري (١٩٠٦) ومسلم (١٠٨٠) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

ذَكَرَ رَمَضَانَ فَقَالَ: «لَا تَصُومُوا حَتَّى تَرَوْا الْهَلَالَ وَلَا تُفْطِرُوا حَتَّى تَرَوْهُ فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ فَأَقْدُرُوا لَهُ».

ويثبت هلال شهر رمضان بشهادة عدل واحد، لما روى ابن عمر قال: تراءى الناس الهلال فأخبرت رسول الله أني رأيته، فصام وأمر الناس بصيامه؛ رواه الدارقطني.

ولا يصومون يوم الشك لنهي النبي ، فعن صلة بن زفر: قال كنا عند عمار بن ياسر فأتى بشاة مصلية، فقال: كلوا فتنحى بعض القوم، فقال: إني صائم. فقال عمار: من صام اليوم الذي يشك به الناس فقد عصى أبا القاسم ؛ أخرجه الترمذي (٦٨٦).

وقد نهى النبي عن تقدم رمضان بصوم يوم أو يومين لقدمه ولا بأس بالصيام بعد النصف من شعبان، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ قَالَ: «لَا يَتَقَدَّمَنَّ أَحَدُكُمْ رَمَضَانَ بِصَوْمٍ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ رَجُلٌ كَانَ يَصُومُ صَوْمَهُ فَلْيُصِمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ»، أخرجه البخاري (١٩١٤) ومسلم (١٠٨٢).

وشروط وجوب الصوم أربعة: الإسلام، والبلوغ، والعقل، والقدرة على الصوم حسا وشرعا.

ولا يصح الصوم إلا بنية، لقوله: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَّا نَوَى»؛ متفق عليه.

ويجب الابتعاد عن الزور القولي والفعل، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»، أخرجه البخاري (١٩٠٣).

ويُحِلُّ للرجل في ليله إتيان أهله، فعَنْ الْبَرَاءِ قَالَ: كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ إِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَائِمًا فَحَضَرَ الْإِفْطَارُ فَنَامَ قَبْلَ أَنْ يُفْطِرَ لَمْ يَأْكُلْ لَيْلَتَهُ وَلَا يَوْمَهُ حَتَّى يُمِيسِيَ. وَإِنْ قَيْسَ بْنِ صِرْمَةَ الْأَنْصَارِيِّ كَانَ صَائِمًا فَلَمَّا حَضَرَ الْإِفْطَارُ أَتَى امْرَأَتَهُ فَقَالَ لَهَا أَعِنْدَكَ طَعَامٌ قَالَتْ: لَا وَلَكِنْ أَنْطَلِقُ فَأَطْلُبُ لَكَ، وَكَانَ يَوْمَهُ يَعْمَلُ فَعَلَبْتُهُ عَيْنَاهُ فَجَاءَتْهُ امْرَأَتُهُ فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: خِيْبَةٌ لَكَ. فَلَمَّا انْتَصَفَ النَّهَارُ غُشِيَ عَلَيْهِ فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فَفَرَحُوا بِهَا فَرَحًا شَدِيدًا، وَنَزَلَتْ ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٩١٥).

وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، عَمَدْتُ إِلَى عِقَالٍ أَسْوَدَ وَإِلَى عِقَالٍ أَبْيَضَ فَجَعَلْتُهَا تَحْتَ وَسَادَتِي فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ فِي اللَّيْلِ فَلَا يَسْتَبِينُ لِي فَعَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ فَذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ فَقَالَ: «إِنَّمَا ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ»؛ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٩١٦).

ويجوز الأكل والشرب في الليل أجمع حتى يطلع الفجر؛ فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ أُنْزِلَتْ ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وَلَمْ يَنْزَلْ ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فَكَانَ رِجَالٌ إِذَا أَرَادُوا الصَّوْمَ رَبَطَ أَحَدُهُمْ فِي رِجْلِهِ الْخَيْطَ الْأَبْيَضَ وَالْخَيْطَ الْأَسْوَدَ وَلَمْ يَزَلْ يَأْكُلُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ رُؤْيَاهُمَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ بَعْدُ ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فَعَلِمُوا أَنَّهُ إِنَّمَا يَعْنِي اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ.

ويستحب السحور لبركته ولمخالفة أهل الكتاب؛ فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ : «تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَهً»، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٩٢٣).

والسنة تأخيرهُ وتعجيل الفطور، فعَنْ أَنَسٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ تَسَحَّرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ثُمَّ قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ قُلْتُ: كَمْ كَانَ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالسَّحُورِ؟ قَالَ قَدَرُ خَمْسِينَ آيَةً؛ متفق عليه.

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ»، أخرجه البخاري (١٩٥٧).

ومن طلع عليه الفجر وهو جنب أو احتلم في الصوم فلا شيء عليه إلا الغسل إن قدر عليه أو التيمم عند العجز، فعن عائشة وأم سلمة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ كَانَ يُدْرِكُهُ الْفَجْرُ وَهُوَ جُنُبٌ مِنْ أَهْلِهِ ثُمَّ يَغْتَسِلُ وَيَصُومُ؛ متفق عليه.

ومن أكل أو شرب ناسيا فلا شيء عليه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ قَالَ: «إِذَا نَسِيَ فَأَكَلَ وَشَرِبَ فَلْيُسِّمْ صَوْمَهُ فَإِنَّمَا أَطْعَمَهُ اللَّهُ وَسَقَاهُ»، متفق عليه.

ومن جامع في نهار رمضان فسد صومه ووجبت عليه الكفارة، ففي الحديث أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكْتُ. قَالَ: «مَا لَكَ؟». قَالَ وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي وَأَنَا صَائِمٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تُعْتِقُهَا؟». قَالَ لَا. قَالَ: «فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟». قَالَ لَا. فَقَالَ: «فَهَلْ تَجِدُ إِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا؟». قَالَ لَا. قَالَ فَمَكَثَ النَّبِيُّ فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ، أَتَى النَّبِيَّ بِعَرَقٍ فِيهَا تَمْرٌ وَالْعَرَقُ الْمِكْتَلُ قَالَ: «أَيْنَ السَّائِلُ؟». فَقَالَ: أَنَا. قَالَ: «خُذْهَا فَتَصَدَّقْ بِهِ». فَقَالَ الرَّجُلُ أَعَلَى أَفْقَرِ مِنِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَوَاللَّهِ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا يُرِيدُ الْحَرَّتَيْنِ أَهْلُ بَيْتِ أَفْقَرٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي. فَضَحِكَ النَّبِيُّ حَتَّى بَدَتْ أَنْيَابُهُ ثُمَّ قَالَ: «أَطْعِمْنَاهُ أَهْلَكَ»؛ متفق عليه.

وينتهي رمضان برؤية هلال شوال أو إكمال العدة ثلاثين يوما ويكون عيد الناس مع إمامهم.

والصوم في السفر من شاء صام ومن شاء أفطر، في حديث أنس قال: كُنَّا نُسَافِرُ مَعَ النَّبِيِّ ؛ فَلَمْ يَعِْبِ الصَّائِمُ عَلَى الْمُفْطِرِ، وَلَا الْمُفْطِرُ عَلَى الصَّائِمِ؛ متفق عليه البخاري (١٩٤٧)، ومسلم (١١١٨). وعن عائشة مثله، أخرجه مسلم. وفي حديث أبي سعيد عند مسلم (١١١٧): غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ لَيْسَتْ عَشْرَةٌ مَضَتْ مِنْ رَمَضَانَ؛ فَمِنَّا مَنْ صَامَ وَمِنَّا مَنْ أَفْطَرَ؛ فَلَمْ يَعِْبِ الصَّائِمُ عَلَى الْمُفْطِرِ، وَلَا الْمُفْطِرُ عَلَى الصَّائِمِ.

وقد قال الله : ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، ويجوز الصيام لمن وجد من نفسه القدرة.

ففي حديث عائشة أَنَّ حَمْزَةَ بْنَ عَمْرِو الْأَسْلَمِيِّ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي رَجُلٌ أَسْرُدُ الصَّوْمَ، أَفَأَصُومُ فِي السَّفَرِ؟ قَالَ: «صُمْ، إِنْ شِئْتَ، وَأَفْطِرْ إِنْ شِئْتَ»؛ أخرجه البخاري (١٩٤٣)، ومسلم (١١٢١).

وعند مسلم (١١٢١) عن حمزة بن عمرو الأسلمي أنه قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَجِدُ فِي قُوَّةٍ عَلَى الصَّيَامِ فِي السَّفَرِ؛ فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «هِيَ رُخْصَةٌ مِنْ اللَّهِ؛ فَمَنْ أَخَذَ بِهَا فَحَسَنٌ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَصُومَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ».

وأما من خشي على نفسه الضرر ففي حديث جابر قال: قال رسول الله : «لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ»، أخرجه البخاري (١٩٤٦)، ومسلم (١١١٥).

وفي حديث أبي سعيد في شأن من لم يفطر للقاء العدو قال: «أُولَئِكَ الْعُصَاةُ، أُولَئِكَ الْعُصَاةُ»، أخرجه مسلم (١١١٤).

قال شيخ الإسلام (٢٥ / ٢٠٩): فأما السفر الذي تقصر فيه الصلاة؛ فإنه يجوز فيه الفطر مع القضاء باتفاق الأئمة، ويجوز الفطر للمسافر باتفاق الأمة سواء كان قادراً على الصيام أو عاجزاً، وسواء شق عليه الصوم أو لم يشق بحيث لو كان مسافراً في الظل والماء ومعه من يخدمه جاز له الفطر والقصر، ومن قال: إن الفطر لا يجوز إلا لمن عجز عن الصيام فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل. اهـ

قيام رمضان:

يُشرع قيام الليل في جميع السنة في رمضان أو غيره، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «أَفْضَلُ الصَّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللَّهِ الْمُحَرَّمُ وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ صَلَاةُ اللَّيْلِ»، أخرجه مسلم (١١٦٣).

يأخذى عشر ركعة، وأحياناً بثلاثة عشر ركعة للأحاديث الواردة، عن رسول الله من فعله.

فقد أخرج البخاري (١١٤٧) ومسلم (٧٣٨) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (ما كان رسول الله يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشر ركعة يصلي أربع عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربع لا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاث، فقلت: يا رسول الله، تنام قبل أن توتر؟ فقال: «يا عائشة إن عيني تنامان ولا ينام قلبي»، وفي رواية لها: كان يصلي ثلاثة عشر ركعة.

وجاء من حديث بن عباس رضي الله عنه: أنه صلى ثلاثة عشر ركعة، وجاء من حديث زيد بن خالد: أنها ثلاثة عشر ركعة فيهن ركعتين خفيفتين، فلا بأس بهذا وهذا وشاهدنا هو أن يصلي الليل، كما كان يفعل رسول الله .

ويتفرع من هذه السنة سنة قيام رمضان، وهي ما تسمى بصلاة التراويح، وقد رغب رسول الله ﷺ في هذه الصلاة فقال كما في حديث أبي هريرة: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»، الحديث متفق عليه.

وقد وردت أحاديث عن رسول الله ﷺ أنه صلى في المسجد فصلى ناس بصلاته، فلما كان من الليلة الثانية كثروا، وصلى بهم رسول الله ﷺ، فلما كان من الليلة الرابعة لم يخرج وقال: «أما بعد فإنه لم يخف علي شأنكم الليلة، ولكن خشيت أن تفرض عليكم صلاة الليل فتعجزوا عنها».

والشاهد: أن رسول الله ﷺ صلى بالناس في رمضان، في المسجد ورغب في قيام رمضان، وإنما ترك الصلاة في المسجد لعله أن تفرض عليهم الصلاة، فيعجزوا أما وقد زالت العلة فصلاة التراويح مشروعة وسنة عن رسول الله ﷺ وليست بدعة، كما قال ذلك الشيعة وغيرهم من أهل الأهواء.

راجع لذلك رسالة قيام الليل للعلامة الألباني، وكذلك صلاة التراويح وكلاهما مطبوع، وكذلك رسالة المعلمي رحمه الله ﷺ في قيام رمضان وهي مطبوعة.

إلا أن صلاة القيام في البيت أفضل سواءً في رمضان أو غيره، وهذا ما كان يفتي به الشيخ مقبل رحمه الله ﷺ استدلالاً بحديث زيد بن ثابت في الصحيحين: «صلوا أيها الناس في بيوتكم، فإن أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة». والحديث قاله رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم في سياق صلاة التراويح فتنبه: والفرق بين قول الشيخ رحمه الله وقول الشيعة أن الشيعة يرون صلاة التراويح بدعة، والشيخ يرى السنة والصلاة في البيت أفضل.

وقال المعلمي رحمه الله كما في رسالته قيام رمضان وأكمل القيام أن يكون:

١- إحدى عشر ركعة.

٢- أن تكون في الثلث الأخير من الليل.

٣- أن تطول فيها القراءة.

٤- أن تكون في البيت ^(١).

وأفضلية الصلاة في البيت هو اختيار ابن عمر رضي الله عنه، والإمام مالك، وربيعة بن عبد الرحمن، وسالم، ونافع.

وقال أبو يوسف: من قدر على أن يصلي في بيته كما يصلي مع الإمام في رمضان، فأحب إليّ أن يصلي في بيته.

واختلف أصحاب الشافعي عليه وذلك أنه قال: فأما قيام رمضان فصلاة المنفرد أحب إليّ منه.

وقال أبو العباس بن سريج، وأبو إسحاق المروزي من أصحاب الشافعي: صلاة التراويح جماعة أفضل من الإنفراد، لإجماع الصحابة على ذلك، لأن عمر جمع الناس على أبيّ، فكان يصلي عشرين ليلة، وإجماع الأعصار عليه ^(٢).

(١) وقوله: أن تكون في البيت. فيه نظر؛ لأنها صارت من الشعائر المخالفة لأهل البدع؛ ولأن النبي صلى بهم جماعة ولم يترك ذلك إلا خشية فرضها عليهم، والآن قد انقطع الوحي من السماء، فلا نخاف فرضها؛ ولأن النبي يقول: «من صلى مع الإمام حتى ينصرف فله قيام ليلة»، فدل على أن صلاتها جماعة أفضل، وهو قول الجمهور؛ (الشيخ يحيى).

(٢) الحوادث والبدع للطرطوشي (٥٣-٥٤).

قلت والمسألة خلافية بين أهل السنة، والجماعة، وإنما الباطل أن يُقال بأن صلاة التراويح بدعة.

قال القحطاني:

وصيامنا رمضان فرض واجب	وقيامنا المسنون في رمضان
صلى النبي به ثلاثا رغبة	وروى الجماعة أنها ثنتان
إن التراويح راحة في ليلة	ونشاط كل عويجز كسلان
والله ما جعل التراويح منكرا	إلا المجوس وشيعة الصلبان



بعض أحكام الحج والعمرة

فرضية الحج:

قال الله تعالى ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].

وقال ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ يَبَيِّنُ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧].

وقد تقدم حديث جبريل وفيه فرضية الحج وهو في العمر مرة عن أبي هريرة قال خطبنا رسول الله فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ، فَحُجُّوا». فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثا فقال رسول الله: «لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ» ثم قال: «ذُرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ»؛ أخرجه مسلم (١٣٣٧).

وجوب العمرة:

والعمرة واجبة على الصحيح ففي أبي داود (١٨١٠) عن أبي رزين قال حفص في حديثه رجل من بني عامر أنه قال: يا رسول الله إن أبي شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الطعن. قال: «احْجُجْ عَنْ أَبِيكَ وَاعْتَمِرْ».

أنواع النسك:

النسك ثلاثة أنواع وهي التمتع والإفراد والقران وصورتها على النحو التالي:

التمتع: أن يحرم بالعمرة وحدها في أشهر الحج، فإذا وصل مكة طاف وسعى للعمرة وحلق أو قصر، فإذا كان يوم التروية وهو اليوم الثامن من ذي الحجة أحرم بالحج وحده وأتى بجميع أفعاله.

الإفراد: أن يحرم بالحج وحده، فإذا وصل مكة طاف للقدوم ثم سعى للحج، ولا يحلق ولا يقصر، ولا يحل من إحرامه بل يبقى محرماً حتى يحل بعد رمي جمرة العقبة يوم العيد، وإن أخر سعي الحج إلى ما بعد طواف الحج فلا بأس.

القران: أن يحرم بالعمرة والحج جميعاً، أو يحرم بالعمرة أولاً ثم يدخل الحج عليها قبل الشروع في طوافها، وعمل القارن كعمل المفرد سواء، إلا أن القارن عليه هدي والمفرد لا هدي عليه.

وأفضل هذه الأنواع التمتع، لأن النبي ﷺ أمر به أصحابه وحثهم عليه، بل أمرهم أن يحولوا نية الحج إلى العمرة من أجل التمتع.

فعن ابن عباس أنه سُئِلَ عن متعة الحج؟ فقال: أهل المهاجرون والأنصار وأزواج النبي ﷺ في حجة الوداع وأهللنا، فلما قدمنا مكة قال النبي ﷺ: «اجْعَلُوا إِهْلَاكَكُمْ بِالْحَجِّ عُمْرَةً، إِلَّا مَنْ قَلَدَ الْهَدْيَ»، فَطَفْنَا بِالْبَيْتِ وَبِالصَّفَا وَالْمَرَّةِ وَأَتَيْنَا النِّسَاءَ وَلَبَسْنَا الثِّيَابَ؛ رواه البخاري.

وعن جابر قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ مُهْلِينَ بِالْحَجِّ، معنا النساء والولدان، فلما قدمنا مكة طَفْنَا بِالْبَيْتِ وَبِالصَّفَا وَالْمَرَّةِ، فقال لنا رسول الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ هَدْيٌ فَلْيَحْلِلْ»، قال: قلنا: أي الحل؟! قال: «الْحُلُّ كُلُّهُ». قال: فأتينا النساء، ولَبَسْنَا الثِّيَابَ وَمَسَسْنَا الطَّيْبَ، فلما كان يومُ التَّروِيَةِ أَهْلَلْنَا بِالْحَجِّ؛ رواه مسلم.

وفي رواية له قال: قام فينا رسول الله فقال: «قَدْ عَلِمْتُمْ أَيَّ أَتَقَاكُمْ اللَّهُ وَأَصْدَقُكُمْ وَأَبْرَكُكُمْ، وَلَوْلَا هُدْيِي لَحَلَلْتُ كَمَا تَحْلُون، وَلَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ لَمْ أَشَقِ الْهُدْيَ، فَحَلُّوا»، فَحَلَلْنَا وَسَمِعْنَا وَأَطَعْنَا.

مواقيت الحج:

أخرج البخاري (١٥٢٦) ومسلم (١١٨١) عن ابن عباس قال: وقت رسول الله لأهل المدينة ذا الحليفة، ولأهل الشام الجحفة، ولأهل نجد قرن المنازل، ولأهل اليمن يلملم، فهن هن ولمن أتى عليهن من غير أهلهن، لمن كان يريد الحج والعمرة فمن كان دونهن فمهله من أهله وكذلك حتى أهل مكة يهلون منها.

وفي البخاري (١٥٣١) عن ابن عمر قال: لما فتح هذان المصران أتوا عمر فقالوا يا أمير المؤمنين إن رسول الله حد لأهل نجد قرنا وهو جور عن طريقنا وإننا أردنا قرنا شق علينا. قال: فانظروا حدوها من طريقكم فحد لهم ذات عرق.

قال الشنقيطي في أضواء البيان (٢٤/٥): اعلم أن الحج له ميقات زماني: وهو المذكور في قوله تعالى ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٧] الآية، وهي: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة. وقيل: وذو الحجة مع الإجماع على فوات الحج بعدم الوقوف بعرفة قبل الفجر من ليلة النحر. وميقات مكاني، والمواقيت المكانية خمسة، أربعة منها بتوقيت النبي ، بلا خلاف بين العلماء، لثبوت ذلك في الصحيحين وغيرهما عنه ، وواحد يختلف فيه هل وقته النبي ، أو وقته عمر .

أما الأربعة المجمع على نقلها عن النبي فهي: ذو الحليفة، وهو ميقات أهل المدينة، والجحفة وهي: ميقات أهل الشام، وقرن المنازل وهو: ميقات أهل نجد،

ويلملم وهي ميقات أهل اليمن، أخرج توقيت هذه المواقيت الأربعة الشيخان في صحيحيهما، عن ابن عباس، وابن عمر إلا أن ابن عمر لم يسمع من النبي توقيت يلملم لأهل اليمن، بل سمعه من غيره ، وهو مرسل صحابي، والاحتجاج بمراسيل الصحابة معروف، أما ابن عباس فقد سمع منه المواقيت الأربعة المذكورة.

فتحصل: أن ذا الحليفة، والجحفة، وقرن المنازل اتفق الشيخان على إخراج توقيتها عن النبي ، من حديث ابن عمر وابن عباس. وأن يلملم اتفقا أيضًا على إخراج توقيتيه عنهما معًا، إلا أن ابن عباس سمعه من النبي ، وابن عمر سمعه من غيره، كما أوضحناه وذو الحليفة هو المسمى الآن بآبار علي، وقرن المنازل هو المسمى الآن: بالسيل. والجحفة خراب الآن، والناس يحرمون من رابغ، وهو قبلها بقليل وهو موضع معروف قديمًا وفيه قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

ولما أجزنا الميل من بطن رابغ بدت نارها قمراء للمتثور

وأما الميقات الخامس الذي اختلف العلماء فيه، هل وقته رسول الله ، أو وقته عمر بن الخطاب ، فهو: ذات عرق لأهل العراق، فقال بعض أهل العلم. توقيت ذات عرق، لأهل العراق من النبي ، وقال بعضهم: هو بتوقيت عمر ، هو الذي قطع به الغزالي، والرافعي في شرح المسند، والنووي في شرح مسلم، وكذا وقع في المدونة لمالك وصحح الحنفية، والحنابلة، وجمهور الشافعية، والرافعي في الشرح الصغير، والنووي في شرح المذهب: أنه منصوص. انتهى محل الغرض من فتح الباري.

وقال النووي في شرح مسلم في الكلام على ميقات ذات عرق: واختلف العلماء، هل صارت ميقاتهم بتوقيت النبي ، أم باجتهاد عمر بن الخطاب ؟ وفي المسألة وجهان لأصحاب الشافعي أصحهما، وهو نص الشافعي في الأم : بتوقيت عمر ؛ انتهى.

استحباب الغسل للمحرم:

أخرج البزار كما في كشف الأستار (١١ / ٢) عن ابن عمر قال: من السنة أن يغتسل الرجل إذا أراد أن يحرم.

استحباب الطيب للمحرم:

أخرج مسلم (١١٩٢) عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر عن أبيه قال: سألت عبد الله بن عمر عن الرجل يتطيب ثم يصبح محرماً؟ فقال ما أحب أن أصبح محرماً أنضح طيباً لأن أطي بقطران أحب إلي من أن أفعل ذلك. فدخلت على عائشة فأخبرتها أن ابن عمر قال: ما أحب أن أصبح محرماً أنضح طيباً لأن أطي بقطران أحب إلي من أن أفعل ذلك. فقالت عائشة: أنا طيبت رسول الله عند إحرامه ثم طاف في نسائه ثم أصبح محرماً.

ولس عليه شيء إذا استمر الطيب معه، ما لم يحدث طيباً وهو محرماً، ففي البخاري (١٥٣٨) ومسلم (١١٩٠) عن عائشة قالت: كآني أنظر إلى وبيص المسك في مفرق رسول الله وهو محرماً.

ما يترك المحرم من اللباس:

أخرج البخاري (٥٨٠٣)، ومسلم (١١٧٧)، عن ابن عمر أن رجلاً سأل رسول الله ما يلبس المحرم من الثياب؟ فقال رسول الله: «لَا تَلْبَسُوا الْقُمُصَّ، وَلَا الْعِمَائِمَ، وَلَا السَّرَاوِيلَاتِ، وَلَا الْبِرَانِسَ، وَلَا الْخِفَافَ، إِلَّا أَحَدٌ لَا يَجِدُ النَّعْلَيْنِ فَلْيَلْبَسْ خُفَّيْنِ، وَلْيَقْطَعْهُمَا أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ، وَلَا تَلْبَسُوا مِنَ الثِّيَابِ شَيْئًا مَسَّهُ زَعْفَرَانٌ وَلَا الْوَرُسُ».

قال النووي: قال العلماء هذا من بديع الكلام وجزله فإنه سئل عما يلبسه المحرم فقال: لا يلبس كذا وكذا؛ فحصل بالجواب أنه لا يلبس المذكورات ويلبس ما سوى ذلك وكان التصريح بما لا يلبس أولى لأنه منحصر، وأما الملبوس الجائز للمحرم فغير منحصر، فضبط الجميع بقوله لا يلبس كذا وكذا يعني ويلبس ما سواه.

قال ابن المنذر: أجمع أهل العلم على أن المحرم ممنوع من لبس القمص والعمائم والسراويلات والخفاف والبرانس. والأصل في هذا ما روى ابن عمر - وذكر الحديث السابق - نص النبي على هذه الأشياء وألحق بها أهل العلم ما في معناها مثل الجبة والدراعة والثياب وما أشبه ذلك، فليس للمحرم ستر بدنه بما عمل على قدره ولا ستر عضو من أعضائه بما عمل على قدره كالقميص للبدن والسراويل لبعض البدن والقفازين لليدين والخفين للرجلين ونحو ذلك وليس في هذا كله اختلاف. قال ابن عبد البر: لا يجوز لباس شيء من المخيط عند جميع أهل العلم وأجموا على أن المراد بهذا الذكور دون النساء؛ انتهى من المغني (٣/ ٢٧٥).

تنبيه: قطع الخفين منسوخ بحديث ابن عباس عند مسلم (١١٧٨) قال سمعت رسول الله وهو يخطب يقول: «السَّراويلُ، لِمَنْ لَمْ يَجِدِ الْإِزَارَ وَالْخُفَّانِ، لِمَنْ لَمْ يَجِدِ النَّعْلَيْنِ»، يعني المحرم. وجاء عنده عن جابر نحوه.

الإهلال إذا ركب دابته:

أخرج مسلم (١١٨٧) عن عبيد بن جريح أنه قال لعبد الله ابن عمر : يا أبا عبد الرحمن رأيته تصنع أربعاً لم أر أحداً من أصحابك يصنعها قال ما هن؟ يا ابن جريح قال رأيته لا تمس من الأركان إلا اليمينين ورأيته تلبس النعال السبتية ورأيته تصبغ بالصفرة ورأيته إذا كنت بمكة أهل الناس إذا رأوا الهلال ولم تهلل أنت حتى يكون يوم التروية. فقال عبد الله بن عمر أما الأركان فإني لم أر رسول الله يمس إلا اليمينين وأما النعال السبتية فإني رأيته رسول الله يلبس النعال التي ليس فيها شعر ويتوضأ فيها فأنا أحب أن ألبسها وأما الصفرة فإني رأيته رسول الله يصبغ بها فأنا أحب أن أصبغ بها وأما الإهلال فإني لم أر رسول الله يهل حتى تنبعث به راحلته.

تنبيه: ليس للإحرام صلاة مخصوصة لكن أهل النبي بعد الصلاة، فإن صلى الضحى، أو الفرض، أو غير ذلك، كان موافقاً للسنة.

التلبية:

وصورة التلبية ما أخرجه البخاري (١٥٤٩) ومسلم (١١٨٤) عن عبد الله بن عمر أن تلبية رسول الله : «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنَّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكُ، لَا شَرِيكَ لَكَ».

أخرج الترمذي (٨٢٩) عن السائب بن خلاد عن أبيه قال: قال رسول الله : «أَتَانِي جِبْرِيلُ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَمُرَ أَصْحَابِي أَنْ يَرْفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالْإِهْلَالِ وَالتَّلْبِيَةِ».

وأخرج (٨٢٨) عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله : «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُلَبِّي إِلَّا لَبَّى مَنْ عَنْ يَمِينِهِ، أَوْ عَنْ شِمَالِهِ مِنْ حَجَرٍ، أَوْ شَجَرٍ، أَوْ مَدَرٍ، حَتَّى تَنْقَطِعَ الْأَرْضُ مِنْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا».

التلبية إلى أن يستلم الحجر الأسود:

ويستحب للمحرم أن يلبي المحرم حتي يستلم الحجر أو ما يقوم مقام الاستلام من لمس أو إشارة، ففي المصنف لابن أبي شيبة عن حجاج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال اعتمر النبي ثلاث عمر كل ذلك لا يقطع التلبية حتى يستلم الحجر. هذا حديث ضعيف، في سنده حجاج بن أرطاة ضعيف ومدلس، لكن هو في الشواهد.

وعن ابن عباس أنه قال المعتمر يمسك عن التلبية إذا استلم الحجر والحاج إذا رمى الجمرة؛ أخرجه ابن أبي شيبة وسنده صحيح.

الطواف والسعي:

يطوف بالبيت سبعا من الحجر إلى الحجر فيستلم الحجر الأسود بيده اليمنى ويُقْبَلُهُ إِنْ تيسَّرَ لَهُ ذَلِكَ، يَفْعَلُ ذَلِكَ تَعْظِيمًا لِلَّهِ ، واقتداءً برسول الله لا اعتقادًا أَنَّ الْحَجَرَ يَنْفَعُ أَوْ يُضُرُّ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ لِلَّهِ .

وعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن كان يُقبَّل الحجر ويقول: إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك؛ رواه الجماعة.

فإن لم يتيسر له التقبيل، استلمه بيده وقبلها، ففي الصحيحين من حديث ابن عمر أنه استلم الحجر بيده ثم قبل يده، وقال: ما تركته منذ رأيت النبي يفعله.

فإن لم يتيسر له استلامه بيده فلا يزاحم، لأن الزحام يؤذيه، ويؤذي غيره، وربما حصل به الضرر، ويذهب الخشوع، ويخرج بالطواف عما شرع من أجله من التعب لله، وربما حصل به لغو وجدال، ومقاتلة.

ويكفي أن يُشير إليه بيده ولو من بعيد، وفي البخاري من حديث ابن عباس أن النبي طاف بالبيت على بعير، كلما أتى على الركن أشار إليه. وفي رواية: أشار إليه بشيء كان عنده وكبر.

ثم يأخذ ذات اليمين، ويجعل البيت على يساره، فإذا وصل الركن اليماني استلمه إن تيسر له بدون تقبيل فإن لم يتيسر له فلا يزاحم.

ولا يستلم من البيت سوى الحجر الأسود والركن اليماني؛ لأنها كانا على قواعد إبراهيم، ولأن النبي لم يستلم سواهما.

وروى الإمام أحمد عن مجاهد عن ابن عباس أنه طاف مع معاوية بالبيت، فجعل معاوية يستلم الأركان كلها، فقال ابن عباس: لم تستلم هذين الركنين ولم يكن رسول الله يستلمهما؟ فقال معاوية: ليس شيء من البيت مهجورًا. فقال

ابن عباس: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فقال معاوية: صدقت.

وكَلَّمَا مَرَّ بِالْحَجَرِ الْأَسْوَدِ فَعَلَ مَا سَبَقَ وَكَبَّرَ وَيَقُولُ فِي بَقِيَّةِ طَوَافِهِ مَا أَحَبُّ مِنْ ذِكْرٍ وَدُعَاءٍ وَقِرَاءَةٍ، فَإِنَّمَا جُعِلَ الطَّوْفُ بِالْبَيْتِ وَبِالصَّفَا وَالْمَرَّةِ وَرَمَى الْجِمَارِ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ.

والسنة للرجل في هذا الطواف -أعني الطواف أول ما يقدم-، أن يضطبع في جميع طوافه ويرمل في الأشواط الثلاثة الأولى منه، دون الأربعة الباقية.

فأما الاضطباع فهو أن يُبرز كتفه الأيمن، فيجعل وسط رداءه تحت إبطه وطرفه على كتفه الأيسر.

وأما الرَّمْلُ فهو: إسراعُ المشي مع مُقَارَبَةِ الخُطَا، ويدل عليه ما أخرجه مسلم (١٢٦٣) عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله رمل الثلاثة أطواف من الحجر إلى الحجر.

والطواف سبعة أشواط، يتدّىء من الحجر الأسود وينتهي به. ولا يصح الطواف من داخل الحجر.

فإذا أتم سبعة أشواط، تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، ثم صلى ركعتين خلفه قريباً منه إن تيسر، وإلا فبعيداً، يقرأ في الأولى بعد الفاتحة: ﴿قُلْ يَتَّأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، وفي الثانية بعد الفاتحة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، ثم يرجع إلى الحجر الأسود فيستلمه إن تيسر له، وإلا فلا يشير إليه.

ثم يخرج إلى المسعى ليسعى، فإذا دنا من الصفا قرأ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]، ولا يقرأها في غير هذا الموضع.

ثم يرقى على الصفا حتى يرى الكعبة، فيستقبلها ويرفع يديه فيحمد الله ويدعو بما شاء أن يدعو، وكان من دعاء النبي ﷺ هنا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ أَنْجَزَ وَعَدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ»، يكرر ذلك ثلاث مرات، ويدعو بينها.

ثم ينزل من الصفا إلى المروة ماشياً حتى يصل إلى العمود الأخضر؛ فإذا وصله، أسرع إسراعاً شديداً بقدر ما يستطيع إن تيسر له بلا أذية، حتى يصل العمود الأخضر الثاني، ثم يمشي على عادته حتى يصل المروة، فيرقى عليها ويستقبل القبلة، ويرفع يديه ويقول ما قاله على الصفا.

ثم ينزل من المروة إلى الصفا يمشي في موضع مشيه، ويسرع في موضع إسراعه، فيرقى على الصفا، ويستقبل القبلة ويرفع يديه ويقول مثل ما سبق في أول مرة، ويقول في بقية سعيه ما أحب من ذكر وقراءة ودعاء.

والصعود على الصفا والمروة، والسعي الشديد بين العلمين، كلها سنة وليست بواجب.

فإذا أتم سعيه سبعة أشواط، من الصفا إلى المروة شوطاً، ومن المروة إلى الصفا شوطاً آخر، حلق رأسه إن كان رجلاً أو قصّره، والحلق أفضل إلا أن يكون مُتَمَتِّعاً والحج قريب لا يمكن أن ينبت شعره قبله، فالتقصير أفضل، ليبقى الشعر فيحلقه في

الحج، لأن النبي أمر أصحابه حين قَدِمُوا صبيحة رابعةٍ ذي الحجة أن يتحللوا بالتقصير.

وأما المرأة فتُقَصِّرُ رأسها بكل حال، ولا تحلق، فتقصر من كل قرنٍ أنملة.

ويجب أن يكونَ الحلقُ شاملاً لجميع الرأس؛ لقوله تعالى: ﴿مُحْلِقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحَاقِرِيًّا﴾ [الفتح: ٢٧]، ولأن النبي حلق جميع رأسه، وقال: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ».

وكذلك التقصير يعمُّ به جميع الرأس.

بهذه الأعمال يكون المرء قد انتهى من العمرة، وللمتمتع أن يحل من إحرامه، ويحل له كل شيء فإذا كان يوم التروية، أحرموا بالحج ففي حديث جابر بن عبد الله عند البخاري (١٥٨٦)، ومسلم (١٢١٦)، واللفظ له قال: أهللنا مع رسول الله بالحج فلما قدمنا مكة أمرنا أن نحل ونجعلها عمرة، فكبر ذلك علينا وضائق به صدورنا فبلغ ذلك النبي فما ندري شيء بلغه من السماء أم شيء من قبل الناس؟ فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، أَحِلُّوا، فَلَوْلَا الْهُدْيُ الَّذِي مَعِيَ، فَعَلْتُ كَمَا فَعَلْتُمْ». قال: فأحللنا حتى وطئنا النساء وفعلنا ما يفعل الحلال حتى إذا كان يوم التروية وجعلنا مكة بظهر، أهللنا بالحج.

فقوله: "وجعلنا مكة بظهر"، معناه أهللنا عند إرادتنا الذهاب إلى منى.

أعمال الحج:

الإحرام بالحج يوم التروية:

إذا كان ضُحى يوم التروية - وهو اليوم الثامن من ذي الحجة - أحرم من يريد الحج بالحج من مكانه الذي هو نازل فيه.

ففي مسلم عن جابر قال: أمرنا رسول الله لما أحللنا أن نُحرم إذا توجهنا إلى منى فأهللنا من الأبطح؛ وإنما أهلوا من الأبطح لأنه مكان نزولهم.

ويفعل عند إحرامه بالحج كما فعل عند إحرامه بالعمرة، فيغتسل ويتطيب، ويهل بالحج بعدها، وصفة الإهلال والتلبية بالحج كصفتها في العمرة، إلا أنه في الحج يقول: لبيك حجاً، بدل: لبيك عمرة.

ويقصر أهل مكة وغيرهم بمنى وعرفة ومزدلفة، لأن النبي كان يُصلي بالناس في حجة الوداع في هذه المشاعر ومعه أهل مكة، ولم يأمرهم بالإتمام، ولو كان الإتمام واجباً عليهم لأمرهم به كما أمرهم به عام الفتح حين قال لهم: «يَا أَهْلَ الْبَلَدِ، صَلُّوا أَرْبَعًا، فَإِنَّا قَوْمٌ سَفَرٌ».

الخروج إلى منى:

ثم يخرج إلى منى فيُصلي بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر قصرًا من غير جمع؛ لأن النبي فعل كذلك.

وفي صحيح مسلم عن جابر قال: فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج وركب النبي فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر.

الوقوف بعرفة:

فإذا طلعت الشمس من اليوم التاسع سارَ من منى إلى عرفة فنزل بنمرة إلى الزوال إن تيسر له، وإلا فلا حرج عليه؛ لأن النزول بنمرة سنة لا واجب.

فإذا زالت الشمس صلى الظهر والعصر ركعتين ركعتين، يجمع بينهما جمع تقديم كما فعل رسول الله . كما سيأتي في حديث جابر .

وإذا تيسر له أن يقف في موقف النبي عند الصخرات فهو أفضل، وإلا وقف فيما تيسر له من عرفة، فعن جابر أن النبي قال: «نَحَرْتُ هَاهُنَا، وَمِنِّي كُلُّهَا مَنْحَرٌ، فَانْحَرُوا فِي رِحَالِكُمْ، وَوَقِفْتُ هَاهُنَا، وَعَرَفْتُ كُلُّهَا مَوْقِفٌ، وَوَقِفْتُ هَاهُنَا، وَجَمَعْتُ -يعني مزدلفة- كُلُّهَا مَوْقِفٌ»، رواه أحمد ومسلم.

ويجب على الواقف بعرفة أن يتأكد من حدودها، وقد نُصبت عليها علامات يجدها من يتطلبها، فإن كثيراً من الحجاج يتهاونون بهذا فيقفون خارج حدود عرفة جهلاً منهم، وتقليداً لغيرهم، وهؤلاء الذين وقفوا خارج حدود عرفة ليس لهم حج؛ لأن الحج عرفة، لما روى عبد الرحمن بن يعمر: أن أناساً من أهل نجد أتوا رسول الله وهو واقف بعرفة فسألوه فأمر مُنادياً ينادي: «الحج عرفة، مَنْ جَاءَ لَيْلَةَ جَمْعٍ قَبْلَ طُلُوعِ الْفَجْرِ فَقَدْ أَدْرَكَ الْحَجَّ، أَيَّامٌ مِنِّي ثَلَاثَةٌ، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ»، وأردف رجلاً ينادي بهن؛ رواه الخمسة.

ومن وقف بعرفة نهراً وجب عليه البقاء إلى غروب الشمس، لأن النبي وقف إلى الغروب، وقال: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ»، ولأن الدفع قبل الغروب من أعمال الجاهلية التي جاء الإسلام بمخالفتها.

وَيَمْتَدُّ وَقْتُ الْوُقُوفِ بِعُرْفَةِ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ يَوْمَ الْعِيدِ، لِقَوْلِ النَّبِيِّ : «مَنْ جَاءَ لَيْلَةً جَمَعَ قَبْلَ طُلُوعِ الْفَجْرِ فَقَدْ أَدْرَكَ الْحَجَّ».

فإن طلع الفجر يوم العيد قبل أن يقف بعرفة فقد فاتته الحج.

المبيت بمزدلفة:

ثم بعد الغروب يدفع الواقف بعرفة إلى مزدلفة فيُصلي بها المغرب والعشاء؛ يُصلي المغرب ثلاثاً والعشاء ركعتين.

وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد قال: دفع النبي من عرفة فنزل الشعب، فبال ثم توضأ ولم يُسبغ الوضوء، فقلت: يا رسول الله الصلاة! قال: «الصَّلَاةُ أَمَامَكَ»، فجاء المزدلفة فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم أُقيمت الصلاة فصلي المغرب، ثم أناخ كلُّ إنسانٍ بعيره في منزله ثم أُقيمت العشاء فصلاها.

فالسنة للحاج أن لا يُصلي المغرب والعشاء إلا بمزدلفة اقتداءً برسول الله ، إلا أن يخشى خروج وقت العشاء بمنتصف الليل فإنه يجب عليه أن يُصلي قبل خروج الوقت في أي مكان كان.

وبيت بمزدلفة، ولا يُحیی الليل بصلاة ولا بغيرها، لأن النبي لم يفعل ذلك.

وفي صحيح البخاري من حديث ابن عمر قال: جمع النبي بين المغرب والعشاء بجمعٍ ولم يُسبغ بينهما شيئاً ولا على إثر كل واحدة منهما.

فإذا صلى الفجر أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وهللّه ودعا بها أحب حتى يسفر جداً.

وإن لم يتيسر له الذهاب إلى المشعر الحرام دعا في مكانه لقول النبي :
 «وَوَقَفْتُ هَاهُنَا، وَجَمَعْتُ كُلُّهَا مَوْقِفٌ».

تقديم الضعفة:

ويجوز للضعفة من رجال ونساء أن يدفعوا من مزدلفة بليل في آخره. ففي صحيح مسلم عن ابن عباس بعث بي رسول الله ﷺ بسَحَرٍ من جَمْعٍ في ثِقَلٍ رسول الله ﷺ .

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر أنه كان يُقَدِّمُ ضَعْفَةَ أَهْلِهِ فيقفون عند المشعر الحرام بالمزدلفة بليل، فيذكرون الله ما بدا لهم ثم يدفعون، فمنهم من يقدم منى لصلاة الفجر ومنهم من يقدم بعد ذلك، فإذا قدموا رَمَوْا الجمرَةَ، وكان ابن عمر يقول: أَرَخَصَ في أولئك رسول الله ﷺ .

وأما مَنْ ليس ضعيفاً ولا تابِعاً لضعيف، فإنه يبقى بمزدلفة حتى يُصلي الفجر اقتداءً برسول الله ﷺ .

السير إلى منى والنزول فيها:

ينصرف الحجاج المقيمون بمزدلفة إلى منى قبل طلوع الشمس عند الانتهاء من الدعاء والذكر، فإذا وصلوا إلى منى عملوا ما يأتي:

١ - رمي جمرة العقبة وهي الجمرة الكبرى التي تلي مكة في منتهى منى، فيلقطُ سبع حصيات مثل حصا الحَذَفِ، أكبر من الحمص قليلاً، ثم يرمي بهن الجمرة، واحدة بعد واحدة، ويرمي من بطن الوادي إن تيسر له فيجعل الكعبة عن يساره ومنى عن يمينه، لحديث ابن مسعود : أنه انتهى إلى الجمرة الكبرى فجعل

البيت عن يساره ومنى عن يمينه، ورمى بسبع وقال: هكذا رمى الذي أنزلت عليه سورة البقرة؛ متفق عليه.

ويكبر مع كل حصاة فيقول: الله أكبر.

ولا يجوز الرمي بحصاة كبيرة ولا بالخفاف والنعال ونحوها.

ويرمي خاشعاً خاضعاً مُكبراً الله ، ولا يفعل ما يفعله كثير من الجهال من الصياح واللغط والسب والشتيم؛ فإن رمى الجمار من شعائر الله: ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

وفي الحديث عن النبي أنه قال: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ وَبَيْنَ الصَّفا وَالْمَرْوَةِ وَرَمَى الْجِمَارِ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

ولا يندفع إلى الجمرة بعنف وقوة، فيؤذي إخوانه المسلمين أو يضرهم.

٢- ثم بعد رمي الجمرة يذبح الهدي إن كان معه هدي، أو يشتريه فيذبحه.

وقد تقدم بيان نوع الهدي الواجب وصفته ومكان ذبحه وزمانه وكيفية الذبح، فليلاحظ.

٣- ثم بعد ذبح الهدي يخلق رأسه إن كان رجلاً، أو يقصره، والخلق أفضل، لأن الله قدّمه فقال: ﴿مُخَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٤٨]، ولأنه فعل النبي ، فعن أنس بن مالك: أن النبي أتى منى، فأتى الجمرة، فرماها ثم أتى منزله بمنى ونحر ثم قال للحلاق: «خُذْ»، وأشار إلى جانبه الأيمن ثم الأيسر ثم جعل يُعطيهِ الناس؛ رواه مسلم.

ولأن النبي دعا للمُحَلِّقِينَ بالرحمة والمغفرة ثلاثاً وللمُقَصِّرِينَ مرة، ولأن الحلق أبلغ تعظيماً لله حيث يُلقَى به جميع شعر رأسه.

ويجب أن يكون الحلق أو التقصير شاملاً لجميع الرأس لقوله تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٤٨].

والفعل المضاف إلى الرأس يشمل جميعه، ولأن حلق بعض الرأس دون بعض منهي عنه شرعاً لما في الصحيحين عن نافع عن ابن عمر أن النبي نهى عن القزع، فقيل لنافع: ما القزع؟ قال: أن يحلق بعض رأس الصبي ويترك بعضاً، وإذا كان القزع منهياً عنه لم يصح أن يكون قربة إلى الله، ولأن النبي حلق جميع رأسه تعبداً لله وقال: ﴿لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ﴾.

وأما المرأة فتقصر من أطراف شعرها بقدر أنملة فقط.

فإذا فعل ما سبق حلَّ له جميع محظورات الإحرام ما عدا النساء فيحل له الطيب واللباس وقص الشعر والأظافر وغيرها من المحظورات ما عدا النساء.

والسنة أن يتطيب لهذا الحلِّ، لقول عائشة : كنت أطيب النبي لإحرامه قبل أن يُحرم ولحله قبل أن يطوف بالبيت؛ متفق عليه واللفظ لمسلم.

وفي لفظ له: كنت أطيب النبي قبل أن يُحرم ويوم النحر قبل أن يطوف بالبيت بطيب فيه مسك.

٤ - الطواف بالبيت وهو طواف الزيارة والإفاضة لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩].

وفي صحيح مسلم عن جابر في صفة حج النبي قال: ثم ركب فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر...؛ الحديث.

وعن عائشة قالت: حَجَّجْنَا مع رسول الله فأفَضْنَا يومَ النحر...؛ الحديث متفق عليه.

وإذا كان مُتَمَتِّعًا أتى بالسعي بعد الطواف، لأن سعيه الأول كان للعمرة، فلزمه الإتيان بسعي الحج.

وفي الصحيحين عن عائشة أنها قالت: فطاف الذين كانوا أهلوا بالعمرة بالبيت وبين الصفا والمروة، ثم حلُّوا ثم طافوا طوافاً آخرَ بعد أن رجعوا من منى لحجهم، وأما الذين جَمَعُوا الحج والعمرة فإنما طافوا طوافاً واحداً.

وفي صحيح مسلم عنها أنها قالت: ما أتم الله حج امرئ ولا عُمرته لم يطف بين الصفا والمروة؛ وذكره البخاري تعليقاً.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: ثم أَمَرْنَا -يعني رسول الله - عشية التروية أن نُهَلَّ بالحج، فإذا فَرَّغْنَا من المناسك جِئْنَا فَطَفْنَا بالبيت وبالصفا والمروة، وقد تم حَجُّنا وعلينا الهدي؛ ذكره البخاري في: "ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ" [البقرة: ١٩٦].

وإذا كان مفردًا أو قارنًا فإن كان قد سعى بعد طواف القدوم لم يُعِدِّ السعي مرة أخرى لقول جابر: لم يطف النبي ولا أصحابه بين الصفا والمروة إلا طوافاً واحداً، طوافه الأول؛ رواه مسلم.

وإن كان لم يَسْعَ وجب عليه السعي لأنه لا يتمُّ الحج إلا به كما سبق عن عائشة .

وإذا طاف طواف الإفاضة وسعى للحج بعده أو قبله إن كان مُفردًا أو قارنًا فقد حلَّ التحلل الثاني، وحلَّ له جميع المحظورات؛ لما في الصحيحين عن ابن عمر في صفة حج النبي قال: ونحر هديه يوم النحر وأفاض فطاف بالبيت ثم حلَّ من كل شيء حُرِّم منه.

والأفضل أن يأتي بهذه الأعمال يوم العيد مُرتبة كما يلي:

١- رمي جمرة العقبة.

٢- ذبح الهدي.

٣- الحلق أو التقصير.

٤- الطواف ثم السعي إن كان متمتعًا أو كان مُفردًا أو قارنًا ولم يسع مع طواف القدوم.

لأن النبي رتبها هكذا وقال: «لَتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ».

فإن قدّم بعضها على بعض فلا بأس لحديث ابن عباس أن النبي قيل له في الذبح والحلق والرمي والتقديم والتأخير فقال: «لَا حَرَجَ»، متفق عليه.

وللبخاري عنه قال: كان النبي يُسأل يوم النحر بمنى؟ فيقول: «لَا حَرَجَ»، فسأله رجلٌ فقال: حلقْتُ قبل أن أذبح، قال: «أَذْبَحْ وَلَا حَرَجَ»، وقال: رميت بعد ما أمسيت، قال: «لَا حَرَجَ».

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو: أن النبي سُئل عن تقديم الحلق على الرمي، وعن تقديم الذبح على الرمي، وعن تقديم الإفاضة على

الرمي، فقال: «أَزِمَّ وَلَا حَرَجَ»، قال: فما رأيته سُئِلَ يومئذٍ عن شيء، إلا قال: «أَفْعَلُوا وَلَا حَرَجَ».

وإذا لم يتيسر له الطواف يوم العيد جاز تأخيرهُ، والأولى أن لا يتجاوزَ به أيام التشريق إلا من عُذِرَ كمرضٍ وحِيضٍ ونفاسٍ.

الرجوع إلى منى للمبيت ورمي الجمار:

يرجع الحاج يوم العيد بعد الطواف والسعي إلى منى، فيمكثُ فيها بقية يوم العيد وأيام التشريق ولياليها، لأن النبي كان يمكث فيها هذه الأيام والليالي، ويلزمه المبيت في منى ليلة الحادي عشر وليلة الثاني عشر وليلة الثالث عشر إن تأخر، لأن النبي بات فيها. وقال: «لَتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ».

ويجوز ترك المبيت لعذرٍ يتعلق بمصلحة الحج أو الحجاج؛ لما في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر أن العباس بن عبد المطلب استأذن النبي أن يبيت بمكة ليالي منى من أجل سقايته، فأذن له.

وعن عاصم بن عدي أن رسول الله رخص لرعاء الإبل في البيتوتة عن منى... الحديث. رواه الخمسة وصححه الترمذي.

ويرمي الجمرات الثلاث في كل يومٍ من أيام التشريق كل واحدة بسبع حصيات مُتَعاقبات، يكبر مع كل حصاة ويرميها بعد الزوال.

فيرمي الجمرة الأولى التي تلي مسجد الخيف، ثم يتقدم فيسهل فيقومُ مستقبل القبلة قيامًا طويلاً فيدعو وهو رافعٌ يديه.

ثم يرمي الجمرة الوسطى، ثم يأخذ ذات الشمال فيسهل فيقوم مستقبل القبلة قيامًا طويلًا فيدعو وهو رافعٌ يديه.

ثم يرمي جمرة العقبة، ثم ينصرف ولا يقف عندها.

هكذا رواه البخاري عن ابن عمر أن النبي كان يفعل كذلك.

وإذا لم يتيسر له طول القيام بين الجمار، وقَفَ بقدر ما يتيسر له ليحصل إحياء هذه السنة التي تركها أكثر الناس، إما جهلاً أو تهاوناً بهذه السنة.

ولا ينبغي ترك هذا الوقوف فتضيع السنة، فإن السنة كلما أُضيعت كان فعلها أوكد لحصول فضيلة العمل ونشر السنة بين الناس.

والرمي في هذه الأيام - أعني أيام التشريق - لا يجوز إلا بعد زوال الشمس؛ لأن النبي لم يرم إلا بعد الزوال، وقد قال: «لَتَأْخُذُوا مِنَّا سَكُومًا». فعن جابر قال: رمى النبي الجمرة يوم النحر ضحى، وأما بعد فإذا زالت الشمس؛ رواه مسلم.

وهكذا كان الصحابة يفعلون. ففي صحيح البخاري أن عبد الله بن عمر

سُئِلَ: متى أرمي الجمار؟ قال: كنا نتحين فإذا زالت الشمس رمينا.

وإذا رمى الجمار في اليوم الثاني عشر فقد انتهى من واجب الحج فهو بالخيار إن شاء بقي في منى لليوم الثالث عشر ورمى الجمار بعد الزوال، وإن شاء نفر منها لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُم مِّنْكُمْ يُخْشَوْنَ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

والتأخرُ أفضلُ لأنه فعلُ النبي ، ولأنه أكثرُ عملاً حيث يحصل له المبيت ليلة الثالث عشر، ورمي الجمار من يومه.

لكن إذا غربت الشمس في اليوم الثاني عشر قبل نفره من منى فلا يتعجل حينئذٍ لأن الله سبحانه قال: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، فقيّد التعجل في اليومين، ولم يُطلق فإذا انتهت اليومان فقد انتهى وقتُ التعجل، واليوم ينتهي بغروب شمسهِ.

وفي الموطأ عن نافع أن عبد الله بن عمر كان يقول: من غرَبَت له الشمس من أواسط أيام التشريق وهو بمنى فلا ينفر حتى يرمي الجمار من الغد، لكن إذا كان تأخره إلى الغروب بغير اختياره مثل أن يتأهب للنفر ويشد رحله فيتأخر خروجه من منى بسبب زحام السيارات أو نحو ذلك فإنه ينفر ولا شيء عليه ولو غربت الشمس قبل أن يخرج من منى.

طواف الوداع:

إذا نَفَرَ الحاج من منى وانتهت جميع أعمال الحج، وأراد السفر إلى بلده فإنه لا يخرج حتى يطوف بالبيت للوداع سبعة أشواط، لأن النبي طاف للوداع وكان قد قال: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ».

ويجب أن يكون هذا الطواف آخر شيء يفعله بمكة لحديث ابن عباس قال: كان الناس ينصرفون في كل وجهٍ فقال رسول الله : «لَا يَنْفِرَنَّ أَحَدٌ حَتَّى يَكُونَ آخِرُ عَهْدِهِ بِالْبَيْتِ»، رواه مسلم.

ولا يجب طواف الوداع على الحائض والنفساء لحديث ابن عباس قال: أُمِرَ الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت، إلا أنه خفف عن الحائض؛ متفق عليه. والنفساء كالحائض لأن الطواف لا يصح منها ^(١).

وأجمع حديث في صفة الحج:

أخرج مسلم (١٢١٨) عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ دَخَلْنَا عَلَى جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فَسَأَلَ عَنِ الْقَوْمِ حَتَّى انْتَهَى إِلَيَّ فَقُلْتُ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ حُسَيْنٍ. فَأَهْوَى يَدَهُ إِلَى رَأْسِي فَتَزَعَزَعَ زَرَى الْأَعْلَى ثُمَّ نَزَعَ زَرَى الْأَسْفَلِ ثُمَّ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ تَدْيِيٍّ وَأَنَا يَوْمَئِذٍ غُلَامٌ شَابٌّ فَقَالَ مَرْحَبًا بِكَ يَا ابْنَ أَخِي سَلْ عَمَّا شِئْتَ.

فَسَأَلْتُهُ وَهُوَ أَعْمَى وَحَضَرَ وَقْتُ الصَّلَاةِ فَقَامَ فِي نِسَاجَةٍ مُلْتَحِفًا بِهَا كُلَّمَا وَضَعَهَا عَلَى مَنْكِبِهِ رَجَعَ طَرَفَاهَا إِلَيْهِ مِنْ صِغَرِهَا وَرَدَاؤُهُ إِلَى جَنْبِهِ عَلَى الْمَشْجَبِ؛ فَصَلَّى بِنَا فَقُلْتُ أَخْبِرْنِي عَنْ حَجَّةِ رَسُولِ اللَّهِ . فَقَالَ بِيَدِهِ فَعَقَدَ تِسْعًا فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ مَكَثَ تِسْعَ سِنِينَ لَمْ يَحْجَّ ثُمَّ أَدَّانَ فِي النَّاسِ فِي الْعَاشِرَةِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ حَاجٌّ فَقَدِمَ الْمَدِينَةَ بَشَرٌ كَثِيرٌ كُلُّهُمْ يَلْتَمِسُ أَنْ يَأْتِمَ بِرَسُولِ اللَّهِ وَيَعْمَلَ مِثْلَ عَمَلِهِ فَخَرَجْنَا مَعَهُ حَتَّى أَتَيْنَا ذَا الْخُلَيْفَةِ فَوَلَدَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ فَأَرْسَلَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ كَيْفَ أَصْنَعُ قَالَ: «اغْتَسِلِي وَاسْتِغْفِرِي بِثَوْبٍ وَأَحْرِمِي». فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ فِي الْمَسْجِدِ ثُمَّ رَكِبَ الْقَصْوَاءَ حَتَّى إِذَا اسْتَوَتْ بِهِ نَاقَتُهُ عَلَى الْبَيْدَاءِ نَظَرْتُ إِلَى مَدِّ بَصَرِي بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ رَاكِبٍ وَمَاشٍ وَعَنْ يَمِينِهِ مِثْلَ ذَلِكَ وَعَنْ يَسَارِهِ مِثْلَ ذَلِكَ وَمِنْ خَلْفِهِ مِثْلَ ذَلِكَ وَرَسُولُ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِنَا وَعَلَيْهِ يَنْزِلُ الْقُرْآنُ وَهُوَ يَعْرِفُ تَأْوِيلَهُ وَمَا عَمِلَ بِهِ مِنْ شَيْءٍ عَمِلْنَا بِهِ؛ فَأَهْلَلْ بِالتَّوْحِيدِ: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ إِنَّ الْحَمْدَ وَالنَّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ».

(١) تنبيه لخص الكثير من هذا الباب من كتاب الشرح الممتع للشيخ العثيمين رحمه الله تعالى.

وَأَهْلَ النَّاسِ بِهَذَا الَّذِي يُهْلُونَ بِهِ فَلَمْ يَرُدَّ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ شَيْئًا مِنْهُ، وَلَزِمَ رَسُولُ اللَّهِ تَلْيِيتَهُ قَالَ جَابِرٌ لَسْنَا نُنَوِي إِلَّا الْحَجَّ لَسْنَا نَعْرِفُ الْعُمْرَةَ حَتَّى إِذَا أَتَيْنَا الْبَيْتَ مَعَهُ اسْتَلَمَ الرُّكْنَ فَرَمَلَ ثَلَاثًا وَمَشَى أَرْبَعًا ثُمَّ نَفَذَ إِلَى مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَرَأَ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، فَجَعَلَ الْمَقَامَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَكَانَ أَبِي يَقُولُ وَلَا أَعْلَمُهُ ذَكَرَهُ إِلَّا عَنِ النَّبِيِّ كَانَ يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، وَ﴿قُلْ يَتَّخِذُهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الرُّكْنَ فَاسْتَلَمَهُ ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الْبَابِ إِلَى الصَّفَا فَلَمَّا دَنَا مِنَ الصَّفَا قَرَأَ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ».

فَبَدَأَ بِالصَّفَا فَرَقَى عَلَيْهِ حَتَّى رَأَى الْبَيْتَ فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ فَوَحَّدَ اللَّهَ وَكَبَّرَهُ وَقَالَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ أَنْجَزَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ». ثُمَّ دَعَا بَيْنَ ذَلِكَ قَالَ مِثْلَ هَذَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ نَزَلَ إِلَى الْمَرْوَةِ حَتَّى إِذَا انْصَبَّتْ قَدَمَاهُ فِي بَطْنِ الْوَادِي سَعَى حَتَّى إِذَا صَعِدَتَا مَشَى حَتَّى أَتَى الْمَرْوَةَ فَفَعَلَ عَلَى الْمَرْوَةِ كَمَا فَعَلَ عَلَى الصَّفَا حَتَّى إِذَا كَانَ آخِرُ طَوَافِهِ عَلَى الْمَرْوَةِ فَقَالَ: «لَوْ أَنِّي اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ لَمْ أَسْتَقِ الْهُدَى وَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ لَيْسَ مَعَهُ هَدًى فَلْيَحِلَّ وَلْيَجْعَلْهَا عُمْرَةً».

فَقَامَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ بْنِ جُعْشَمٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلْعَامِنَا هَذَا أَمْ لَا بَدٍ فَشَبَّكَ رَسُولُ اللَّهِ أَصَابِعَهُ وَاحِدَةً فِي الْأُخْرَى وَقَالَ: «دَخَلْتَ الْعُمْرَةَ فِي الْحَجِّ -مَرَّتَيْنِ- لَا بَلَّ لَأَبَدٍ أَبَدٍ». وَقَدِمَ عَلَى مَنْ الِيمَنِ بِبُذْنِ النَّبِيِّ فَوَجَدَ فَاطِمَةَ مِمَّنْ حَلَّ وَلَبَسَتْ ثِيَابًا صَبِيغًا وَاسْتَحَلَّتْ فَأَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهَا فَقَالَتْ إِنَّ أَبِي أَمَرَنِي بِهَذَا. قَالَ فَكَانَ عَلَى يَقُولٍ بِالْعِرَاقِ فَذَهَبَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ مُحَرِّشًا عَلَى فَاطِمَةَ لِلَّذِي صَنَعَتْ

مُسْتَفْتِيًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيمَا ذَكَرْتُ عَنْهُ فَأَخْبَرْتُهُ أَنِّي أَنْكَرْتُ ذَلِكَ عَلَيْهَا فَقَالَ: «صَدَقْتَ صَدَقْتَ؛ مَاذَا قُلْتَ حِينَ فَرَضْتَ الْحَجَّ». قَالَ: قُلْتُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَهْلٌ بِمَا أَهْلٌ بِهِ رَسُولُكَ. قَالَ: «فَإِنَّ مَعِيَ الْهُدَى فَلَا تَحِلُّ».

قَالَ فَكَانَ جَمَاعَةُ الْهُدَى الَّذِينَ قَدِمَ بِهِ عَلَى مِنَ الْيَمَنِ وَالَّذِي أَتَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِائَةً - قَالَ - فَحَلَّ النَّاسُ كُلُّهُمْ وَقَصَّروا إِلَّا النَّبِيَّ ﷺ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ هَدًى.

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ التَّرْوِيَةِ تَوَجَّهُوا إِلَى مِنَى فَأَهْلُوا بِالْحَجِّ وَرَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَصَلَّى بِهَا الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ وَالْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ وَالْفَجْرَ ثُمَّ مَكَثَ قَلِيلًا حَتَّى طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَأَمَرَ بِقُبَّةٍ مِنْ شَعَرٍ تُضْرَبُ لَهُ بِنَمْرَةٍ فَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَا تَشْكُ قُرَيْشٌ إِلَّا أَنَّهُ وَقِفٌ عِنْدَ الْمُشْعَرِ الْحَرَامِ كَمَا كَانَتْ قُرَيْشٌ تَصْنَعُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَأَجَازَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَتَى عَرَفَةَ فَوَجَدَ الْقُبَّةَ قَدْ ضُرِبَتْ لَهُ بِنَمْرَةٍ فَتَزَلَّ بِهَا حَتَّى إِذَا زَاغَتِ الشَّمْسُ أَمَرَ بِالْقَصْوَاءِ فَرَحِلَتْ لَهُ فَأَتَى بَطْنَ الْوَادِي فَخَطَبَ النَّاسَ وَقَالَ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا. أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي سَعْدِ فَقَتَلْتَهُ هَذَا. وَرَبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ وَأَوَّلُ رَبَّا أَضَعُ رَبَانَا رَبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ. فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ أَحَدُتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ وَاسْتَحْلَلْتُمُ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئَنَّ فُرُوشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُوْنَهُ. فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ. وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابَ اللَّهِ. وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟». قَالُوا نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ وَأَدَيْتَ وَنَصَحْتَ. فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَابَةَ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى

النَّاسِ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ اللَّهُمَّ اشْهَدْ». ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ أَذَّنَ ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى الظُّهْرَ ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى الْعَصْرَ وَلَمْ يُصَلِّ بَيْنَهُمَا شَيْئًا.

ثُمَّ رَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ حَتَّى أَتَى الْمَوْقِفَ فَجَعَلَ بَطْنَ نَاقَتِهِ الْقَصْوَاءِ إِلَى الصَّخَرَاتِ وَجَعَلَ حَبْلَ الْمَشَاةِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَذَهَبَتِ الصُّفْرَةُ قَلِيلًا حَتَّى غَابَ الْقُرْصُ وَأَرْدَفَ أُسَامَةُ خَلْفَهُ وَدَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ وَقَدْ شَنَقَ لِلْقَصْوَاءِ الزِّمَامَ حَتَّى إِنَّ رَأْسَهَا لَيُصِيبُ مَوْرِكَ رَحْلِهِ وَيَقُولُ بِيَدِهِ الْيَمْنَى: «أَيُّهَا النَّاسُ السَّكِينَةُ السَّكِينَةُ». كُلَّمَا أَتَى حَبْلًا مِنَ الْجِبَالِ أَرَخَى لَهَا قَلِيلًا حَتَّى تَصْعَدَ حَتَّى أَتَى الْمَزْدَلِفَةَ فَصَلَّى بِهَا الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ بِأَذَانٍ وَاحِدٍ وَإِقَامَتَيْنِ وَلَمْ يُسَبِّحْ بَيْنَهُمَا شَيْئًا ثُمَّ اضْطَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ وَصَلَّى الْفَجْرَ - حِينَ تَبَيَّنَ لَهُ الصُّبْحُ - بِأَذَانٍ وَإِقَامَةٍ ثُمَّ رَكِبَ الْقَصْوَاءَ حَتَّى أَتَى الْمُشْعَرَ الْحَرَامَ فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ فَدَعَاهُ وَكَبَّرَهُ وَهَلَّلَهُ وَوَحَّدَهُ فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا حَتَّى أَسْفَرَ جِدًّا فَدَفَعَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ وَأَرْدَفَ الْفَضْلُ بْنُ عَبَّاسٍ وَكَانَ رَجُلًا حَسَنَ الشَّعْرِ أَبْيَضَ وَسِيمًا فَلَمَّا دَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ مَرَّتَ بِهِ ظُعْنٌ يُخْرِينَ فَطَفِقَ الْفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ فَوَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ يَدَهُ عَلَى وَجْهِ الْفَضْلِ فَحَوَّلَ الْفَضْلُ وَجْهَهُ إِلَى الشَّقِّ الْآخِرِ يَنْظُرُ فَحَوَّلَ رَسُولُ اللَّهِ يَدَهُ مِنَ الشَّقِّ الْآخِرِ عَلَى وَجْهِ الْفَضْلِ يَصْرِفُ وَجْهَهُ مِنَ الشَّقِّ الْآخِرِ يَنْظُرُ حَتَّى أَتَى بَطْنَ مُحَسِّرٍ فَحَرَكَ قَلِيلًا.

ثُمَّ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوُسْطَى الَّتِي تَخْرُجُ عَلَى الْجُمُرَةِ الْكُبْرَى حَتَّى أَتَى الْجُمُرَةَ الَّتِي عِنْدَ الشَّجَرَةِ فَرَمَاهَا بِسَبْعِ حَصِيَّاتٍ يُكَبِّرُ مَعَ كُلِّ حَصَاةٍ مِنْهَا مِثْلَ حَصَى الْخَذْفِ رَمَى مِنْ بَطْنِ الْوَادِي ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْمُنْحَرِ فَنَحَرَ ثَلَاثًا وَسِتِّينَ بِيَدِهِ ثُمَّ أَعْطَى عَلِيًّا فَنَحَرَ مَا غَبَرَ وَأَشْرَكَهُ فِي هَدْيِهِ ثُمَّ أَمَرَ مِنْ كُلِّ بَدَنَةٍ بِبَضْعَةٍ فَجُعِلَتْ فِي قِدْرِ فَطْبِخَتْ

فَأَكَلَا مِنْ حَمِهَا وَشَرِبَا مِنْ مَرَقِهَا ثُمَّ رَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَفَاضَ إِلَى الْبَيْتِ فَصَلَّى بِمَكَّةَ الظُّهْرَ فَأَتَى بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَسْقُونَ عَلَى زَمْزَمَ فَقَالَ: «انْزِعُوا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَوْلَا أَنْ يَغْلِبَكُمْ النَّاسُ عَلَى سِقَايَتِكُمْ لَنَزَعْتُ مَعَكُمْ»، فَنَاولُوهُ دُلُوءًا فَشَرِبَ مِنْهُ.



الفصل السادس

أبواب المعاملات

الصلاة والجهاد مع البر والفاجر من أمة محمد

الصلاة خلف كل بر وفاجر من المسلمين، هي عقيدة أهل السنة والجماعة على مر العصور، وتقلبات الدهور، مع أنهم يرون أن الصلاة خلف السني أفضل إن وجد، ومما يدل على ما ذهبوا إليه حديث أبي هريرة عند البخاري: «يُصَلُّونَ لَكُمْ، فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ، وَإِنْ أَخْطَأُوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ».

وبوب البخاري في صحيحه: "باب إمامة المفتون والمبتدع"، وقال: قال الحسن: صلّ وعليه بدعته، وذكر حديث عبيد الله بن عدي بن الخيار رقم (٦٩٥) وفيه: أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ وَهُوَ مُحْضَرٌ، فَقَالَ: إِنَّكَ إِمَامٌ عَامَّةٌ وَنَزَلَ بِكَ مَا نَرَى وَيُصَلِّي لَنَا إِمَامٌ فِتْنَةٌ، وَنَتَخَرَّجُ، فَقَالَ: الصَّلَاةُ أَحْسَنُ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ؛ فَإِذَا أَحْسَنَ النَّاسُ فَأَحْسِنَ مَعَهُمْ، وَإِذَا أَسَاءُوا فَاجْتَنِبْ إِسَاءَتَهُمْ؛ وَقَالَ الزُّهْرِيُّ: لَا نَرَى أَنْ يُصَلَّى خَلْفَ الْمُخَنَّثِ؛ إِلَّا مِنْ ضَرُورَةٍ.

وقال شيخ الإسلام كما في المجموع (٣٤٢/٢٣-٣٤٦): وأما الصلاة خلف أهل الأهواء والبدع وخلف أهل الفجور ففيه نزاع مشهور وتفصيل ليس هذا موضع بسطه، لكن أوسط الأقوال في هؤلاء أن تقديم الواحد من هؤلاء في الإمامة لا يجوز مع القدرة على غيره؛ فإن من كان مظهرًا للفجور أو البدع يجب الإنكار عليه ونهيه عن ذلك، وأقل مراتب الإنكار هجره لينتهي عن فجوره وبدعته؛ ولهذا فرّق

جمهور الأئمة بين الداعية وغير الداعية فإن الداعية أظهر المنكر فاستحق الإنكار عليه بخلاف الساكت فإنه بمنزلة من أسر بالذنب فهذا لا ينكر عليه في الظاهر فإن الخطيئة إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها ولكن إذا أعلنت فلم تنكر ضرت العامة؛ ولهذا كان المنافقون تقبل منهم علانيتهم وتوكل سرائرهم إلى الله تعالى بخلاف من أظهر الكفر.

فإذا كان داعية منع من ولايته وإمامته وشهادته وروايته لما في ذلك من النهي عن المنكر لا لأجل فساد الصلاة أو اتهامه في شهادته وروايته. فإذا أمكن لإنسان ألا يقدم مظهراً للمنكر في الإمامة وجب ذلك، لكن إذا ولاه غيره ولم يمكنه صرفه عن الإمامة أو كان هو لا يتمكن من صرفه إلا بشر أعظم ضرراً من ضرر ما أظهره من المنكر فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير ولا دفع أخف الضررين بتحصيل أعظم الضررين؛ فإن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان، ومطلوبها ترجيح خير الخيرين إذا لم يمكن أن يجتمعا جميعاً ودفع شر الشرين إذا لم يندفعا جميعاً، فإذا لم يمكن منع المظهر للبدعة والفجور إلا بضرر زائد على ضرر إمامته لم يجز ذلك بل يصلي خلفه ما لا يمكنه فعلها إلا خلفه كالجمع والأعياد والجماعة؛ إذا لم يكن هناك إمام غيره ولهذا كان الصحابة يصلون خلف الحجاج والمختار بن أبي عبيد الثقفي وغيرهما الجمعة والجماعة؛ فإن تفويت الجمعة والجماعة أعظم فساداً من الاقتداء فيهما بإمام فاجر لا سيما إذا كان التخلف عنهما لا يدفع فجوره فيبقى ترك المصلحة الشرعية بدون دفع تلك المفسدة. ولهذا كان التاركون للجمعة والجماعات خلف أئمة الجور مطلقاً معدودين عند السلف والأئمة من أهل البدع، وأما إذا أمكن فعل الجمعة والجماعة خلف البر فهو أولى من فعلها خلف الفاجر. اهـ

وقال (٣٥١ / ٢٣): يجوز للرجل أن يصلي الصلوات الخمس والجمعة وغير ذلك خلف من لم يعلم منه بدعة ولا فسقاً باتفاق الأئمة الأربعة وغيرهم من أئمة المسلمين، وليس من شرط الائتنام أن يعلم المأموم اعتقاد إمامه ولا أن يمتحنه؛ فيقول: ماذا تعتقد؟ بل يصلي خلف مستور الحال. اهـ

فعلى ما تقدم من كلام أهل العلم المؤيد بالأدلة الصحيحة الصريحة في صحة الصلاة خلف أهل البدع غير المكفرة، وخلف عصاة أمة محمد ، مع اعتقاد أن الصلاة خلف السني أفضل.

وأما الصلاة خلف أصحاب البدع المكفرة؛ فالصحيح أن الصلاة تعاد، قال عبد الله بن أحمد في السنة (٤): سمعت أبي يقول: من قال ذلك القول -أي: القرآن مخلوق- لا يصلي خلفه الجمعة ولا غيرها؛ إلا أننا لا ندع إتيانها؛ فإن صلى رجل أعاد الصلاة.

وقال (٥): سمعت أبي يقول: لا يصلي خلف أهل البدع -يعني: الجهمية والمعتزلة-. اهـ

قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٣٥٥ / ٢٣): وأما الصلاة خلف المبتدع فهذه المسألة فيها نزاع وتفصيل، فإذا لم تجد إماماً غيره كالجمعة التي لا تقام إلا بمكان واحد، وكالعيدين وكصلوات الحج خلف إمام الموسم فهذه تفعل خلف كل بر وفاجر باتفاق أهل السنة والجماعة، وإنما تدع مثل هذه الصلوات خلف الأئمة أهل البدع كالرافضة ونحوهم ممن لا يرى الجمعة والجماعة إذا لم يكن في القرية إلا مسجد واحد فصلاته في الجماعة خلف الفاجر خير من صلاته في بيته منفرداً؛ لئلا يفضي إلى ترك الجماعة مطلقاً، وأما إذا أمكنه أن يصلي خلف غير المبتدع فهو أحسن

وأفضل بلا ريب لكن إن صلى خلفه ففي صلاته نزاع بين العلماء، ومذهب الشافعي وأبي حنيفة تصح صلاته، وأما مالك وأحمد ففي مذهبهما النزاع وتفصيل.

وهذا إنما هو في البدعة التي يعلم أنها تخالف الكتاب والسنة مثل بدع الرافضة والجهمية ونحوهم، فأما مسائل الدين التي يتنازع فيها كثير من الناس في هذه البلاد مثل مسألة الحرف والصوت ونحوها فقد يكون كل من المتنازعين مبتدعا وكلاهما جاهل متأول، فليس امتناع هذا من الصلاة خلف هذا بأولى من العكس، فأما إذا ظهرت السنة وعلمت فخالفها واحد فهذا هو الذي فيه النزاع. اهـ



وجوب السمع والطاعة لأمرء المسلمين

في غير معصية الله تعالى

يقول الله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، ويقول النبي : «فَإِنَّ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ أَنْ تُطِيعُونِي، وَإِنْ مِنْ طَاعَتِي أَنْ تُطِيعُوا أئِمَّتَكُمْ»؛ أخرجه أحمد (٥٦٧٩) عن ابن عمر .

وفي الصحيحين البخاري (٧١٢٧) ومسلم (١٨٣٩)، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله قال: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي».

وكانت من البيعة التي يأخذها رسول الله على أصحابه السمع والطاعة، والأمر الذي أمر به تجاه الأئمة السمع والطاعة، ففي حديث أبي هريرة في مسلم (١٨٣٦): «عَلَيْكَ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ، وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ، وَآثَرَةٍ عَلَيْكَ».

ففي الحديث وجوب السمع والطاعة في جميع الحالات واللحظات إلا أن يأمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة، ففي حديث ابن عمر قال: قال رسول الله : «عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ»؛ أخرجه البخاري (٢٩٥٥)، ومسلم (١٨٣٩)، وفي حديث علي : لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةٍ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ؛ أخرجه البخاري (٤٣٤٠)، ومسلم (١٨٤٠).

ومن تمت له البيعة واستتب له الأمر من المسلمين فلا يجوز الخروج عليه، ولا منازعته، ومن خرج عليه، أو نازعه كان من المشاقين المخالفين لكتاب رب العالمين وسنة سيد المرسلين، ففي حديث أبي سعيد: «إِذَا بُويعَ لِخَلِيفَتَيْنِ، فَاقْتُلُوا الْآخَرَ مِنْهُمَا»؛ أخرجه مسلم (١٨٥٣).

وعن عرفجة قال: قال رسول الله : «مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ بِجَمِيعٍ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ، أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ»؛ أخرجه مسلم (١٨٥٢).

وإن جار وظلم، فالجور والظلم عليه، ولا يجوز الخروج عليه ففي حديث حذيفة: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ، وَأُخِذَ مَالُكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»، أخرجه مسلم (١٨٤٧)؛ لأن ضربه لك بالظلم إثم عليه وضرره عليك، لكن الخروج إثم عليك وضرره متعدي يقع به فساد البلاد والعباد، والإمام جنة يحفظ به الأمن، وتستتب به الأمور، وتقام به الحدود وتحفظ به الأموال والأعراض، ففي مسلم (١٨٤١) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله : «إِنَّمَا الْإِمَامُ جُنَّةٌ، يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ، وَيَتَّقَى بِهِ، فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَعَدَلَ كَانَ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرٌ، وَإِنْ يَأْمُرُ بِغَيْرِهِ كَانَ عَلَيْهِ مِنْهُ».

والخروج ضرره عظيم ففي حديث أبي هريرة عند مسلم (١٨٤٨): «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الْجُمُعَةَ، فَمَاتَ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً».

وفي حديث ابن عباس: «مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا، فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا، فَمَاتَ عَلَيْهِ إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»؛ أخرجه البخاري (٧٠٥٣)، ومسلم (١٨٤٩).

وهب أن الأمراء لم يقوموا بما أوجب الله عليهم: «فَنِعْمَتِ الْمَرْضِعَةُ، وَبَسَّتِ الْفَاطِمَةُ»، «وإِنَّمَا أَمَانَةُ، وَإِنَّمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَزِيٌّ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»، في مسلم (١٨٢٥) عن أبي ذر ، «فُوا بِبَيْعَةِ الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ، وَأَعْطُوهُمْ حَقَّهُمُ الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهُمْ». «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»؛ متفق عليه عن ابن عمر البخاري (٢٥٥٤)، ومسلم (١٨٢٩). «اللَّهُمَّ، مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ»؛ أخرجه مسلم (١٨٢٨) عن عائشة .

والعدل فضيلته عظيمة ففي حديث عبد الله بن عمرو عند مسلم (١٨٢٧) وفيه: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُّوا».

متى يخرج على الحاكم؟

ولا يجوز الخروج على الحاكم المسلم بحال قال رسول الله : «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»؛ أخرجاه من حديث عبادة، البخاري (٧١٩٩) ومسلم (١٧٠٩).

وفي حديث عوف بن مالك عند مسلم (١٨٥٥): أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ قَالَ: «لَا مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ». وفي حديث أم سلمة عند مسلم (١٨٥٤): أَلَا نَقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ: «لَا، مَا صَلَّوْا»؛ البخاري (٧٢٠٠)، ومسلم (١٧٠٩).

شروط الخروج على الحاكم:

ولا يخرج على الحاكم إلا إذا ظهر كفره، قال الشيخ ابن عثيمين في الشرح الممتع (٣٢٣/١-٣٢٤): والأئمة لا يجوز الخروج عليهم إلا بشروط مغلظة؛ لأن

أضرار الخروج عليهم أضعافُ أضعافٍ ما يريد هؤلاء من الإصلاح، وهذه الشروط هي:

الأول: أن نعلم علم اليقين أنهم أتوا كفرًا.

الثاني: أن نعلم أن هذا الكفر صريح ليس فيه تأويل، ولا يحتمل التأويل، صريح ظاهر واضح؛ لأن الصريح كما جاء في الحديث هو الشيء الظاهر البين العالي، كما قال الله تعالى عن فرعون أنه قال لهامان: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ (٣٦) ﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ [غافر: ٣٦-٣٧]، فلا بد أن يكون صريحًا، أما ما يحتمل التأويل، فإنه لا يسوغ الخروج عن الإيمان.

الثالث: أن يكون عندنا فيه من الله برهان ودليل قاطع مثل الشمس أن هذا كفر، فلا بد إذن أن نعلم أنه كفر، وأن نعلم أن مرتكبه كافر لعدم التأويل، كما قال النبي ﷺ: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»^(١)، وقالوا: أفلا ننازلهم عند ذلك؟ قال: «لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ»^(٢)، أي: ما داموا يصلون.

الرابع: القدرة على إزالته، أما إذا علمنا أننا لا نزيله إلا بقتال، تُراق فيه الدماء وتستباح فيه الحرمات، فلا يجوز أن نتكلم أبدًا، ولكن نسأل الله أن يهديه أو يزيله؛ لأننا لو فعلنا وليس عندنا قدرة، فهل يمكن أن يتزحزح هذا الوالي الكافر عما هو عليه؟ لا، بل لا يزداد إلا تمسكًا بما هو عليه، وما أكثر الذين يناصرونه، إذاً يكون سعيًا بالخروج عليه مفسدة عظيمة، لا يزول بها الباطل بل يقوى بها الباطل، ويكون الإثم علينا، فنحن الذين وضعنا رقابنا تحت سيوفه، ولا أحد أحكم من الله، ولم

(١) أخرجه البخاري في الفتن/ باب قول النبي ﷺ سترون بعدي أمورًا تنكرونها (٧٠٥٦)، ومسلم في المغازي، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية (١٧٠٩) (٤٢) عن عبادة بن الصامت.
(٢) أخرجه مسلم في المغازي، باب خيار الأئمة وشرارهم (١٨٥٥) عن عوف بن مالك.

يفرض القتال على النبي وأصحابه إلا حين كان لهم دولة مستقلة، وإلا فإنهم كانوا يهانون في مكة، الذي يجبس، والذي يقتل، والذي توضع عليه الحجارة المحيطة على بطنه، ومحمد رسول الله يرجع من الطائف، يرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه، ولم يؤمر بالقتال؛ لأن الله حكيم؛ ولذلك مع الأسف الشديد لا تجد أحدًا عصى الرسول وخرج على الإمام بما للإمام فيه شبهة، إلا ندم وكان ضررًا على شعبه، ولم يزل الإمام، ولا أريد بالإمام الأعظم؛ لأن الإمام الأعظم ذهب من زمان، لكن إمام كل قوم من له سلطة عليهم. اهـ

وذكر شيخنا الوادعي من الشروط أيضًا: أن لا يستعان بالكفار، وأن يبدل بخير منه، وأن لا تقع فتنة في المسلمين.

وتكون الخلافة والإمارة بثلاث طرق:

الأولى: العهد إليه من الأمير الذي قبله كما فعل أبو بكر الصديق حين عهد إلى عمر .

الثاني: اختيار أهل الحل والعقد له كما حصل في خلافة عثمان .

الثالث: أن يستتب له الأمر بعد أن أخذها قسرًا وقهرًا، فيجب طاعته، وعدم منابذته والخروج عليه.



الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم ميزات هذا الدين القويم، دين رب العالمين، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، تقوم به على الترتيب المذكور في حديث أبي سعيد: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»؛ والإنكار القلبي يكون عند التخوف من الضرر إما بسبب جور السلطان أو غير ذلك من الأعذار.

قال ابن القيم في المدارج (١٢٣/٣): إنما بعث الله رسله وأنزل كتبه بالإنكار على الخلق بما هم عليه من أحكام البشرية وغيرها، فلهذا أرسلت الرسل وأنزلت الكتب وانقسمت الدار إلى دار سعادة للمنكرين، ودار شقاوة للمنكر عليهم؛ انتهى.

أخرج أبو داود في سننه من حديث أبي سعيد: «إِنَّ اللَّهَ لَيَسْأَلُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يَقُولَ: مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ أَنْ تُنْكِرَهُ؟ فَإِذَا لَقِيَ اللَّهَ عَبْدًا حُبَّتْهُ، قَالَ: يَا رَبِّ رَجَوْتُكَ، وَفَرَّقْتُ مِنَ النَّاسِ»، الحديث في الصحيح المسند .

وأخرج الترمذي (٢١٩١) من حديث أبي سعيد مرفوعاً: «أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقِّ إِذَا عَلِمَهُ».

الحامل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال ابن رجب في شرح الحديث الرابع والثلاثين في جامع العلوم والحكم : واعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تارة يحمل عليه رجاء ثوابه، وتارة خوف العقاب في تركه، وتارة الغضب لله على انتهاك محارمه، وتارة النصيحة للمؤمنين والرحمة لهم ورجاء انقاذهم مما أوقعوا أنفسهم فيه من التعرض لغضب الله وعقوبته في الدنيا والآخرة، وتارة يحمل عليه إجلال الله وإعظامه ومحبته، وأنه أهل أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وأنه يفتدى من انتهاك محارمه بالنفوس والأموال، ومن حفظ هذا المقام هان عليه كل ما يلقي من الأذى في الله ، وربما دعا لمن آذاه كما قال ذلك النبي لما ضربه قومه، فجعل يمسح الدم عن وجهه، ويقول: «رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

وقد تكلمت بتوسع عن هذه الشعيرة في كتابي الوسائل الجليلة لنصرة الدعوة السلفية .



بذل النصيحة

بث النصيحة وبذلها واجب محتتم، به يقوم الدين، وبه تصلح البلاد ويصلح العباد، وبه تنشر الدعوة، ولذلك بعث الأنبياء بالنصيحة، فقد قال الله عن نوح: ﴿وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢]، وقال في شأن هود: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]. وقال عن صالح: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ النَّصِيحَ﴾ [الأعراف: ٧٩]. وقال عن شعيب: ﴿وَقَالَ يَاقَوْمُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣]. وجميع الرسل إنما أرسلوا وبعثوا بالنصيحة وبذلها والدعوة إلى الشرع.

وأخرج الإمام مسلم برقم (٥٥): عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ: أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ: «الَّذِينَ النَّصِيحَةُ». قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لِللَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ».

وقال جرير : بايعنا رسول الله على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم، أخرجه البخاري (١٤٠١)، ومسلم (٥٦).

واتفقا على حديث أبي هريرة البخاري (١٢٤٠)، ومسلم (٢١٦٢) واللفظ له: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ»، قِيلَ: مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «إِذَا لَقِيْتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدَّهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ».

قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم في شرح الحديث السابع: وقد وردت في أحاديث كثيرة النصح للمسلمين عموماً وفي بعضها النصح لولاية الأمور، وفي بعضها نصح لولاية الأمور لرعاياهم.. وذكر بعض ما تقدم من الأحاديث.

قال: وقد أخبر النبي أن الدين النصيحة، فهذا يدل على أن النصيحة تشمل خصال الإسلام والإيمان والإحسان التي ذكرت في حديث جبريل وسمى ذلك كله دينًا.

فإن النصح يقتضي القيام بأداء الواجبات على أكمل وجوهها، وهو مقام الإحسان، فلا يكمل النصح لله بدون ذلك، ولا يتأتى ذلك بدون كمال المحبة الواجبة والمستحبة، ويستلزم ذلك الاجتهاد في التقرب إليه بنوافل الطاعات على هذا الوجه وترك المحرمات والمكروهات على هذا الوجه أيضًا.

قال: وقال الخطابي: النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة، هي إرادة الخير للمنصوح له، وأصل النصح في اللغة الخلوص، يقال: نصحت العسل إذا خلصته من الشمع.

فمعنى النصيحة لله سبحانه صحة الاعتقاد في وحدانيته، وإخلاص النية في عبادته. والنصيحة لكتابه الإيمان به والعمل بما فيه. والنصيحة لرسوله التصديق بنبوته، وبذل الطاعة له فيما أمر به ونهى عنه. والنصيحة لعامة المسلمين إرشادهم إلى مصالحهم. اهـ



التحذير من فتنة النساء

يسعى اليهود والنصارى إلى إفساد الشعوب بالمرأة، التي حذر رسول الله من فتنها بقوله: «فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»، أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد .

وقال : «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرَّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»؛ متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو .

وقال : «كُنْتُ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيْبُهُ مِنَ الزَّانَا، مُدْرِكُ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الْإِسْتِغَاغُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرَّجُلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيَكْذِبُهُ»؛ متفق عليه من حديث أبي هريرة .

وقال : «الْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ، فَإِذَا خَرَجَتْ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ»؛ أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود.

وقال محذراً من مصافحة الأجنبية، هذه الفتنة التي عمت وطمت بعد ظهور ما يسمى بالديمقراطية: «لَأَنَّ يَطْعَنَ فِي رَأْسِ رَجُلٍ بِمَخِيطٍ مِنْ حَدِيدٍ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمَسَّ امْرَأَةً لَا تَحِلُّ لَهُ».

وأخرج البخاري من حديث سمرة بن جندب قال: قال رسول الله : «فَانْطَلَقْنَا، فَاتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُورِ - قَالَ: فَأَحْسِبُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ - فَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ وَأَصْوَاتٌ»، قَالَ: «فَانْطَلَعْنَا فِيهِ، فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ هَبٌّ مِنْ أَسْفَلٍ مِنْهُمْ، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضُوا»، قَالَ: «قُلْتُ لَهَا: مَا هَؤُلَاءِ؟». قَالَ: «قَالَا لِي: أَمَا إِنَّا سَنُخْبِرُكَ... وَأَمَّا الرَّجَالُ وَالنِّسَاءُ الْعُرَاةُ الَّذِينَ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُورِ، فَإِنَّهُمْ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي».

وأخرج الحاكم في مستدركه من حديث أبي أمامة : قال النبي : «ثُمَّ انْطَلَقَا بِي، فَإِذَا بِقَوْمٍ أَشَدَّ شَيْءٍ انْتِفَاحًا، وَأَنْتَنَةً رِيحًا، وَأَسْوَأَ مَنْظَرًا، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الزَّانُونَ وَالزَّوَانِي».

ومن المعلوم من ديننا بالضرورة تحريم الزنا والاختلاط بالأجنبيات، وتحريم مقدمات الزنا أيضًا، من نظر وغيره، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الرِّقَّةَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٣٠) ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣٠-٣١].

فعلى المسلمين أن يتخلقوا بالحياء، فإن الحياء من الدين كما قال : «وَالْحَيَاءُ سُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ».

وقال : «الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ»، وأيضًا الديمقراطية لا تمنع أن تكون المرأة رئيسة أو وزيرة أو عضو مجلس نواب، ترى أن للمرأة من الحقوق والواجبات ما للرجل، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالْصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ

بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ وَاهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوا هُمْ
فَإِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿النساء: ٣٤﴾.

وقال: ﴿وَالرِّجَالُ عَلَيْهِمْ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، أي: رفعة ورياسة.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسير ﴿وَالرِّجَالُ عَلَيْهِمْ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]:
أي رفعة ورياسة، كما قال الله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤]. ومنصب
النبوة، والقضاء، والإمامة الصغرى والكبرى، وسائر الولايات للرجال.

قال ابن كثير في كلامه على شروط الإمام: ويجب أن يكون ذكراً حراً بالغاً
عاقلاً عدلاً مجتهداً بصيراً، سليم الأعضاء، خبيراً بالحروب، قرشياً على الصحيح ^(١).

قال القرطبي (١/ ٢٧٠) في شروط الإمام: الشرط السابع: أن يكون ذكراً
سليم الأعضاء، وأجمعوا على أن المرأة لا يجوز أن تكون إماماً وإن اختلفوا أن تكون
قاضية فيما تجوز شهادتها فيه. اهـ

قلت: أما بالنسبة لقوله: وإن اختلفوا في جواز كونها قاضية إلى آخره. قال
الحافظ في الفتح (١٣/ ٧١) عند حديث أبي بكرة قال: قال رسول الله :
«لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ».

قال ابن التين: احتج بحديث أبي بكرة من قال لا يجوز أن تتولى المرأة القضاء،
هو قول الجمهور. اهـ

قلت: وهو الراجح لأن الحديث يدل عليه.



(١) وهذا ابتداءً أما إن استتب الأمر لغير القرشي، فيجب علينا السمع والطاعة، ولا يجوز الخروج عليه
بحال، إلا أن يرى كفراً بواحاً على ما تقدم.

كفرنا بالديمقراطية

الديمقراطية كلمة يونانية، تتكون من مقطعين:

١ - ديمو، ومعناها: الشعب.

٢ - قراطس، ومعناها السلطة.

والكلمة مجملة، تعني: (سلطة الشعب)، وبتعبير آخر (حكم الشعب نفسه

بنفسه).

نشأتها:

هذه الفكرة بزغت من عصور متقدمة، -أي قبل الميلاد-، وقد شهدت مدينتي أثينا وإسبراط اليونانيتين تطبيق هذه الفكرة، وقد عبر عنها أفلاطون بقوله: إن مصدر السيادة هو الإرادة المتحدة للمدينة، أي الشعب، في حين وضع أرسطو أنواع الحكومات فقال: إنها ثلاث ملكية، وأرستقراطية، وجمهورية، أي، يتولى الشعب زمام أموره بنفسه.

ثم اندثرت بعد ذلك الديمقراطية، وعاشت أوروبا تحت نظام الإقطاع لقرون طويلة، ثم ظهرت من جديد حيث لعبت الأيدي اليهودية بجد على ظهورها تحت شعار ما يسمى بـ(الماسونية)^(١) وغيرها من الشعارات.

(١) الماسونية لغة: معناها البنائين الأحرار.

وهي في الاصطلاح: منظمة يهودية سرية هدامة إرهابية غامضة، محكمة التنظيم، تهدف إلى ضمان سيطرة اليهود على العالم، وتدعو إلى الإلحاد والإباحية والفساد، وتتستر تحت شعارات خداعة (حرية - إخاء - مساواة إنسانية)، جل أعضائها من الشخصيات المرموقة في العالم، من يوثقهم عهداً بحفظ الأسرار.

وكان للمفكر الإنجليزي (جون لوك) دور كبير في الدعوة إلى مبادئ الديمقراطية في القرن السابع عشر ضد السلطان المطلق للملوك، وتأثيره الكبير في المفكرين عامة، خلال القرن الثامن عشر خاصة، (فولتير) و(مونتسكيو) و(روسو) من المفكرين الفرنسيين أدى ظهور هؤلاء المفكرين إلى قيام الثورة الأمريكية، وإعلان الاستقلال عام ١٧٧٦م، وتقرير مبدأ الحقوق والحريات للأفراد.

وقامت قبل ذلك الثورة الإنجليزية عام ١٦٤٩م وعام ١٦٨٨م، وأعلنت وثيقة الحقوق سنة ١٦٨٩م التي أرست النظام البرلماني.

وكان لتعاليم دعاة الديمقراطية خاصة (روسو) وقيام الثورة الإنجليزية وبعدها الأمريكية، وبداية المناادة بها في الثورة الفرنسية، تحت شعار الحرية، الإخاء، المساواة. ثم بلورت ذلك في إطار قانوني ملزم، وكان ذلك في إعلان الحقوق الفرنسي

- = و يقيمون ما يسمى بالمحافل للتجمع والتخطيط والتكليف بالمهام، تمهيداً لتأسيس جمهورية ديمقراطية عالمية، كما يدعون، وتتخذ الموصولية والنفعية أساساً لتحقيق أغراضها في تكوين حكومة لا دينية عالمية؛ اه انظر بتوسع: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة (ص ١/ ٦٥).
- وقال صاحب كتاب الماسونية، ذلك المحفل الشيطاني الخفي (ص ١٧)، أهداف الماسونية:
- ١- القضاء على جميع الأديان تحت شعار (الدين لله والوطن للجميع).
 - ٢- تكوين جمهورية ديمقراطية لا دينية عالمية فوضوية.
 - ٣- جعل الماسونية سيادة الأحزاب.
 - ٤- القضاء على الأخلاق.
 - ٥- نشر الإباحية والانحلال.
 - ٦- إسقاط الحكومات الشرعية.
 - ٧- تسليح الشعوب المتصارعة لإشعال نار الفتنة.
- ومن هذه اللوحة القصيرة يظهر لك أن الديمقراطية هي الولد البار للماسونية، كما سنبين في الفصول القادمة إن شاء الله. المذاهب والتيارات (٢٠٩-٢٢١)، المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها (٢٥).

الصادر عام (١٧٨٩م)، حيث جاء في المادة الثالثة: "الأمة مصدر السيادة ومستودعها وكل شخص يتولى الحكم إنما يستمد سلطته منها".

ثم بثّ في الدستور الفرنسي الصادر عام (١٧٩١م)، فنص على أن السيادة ملك للأمة، ولا تقبل التجزئة ولا التنازل عنها ولا التملك بالتقادم.

فتلخص من هذا: أن الثورة الفرنسية، ومن قبلها الأمريكية والإنجليزية نقلت المبدأ الديمقراطي الذي نادى به المفكرون إلى مبدأ وضعي مطبق بالفعل، ومنصوص عليه في دساتير الحكم المختلفة.

ثم انتشرت فكرة الديمقراطية بين الدول العالمية، وجميعهم استقوها من فرنسا.

فتأمل وفقك الله هذه التعاريف، وهذه القوانين كيف جعلت الحكم للشعب، والسلطة له، وتناست أن الحكم لله جلّ وعز، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وقال أيضاً: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

فنحن عبيد الله، والكون ملك الله يسيره كيف يشاء، فينبغي أن نسير على ما يحبه ويرضاه، ونجتنب ما يبغضه ويأباه.

ولما كان الكمال لله فإنه قد شرع للأمة شرعاً محكماً قال تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ

حَكِيمٍ حَمِيدٍ [فصلت: ٤٢]، إلى غير ذلك، تجد أخي المسلم وفقك الله، أن النظام الديمقراطي يشوبه الخلل، والتخبط، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

وإليك في هذه العجالة بعض المفاصل التي يعترف بها الديمقراطيون أنفسهم، مع عجزهم عن البحث عن البديل، لأنهم لا يعلمون سبيلاً للتخلص منها، إلا بالدكتاتورية، وهذا مرفوض، أما عندنا نحن المسلمون، فإن البديل هو كتاب الله ، وسنة نبيه .

١- مبدأ سيادة الأمة الذي يدندنون به غير معمول به، بل صنع القرار يكون للأغلبية النيابية، لا لكل الأمة.

٢- الأغلبية التي يزعمونها: إنها تمثل الأقلية المتفردة الذين وصلوا إلى هذه المناصب، بالغش والتزوير، وشراء الأصوات والذمم.

٣- موالاة الأفراد والنواب، لأحزابهم، لا لمصالح شعبهم كما هو معلوم.

٤- لا ينظر الديمقراطيون إلى الكفاءة والتخصص، وإنما ينظرون إلى عدد الأصوات والأغلبية.

٥- توزيع السلطات بين الأحزاب على حسب مقاعدهم، من غير نظر إلى مصلحة الشعب كما يزعمون.

٦- تقوم أيضاً هذه الفكرة على تساوي الأفراد في الحقوق السياسية، مع اختلاف كفاءتهم.

٧- استبداد مجالس النواب بالقرار، ومحاسبة الحكومة.

٨- غياب دور المجالس النيابية في وقت الأزمات^(١).

مبادئ الديمقراطية:

١- سيادة الأمة، فمن المعلوم أن السيادة المطلقة لله ، فعند أن قالوا لرسول الله : يا سيدنا، قال: «السَّيِّدُ اللهُ»، فهو الذي حقه أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى، وهو السيد الكامل الحمد، ونحن عبده، والكون ملكه، لا إله مع الله.

٢- الحكومة النيابية. ومعناها أن الحكومات يشكلها ويوافق عليها المجالس النيابية المنتخبة من قبل الشعب.

٣- فصل السلطات: تشريعية: وهي التي تسن القوانين، تنفيذية: وهي التي تعمل على تنفيذ هذه القوانين الوضعية، قضائية: وهي التي تفصل بين المتخاصمين بهذه القوانين الوضعية.

٤- علو الدستور الوضعي، و معنى هذا أن لا صوت يعلو فوق الدستور، ولو كان كتاب الله وسنة رسول الله .

٥- الحقوق الفردية، أو الحريات العامة.

٦- تعدد الأحزاب، والطوائف.

فانظر وفقك الله إلى هذه المبادئ، وكيف تتعارض مع الكتاب والسنة، والدين الإسلامي.

(١) راجع الأنظمة السياسية المعاصرة للدكتور يحيى الجمل (ص ١٩٣-١٩٧).

قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣]، ونظرية سيادة الشعب منبعها من عند أعداء الله الكفار في أوروبا عند أن أرهقهم حكامهم الذين يحكمون بدينهم المحرف المبدل، فجعل الملوك السيادة العليا لهم، وجعل الناقمون عليهم السيادة، للشعب.

أما نحن والحمد لله في الشريعة الإسلامية فقد جعل الله سبحانه وتعالى ضوابط على الحكام لا يتجاوزونها، وإلا أصبحوا من الظالمين، وضوابط على المحكومين لا يتعدونها، حتى تسير الدولة الإسلامية على طريقة مرضية لله رب العالمين.

والسيادة المطلقة في ديننا الإسلامي، هي حق الله تعالى، فلا ينازع جل وعز في سلطانه، إذ له الخلق والأمر، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

فإذا كان الشعب، هو الذي يشرع قانونه، وهو الذي يتولى تنفيذ قوانينه، ويتقاضى ويتحاكم إلى هذه القوانين، فهل بقي شيء لرب العالمين، الذي نحن عبيده، فلا يجوز لنا مخالفة أمره ونهيه.

وقد تقدم أن الله قد أكمل الدين وأتمه فلا حاجة إلى هذه الشعارات البراقة، والدعيات الزائفة، ولماذا لا تكون هذه الثلاث السلطات، تسير على نهج الله، وشرع الله، فالله صاحب الخلق، وصاحب الأمر كما قال مخبراً عن نفسه ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وقال: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١]، وقال سبحانه مخبراً أن التشريع تام والدين كامل: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]؛ انتهى ملخصاً من كتابي الأدلة الرضية لبيان حكم الديمقراطية وهو مطبوع، والحمد لله.



القول في الانتخابات

قولنا في الانتخابات أنها محرمة لأمر أجملها في الآتي:

١ - هذه الانتخابات تقليد للكافرين، والله يقول: ﴿مُيَبِّينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿[الروم: ٣١-٣٢]، ورسول الله يقول: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ» فهل تحبُّ أن تكون مثل الكافرين؟! سائرا على طريقهم، متشبهًا بهم، مع أنهم شرّ البرية، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦]، فالمسلم الذي يتشبه بالكفار في أي نوع من أنواع التشبه الظاهر، في لباسه أو عاداته أو حركته، يدلّ على وجود شعور باطني وإن لم يجاهر بمودة من يتشبه بهم، ويدلّ التشبه أيضا على أنّ المتشبه يرى نفسه أدنى من المتشبه به.

٢ - الانتخابات فيها مساوات الرجل بالمرأة، والحرّ بالعبد، والعاصي الفاسق بالمتقي الطائع، والعالم بالجاهل، والله يقول: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ [المائدة: ١٠٠]، ويقول: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦]، ويقول: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿[القلم: ٣٥-٣٦]، ويقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

أين عقولكم يا معاشر المسلمين، حين تصبح شهادة أحدكم بشهادة امرأة؟! وربّما تكون مغنيّة سافرة، أو زانية فاجرة.. أين عقولكم؟! حين يصبح صوت السكّير وصوت العالم سواء؟! فهل من مدّكر؟!

٣- هذه الانتخابات فيها التصوير لذوات الأرواح، ورسول الله لعن المصور كما في حديث أبي جحيفة عند البخاري، وقال: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُفِّرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يُنْفَخَ فِيهَا الرُّوحُ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ»، ويقول: «تَخْرُجُ عُقُقٌ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهَا عَيْنَانِ تُبْصِرَانِ وَأُذُنَانِ تَسْمَعَانِ وَلِسَانٌ يَنْطِقُ، يَقُولُ: إِنِّي وَكَلْتُ بِثَلَاثَةٍ» وذكر منهم «وَبِالمُصَوِّرِينَ» فأين أنت يا مسكين؟! يا من تخدم حزبك أو شيخك، أو مرشحك، من هذا الوعيد العظيم، وأدهى وأمر وأقبح وأشر هو تصوير النساء، فيا أيها المسلمون!! أين غيرتكم حتى ترضوا بخروج محارمكم للتصوير؟! ينظر إليها البرّ والفاجر، والعراصة يتغزلون فيهن ويشبّون بهنّ، فرسول الله يقول: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ دَيْوُثٌ» وقد كان الجاهليّون على ما فيهم من الشرّ المستطير، كلّ شيء عندهم يهون إلّا العرض، ونحن في هذه الأزمان كثير من المخدولين يخرجون نساءهم بأيديهم إلى هذا الشرّ.

٤- هذه الانتخابات فيها قول الزور والكذب، ورسول الله يقول: «أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِأكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟»، ثلاثاً، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الإِشْرَاكُ بِاللّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ - وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَكِيًا فَقَالَ - أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ»، وقد امتدح الله المؤمنين بأنهم لا يشهدون الزور: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، فكن أخي المسلم متّقياً لله فيما تفعل وتذر، ولا تكن مزوراً غشاشاً كذاباً من أجل حطام الدّنيا الفاني، وبعضهم لا يحصل على شيء، وإنّما هي الفتنة.

٥- هذه الانتخابات يقع فيها إزهاق الأنفس، عصبية لحزب، أو مرشح، وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا

وَعَزِيبَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ، وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ [النساء: ٩٣]، ورسول الله يقول: «لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصَبْ دَمًا حَرَامًا»، ويقول: «وَمَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ بِمِلءٍ كَفِّهِ مِنْ دَمٍ أَهْرَاقَهُ فَلْيَفْعَلْ».

٦- هذه الانتخابات فيها الخروج على الحاكم المسلم، ومنازعته ملكه، ورسول الله يقول: «مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ بِجَمِيعٍ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ، يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ، أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ، فَاقْتُلُوهُ» ويقول: «إِذَا بُوِيعَ لِخَلِيفَتَيْنِ، فَاقْتُلُوا الْآخَرَ مِنْهُمَا»، ويقول: «يَا عُثْمَانُ، إِنَّ اللَّهَ عَسَى أَنْ يُلْبِسَكَ قَمِيصًا، فَإِنْ أَرَادَكَ الْمُنَافِقُونَ عَلَى خَلْعِهِ، فَلَا تَخْلَعْهُ».

٧- الانتخابات من شارك فيها كان محادًا لله ، لأنه يساهم في صعود من يستبعد الشريعة الإسلامية بالقوانين الوضعيّة، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، والانتخابات داخلية في الإشراف بالله، لا سيما شرك الطاعة، حيث ومن المعلوم أن الانتخابات وليدة النظام الطاغوتي الكافر الذي وضعه أعداء الإسلام اليهود، وأخذة عنهم النصارى.

٨- الانتخابات تعتمد على الأكثرية، والله يقول: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] ويقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، فالذي يفوز هو من كانت أصواته أكثر، وأكثر الناس في زمان الفتن -هذه- غوغاء، لا يهتمهم الحق، وإنما بغيتهم الحصول على مطاعم الدنيا، من حلال أو من حرام، ومن المعلوم أن السارق ينتخب السارق، والسكير ينتخب السكير، الحزبي الحزبي، وهلم جرا، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ

يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال أيضا: ﴿وَإِنْ وَجَدْنَا
أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢].

٩- الذين يدخلون في الانتخابات ليس مقصدهم نصر الرجل المناسب كما يزعمون، ولكن كل أبناء حزب أو طائفة يحاولون نصر مرشحهم، حتى وإن كان من أفسق خلق الله، فالإخوان المسلمون يرون أنهم هم الصالحاء مع ما هم فيه من الحزبية والبدعة، والفساد العظيم الذي ججروه على الأمة باسم الدين، والمؤتمريون على ذلك، والاشتراكيون مع كفرهم وبغيهم يرون أنهم على الحق، وكذا البعثيون وكل مبطل يظن ذلك في نفسه، ولا حق إلا في موافقة الكتاب والسنة وأتباع سلف الأمة:

وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداء من خلف
وغيرهم كذلك، وصدق الله إذ يقول: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

١٠- المرشحون يزكون أنفسهم، ويكذبون الكذبة التي تبلغ الآفاق، وقد نهى الله عن تزكية النفس بقوله: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢] ويخشى عليهم بسبب كذبهم على الناس، وخداعهم أن يصيبهم مثل ما في حديث سمرة بن جندب، وفيه: قال رسول الله: «وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ، يُشَرُّ شَرُّ شِدْقُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخَرُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ، فَيَكْذِبُ الْكَذْبَةَ تَبْلُغُ الْآفَاقَ»؛ أخرجه البخاري.

١١- المرشحون همهم إرضاء مرشحيهم بصورة أو بأخرى، وليس من همهم رضي الله أو لم يرض، والدليل على ذلك تقربهم للروافض وللحزبيين والصوفية

والعصاة، وغير ذلك من دون نكير عليهم، ونخشى عليهم من حديث عائشة : «وَمَنِ التَّمَسَّ رِضَاءَ النَّاسِ بَسَحَطَ اللَّهُ وَكَلَّهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ».

هذه بعض المفاصد التي الواحدة منها كفيلة بتحريم الانتخابات، وكل ما ذكر وغيره من مفاصدها يعتبر من كبائر الذنوب، ولا تكفرها الصلاة ولا القيام، بل ولا الصيام والصدقة، ولا بد لها من توبة، ناهيك عن تضييع الأموال والتخوض فيها بغير حق، وتضييع الأوقات وأذية المسلمين بتعليق صور المرشحين في الشوارع والحارات والطرق.

قد يسأل بعضهم: كيف نختار إمام المسلمين؟؟! أو رئيس الجمهورية؟؟! قلنا لهم: افعّلوا ما فعله أسلافكم من الصحابة والتابعين، فإمام المسلمين ينصب بثلاث طرق:

الأولى: عهد الإمام أو الرئيس السابق له.

الثانية: يجتمع أهل الحل والعقد، من العلماء والأعيان والعقلاء، ويختارون رئيساً لهم.

الثالثة: إن أخذها قهراً لا يخرج عليه.

شبه والرد عليها:

الشبهة الأولى أن الانتخابات هي الشورى!!!

قلنا لهم: كذبتهم وأيم الله، فإن بين الشورى والانتخابات بون شاسع وفرق واسع.

الشورى من الله، والانتخابات من عند أعداء الله الكفار.

الشورى غير ملزمة، والانتخابات ملزمة.

الشورى فيما لا يخالف الكتاب والسنة، والانتخابات لا يهمهم خالفوا الكتاب والسنة أو لا.

الشورى في أمور الدولة تختص بالرجال الأكفاء، من علماء وعقلاء، والانتخابات يشترك فيها البر والفاجر، والرجال والنساء جميعاً^(١).

إن الشورى نظام إسلامي حكيم أمر الله به، ورغب فيه، وجعل له شروطاً وضوابط حتى تكون الشورى سديدة، والشورى هي أبداء الرأي للمنصوح، بطلب أو بدون طلب، وهي غير ملزمة على الصحيح، ومن شروط المستشار:

١- عقل كامل مع تجربة سالفة.

٢- أن يكون ذا دين وتقى، ويجوز أن يستشار الذمي في أمور الدنيا، وفي شئون قومه إذا لم يُعلم منه تواطئ ضد المسلمين.

٣- أن يكون ناصحاً ودوداً.

٤- أن يكون سليم الفكر من هم قاطع.

٥- أن لا يكون له في الأمر المتسشار فيه غرض.

وقد أمر الله نبيه بمشاورة أصحابه بقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل

عمران: ١٥٩].

(١) ملخص من رسالتي حكم الانتخابات .

ومدح المؤمنين الذين يتشاورون بقوله: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:

٣٨]، والحديث عن الشورى حديث طويل، لكن الذي نود تقريره في هذا المقام أنه لا يوجد بين الشورى والديمقراطية سبب ولا نسب.

أ- فالشورى أساساً جزء من نظام متكامل قائم على الإيمان بأن السيادة للشرع المنزل من عند الله العلي الكبير على محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلّم فالأمر كله لله والحكم كله لله والتشريع كله لله، والديمقراطية مذهب قائم على الإيمان بأن السيادة للبشر المخلوقين الربوبين، فالأمر كله لهم والحكم كله لهم والتشريع كله لهم، الحلال ما أحلوه، والحرام ما حرموه، الطيب ما استحسّنوه، والقبيح ما استقبحته نفوسهم.

ب- والشورى انطلاقاً من نظام الإسلام القائم على أن سيادة الشرع لها نطاق محدد لا تتعداه، فهي شورى مقيدة بالأحكام الشرعية لا تخرج عليها ولا تخالفها.

وأما الديمقراطية فالأمر فيها مطلق، ويمكن للناس عليها، أن يتناقشوا أو يتباحثوا ويقرروا في النهاية ما لا يمكن أن يخطر على فكر رجل مسلم، وليس حكاية زواج رجل برجل مثله منا بعيد. وهذه حصلت في بريطانيا.

ج- الشورى في النظام الإسلامي ليست حقاً، لكل الناس على اختلاف قدراتهم، واستعداداتهم، وميولهم وإنما للشورى أهلها وهم الثقات العدول أهل الاختصاص والخبرة في كل ما تطلب فيه الشورى.

بينما النظام الديمقراطي لا يفرق بين العالم والجاهل، وبين الحكيم والسفيه، بل كل من استطاع أن يحصل على أكبر عدد من أصوات الناخبين، حتى ولو كان بطريق

الكذب والخداع، فهو عندهم من أهل الشورى، وله حق التصويت، ولهم حق التشريع.

د- الشورى معيار الصواب فيها اتباع الدليل أو القواعد الشرعية، وتحقيق مصلحة الأمة الإسلامية. بينما النظام الديمقراطي يجعل الكثرة أيا كانت هي معيار الصواب^(١).

شبهة الضرورة، والإكراه:

توسع الناس في هذا الأمر الذي هو ثابت بالكتاب والسنة، قال الله عز وجل: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]، وقد تكلم العلماء رحمهم الله عز وجل فيما يحصل به الإكراه، قال النووي - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - في روضة الطالبين (٥٨/٨-٦٠): فصل في بيان الإكراه: يشترط فيه كون المكره غالبًا قادرًا على تحقيق ما هده به، بولاية، أو تغلب، وفرض هجوم، وكون المكره مغلوبًا عاجزًا عن الدفع بفرار أو مقاومة، أو استعانة بغيره، ويشترط أن يغلب على ظنه أنه إن امتنع مما أكرهه عليه، أوقع به المكروه. وقال أبو إسحق المروزي: لا إكراه إلا بأن ينال بالضرب. والصحيح الذي قطع به الجمهور، عدم اشتراط تنجيز الضرب وغيره بل يكفي التوعد. وفيما يكون التخويف به إكراهًا، سبعة أوجه. أحدها: القتل فقط. حكاة الحناطي والامام. والثاني: القتل، أو قطع طرف، أو ضرب يخاف منه الهلاك، قاله أبو إسحاق. والثالث: قاله ابن أبي هريرة وكثيرون: أنه يلحق بما سبق أيضًا الضرب الشديد، والحبس، وأخذ المال، وإتلافه، وبهذا قال أبو علي في الإفصاح وزاد عليه فقال: لو توعد بنوع استخفاف، وكان

(١) من كتابي الأدلة الرضية في بيان حكم الديمقراطية، وانظر حقيقة الديمقراطية ص (٦٩-٧٠) للشريف. و المسلمون وسراب الديمقراطية للرحال ص (٤٧).

الرجل وجيها يغض ذلك منه، فهو إكراه. قال هؤلاء: فالضرب والحبس والاستخفاف، يختلف باختلاف طبقات الناس وأحوالهم. والتخويف بالقتل والقطع وأخذ المال، لا يختلف. وقال الماسرجسي: يختلف بأخذ المال، فلا يكون تخويف الموسر بأخذ خمسة دراهم منه إكراها قال الروياني: هذا هو الاختيار، فهذه الأوجه هي الموجودة للمتقدمين من العراقيين وغيرهم. وأصحها: الثالث، وصححه الشيخ أبو حامد وابن الصباغ وغيرهما. والرابع: أن الإكراه لا يحصل إلا إذا خوفه بما يسلب الاختيار، ويجعله كالهارب من الأسد الذي يتخطى النار والشوك، ولا يبالي، فعلى هذا الحبس ليس بإكراه. وكذا التخويف بالإيلاء الشديد. قال الإمام: لكن لو فوتح به، احتمل جعله إكراها. والخامس: لا يشترط سقوط الاختيار، بل إذا أكرهه على فعل يؤثر العاقل الإقدام عليه حذرًا مما تهدده به، حصل الإكراه. فعلى هذا، ينظر فيما طلبه منه وما هدده به، فقد يكون الشيء إكراهًا في مطلوب دون مطلوب، وفي شخص دون شخص. فإن كان الإكراه على الطلاق، حصل بالقطع وبالتخويف بالحبس الطويل، وبالتخويف ذوي المروءة بالصفع في الملا، وتسويد الوجه والطوف به في السوق. وقيل: لا يكون التخويف بالحبس وما بعده إكراها، وطرد هذا الخلاف في التخويف بقتل الولد والوالد، والصحيح في الجميع، أنه إكراه. والأصح أن التخويف بإتلاف المال ليس إكراها على هذا الوجه، وإن كان الإكراه على قتل فالتخويف بالحبس، وقتل الولد، وإتلاف المال ليس إكراها. وإن كان الإكراه على إتلاف مال، فالتخويف بجميع ذلك إكراها. وقيل: لا يكون التخويف بإتلاف المال إكراه في إتلاف المال. الوجه السادس: أن الإكراه إنما يحصل بالتخويف بعقوبة تتعلق ببدن المكره، بحيث لو حققها تعلق به قصاص، فيخرج عنه ما لا يتعلق ببدنه، كأخذ المال وقتل الوالد والولد، والزوجة، والضرب

الخفيف، والحبس المؤبد، إلا أن يخوفه بحبس في قعر بئر يغلب منه الموت. واختار القاضي حسين هذا. الوجه السابع: لا يحصل الإكراه إلا بعقوبة شديدة تتعلق ببدنه، فيدخل فيه القتل والقطع، والضرب الشديد، والتجويع والتعطيش، والحبس الطويل، ويخرج ما خرج عن الوجه السادس، ويخرج عنه التخويف بالاستخفاف بإلقاء العمامة والصفع، وما يخل بالجاء. واستبعد الإمام من هذا الوجه، دخول الحبس وخروج قتل الولد، وأما التخويف بالنفي عن البلد، فإن كان فيه تفريق بينه وبين أهله، فالحبس الدائم، وإلا فوجهان. أحدهما: إكراه، لأن مفارقة الوطن شديدة، ولهذا جعلت عقوبة للزاني، وجعل البغوي التخويف باللواط، كالتخويف بإتلاف المال، وتسويد الوجه. وقال: لا يكون ذلك إكراها على القتل والقطع. وفي كونه إكراها في الطلاق والعتاق وإتلاف المال، وجهان. قلت: الأصح من هذا الخلاف المنتشر، هو الوجه الخامس، لكن في بعض تفصيله المذكور نظر. اهـ

وقال تقي الدين الحصني في كتاب القواعد (٣٠٦/٢) في بيان شروط الإكراه: "اعلم أنه لا بدّ في ذلك كله من أمور:

أحدها: أن يكون المَكْرَه قادراً على تحقيق ما هدد به، إما لولاية أو تغلب أو فرط هجوم.

الثاني: أن يكون المَكْرَه عاجزاً عن الدفع، فإن قدر بمقاومة أو استغاثة أو فرار ونحوه فلم يفعل لم يكن مَكْرَهاً.

الثالث: أن يكون الأمر المتهدد به مما يحرم على المكروه تعاطيه منه، فل قال ولي القصاص للجاني: طلق امرأتك وغلا اقتصصت منك، لم يكن ذلك إكراهاً.

الرابع: أن يكون المتهدد به عاجلاً، ويغلب على ظن المكلف به أن يوقعه ناجزاً إن لم يفعل ما أمره به، فلو قال: أقتلك غداً أو نحو ذلك لم يكن إكراهاً. اهـ

تبين مما سبق بعض ما يتعلق بهذه القاعدة وشروط ذلك، فلا حجة إذن لكثير من الأمور التي يتعاطاها أصحابها بعذر الإكراه.

مراتب الإكراه:

قال ابن عادل في اللباب (١٢/ ٢١٥): الإكراه له مراتب: أحدها: أن يجب الفعل المكروه عليه؛ كما لو أكره على شرب الخمر، وأكل الخنزير، وأكل الميتة، فإذا أكره عليه بالسيف فهأهنا، يجب الأكل؛ وذلك لأن صون الروح عن الفوات واجبٌ، ولا سبيل إليه في هذه الصورة إلا بالأكل، وليس في هذا الأكل ضررٌ على حيوان، وإلا إهانةٌ لحقَّ الله، فوجب أن يجب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقْفُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى الْهَلَكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

المرتبة الثانية: أن يصير ذل كالفعل مباحاً ولا يصير واجباً؛ كما لو أكره على التلفُّظ بكلمة الكفر، فههنا يباح له ذلك، ولكنه لا يجب.

المرتبة الثالثة: أنه لا يجب ولا يباح، بل يحرم؛ كما لو أكرهه إنسان على قتل إنسان، أو على قطع عضو من أعضائه، فههنا يبقى الفعل على الحرمة الأصلية، وهل يسقط القصاص عن المكره أم لا؟

قال الشافعي: في أحد قوليه: يجب القصاص؛ لأنه قتله عمداً عدواناً، فوجب عليه القصاص؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وأيضاً: أجمعنا على أن المكره إذا قصد قتله فإنَّ له أن يدفعه عن نفسه ولو

بالبقتل، فلما كان يومهم إقدامه على القتل، أوجب إهداء دمه، فلأن يكون عند صدور القتل عنه حقيقة يصير دمه مهدراً أولى. اهـ

وتوسعوا في قاعدة الاضطرار، لكن ما هو الاضطرار الذي يجوز فيه ارتكاب المحذور الشرعي؟ فترجع المسألة إلى ما قلناه في باب الإكراه.

وتقديم أدنى المفسدتين:

المفسدة العظيمة تقع بمشابهة الكفار، والأخذ بطريقتهم، فيقع بسبب ذلك الشرك فما دونه، ومفاسد الانتخابات راجحة، ومصالحها ضنية، ثم إن الانتخابات لم توجد لتحكيم شرع الله، وإنما لزعزحته، وإلغائه، ومحاربتة فالذي يقول أنه ينتخب، أو يدخل في المجالس النيابية لتحكيم الشرع: فهو كاذب في دعواه، ملبس بصنيعه، وبلواه، بل الواقع أنه يساهم في نشر الباطل، من حيث أنه قد ارتضى الطريقة نفسها بدلا عن شريعة الإسلام.

قال العلامة الوادعي رحمه الله في تحفة المجيب:

وقد كنت منذ نحو ست أو سبع سنوات في جامع الدعوة بصنعاء وقلت: إن كان ولا بد فليختاروا الرجل الصالح، فهذه زلة أستغفر الله منها، ثم إننا لم نكن قد عرفنا مجلس النواب الطاغوتي الذي فيه احترام الرأي والرأي الآخر. وكذلك في الأهداف التي وزعوها في العام الماضي: الاعتراف بقرارات الأمم المتحدة، وقد أغنانا الله بالكتاب والسنة.



كفر القول بوحدة الأديان أو التقارب بينها

القول بوحدة وتقارب واتحاد الأديان وحوارها بالصورة التي يريدونها يلزم منها ويترتب عليها إبطال لأبواب عظيمة وأحكام جسيمة وشرائع جليلة قديمة من هذا الدين الخفيف الصحيح، بما يؤدي إبطالها إلى الكفر والعياذ بالله، ومنها:

أولاً: إلغاء حق الله سبحانه وتعالى في إفراذه بالعبادة.

ثانياً: الطعن في الله وحكمته وعدله وعلمه بحيث أيد محمدًا وهو على هذه الطريقة، وكذا الطعن في رسوله .

ثالثاً: هذا القول منهم يؤدي إلى الطعن في كتاب الله المنزل على محمد وهو القرآن لأن فيه الدعوة والبيان لضلال دين اليهود والنصارى.

رابعاً: في هذه الدعوة طعن في رسالة محمد من أسها إلى رأسها لأنها دعوة ناسخة لما قبلها من الدعوات.

خامساً: في هذه الدعوة إلغاء أحكام أهل الذمة بل وأن من سلف من النبي ومن دونه من الصحابة والخلفاء ظلموا أهل الذمة بأخذ الجزية منهم إلى غير ذلك.

سادساً: في هذه الفكرة دعوة إلى إلغاء أحكام المواريث في الكتاب والسنة، وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أسامة بن زيد ، أن النبي قال: «لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ وَلَا الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ»، وهؤلاء ليس عندهم تفريق بين أهل الأديان.

سابعاً: القول بهذه الفكرة دعوة إلى إلغاء أحكام نكاح المسلمين وتحريم نكاح الكافرين، والله يقول: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُمْ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [المتحنة: ١٠]. ويقول سبحانه: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ وَلَا مُمْمِنَةٌ

خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَبَيِّنَ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿البقرة: ٢٢١﴾، ولا يكون الكافر ولياً للمسلمة.

ثامناً: هذا القول يؤدي، بل قد أدى في بعض البلدان، إلى الدعوة إلى إلغاء أحكام الردة بين المسلمين، ومن المعلوم أن طاعة أهل الكتاب سبب للردة والعياذ بالله، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فِرْقَانِ الَّذِينَ ءُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، وتحصل الردة أيضاً بالرضى بما عليه اليهود والنصارى من دينهم المنسوخ والمحرف والمبدل.

تاسعاً: القول بهذه الدعوة يضعف جانب الولاء والبراء. قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المتحنة: ١].

عاشراً: القول بهذه الدعوة يُضعف جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبيانه أن الراضي بهذا المبدأ قد ارتضى ما عليه اليهود والنصارى.

الحادي عشر: ويلزم من هذا القول إلغاء شعيرة دعوة الكفار إلى دين الله الحق الذي أنزله الله تعالى على محمد ، لأنها قد تمت موافقتهم على دينهم.

الثاني عشر: ويلزم من هذا القول تعطيل منهج الجرح لأهل الباطل والتعديل لأهل الحق، مع أن الإجماع قائم عليه، وإذا كان منهج اليهود والنصارى المحرّف المبدّل منهج مقبول على حد زعمهم، فمن باب أولى السكوت عن أهل البدع من المسلمين لأنهم أقرب من هؤلاء.

الثالث عشر: فيه الطعن في الصحابة : من حيث أنهم ما تقاربوا مع اليهود والنصارى، بل قاتلوهم، وأجلى عمر بن الخطاب من تبقى من يهود خيبر، ولم يكن لهم نكير في ذلك، وأيضا استباحوا أموالهم وسبوا نسائهم وأخذوهم رقيقا، إلى غير ذلك.

الرابع عشر: فيه تكريم العصاة والملحدين وإقصاء المستقيمين.

الخامس عشر: فيه الطعن في رسل الله سبحانه وتعالى. وجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام يدعون إلى عبادة الله الحق: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وهؤلاء يقربون هؤلاء المشركين من عباد عزيز والمسيح عليه السلام وغيرهم، وأيضا اليهود قتلوا كثيرا من الأنبياء عليهم السلام وكذبوهم، قال تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

السادس عشر: فيه الرضى بالطعن في الله ، فاليهود والنصار كل منهم يزعم لله الولد والشريك، وأخرج الإمام البخاري في صحيحه (٤٤٨٢) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: قَالَ اللَّهُ: ﴿كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَرَعَمَ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لِي وَلَدٌ، فَسَبَحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا﴾.

السابع عشر: فيه الرضى بالطعن في جبريل والملائكة عليهم السلام. واليهود عدوهم جبريل عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا

لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٧﴾ [البقرة: ٩٧-٩٨].

الثامن عشر: فيه الرضى بالكتب المحرفة تفصيلاً.

التاسع عشر: فيه تعطيل أحكام جنائز الكافرين وإلحاقهم بالمسلمين.

العشرون: فيه جواز الدعاء للكافرين، لأنهم إخوان للمسلمين، على حد تعبير أصحاب الحوارات التقاربية.

الحادي والعشرون: فيه الرضى بالشركيات والبدع والخرافات.

الثاني والعشرون: فيه جواز بدائهم بالسلام وعدم التضييق عليهم في الطريق، وهذا خلاف ما عليه ديننا الإسلامي.

الثالث والعشرون: فيه إهدار الكتب والعلم والتعليم.

الرابع والعشرون: فيه تعطيل أحكام الكافرين في الآخرة، من تخليدهم في النار وخزيهم وغير ذلك، فقد أخرج الإمام مسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ».

الخامس والعشرون: فيه احترام الرأي والرأي الآخر، بيانه أنه إذا كان اليهود والنصارى على حق، والإسلام على حق، فلكل من هؤلاء احترام أفكار بعضهم بعضاً، وهذا فيه من الفساد ما الله به عليم.

السادس والعشرون: فيه تقديم الكتاب والسنة للمفاوضات، ومعارضته بالكتب المحرفة والآراء الهدامة والعقول الكاسدة.

السابع والعشرون: فيه إلغاء عزة المؤمنين وإعزاز من أذهم الله من اليهود والنصارى الكافرين، يقول ربنا: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]. وهؤلاء جعلوا المسلمين كالكافرين في هذا الباب وغيره، والله المستعان، ﴿أَفَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ [القلم: ٣٥-٣٦].

الثامن والعشرون: المساواة بين المساجد والكنائس في الأحكام.

التاسع والعشرون: الرضا بصلاة اليهود والنصارى الباطلة المخالفة لصلاة المسلمين.

الثلاثون: فيه الرضا بحج الكفار إلى المشاهد والأماكن المبتدعة الشركية، ومساواة ذلك بحج المسلمين إلى البلد الأمين.

الحادي والثلاثون: فيه المساواة بين طهارة المسلمين ونجاسة الكافرين.

الثاني والثلاثون: فيه جواز عتق رقبة من اليهود والنصارى في الكفارات، مع أنه لا تجزئ في الكفارات إلا رقبة مؤمنة على الراجح من أقوال أهل العلم؛ لقول الله تعالى: ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

الثالث والثلاثون: فيه القول بالمساواة مع المسلمين.

الرابع والثلاثون: فيه جواز دفع الزكاة إلى الكافرين، مع أن مصارفها ثمانية معروفة في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوقِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠]، ورسول الله ، يقول: «فَاعْلَمَهُمْ أَنَّ اللَّهَ

افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ، تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ»، متفق عليه،
عن معاذ .

الخامس والثلاثون: فيه جواز الإمارة فيهم، ويقول الله : ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]. ورسول الله يقول: «اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنْ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»، أخرجاه، من حديث عبادة بن الصَّامِتِ .

السادس والثلاثون: فيه عدم الخروج على الحاكم الكافر.

السابع والثلاثون: فيه جواز النصرة لهم.

الثامن والثلاثون: فيه تولي من حادَّ الله ورسوله .

التاسع والثلاثون: فيه إثبات الإيمان لهم، والله يقول: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

الأربعون: فيه القود بينهم وبين المسلمين، مع أن الرسول يقول: «لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ»، كما عند البخاري عن علي .

الحادي والأربعون: فيه التكافؤ بين دماء المسلمين ودمائهم، وفي الحديث: «الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ».

الثاني والأربعون: فيه جعل ديتهم كدية المسلم، وفي الحديث: «دِيَةُ الْكَافِرِ نِصْفُ دِيَةِ الْمُسْلِمِ».

الثالث والأربعون: فيه إمضاء أمانهم وعهدهم، وفي الحديث: «ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ، يَسْعَى بِهَا أَذْنَاؤُهُمْ».

الرابع والأربعون: فيه إيراد أقسامهم.

الخامس والأربعون: عيادة مريضهم غاية ما فيه الجواز أو الاستحباب إن كان للدعوة، وعلى القول بإيمانهم تجب عيادتهم واتباع جنازتهم وجوباً كفاً.

السادس والأربعون: فيه إلغاء فوراق اللباس وجواز التشبه بهم.

السابع والأربعون: فيه قبول شهادتهم وتعديلهم، والله يقول: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢].

الثامن والأربعون: فيه جواز دخولهم المسجد الحرام، وربنا يقول: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَمِهِمْ هَكَذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

التاسع والأربعون: فيه جواز استيطانهم في جزيرة العرب، وبوب الإمام البخاري في صحيحه: "باب إخراج اليهود من جزيرة العرب". وذكر حديث ابن عباس قال: وفيه فَأَمَرَهُمْ بِثَلَاثٍ قَالَ: «أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَأَجِيزُوا الْوَفْدَ بِنَحْوِ مَا كُنْتُ أُجِيزُهُمْ»، وَنَسِيتُ الثَّالِثَةَ.

الخمسون: فيع الرضا بجميع معاملاتهم، لأنه قد تم الاعتراف بهم أنهم على شيء، وربنا يقول: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [المائدة: ٦٨].

الحادي والخمسون: فيه قبول أخبارهم ورواياتهم، وأخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عَنِ النَّبِيِّ : «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ، وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ». ﴿وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَحْدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. هذا إذا نقلوا من كتبهم المحرفة، فكيف بغيرها.

الثاني والخمسون: فيه لا يقتل جريحهم في الحرب ولا يجوز سبيهم ولا أخذ غنائمهم.

الثالث والخمسون: إلغاء باب الغزو والجهاد.

الرابع والخمسون: التقارب مع الأديان رغبة عن ملة إبراهيم عليه السلام، والله يقول: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

الخامس والخمسون: فيه الرضا بالصلاة إلى غير القبلة. قال الله تعالى عن المشركين واليهود ومن وافقهم من المنافقين: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

السادس والخمسون: فيه الرغبة عن الصراط المستقيم. وربُّنا يقول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ١٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]. والمغضوب عليهم هم اليهود، والضالون هم النصاري.

السابع والخمسون: فيه لبس الحق بالباطل. والحق هو الإسلام، والله قد وبَّخ أهل الكتاب بقوله تعالى: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تَلْبُسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١]. وروى ابن جرير (٣/ ٣١١) عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تَلْبُسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ [آل عمران: ٧١]، يقول لما تلبسون اليهودية بالنصرانية بالإسلام وقد علمتم أن دين الله الذي لا يقبل غيره الإسلام. وأخرج عن ابن جرير ﴿لِمَ تَلْبُسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ [آل عمران: ٧١]، الإسلام باليهودية والنصرانية.

الثامن والخمسون: فيه ابتغاء لدين غير الإسلام. وهو دين مخلط من الحق وهو الإسلام، والباطل وهو تأليه المسيح عليه السلام وعزير، والإيمان بالإنجيل والتوراة المحرفتين، وجمع الحق مع الباطل من التناقضات، وربُّنا يقول: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وقال تعالى في سياق كلامه على اليهود والنصارى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَاهُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

التاسع والخمسون: تميع دين الإسلام ومفهوم الإيمان، فلا أركان الإسلام الخمسة ولا الإيمان الستة، وهكذا.

الستون: فيه طمس الخصائص المميزة للدين الإسلامي، وذلك في جميع العقائد والأحكام.

الحادي والستون: تقدم أنها طعن في النبي ، وزد على ذلك أنها طعن في رسالته ، والله يقول: ﴿قُلْ يَتَذَكَّرُ النَّاسُ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

الثاني والستون: فيه الاعتقاد أن القرآن غير مهيمن على الكتب السابقة، وربُّنا يقول: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

الثالث والستون: فيه المناداة بإخضاع النص القرآني لمعاول النقد التاريخي، مع أن الله قد قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

الرابع والستون: فيه أن هذا القرآن غير صالح لهذا الزمن، كما ينادون بذلك وهذه الحوارات هم يريدون طمس هويته.

الخامس والستون: التحاكم إلى الطاغوت، قال الله تعالى في بيان حال من يريد التحاكم إلى الكتب المحرفة من التوراة وغيرها: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

السادس والستون: فيه خرم لإجماع المسلمين، على أن كل دين سوى دين الإسلام فهو باطل، ومن اعتقد صحة دين غير الإسلام فقد كفر. وبأن من لم يؤمن برسالة محمد فهو كافر. ومن اعتقد أن القرآن غير كلام الله وغير صالح لكل زمان ومكان فهو كافر. ومن اعتقد أن التوراة والإنجيل غير محرفة ومبدلة فهو كافر. السابع والستون: فيه تصحيح دين اليهود والنصارى، تحت مسمى الاعتراف بالآخر.

الثامن والستون: فيه المداينة في دين الله ، قال الله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

التاسع والستون: فيه المحبة لليهود والنصارى، قاتلهم الله.

السبعون: فيه الفتنة بالبعد عن بعض ما أنزل الله فكيف بالبعد عن كل ما أنزله الله.

الحادي والسبعون: فيه إمضاء للقاعدة الباطلة، نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه، كيف يكون هذا والله يقول: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [المائدة: ٦٨].

الثاني والسبعون: فيه رفع الأحكام الشرعية من القرآن والسنة بكفر اليهود والنصارى.

الثالث والسبعون: فيه عدم التفريق بين حكم الله وحكم غيره، وربنا يقول: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

الرابع والسبعون: فيه التفرق من أجل الكفار، ولما حصل ذلك من المسلمين بالنسبة للمنافقين أنزل الله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨].

الخامس والسبعون: فيه الدفاع عن الخائنين من يهود ونصارى ومارقين، والمجادلة من أجلهم، والله يقول: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]. ويقول: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧].

السادس والسبعون: فيه إلغاء لمنهج الهجر للمخالف في المعتقد، لأنه إذا تم التواصل بين اليهود والنصارى وعدم هجرهم من قبل المسلمين، فمن باب أولى عدم هجر المبتدعة.

السابع والسبعون: فيه إلغاء لأحكام الشهادة في قتال المسلمين مع الكفار، ووجه ذلك أن المسلمين على حق واليهود والنصارى على حق وكلهم يشملهم الإسلام العام على حد تعبير القوم ويكون القاتل والمقتول في النار كما في حديث أبي بكر المتفق عليه.

الثامن والسبعون: فيه الحكم بالنار للقتيلين من المسلمين واليهود والنصارى.

التاسع والسبعون: فيه هدم لأسس الدين ودعائمه العظام، حتى لا يبقى له كيان، و يحدث له انصهار مع غيره من الأديان المحرفة وتكون النتيجة إلحاقه بهم، فأخبر الله عنهم بقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿التوبة: ٣٢-٣٣﴾.

الثمانون: فيه الاعتراف بأعياد الكفار كعيد الميلاد والكرسمس وعيد الحب؛ وغيرها من الأعياد المبنية على معتقدات فاسدة وآراء كاسدة، ورسولنا قد بين لنا بوحى من الله أعياد المسلمين، فعن أنس بن مالك قال: قدم رسول الله المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: «مَا هَذَانِ الْيَوْمَانِ؟»، قالوا: كنا نلعب فيهما في الجاهلية، فقال رسول الله: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا: يَوْمَ الْأَضْحَى، وَيَوْمَ الْفِطْرِ»، رواه أبو داود بهذا اللفظ.

الثاني والثمانون: الرضا بجميع البدع، والرد لمثل حديث: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ»، «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، وعدم المبالاة بمثل حديث: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ».

الثالث والثمانون: فيه جواز الصلاة على أي صورة كانت؛ لأنها بزعمهم كلها صحيحة.

الرابع والثمانون: فيه جواز الصيام على أي صورة كانت.

الخامس والثمانون: فيه عدم التفريق بين التعبد بقراءة القرآن وبين قراءة التوراة والإنجيل المحرفين.

السادس والثمانون: فيه عدم التفريق بين ما هو من طعام المسلمين، وما هو من طعام المشركين.

السابع والثمانون: فيه جواز الحلف بمربوبات القوم.

الثامن والثمانون: فيه إجراء وقبول وصاية اليهودي والنصراني على المسلم مع أنها لا تجوز شرعاً.

التاسع والثمانون: إلغاء أحكام الهجرة من بلاد اليهود والنصارى إلى بلاد الإسلام.

التسعون: جواز التجنس بجنسيات اليهود والنصارى.

الحادي والتسعون: جواز التحاكم إلى محاكمهم، وهذا من المحرمات شرعاً لأنه من التحاكم إلى غير شرع الله.

الثاني والتسعون: جواز الركون إليهم، مع أن الله يقول: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [هود: ١١٣].

الثالث والتسعون: فيه جواز التعاون مع اليهود والنصارى في إحياء أعيادهم مع أن شيخ الإسلام وغيره ينقلون عدم الجواز.

الرابع والتسعون: فيه إغلاق باب النصيحة لله ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

الخامس والتسعون: فيه المخالفة الصريحة لتوحيد الألوهية حيث ومن أهم أصول النصارى القول بألوهية عيسى، تعالى الله عن قولهم.

السادس والتسعون: فيه المخالفة الصريحة لتوحيد الأسماء والصفات، حيث وهم يسمون الله بالأب والابن وروح القدس، وغير ذلك.

السابع والتسعون: فيه خفض الجناح لهم مع أن هذا لا يكون إلا للمؤمنين: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

الثامن والتسعون: فيه أنه لا فرق بين حفظ القرآن العظيم النسخ والمهيمن على غيره المحفوظ من التبديل والتحريف، وبين حفظ التوراة والإنجيل المحرفين المبديلين.

التاسع والتسعون: يلزم منه دخولهم في الشفاعة في أهل الكبائر والشفاعة في دخولهم الجنة، وهذا مما يعلم خلافه لعقيدة المسلمين.

المائة: فيه جواز التفضيل بين لغتهم وبين العربية وجواز التحدث بلغتهم بغير حاجة مع أن شيخ الإسلام وغيره يعد ذلك من النفاق.

الواحد بعد المائة: العهد التي بين المسلمين واليهود والنصارى إذا كانوا كلهم أصحاب حق سيكون تحصيل حاصل، والله المستعان، وعليه التكلان.

الثاني بعد المائة: القول به يقتضي دخول اليهود والنصارى في أمة محمد . وقد قال ابن القيم في بدائع الفوائد (١٣/٤-١٤)، ط. عالم الفوائد: قال أبو طالب سألته عن اليهود والنصارى من أمة محمد ؟ قال: لا، النبي يقول: «أُمَّتِي أُمَّتِي»، لا يقع على اليهود والنصارى.

الثالث بعد المائة: وفيه محاولة تعطيل قدر الله الكوني في كون الناس لا يزالون مختلفين.

الرابع بعد المائة: هذه الدعوة تقرب بين ما فرق الله وتجميع ما فرقه، والواجب على المسلمين في هذا الباب أن يفرقوا بين المتفرقات ويجمعوا بين المتماثلات.

هذا الباب ملخص من كتابي الزجر والبيان لدعاة الحوار والتقارب بين الأديان .



التعاملات المالية

قال الله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥].

أخرج البخاري (٢٠٨٣): عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله :
«يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، لَا يُبَالِي الْمَرْءُ مَا أَخَذَ مِنْهُ، أَمِنَ الْحَلَالِ أَمْ مِنَ الْحَرَامِ».

أسباب الرزق: وفيه ردّ على الصوفية الذين يُحرّمون التّكسّب:

١ - إن من أعظم أسباب الرزق الحلال وقضاء الديون، هو توحيد الله وإفراده بالعبادة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم وأبو سعيد قالا: حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد، عن عبد الله بن مسعود قال: أقرأني رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]. هذا حديث صحيح، وهو في الصحيح المسند لشيخنا الوادعي تعالى.

٢ - ومنها المتابعة للنبي ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

٣ - ومنها المحافظة على الصلوات والأمر بها. قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢].

٤ - ومنها الملازمة للإيمان والأعمال الصالحة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىءِ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]. وفي حديث أنس

عند الإمام مسلم (٢٨٠٨) قال: قال رسول الله : «إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أَطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ».

٥- ومنها كثرة الاستغفار وملازمة التوبة قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمَدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ يَدَيْكُمْ لَكُمُ جَنَّاتٌ وَجُجَلٌ لَكُمْ أَنْتُمْ فِيهَا ۝١٢﴾ [نوح: ١٠-١٢].

٦- ومنها التفرغ لعبادة الله ، والزهد في الدنيا، ففي حديث زيد بن ثابت عند أحمد، وهو في الصحيح المسند لشيخنا الوادعي تعالى وفيه: «مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ، فَارَقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرُهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ، جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ».

ولقول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، ومن الحياة الطيبة سعة الرزق والتخلص من الديون.

٧- ومن أسباب الرزق ملازمة التقوى، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

٨- ومنها التوكل على الله ، لحديث عمر عند الترمذي: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»، والحديث صحيح.

٩- ومنها التفرغ لطلب العلم وإعانة طلاب العلم، لحديث أنس عند الترمذي وهو على شرط مسلم، أن أخوان كانا على عهد النبي ، وكان أحدهما في

المسجد والآخر يحترف، فشكا المحترف أخاه إلى النبي فقال له النبي :
 «لَعَلَّكَ تُرَزَّقُ بِهِ»، أي بسبب عبادته وعلمه والحديث في الصحيح المسند لشيخنا
 الوادعي تعالى.

١٠- ومنها السعي في طلب الرزق الحلال، قال تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا
 مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

١١- ومنها دعاء الله ، فإنه من أنجع الأسباب لحصول الرزق الدنيوي
 والأخروي، ولذلك كان رسول الله إذا أسلم الرجل علمه الصلاة ثم هذا
 الدعاء: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاهْدِنِي، وَارْزُقْنِي». أخرجه مسلم من حديث
 طارق بن أشيم (٢٦٩٧).

وأخرج الطبراني والحاكم وغيرهما من حديث أم سلمة قالت: كان رسول الله
 يقول بعد صلاة الفجر: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا
 مُتَقَبَّلًا». والحديث حسن، وحديث علي وفيه: «اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ
 حَرَامِكَ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ». ولحديث أبي هريرة عند مسلم في الذكر عند
 النوم، وفيه: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ... اقْضِ عَنَّا
 الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ»، وغير ذلك.

١٢- ومنها صلة الرحم لحديث أنس: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُسَاطَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، أَوْ يُنْسَأَ
 فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»، الحديث في الصحيحين، البخاري (٥٩٨٧) و مسلم
 (٢٥٥٧).

١٣- ومنها الصدقة، قال : «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ»، أخرجه مسلم من
 حديث أبي هريرة، ولحديث أبي هريرة مرفوعاً عند الشيخين: «أَنْفَقْ أَنْفَقْ عَلَيْكَ».

ولحديث أبي هريرة عند البخاري: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُتَّقًا خَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمَسِّكًا تَلَفًا».

١٤- ومنها البكور في الأعمال، فإن الله يبارك في تلك الأوقات لحديث جابر وصخر بن وادعة وغيرهم: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا»، وحديث جابر حسن لذاته كما في ضياء السالكين لشيخنا الحجوري.

١٥- ومنها كثرة الذكر لما أخرج أحمد في مسنده من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً: «إِنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، دَعَا ابْنَيْهِ، فَقَالَ: إِنِّي قَاصِرٌ عَلَيْكُمَا الْوَصِيَّةَ، أَمْرُكُمَا بِأَنْتَيْنِ، وَأَمْرُكُمَا عَنْ أُنْتَيْنِ، أَمَّا كُمَا عَنِ الشَّرِّ وَالْكِبَرِ، وَأَمْرُكُمَا بِإِلَهِ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهِمَا لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ، وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي الْكِفَّةِ الْآخَرَى، كَانَتْ أَرْجَحَ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا حَلَقَةً، فَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِمَا، لَفَضَمْتُهُمَا، أَوْ لَقَصَمْتُهُمَا، وَأَمْرُكُمَا بِسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، فَإِنَّهَا صَلَاةٌ كُلُّ شَيْءٍ، وَبِهَا يُرْزَقُ كُلُّ شَيْءٍ».

١٦- ومنها العفة عما في أيدي الناس، قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣].

وقال رسول الله كما في حديث أبي سعيد عند الشيخين: «وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِي يُغْنِهِ اللَّهُ»، إما بإعطائه ما يغنيه عما في أيدي الناس أو الغنا القلبي، وغير ذلك.

١٧- ومنها شكر النعم، قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]. فكم من شاكر أدام الله عليه النعم، وكم ممن

كفر النعم إما بالمعاصي والسيئات والتخوض فيها بغير حق، وإما بأخذها من غير حلّها، فسلبها الله عنه.

١٨- ومنها المتابعة بين الحج والعمرة، لما أخرج الترمذي من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله : «تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ». قال الإمام الوادعي في الصحيح المسند : هذا حديث حسن. وجاء بنحوه عن ابن عباس عند الإمام النسائي (١١٥ / ٥)، قال الوادعي في الصحيح المسند : هذا حديث حسن. قلت: وبمجموع طريقي ابن مسعود وابن عباس يصير الحديث صحيحاً لغيره، والحمد لله.

لعن الله آكل الربا، وشاهده، وكاتبه:

أخرج مسلم (١٥٩٧): عن عبد الله، قال: لعن رسول الله آكل الربا وموكله، قال: قلت: وكاتبه وشاهده، قال: إنما نحدث بما سمعنا.

وأخرج (١٥٩٨): عن جابر، قال: لعن رسول الله آكل الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهده، وقال: «هُمْ سَوَاءٌ».

قال النووي (٢٦/١١): هذا تصريح بتحريم كتابة المبايعات بين المترابين، والشهادة عليها، وفيه تحريم الإعانة على الباطل، والله أعلم.

قلت: ويدخل في هذا الوعيد الذين يعملون في البنوك الربوية والذين يشهدون لهم، وأصبح الكثير ممن يأخذ الربا يسميها فوائد وهي نفسها الصورة التي كان يقع فيها الجاهليون ونزل تحريمها في القرآن، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا

وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَاَ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ [البقرة: ٢٧٥].

قال ابن الملقن في الإعلام (٢٠٠ / ٧): الإجماع قائم على تحريم الربا في الجملة و هو بنص الكتاب و السنة الشهيرة و هو من الكبائر و قيل إنه ما أحل في شريعة قط. اهـ

الربا في الدين:

ربا الدين هو ربا الجاهلية وله صورتان:

الأولى: ربا النسيئة وهو زيادة المال في مقابل تأخير.

قال ابن القيم في إعلام الموقعين بعد أن قسم الربا إلى جلي وخفي (١٢٧ / ٢): فأما الجلي فربا النسيئة وهو الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية مثل أن يؤخر دينه ويزيده في المال، وكلما أخره زاد في المال حتى تصير المائة عنده آلافاً مؤلفة، وفي الغالب لا يفعل ذلك إلا معدم محتاج، فإذا رأى أن المستحق يؤخر مطالبته ويصبر عليه بزيادة يبذلها له تكلف بذلها ليفتدي من أسر المطالبة والحبس ويدافع من وقت إلى وقت فيشتد ضرره، وتعظم مصيبته ويعلوه الدين حتى يستغرق جميع موجوده، فيربوا المال على المحتاج من غير نفع يحصل له ويزيد مال المرابي من غير نفع يحصل منه لأخيه فيأكل مال أخيه بالباطل ويحصل أخوه على غاية الضرر، فمن رحمة أرحم الراحمين وحكمته وإحسانه إلى خلقه أن حرم الربا ولعن آكله ومؤكله وكاتبه وشاهديه، وأذن من لم يدعه بحربه وحرب رسوله، ولم يجيء مثل هذا الوعيد في كبيرة غيره؛ ولهذا كان من أكبر الكبائر.

وسئل الإمام أحمد عن الربا الذي لا شك فيه، فقال: هو أن يكون له دين فيقول له: أتقضي أم تربى فإن لم يقضه زاد في المال وزاد هذا في الأجل.

وقد جعل الله تعالى الربا ضد الصدقة، فالمرابي ضد المتصدق، قال الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وقال: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّ الرِّبَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩]، وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٠-١٣١].

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس عن أسامة بن زيد أن النبي قال: «إِنَّمَا الرِّبَا فِي النَّسِئَةِ»، ومثل هذا يراد به حصر الكمال، وأن الربا الكامل في النسئة.

والصورة الثانية: هي القرض بفائدة مشروطة في أصل العقد.

وصورته أن يقول: أعطيك ألفاً إلى شهر بألف ومائة وهكذا.

والفرق بين هذه الصورة والتي قبلها أن الزيادة حصلت بسبب التأخير ولم تكن مشروطة في أصل العقد بخلاف هذا.

قال أبو بكر الجصاص في أحكام القرآن (١٨٤/٢): والربا الذي كانت العرب تعرفه وتفعله إنما كان قرض الدراهم والدنانير إلى أجل بزيادة على مقدار ما استقرض على ما يتراضون به ولا يتم معاملهم بالربا إلا على هذا الوجه الذي ذكرناه. اهـ

وهناك صورة ثالثة وهي بيع الذهب بالفضة ديناً، وبيع الفضة بالذهب ديناً وما في معناهما، وقد دل على تحريم هذا النوع من البيع حديث عبادة بن الصامت، وحديث أبي سعيد والبراء، وحديث أسامة: «إِنَّمَا الرَّبَا فِي النَّسِئَةِ»، وكلها في الصحيح.

وربا القرض هو لاحق بربا الدين. وصورته أن يقرضه شيئاً مما يصح قرضه، ويشترط عليه منفعة مقابل هذا الشرط. وهذا قرض جر نفعاً، ومعلوم أن كل قرض جر نفعاً فهو ربا، وإن كان الحديث ضعيفاً فقد نقل الإجماع على معنى هذا الحديث.

وقد نقل الإجماع على تحريم هذه الصورة ابن عبد البر وابن حزم والقرطبي، حيث قال في التفسير (٣/ ٢٤١): أجمع المسلمون نقلاً عن نبيهم أن اشتراط الزيادة في السلف ربا، ولو كان قبضه من علف كما قال ابن مسعود أو حبة واحدة. ونقل الإجماع ابن المنذر وابن قدامة في المغني وشيخ الإسلام^(١).

مسألة: هل يجوز بيع الربوي بالربوي الذي لا يشاركه؟

وصورته بيع التمر بالفضة ديناً ومتفاضلاً، وبيع الشعير بالبر ديناً ومتفاضلاً. قال ابن الملقن في الإعلام (٧/ ٣١٥): الإجماع قائم على جواز بيع الربوي بالربوي الذي لا يشاركه متفاضلاً ومؤجلاً كبيع الذهب بالحنطة والفضة بالشعير وغيرها من المكيل.

وعلى منع بيع الربوي بجنسه وأحدهما مؤجل، وعلى أنه لا يجوز التفرق قبل التقابض إذا باعه بجنسه حالاً كالذهب بالذهب، وعلى أنه لا يجوز التفرق قبل

(١) راجع المحلى (٨/ ٩٠)، المغني (٤/ ٣١٨)، تهذيب السنن (٥/ ١٥٠)، مجموع الفتاوى (٢٩/ ٣٣٣).

التقابض إذا كان بجنسه أو بغير جنسه، مما يشاركه في العلة كالذهب بالفضة، أو الحنطة بالشعير.

وعلى أنه يجوز التفاضل عند اختلاف الجنس إذا كان يداً بيد كصاع حنطة بصاعي شعير. اهـ

تحريم بيع الذهب والفضة ديناً:

أخرج البخاري (٢١٨٠): عن أبي المنهال قال: سألت البراء بن عازب، وزيد بن أرقم عن الصرف، فكل واحد منها يقول: هذا خير مني، فكلاهما يقول: نهى رسول الله عن بيع الذهب بالورق ديناً. الحديث أخرجه مسلم.

وأخرج (٢١٧٧): عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله قال: «لَا تَبِيعُوا الذَّهَبَ بِالذَّهَبِ إِلَّا مِثْلًا بِمِثْلٍ، وَلَا تُشِفُّوا بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ، وَلَا تَبِيعُوا الْوَرِقَ بِالْوَرِقِ إِلَّا مِثْلًا بِمِثْلٍ، وَلَا تُشِفُّوا بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ، وَلَا تَبِيعُوا مِنْهَا غَائِبًا بِنَاجِزٍ»، الحديث أخرجه مسلم.

قال ابن الملقن في الإعلام (٣١٧/٧): دل الحديث على اشتراط التقابض في بيع الربوي إذا اتفقا في علة الربا سواء اتفق جنسها كذهب بذهب أم اختلف كذهب بفضة.

قال الحافظ في الفتح تحت شرح الحديث: البيع كله إما بالنقد، أو بالعوض حالاً أو مؤجلاً، فهي أربعة أقسام:

فبيع النقد إما بمثله فهي المراطلة.

أو بنقد غيره وهو الصرف.

وبيع العرض بنقد يسمى النقد ثمنًا، والعرض عوضًا.
وبيع العرض بالعرض يسمى مقابضة، جميع ذلك جائز.
وأما التأجيل، فإن كان النقد بالنقد فلا يجوز. اهـ

الأصناف الربوية وتحريم بيعها بمثلها دينًا أو متفاضلا:

وأخرج البخاري (٢١٧٠): عن عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: «الْبُرُّ بِالْبُرِّ رَبًّا إِلَّا هَاءَ وَهَاءَ، وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ رَبًّا إِلَّا هَاءَ وَهَاءَ، وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ رَبًّا إِلَّا هَاءَ وَهَاءَ»، أخرجه مسلم (١٥٨٦). قوله في الحديث «هَاءَ وَهَاءَ» أي "خُذْ وَأَعْطِ"، ويوضحه الحديث الآخر «يَدَا بِيَدٍ»، وهي تدل على التقابض في المجلس.

وحديث عبادة بن الصامت ، وفيه قال رسول الله : «الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ، وَالْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ، وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ، وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ، وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ، وَالْمِلْحُ بِالْمِلْحِ، مِثْلًا بِمِثْلٍ، سَوَاءٌ بِسَوَاءٍ، يَدًا بِيَدٍ، فَإِذَا اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الْأَصْنَافُ، فَبِيعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ، إِذَا كَانَ يَدًا بِيَدٍ»؛ الحديث أخرجه مسلم (١٥٨٧)، وجاء نحوه من حديث أبي هريرة عند مسلم (١٥٨٩).

قال ابن الملقن في الإعلام (٣٢٩/٧): في الحديث أحكام:

الأول: تحريم بيع جميع أنواع الذهب بعضها ببعض متفاضلا وكذا الفضة؛ قلت: معناها وإن اختلفت الأعيان.

الثاني: تحريم بيع الغائب فيها بالحاضر إذا تفرقا من غير قبض.

الثالث: اشتراط القبض في المجلس.

الرابع: الحث على التساوي في الربويات بكل ما يمكن من الوزن والكيل. اهـ

السلم في كيل معلوم:

قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَآكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] الآية.

وأخرج البخاري (٢٢٣٩): عن ابن عباس ، قال: قدم رسول الله المدينة والناس يسلفون في الثمر العام والعامين، فقال: «مَنْ سَلَفَ فِي تَمْرٍ، فَلْيُسَلِفْ فِي كَيْلٍ مَّعْلُومٍ، وَوَزْنٍ مَّعْلُومٍ»؛ وفي رواية: «إِلَىٰ أَجَلٍ مَّعْلُومٍ»؛ الحديث أخرجه مسلم (١٦٠٤).

و أخرجه البخاري (٢٢٤٢) من طريق عبد الله بن أبي المجالد قال: اختلف عبد الله بن شداد بن الهاد و أبو بردة في السلف فأرسلوني إلى ابن أبي أوفى فسألته فقال: إنا كنا نسلف على عهد رسول الله وأبي بكر وعمر في الحنطة والشعير والزبيب والتمر وسألت ابن أبزى فقال: مثل ذلك. وفي رواية (٢٢٤٤) قال: كنا نسلف نبيط أهل الشام في الحنطة والشعير والزبيب في كيل معلوم إلى أجل معلوم، قلت: إلى من كان عنده أصل، قال: ما كنا نسألهم عن ذلك ثم أرسلني إلى ابن أبي أبزى فسألته فقال: كان أصحاب رسول الله يسلفون على عهد النبي ولم نسألهم أنهم حرث أم لا.

قال الحافظ في الفتح : السَلَمُ بفتح السين هو السَلَفُ وزنا ومعنى، وذكر الماوردي أن السَلَمَ لغة: أهل الحجاز، والسَلَفُ لغة: أهل العراق، وقيل السلف: تقديم رأس المال، والسلف تسليمه في المجلس، فالسلف أعم ^(١)، والسلف شرعاً: بيع موصوف في الذمة.

(١) من حيث أنه يطلق على البيع الموصوف في الذمة، ومن حيث القرض بدون بيع.

قال البغوي في شرح السنة (٣٢٨/٤): السَلَم: هو تسليم مال عاجل بمقابلة موصوف في الذمة، يقال: سلفت وأسلفت وأسلمت بمعنى واحد. اهـ

و قال ابن قدامة في المغني (٣٨٥/٦): هو أن يسلم عوضا حاضرا في عوض موصوف في الذمة إلى أجل و يسمى سلما أو سلفا، يقال: أسلم وأسلف وسَلَّف وهو نوع من البيع ينعقد بما ينعقد به البيع ولفظ السلم والسلف ويعتبر فيه من الشروط ما يعتبر في البيع وهو جائز بالكتاب والسنة والإجماع. اهـ

شروط السلم:

الشرط الأول: أن يكون المسلم فيه مما ينضبط بالصفات التي يختلف الثمن باختلافها ظاهرا وهذا محل الحبوب والثمار والأدفة والثياب والمعادن والأدهان والألبان وبالجملية كل مكيل أو موزون أو مزروع أو معدود، وخالف في ذلك أهل الظاهر فلم يروا السلم في غير المكيل والموزون، ولا عبرة بخلافهم.

أما ما لا يمكن انضباطه كالجوهر والفواكه والخضار وغيرها فللعلماء فيه قولان:

الأول: عدم صحة السلم فيه وهذا عند أبي حنيفة والشافعي وأحمد وهو قول أهل الظاهر.

القول الثاني: صحة السلم مذهب مالك.

والراجح في هذه المسألة هو إمكانية ضبط الأوصاف والأوزان، فإذا أمكن ذلك صح وإن لم يمكن لا يصح.

وكذلك السلف في الحيوان، اختلف العلماء فيه إلى قولين:

الأول: الجواز، وهو مذهب الجمهور واستدلوا بمثل حديث أبي رافع أن النبي استلف من رجل بكرا، الحديث.

القول الثاني: عدم صحة السلم، وهو مذهب أبي حنيفة والثوري وأهل الظاهر وغيرهم واستدلوا بعدم انضباط الأوزان والأسنان.

والراجح المذهب الأول والله أعلم، وذهب العلامة ابن عثيمين تعالى إلى عدم صحة السلم فيها إلا إذا أسلمت في الوزن.

الشرط الثاني: أن يكون الانضباط في الصفة التي لا يختلف بها الثمن ظاهرا أي أن يكون الوصف كافيا كذكر الجنس والنوع والجودة والرداءة والبلد مثل قوله: حنطة سمراء أو صفراء ومن بلد كذا. وفي الحيوان يذكر نوعه وسنه وذكريته وأنوثيته وما يحتاج إلى ذكره مما يختلف به الثمن، قال العلامة ابن عثيمين تعالى في الشرح الممتع: إن أتى بأجود الأقسام ثلاثة:

الأول: إذا أتى بأجود منه من نوعه لزمه القبول.

الثاني: إذا أتى بأجود منه من جنسه لم يلزمه القبول ويجوز له.

الثالث: إذا أتى بغير جنسه حرّم قبوله. بل لو رضي جاز له.

الشرط الثالث: معرفة مقدار السلم فيه بالكيل إن كان مكيلا أو الوزن إن كان موزونا وبالعدد إن كان معدودا وبالذراع إن كان مما يقاس.

الشرط الرابع: كونه مؤجلا أجلا معلوما، لقول تعالى: ﴿لَئِنْ أَجَلِيَ مُسَمًّى﴾ [البقرة: ٢٨٢]؛ وللحديث، والآية نزلت في السلم.

الشرط الخامس: أن يوجد غالباً في محله ومكان الوفاء لا وقت العقد، لأنه إذا لم يوجد في مكان الوفاء أدى إلى التنازع بين المسلم والمسلم إليه، لكن إن تعذر تسليم المسلم فيه إما لتلفه أو سطو اللصوص عليه فللمسلم الفسخ.

وقد اختلف العلماء في مسألة وجود المسلم في وقت العقد إلى قولين:

الأول: لا يشترط، وهذا مذهب مالك والشافعي وأحمد وأهل الظاهر وهو قول الجماهير من العلماء.

واستدلوا بحديث الباب حيث لم يسأل النبي ﷺ كون المسلم فيه موجوداً أم لا، وحديث عبد الله ابن أبي أوفى عند البخاري (٢٢٤٤) هل كانت الخنطة موجودة؟ قالوا: لم نكن نسألهم.

وهذا القول هو الراجح وهو اختيار ابن قدامة، وخالف أبو حنيفة وأصحابه، والدليل خلاف قولهم.

الشرط السادس: قبض رأس مال المسلم في مجلس العقد. واختلف العلماء في هذا إلى قولين:

الأول: يبطل العقد إذا تفرقا قبل قبض الثمن، وهذا قول جماهير العلماء وهو اختيار ابن قدامة العثيمين.

القول الثاني: لا يبطل العقد، وهو قول مالك.

والقول الأول هو الراجح لقول النبي ﷺ: من أسلف في شيء فليسلف. فإن هذا فيه أنه لا بد أن يقبض الثمن تاماً لأنه إذا لم يقبض الثمن تضرر مرتين الأولى في خفض السعر والثاني في تأخير النقود.

الشرط السابع: أن لا يشمل البدلين إحدى علتين، الربا فلا يسلف ربوي في ربوي، لا يجوز فيها الافتراق قبل التقابض كسلم الفضة في الذهب أو العكس^(١).

بيع التقسيط وأحكامه:

اعلم أن بيع التقسيط باعتبار التعجيل والتأجيل ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: معجل البدلين وهو البيع المطلق الذي يكون الثمن والمثمن فيه حالا دون اشتراط لتأجيل أحدهما وهذا هو القسم الذي يكون الثمن والمثمن فيه حالا.

القسم الثاني: مؤجل البدلين وهو ما يعرف ببيع الكالئ بالكالئ أو النسئة بالنسئة بمعنى أن كل العوضين مؤجل وهو ما يسمى ببيع الدين بالدين وهذا النوع محرم على الراجح وليس هذا موضع بسط الكلام فيه.

القسم الثالث: مؤجل أحد البدلين وهو على قسمين: الأول: مؤجل مثمن وهو عقد السلم وقد تقدم الكلام عليه.

الثاني: مؤجل الثمن وهو البيع المعروف بالبيع المؤجل ومن أشهر تطبيقاته بيع التقسيط؛ اهـ بيع التقسيط وأحكامه ، لسليمان بن تركي (٢٦-٢٧).

شروط بيع التقسيط:

١- أن يكون القبول موافقا للإيجاب كأن يقول البائع بعتك كتاب المغني بمائة فيقول المشتري (قبلته) أو (اشتريته).

(١) المغني (٣٨٥/٦-٣٩١-٣٩٩-٤٠٢-٤٠٦-٤٠٨)، الشرح المتع (٨٦-٥٦/٩)، المحلى (١٠٩-١٠٤/٩)، اختيارات ابن قدامة (١٤٣-١٣٣/٢)، الإعلام شرح عمدة الأحكام (٢٢٣-٢١٧/٧).

٢- اتحاد مجلس العقد بأن يكون الإيجاب والقبول في مجلس واحد.

٣- التراضي بين المتعاقدين، قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بِحُكْمٍ عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقال رسول الله ﷺ كما في حديث أبي سعيد عند ابن ماجه (٢١٨٥) وهو في الإرواء (١٢٥/٥): «إِنَّمَا الْبَيْعُ عَنْ تَرَاضٍ».

٤- أن يكون العاقد مالكا للمعقود عليه في وقت العقد لحديث حكيم بن حزام: «لَا تَبِعْ مَا لَيْسَ عِنْدَكَ»^(١).

٥- أن يكون العاقد جازئ التصرف وهو العاقل البالغ، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء: ٥].

٦- أن يكون المعقود عليه مباح النفع لغير ضرورة، وذلك لأن أخذ العوض عما لا فائدة فيه أكل للمال بالباطل ودفع العوض فيه من السفه، وأما محرم النفع فقد قال رسول الله ﷺ كما في حديث ابن عباس عند مسلم (١٥٨٩)، في شأن من أراد بيع الخمر: «إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ شُرْبَهَا حَرَّمَ بَيْعَهَا».

٧- أن يكون المعقود عليه مقدورا على تسليمه حال العقد فخرج من ذلك بيع الغرر، وقد نهى رسول الله ﷺ عن بيع الغرر كما في حديث أبي هريرة عند مسلم (١٥١٢).

٨- أن يكون المعقود عليه معلوما للمتعاقدين، فإن كان أحدهما مجهولا فسد البيع لأن الجهالة غرر، فيكون داخلا في جملة المنهي عنه.

(١) أخرجه أحمد (٤٠٢/٣)، وأبو داود (٣٥٠٣)، والترمذي (٢١٣٢)، والنسائي (٤٦١٣)، وابن ماجه (٢١٨٧)، والحديث مخرج في البدر المنير (٤٤٨-٤٥٢)، والإرواء (١٣٢/٥).

٩- أن لا يكون بيع التقسيط ذريعة إلى الربا، ووجه الربا فيه إن كان المشتري بالتقسيط مراده الحصول على المال فقط لا الحصول على السلعة فربما باع السلعة من نفس التاجر فيقع في بيع العينة الربوي الذي حذر منه رسول الله ﷺ بقوله: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ...»، الحديث.

لكن من أراد الحصول على المال بواسطة هذا البيع فليخرج من الربا ببيع التورق وهو بيع السلعة من غير البائع الذي اشترى منه.

١٠- أن يكون العوضان في بيع التقسيط مما لا يجري فيه ربا النسيئة، فعلى هذا لا يجوز في بيع التقسيط أن يشتري ذهباً والتمن فضة مؤجلة تؤدي على أقساط ولا العكس، كما لا يجوز أن يكون الثمن قمحا يؤدي على أقساط والتمن شعيراً أو تمراً أو العكس، و من باب أولى لا يجوز بيع الذهب بالذهب أو الفضة بالفضة أو التمر بالتمر بالتقسيط، لحديث أبي مسعود وعبد بن الصامت وأبي هريرة في الصحيح، وقد تقدمت الأحاديث في أبواب الربا فلا داعي للإعادة.

قال السبكي في تكملة المجموع (٦٨/١٠): و الحكم الثاني: تحريم النسيئة وهو حرام في الجنس والجنسين إذا كان العوضان جميعاً من أبواب الربا كالذهب بالذهب والذهب بالفضة والحنطة بالحنطة والحنطة بالتمر وذلك مجمع عليه بين المسلمين ومن نقل الإجماع صريحاً أبو حامد. اهـ

و قال ابن قدامة في المغني (٦/٦٢): فأما النساء فكل جنسين يجري فيهما الربا بعة واحدة، فإنه يحرم بيع أحدهما بالآخر نساء بغير خلاف نعلمه. اهـ

١١- أن يكون الثمن في بيع التقسيط ديناً لا عيناً. وصورة المسألة: "أن تقول بعني سيارتك على أن يكون الثمن بيتي بعد سنة".

قال ابن عبد البر في الاستذكار (١٧٦/١٩): الأمة مجمعة على أن السلف لا يكون في شيء بعينه.

و يقول ابن رشد في بداية المجتهد (١٧٢/٢): وأجمعوا على أنه لا يجوز بيع الأعيان إلى أجل.

و يقول النووي تعالى في المجموع (٣٩٩/٩): إنما يجوز الأجل إذا كان العوض في الذمة فأما إذا أجل تسليم المبيع أو الثمن المعين بأن قال اشترت بهذه الدراهم على أن أسلمها في وقت كذا فالعقد باطل. اهـ

١٢- أن تكون السلعة حالة غير مؤجلة، قال شيخ الإسلام كما في المجموع (٥١٢/٢٠): الكالئ بالكالئ هو المؤخر الذي لم يقبض بالمؤخر الذي لم يقبض فهذا لا يجوز باتفاق، وهو بيع الكالئ بالكالئ -أي الدين بالدين-.

١٣- أن يكون الأجل معلوما قال النووي في المجموع (٣٢٩/٩): اتفقوا على أنه لا يجوز البيع بثمن إلى أجل مجهول.

١٤- أن يكون بيع التقسيط منجزا والمراد بهذا أن المبيع ينتقل بمجرد عقد البيع إلى ملكه المشتري يجوز له التصرف به كيف أراد.

فبهذا نكون قد لخصنا شروط بيع التقسيط التي جمعها سليمان بن تركي التركي في كتابه أحكام التقسيط من (٤١-٢٠٢).

حكم بيع التقسيط:

البيع بثمن مؤجل لا يخلو من حالتين:

الأولى: أن يكون الثمن المؤجل مساويا للثمن الحال فيتم البيع دون زيادة مقابل تأجيل الثمن، فهذه الحالة جائزة بالنص، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنُكُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

قال ابن جرير الطبري (١١٦/٣): إذا تبايعتم بدين أو اشتريتم به... إلى أجل مسمى، وقد جاء في الصحيحين عن عائشة أن النبي اشترى من يهودي طعاما إلى أجل ورهنه درعا من حديد؛ وقد قام الإجماع على جواز هذه الصورة، قال في المغني (٢٦٢/٦): لكن البيع بنسيئة ليس بمحرم اتفاقا. اهـ

الثانية: أن يكون الثمن المؤجل أزيد من الثمن الحال كأن يبيع ما قيمته مائة حالة بمائة وعشرة إلى سنة، وهذه المسألة أجازها جمهور العلماء بل قد ادعى بعضهم الإجماع على جوازها واستدلوا بما يلي:

١- قول الله ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ووجه الدلالة من الآية:

- أن الأصل في المعاملات الحل والإباحة ولا ينتقل من هذا الأصل إلا بدليل.

- الآية تدل على حل جميع أنواع البيوع إلا ما حرم بدليل.

- أن البيع ذكر مطلقا في الآية فيشمل بذلك بيع النقد وبيع النسيئة وإن اختلف الثمن.

- أن الآية نزلت في تعامل المشركين حيث كانوا يعرفون الزيادة على الثمن المؤجل ثم إذا حل الأجل قالوا إما أن تقضي وإما أن تربى.

و قد نقل شيخ الإسلام الإجماع على جواز الزيادة من أجل الأجل فقال عند أن سئل عن رجل محتاج إلى تاجر عنده قماش فقال أعطني هذه القطعة فقال التاجر هذه مشتراها بثلاثين، وما أبيعها إلا بخمسين إلى أجل فهل يجوز ذلك أم لا؟

فقال : المشتري على ثلاثة أنواع:

أحدها أن يكون مقصوده السلعة ينتفع بها للأكل و الشرب و اللبس و الركوب.

و الثاني: أن يكون مقصوده التجارة فيها.

فهذان نوعان جائزان بالكتاب والسنة والإجماع، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، لكن لا بد من مراعاة الشروط الشرعية.

الثالث: أن يكون المشتري إنما يريد به دراهم ليوفي بها ديناً ثم ذكر مسألة العينة والتورق وخرج بالنهي عنهما.

واستدلوا أيضاً بقول الله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، ووجه الاستدلال أن الزيادة في الثمن المؤجل هي من الربح الحاصل بالتجارة التي تمت بالتراضي بين الطرفين.

واستدلوا بحديث ابن عمرو عند أحمد (١٧١ / ٢)، والدارقطني (٦٩ / ٣) والبيهقي (٢٨٧-٢٨٨)، وأخرجه أبو داود (٣٣٥٧)، وهو حسن بمجموع طرقه، وقال الحافظ في الفتح (٤١٩ / ٤): إسناده قوي.

قال: أمرني رسول الله أن أجهز جيشا فنفدت الإبل فقال رسول الله: «أَبْتَعْ عَلَيْنَا إِبِلًا بِقَلَائِصَ مِنْ إِبِلِ الصَّدَقَةِ»، و قال: كنت أبتاع البعير بقلوصين وثلاث قلائص من إبل الصدقة إلى محلها، فلما جاءت إبل الصدقة أداها رسول الله.

قال في القاموس: وقلائص جمع قلوص وهي الشابة من الإبل أو الباقية على السير أو أول ما يركب والناقة الطويلة القوائم خاص بالإناث.

ووجه الدلالة أن الثمن الحال للبعير هو بعير واحد فلما أجل الثمن صار قيمة البعير ببعيرين أو ثلاثة.

الوجه الثاني: أنه إذا جاز بيع الصنف غير الربوي بجنسه إلى أجل مع الزيادة، فإنه يجوز أن يباع بغير جنسه من باب أولى، واستدلوا بقياس بيع التقسيط على بيع السلم حيث وهما على العكس ففي بيع السلم معجل رأس المال مؤجل المسلم فيه و من الجائز في عقد السلم أن يزداد في المسلم فيه كقابل تأجيله، وهذه فتوى الإمام ابن باز كما في مجلة البحوث الإسلامية (٥٢/٧).

واستدلوا كما أنه يجوز تأخير الثمن، فكذلك يجوز الزيادة مقابل هذا التأخير، فإذا جاء النساء جاز الفضل باطراد.

واستدلوا بجواز بيع السلعة بثمن حال و يزيد في سعر يومها الذي تباع به في السوق فإذا أجل هذا الثمن المزداد فيه بأن جعله ابتداء ثمنا مؤجلا للسلعة كان أولى بالجواز.

واستدلوا بحاجة الناس إلى هذا البيع كحاجتهم إلى بيع السلم، قال ابن باز كما في مجلة البحوث الإسلامية (٥٢/٧): وهو جائز بالإجماع وهو مثل البيع إلى أجل في المعنى و الحاجة إليه ماسة كالحاجة إلى المسلم والزيادة في الثمن مثل الزيادة

في البيع إلى أجل سببها فيهما تأخير تسليم المبلغ في مسألة السلم وتأخير تسليم الثمن في مسألة البيع إلى أجل. اهـ

ونقل شيخ الإسلام كما في الاختيارات (١٢٢-١٢٣) عن الإمام أحمد حسني،
سئل: إن ربح الرجل في العشرة خمسة أيكره ذلك؟

قال: إن كان أجله إلى سنة أو أقل بقدر الربح فلا بأس.

وقال جعفر بن محمد بيع النسيئة إذا كان مقاربا فلا بأس.

قال شيخ الإسلام: وهذا يقتضي كراهة الربح الكثير الذي لا يزيد على قدر
الأجل لأنه يشبه بيع المضطر.

واستدلوا باتفاق العلماء على جواز زيادة الثمن المؤجل عن الثمن الحال.

قال الخطابي كما في معالم السنن (١٠٥/٣) حكي عن طاووس أنه قال:
لا بأس أن يقول له هذا الثوب نقدا بعشرة وإلى شهر بخمسة عشر فيذهب به إلى
أحدهما، وقال الحكم: لا بأس به ما لم يتفرقا، وقال الأوزاعي: لا بأس بذلك ولكن
لا يفارقه حتى يباته بأحد المعنيين فقل له فإن ذهب بالسلعة على ذينك الشرطين؟
فقال: هي بأقل الثمنين إلى أبعد الأجلين... وهذا مما لا يشك في فساد فأمّا إذا باته
على أحد الأمرين في مجلس العقد فهو صحيح لا خلف فيه. ونقل الاتفاق ابن قدامة
في المغني (٢٦٢/٦)، والشيخ ابن باز تعالى كما في مجلة البحوث (٥٢/٧).

الفرق بين الزيادة في الثمن المؤجل وبين الربا:

الفرق الأول: أن الربا المحرم أحد نوعين:

الأول: ربا الديون وهو الزيادة في مقابل تأجيل دين ثابت في الذمة وهي مسألة إما أن تقضي و إما أن تربى، وهو الذي نزل القرآن بتحريمه في قوله الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥] الآيات.

الثاني: ربا الفضل وهو الزيادة في مبادلة الربوي بجنسه وقد تقدمت الأحاديث الدالة على تحريمه الذهب بالذهب والتمر بالتمر والشعير بالشعير والحنطة بالحنطة والملح بالملح يدا بيد ومثلا بمثل، فمن زاد واستزاد فقد أربى الآخر والمعطي فيه سواء؛ متفق عليه.

ويلحق به ربا النسيئة وهو تأخير أحد العوضين في مبادلة الربوي بجنسه يدل على ذلك حديث عمر في الصحيح و قد تقدم «الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ رِبًا إِلَّا هَاءَ وَهَاءَ، وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ رِبًا إِلَّا هَاءَ وَهَاءَ...»، و حديث «إِنَّمَا الرِّبَا فِي النَّسِيئَةِ».

الفرق الثاني: أن الزيادة في بيع التقسيط جاءت تبعا لبيع السلعة، أما الزيادة مقابل تأجيل الدين فجاءت مستقلة.

قال في مجلة الأحكام المادة (٥٤): يغتفر في التوابع ما لا يغتفر في غيرها.

الفرق الثالث: الثمن في بيع التقسيط ثمن واحد بات لا يزداد فيه، ولو تأخر المشتري في أداء الأقساط، أما في الربا فإن الزيادة جاءت أصلا لقاء الأجل و تزداد كلما زاد الأجل.

الفرق الرابع: التبادل في حالة الربا يتم بين أشياء متجانسة أما في بيع التقسيط فالثمن من جنس و المثل من جنس آخر مختلف.

الفرق الخامس: بيع التقسيط فيه تخير للمشتري بين الشراء نقدا بضمن أقل وبين الشراء بضمن مؤجل أكثر منه أما في الربا فلا خيار للمدين.

الفرق السادس: الثمن في بيع التقسيط جاء كله في زيادة مقابل السلعة أما في الربا فإن الزيادة لا مقابل لها.

الفرق السابع: البيع بضمن مؤجل لا يخرج عن قواعد البيوع من خيار ورد بالعيب واحتمال الربح والخسارة، أما الربا فلا يوجد فيه شيء من هذا ^(١).



(١) راجع أحكام التقسيط (٢٢٨-٢٣١) للتركي. وهذا المبحث ملخص من كتابي الدر المكنون في أحكام الديون .

الجامع لمعاملات أهل السنة وأخلاقهم

طريق السلامة في الدنيا والآخرة هو العمل بشرع الله تعالى في العبادات والمعاملات والاعتقادات بإحسان الخلق مع الله تعالى بتوحيده ومع النبي بمتابعته والسير على طريقته على فهم سلفنا الصالحين، ومع سلفنا بعدم الطعن والسب والثلب لهم، ومع الخلق ببذل الندى وكف الأذى وطلاقة الوجه.

قال شيخ الإسلام في الواسطية في بيان طريقة السلف: ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذِهِ الْأُصُولِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى مَا تَوْجِبُهُ الشَّرِيعَةُ: وَيَرَوْنَ إِقَامَةَ الْحُجِّ وَالْجِهَادِ وَالْجُمُعِ وَالْأَعْيَادِ مَعَ الْأَمْراءِ أَبْرَارًا كَانُوا أَوْ فُجَّارًا، وَيَحَافِظُونَ عَلَى الْجَمَاعَاتِ. وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ لِلأُمَّةِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ؛ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»، وَشَبَكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، وَقَوْلِهِ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِأَلْحَمَى وَالسَّهَرِ».

وَيَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلَاءِ، وَالشُّكْرِ عِنْدَ الرَّخَاءِ وَالرِّضَا بِمُرِّ الْقَضَاءِ. وَيَدْعُونَ إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَمَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا». وَيَنْدُبُونَ إِلَى أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ. وَيَأْمُرُونَ بِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَحُسْنِ الْجَوَارِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَالرَّفْقِ بِالْمَمْلُوكِ.

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْفَخْرِ، وَالْخِيَلَاءِ، وَالْبَغْيِ، وَالْاِسْتِطَالَةِ عَلَى الْخَلْقِ بِحَقٍّ أَوْ بَغَيْرِ حَقٍّ. وَيَأْمُرُونَ بِمَعَالِي الْأَخْلَاقِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ سَفْسَافِهَا. وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ

مِنْ هَذَا وَغَيْرِهِ؛ فَإِنَّمَا هُمْ فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَطَرِيقَتُهُمْ هِيَ دِينُ الْإِسْلَامِ
الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا .

لَكِنْ لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ كُلُّهَا فِي
النَّارِ؛ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ. وَفِي حَدِيثٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا
عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي»، صَارَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالْإِسْلَامِ الْمُحْضِ الْخَالِصِ عَنِ الشُّوبِ هُمْ
أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

وَفِيهِمُ الصَّدِيقُونَ، وَالشُّهَدَاءُ، وَالصَّالِحُونَ، وَمِنْهُمْ أَعْلَامُ الْهُدَى، وَمَصَابِيحُ
الدُّجَى، أُولُو الْمَنَاقِبِ الْمَأْثُورَةِ، وَالْفَضَائِلِ الْمَذْكُورَةِ، وَفِيهِمُ الْأَبْدَالُ، وَفِيهِمُ أَيْمَةُ
الدِّينِ، الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ، وَهُمْ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ الَّذِينَ
قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ : «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةً، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ
خَالَفَهُمْ، وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ؛ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»، نَسَأَلَ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ وَأَنْ لَا يُزِيلَ
قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ؛ انْتَهَى.



الحقوق في الإسلام

تقدم بيان ما يتعلق بحق الله تعالى، وهو توحيده، وإفراده بما يجب له، وحق النبي بمتابعته، ونتكلم هنا عن بقية الحقوق، وبالله العون.

حقوق الوالدين:

كما تقدم أن الإسلام قد اكتمل، وأنه دين شامل، ومن شموليته المحافظة على الترابط الأسري بدءًا بالوالدين، ثم الأرحام، وفي سوق الأدلة غنية عن التعليق، فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

قرن الله سبحانه وتعالى بين حقه وحق الوالدين، في كثير من النصوص فقال: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦]. وقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣﴾ [الأنعام: ٢٣]. ﴿لَهُمَا جَنَاحُ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤]. وقال في كثير من الآيات: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنِيتُ إِلَيْكَ وَلِإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وسئل رسول الله كما في حديث عبد الله بن مسعود ، عند الشيخين: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا» قلت: ثم أي؟ قال: «ثُمَّ بَرُّ الْوَالِدَيْنِ»، قلت: ثم أي؟ قال: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

وقال ، كما في حديث أبي هريرة عند مسلم: «لَا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدًا، إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ».

وسئل ، كما في حديث أبي هريرة المتفق عليه: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَبُوكَ». وفي رواية: «أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أَبُوكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ».

وقال ، كما في حديث عبد الله بن عمرو : «مِنَ الْكِبَائِرِ شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ»، قيل: وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «نَعَمْ يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ»؛ أخرجه مسلم.

وقال: «الْكِبَائِرُ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ...»، في الصحيح من حديث أنس .

فتلاحظ أن الإسلام قد حرص على العلاقة بين الولد ووالديه من الطاعة، والاحترام، وعدم الأذية، ولو بأدنى الكلام: أف. وهذا قل أن يوجد في غير المجتمع المسلم، فتجدهم في بلاد الكفار، وما أن يكبر أو يسن قليلاً؛ إلا وقد نقلوه إلى دار الأيتام والعجزة يصنعون به خيراً زعموا، وجاء من حديث أسماء قالت: قدمت على أمي، وهي مشركة فاستفتيت النبي فقلت: يا رسول الله، قدمت على أمي، وهي راغبة أفأصل أمي؟ قال: «نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ».

فانظر وفقك الله كيف أن الإسلام لم يضيع حقوق الوالدين حتى ولو كانا على غير الإسلام، مع مراعاة أنها لا يطاعان في معصية الله : ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

حقوق الأرحام:

أما في باب صلة الأرحام من إخوة، وأعمام، وعمات، وأخوال وخالات، وجدود، وجدات، فكذلك لم ينس حقهم، بل قد أمر به في القرآن بقوله: ﴿وَعَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ [الإسراء: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦]، وغيرها من الآيات.

وقد حثَّ رسول الله في كثير من الأحاديث على تأدية حقوقهم: فقال ، كما في حديث أبي هريرة المتفق عليه: «وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ».

وقال : «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»، من حديث أنس ، متفق عليه.

وقال في الذي يتصدق على الرحم: «لَهُمَا أَجْرَانِ: أَجْرُ الْقَرَابَةِ، وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ»، من حديث زينب الثقفية ، متفق عليه.

وقال ، كما في حديث عائشة : «الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ»؛ متفق عليه.

وقال الله محذراً من قطيعة الرحم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٢٣﴾ [محمد: ٢٢-٢٣].

وهذا غيظ من فيض نسوقه ليعرف المسلم شمولية دينه الإسلامي، ويقتنع بما هو عليه من الخير، ولا يغتر بدعاية المغرضين من يهود ونصارى، والله المستعان.

حقوق الجيران:

كما أن الدين الإسلامي الحنيف، قد حث على حقوق الوالدين، والأقربين، فكذاك لم ينس حق الجار، بل رغب فيه غاية الترغيب، وحذر من مغبة الإيذاء.

فقال جل وعز: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال ، كما في حديث ابن عمر وعائشة : «مَا زَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُّهُ»؛ متفق عليه.

وقال رسول الله لأبي ذر : «يَا أَبَا ذَرٍّ إِذَا طَبَحْتَ مَرَقَةً، فَأَكْثِرَ مَاءَهَا، وَتَعَاهَدَ جِيرَانَكَ»؛ أخرجه مسلم.

وقال : «وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ». قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: «الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقِهِ»؛ متفق عليه، وحديث أبي هريرة زاد مسلم: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ». والبوائق الشرور.

وقال : «لَا يَمْنَعُ أَحَدُكُمْ جَارَهُ أَنْ يَغْرِزَ خَشَبَةً فِي جِدَارِهِ»، أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

ومن حديثه أيضاً عند الشيخين: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ». وفي رواية: «فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ»، وفي رواية «فَلَا يُؤْذِي جَارَهُ».

وقال كما في حديث عبد الله بن عمر ، عند الترمذي، وصححه شيخنا
مقبل : «خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ
لِجَارِهِ».

حقوق الزوجين:

تقدم حقوق بعض أفراد المجتمع من الوالدين والأرحام، والجار، وأما في
جانب الحقوق الزوجية، فقد ركز الإسلام على هذا الجانب حتى تنشأ أسرة محافظة
على أمور دينها، وتربية أولادها، على غرار ما عليه الكافرين كما سيأتي، فقال سبحانه
مبيناً قوامه الرجل على المرأة: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى
بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْصَقُوا لَهَا فَنِصْفُهَا حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ
اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

وبين رسول الله كيفية حسن العشرة في المضاجعة، وخطورة عصيان
الزوجة كما في حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله : «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ
امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ فَبَاتَ غَضَبَانِ عَلَيْهَا لَعَنَتَهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ».

وفي رواية: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهَا، فَتَأْبَى
عَلَيْهِ، إِلَّا كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا»؛ متفق عليه.

وبين : أنه لا يجوز لها عمل شيء غير واجب عليها إلا بإذنه لحديث أبي
هريرة قال: قال رسول الله : «لَا يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلَّا
بِإِذْنِهِ، وَلَا تَأْذَنَ فِي بَيْتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ»؛ متفق عليه.

وقال : «وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا»؛ أخرجه
الشيخان من حديث ابن عمر .

وقال كما في حديث طلق بن علي: «إِذَا الرَّجُلُ دَعَا زَوْجَتَهُ لِحَاجَتِهِ فَلْتَأْتِهِ، وَإِنْ كَانَتْ عَلَى التَّنَوُّرِ»، رواه الترمذي.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «لَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا»؛ أخرجه الترمذي.

أما حق الزوجة فقد قال الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].
وقال: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩].

وبيّن رسول الله أن المرأة قد يحصل منها بعض الاعوجاج والمعارضة للزوج، ولكن على الزوج أن يكون معها على خير.

كما في حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكَتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ»؛ متفق عليه.

واستنكر رسول الله ضرب المرأة لغير ما بئس، لما في حديث عبد الله بن زمعة: «يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ، فَيَجْلِدُ امْرَأَتَهُ جَلْدَ الْعَبْدِ، فَلَعَلَّهُ يُضَاجِعُهَا مِنْ آخِرِ يَوْمِهِ»؛ متفق عليه.

وأمر الرجل بالإحسان إلى امرأته إن رأى منها خلقا يبغضه: «لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ»، أو قال: «غَيْرُهُ»، رواه مسلم، من حديث أبي هريرة .

وقال: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِنِسَائِهِمْ».

أخرجه الترمذي، وهو حسن من حديث أبي هريرة .

وبين ما يجب لها من الكسوة، والإطعام كما في حديث معاوية بن حيدة ،
عند الإمام أبي داود قال: قلت: يا رسول الله، ما حق زوج أحدنا عليه؟ قال: «أَنْ
تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ، أَوْ اكْتَسَبْتَ، وَلَا تَضْرِبَ الْوَجْهَ، وَلَا
تُقَبِّحَ، وَلَا تَهْجُرَ إِلَّا فِي الْبَيْتِ».

وجاء من حديث عمرو بن الأحوص ، عند الترمذي، وحديث عم أبي
حرة الرقاشي عند الإمام أحمد، وهو بمجموعها حسن لغيره؛ لأن في حديث
عمرو بن الأحوص فيه سليمان بن عمرو بن الأحوص: مجهول، وفي حديث عم أبي
حرة الرقاشي. على بن زيد بن جدعان: ضعيف. والحديث لبعض ألفاظه شواهد من
غيرها بعضها قد تقدم، وهو يشمل حقوق الزوج، وحقوق الزوجة، ألقاه رسول الله
في أكبر مجمع، وهي حجة الوداع لما للعلاقة الزوجية من أهمية في الفرد
والمجتمع.

قال : أنه سمع النبي في حجة الوداع، يقول بعد أن حمد الله، وأثنى
عليه، وذكر ووعظ، ثم قال: «أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ،
لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ، إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهْجُرُوهُنَّ
فِي الْمَضَاجِعِ، وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرَّحٍ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا، أَلَا
إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلَا
يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ، وَلَا يَأْذَنَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ، أَلَا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ
أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ»، وكان رسول الله ، وهو سيد الخلق،

وخاتم الأنبياء، يكون في خدمة أهله، ويداعبهن، ويحسن العشرة معهن، فانظر إلى سمات هذا الدين في شموليته وكماله.

حقوق الأبناء على الآباء:

قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦].

فمن هاتين الآيتين يبين الله سبحانه وتعالى: أن للأبناء حقوق على الآباء، وهي تربيتهم التربية الحسنة على طاعة الله، واجتناب نواهيه لتكون لهم السعادة في الدارين، والأمر هنا من الله للوجوب.

وأما الأحاديث فنذكر منها أن رسول الله رأى الحسن بن علي يأكل تمرة من تمر الصدقة، فقال: «كَيْفَ كَيْفَ، أَرَمَ بِهَا، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟»، متفق عليه من حديث أبي هريرة .

فانظر وتأمل، هدايا الله وإياك، حرص رسول الله على تعليم الحسن، لهذا الخير ولم يأت بالتأويلات أنه صغير أو أنها شيء يسير أو غير ذلك.

وقال رسول الله كما في حديث ابن عمر المتفق عليه: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».

وأخرج الإمام أبو داود، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، وحديث سبرة بن معبد حديث: «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ،

وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ وَفَرَّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ»، الحديث بطريقه صالح للاحتجاج، وجاء من حديث عمر بن أبي سلمة ، عند الإمام البخاري ، والإمام مسلم قال: كنت غلامًا في حجر رسول الله ، وكانت يدي تطيش في الصحيفة فقال لي رسول الله : «يَا غُلامُ، سَمِّ اللَّهَ، وَكُلِّ بِيَمِينِكَ، وَكُلِّ بِمَا يَلِيكَ»، قال: فما زالت تلك طعمتي بعد.

وعليه الانفاق عليهم، مما يستطيع وعدم تركهم عالة يتكفون الناس كما قال رسول الله : «إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ يَخْتَسِبُهَا فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ»، متفق عليه من حديث ابن مسعود .

وقال رسول الله ، كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، عند الإمام مسلم: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْسَبَ، عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوَّتَهُ»، وعند الإمام أبي داود: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ».

ومن حقوقهم أيضًا عدم إطعامهم من الحرام، وعدم إعانتهم على المنكرات بشراء تلفزيونات أو دشوات أو فديوهات، أو غيرها من الأمور المحرمة التي ليس موضع بسطها هنا، أما حقوق الآباء على أبناءهم، فقد تقدم شيء منها في حقوق الوالدين، والأرحام، ونسأل الله التوفيق والسداد.

ومن حقوقهم عليه أيضًا تعليمهم وتفقيهم دين الله ، لقوله : «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»، وعموم قول رسول الله : «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ».

وفي الصحيح من حديث معقل بن يسار : «مَا مِنْ وَاٍ يَلِي رَعِيَّةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَيَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لَهُمْ، إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ».

حقوق المسلمين فيما بينهم:

قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

وقال أيضًا في سياق صيانة الأعراض: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءِ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْمُسْوَقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (١١) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحْسَسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١١-١٢].

وقال في بيان تحريم دمائهم: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (٢٩) ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٢٩-٣٠]، وقال: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وغير ذلك من الآيات الكثيرة، في هذا الصدد.

أما من السنة فإن رسول الله ﷺ قام يوم عرفة في ذلك المجمع العظيم، وهو يقول: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا»، من حديث أبي بكرة في الصحيح وغيره خارج الصحيح، قد ضمنتها بحمد الله كتاب تنبيه أولى النهى والمدارك لما في سفك الدم المحرم من المهالك .

وقال كما في حديث النعمان بن بشير : «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»؛ متفق عليه.

وقال : آمراً بالتراحم فيما بينهم: «لَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ»؛ من حديث جرير، متفق عليه.

وفي حديث أبي هريرة في الصحيحين قال : «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يَرْحَمُ».

وقال كما في حديث أنس في الصحيحين: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ».

وقال مبيناً أن المجتمع لا يقوم على الترابط والإخاء إلا بالنصح: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ»، قلنا: لمن؟ قال: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»؛ أخرجه مسلم من حديث ابن رقية تميم الداري موصولاً، وعلقه البخاري .

وقال : «لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوْ لَا أَدْلُكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفَشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»؛ أخرجه مسلم، من حديث أبي هريرة .

قال : «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ: رَدُّ السَّلَامِ، وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ». وزاد مسلم في رواية: «وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ»؛ من حديث أبي هريرة ، متفق عليه.

وقال : «لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغُضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِيعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا

يُحَذِّلُهُ، وَلَا يَحْفَرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا، - ويشير إلى صدره ثلاث مرات -، بِحَسَبِ امْرِئٍ مِّنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْفَرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعَرَضُهُ؛
أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

وأمر بقضاء حوائجهم كما قال : «وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةٍ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»؛ من حديث ابن عمر ، متفق عليه، وجاء من حديث أبي هريرة : «وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

وأمر بسترهم إن وقع منهم معصية، لعلهم أن يتوبوا منها: «لَا يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْدًا فِي الدُّنْيَا، إِلَّا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»؛ أخرجه مسلم، من حديث أبي هريرة .

وقال أيضًا في حديث عبد الله بن عمر ، متفق عليه: «وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وأمر بالشفاعة لقضاء حوائجهم كما في حديث أبي موسى : «اشْفَعُوا تُوَجَّرُوا، وَيَقْضَى اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ»؛ متفق عليه.

وأمر بالإصلاح بينهم: «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا»؛ متفق عليه. من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن معيط .

وقد أمر رسول الله بنصرة المسلم ظالمًا أو مظلومًا كما في حديث أنس عند البخاري، وحديث جابر ، عند مسلم قال: قال رسول الله : «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: «تَحْجُزُهُ، أَوْ تَمْنَعُهُ، مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ».

وحذر من ظلم العباد فقال لأصحابه: «تَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟»، قالوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، قال: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فِينَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»؛ رواه مسلم، من حديث أبي هريرة .

وقال: «لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا»؛ أخرجه البخاري من حديث ابن عمر .

وهذا قليلٌ من كثير، ولو صنف الصحيح في حقوق الإنسان، لكان مجلدًا ضخماً، ولكن هذا إشارة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

الحقوق الشرعية بين الأغنياء والفقراء من المسلمين:

شرع الله سبحانه فيما شرع أن على الأغنياء أن يخرجوا قسطاً محدداً من أموالهم، تعاد إلى الفقراء، ومن على شاكلتهم، وذلك بعد استيفاء النصاب، سواء من الذهب أو الفضة أو الثمار أو الأنعام.

وكذا شرع ورغب في صدقة التطوع، فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال: ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠]، وقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النور: ٥٦]، وقال: ﴿وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ [سبا: ٣٩].

وقال جل ذكره مادحاً المؤمنين: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُدِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨-٩].
 إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا

وقال مبيناً أين تصرف الصدقات: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وقال جل وعز: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوقِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

وقال جل ذكره مبيناً قيمة الإخلاص في هذه العبادة: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبٍّ لَيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

وقال جل ذكره في سياق ثنائه على المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وهذا قليل من كثير، سقنا هذا لنبين كيف ربط هذا الدين، بين أفراد المجتمع.

والأدلة من السنة كثيرةٌ نورد منها ما تيسر:

- ١ - أخرج البخاري ومسلم من حديث ابن عمر أن رسول الله أمر بزكاة الفطر، أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة. وهذا من حرص الرسول على إطعام الفقراء في ذلك اليوم، والتوسعة عليهم.

٢- وأخرجنا أيضًا، البخاري ومسلم، كما في حديث جابر ، وأخرجه مسلم من حديث عائشة وأبي سعيد : أن رسول الله قال: «كُلُوا وَادَّخِرُوا، وَتَصَدَّقُوا». أي: من لحوم الأضاحي، حتى يطعم في ذلك اليوم الأغنياء والفقراء.

٣- وأخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة ، قال: قال رسول الله : «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ أَنْفِقْ أَنْفِقْ عَلَيْكَ».

٤- وأخرج الإمام مسلم من حديث ثوبان، وأبي هريرة في فضل الصدقة قوله : «أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ، دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ عَلَى ذَاتِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

٥- وقال كما في حديث ابن أبي موسى متفق عليه: «عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ».

٦- وقال كما في حديث أبي هريرة، وعائشة عند مسلم: «كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ يَعْدِلُ بَيْنَ النَّاسِ صَدَقَةٌ».

٧- وأخرج البخاري ومسلم من حديث حارثة بن وهب ، قال: قال رسول الله : «تَصَدَّقُوا، فَيُوشِكُ الرَّجُلُ يَمْشِي بِصَدَقَتِهِ، فَيَقُولُ الَّذِي أُعْطِيَهَا: لَوْ جِئْتَنَا بِهَا بِالْأَمْسِ قَبِلْتُمُهَا، فَأَمَّا الْآنَ، فَلَا حَاجَةَ لِي بِهَا، فَلَا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا».

٨- سئل رسول الله كما في حديث أبي هريرة المتفق عليه: أي الصدقة أعظم؟ قال: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ مُحْشَى الْفَقْرَ، وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلَا تُمَهِّلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ، قُلْتَ لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ».

٩- وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله : « مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا. »

١٠- وقال كما في حديث عدي بن حاتم متفق عليه: « اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ. »

١١- وقال كما في حديث أبي هريرة متفق عليه: « لَا يَتَصَدَّقُ أَحَدٌ بِتَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، إِلَّا أَخَذَهَا اللَّهُ بِيَمِينِهِ، فَيُرَبِّيَهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، أَوْ قُلُوصَهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ، أَوْ أَعْظَمَ. »

١٢- وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، - وذكر -، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِئَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ. »

١٣- وقال كما في حديث عقبة بن عامر ، وهو في الصحيح المسند: « كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ. »

١٤- وأخرج الإمام البخاري، والإمام مسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله : « أَلَا رَجُلٌ يَمْنَحُ أَهْلَ بَيْتٍ نَاقَةً، تَغْدُو بِعُسٍّ، وَتَرْوَحُ بِعُسٍّ، إِنَّ أَجْرَهَا لَعَظِيمٌ. »

١٥- وقال كما في حديث أسماء في الصحيحين: « أَنْفَجِي أَوْ انْضَحِي أَوْ أَنْفِقِي، وَلَا تُحْصِي، فَيُحْصِيَ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَلَا تُوعِي فَيُوعِي اللَّهُ عَلَيْكَ. »

١٦- وبين رسول الله أن على المسلم أن يتصدق مما يسر الله ولا يكلف نفسه ما لا يطيق، «يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ، لَا تَحْفَرْنَ جَارَةً لِجَارَتِهَا، وَلَوْ فَرَسَنَ شَاةٍ».

والأحاديث كثيرة جداً، وسقنا هذا القدر منها لتعلم عبد الله أن الدين الإسلامي هو دين الرحمة والشمولية، وليست الديمقراطية الرأسمالية، ولا الاشتراكية: هما الشموليتان، كما يكرر نعاقها.

حقوق المخدمين والخدام:

سواءً كان الخادم مملوكاً أو عاملاً، فإن الإسلام قد أمر بالإحسان إليه، والعطف عليه، والله يقول: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦].

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية (١/ ٥٠٧)، ط. دار المعرفة: وصية بالأرقاء؛ لأن الرقيق ضعيف الحاجة، أسير في أيدي الناس، فثبت عن النبي أنه كان يوصي أمته في مرض الموت بقوله: «الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»، فجعل يرددها حتى ما يقضي بها لسانه. اهـ

وأخرج البخاري ومسلم رحمهما الله من حديث أبي ذر أن رسول الله قال: «إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ».

وأخرج الإمام البخاري من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله : «إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ، فَإِنْ لَمْ يُجْلِسْهُ مَعَهُ، فَلْيَتَاوَلْهُ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ أَوْ أَكْلَةً أَوْ أُكْلَتَيْنِ، فَإِنَّهُ وَلِيٌّ عِلَاجَهُ».

ورغب الله سبحانه وتعالى في إعتاقهم، فقال الله تعالى: ﴿فَلَا أَقْنَمَ الْعَقَبَةَ﴾ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكَرَبَةٍ ﴿[البلد: ١١-١٣].

وأخرج الشيخان من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله : «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً، أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عَضْوٍ مِنْهُ عَضْوًا مِنَ النَّارِ، حَتَّى فَرَجَهُ بِفَرَجِهِ».

وتدخل في هذا الباب عموم أحاديث الرحمة: «لَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ». وحديث: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ»، وحديث: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يَرْحَمُ»، وغيرها من الأحاديث.

وقد أمر رسول الله بتعليمهم أي المالك، فقد قال : «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ»، وذكر: «رَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أُمَةٌ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ أَدَبَهَا، وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا»؛ متفق عليه من حديث أبي موسى .

وحافظ الإسلام على أعراض المملوكين، كما تقدم أنه حافظ على أعراض المسلمين الأحرار، فقال كما في حديث أبي هريرة عند الشيخين: «مَنْ قَدَفَ مَمْلُوكَهُ بِالزَّنَا، يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ».

وجاء من حديث ابن عمر ، عند مسلم، قال: قال رسول الله : «مَنْ ضَرَبَ غُلَامًا لَهُ حَدًّا لَمْ يَأْتِهِ، أَوْ لَطَمَهُ، فَإِنَّ كَفَّارَتَهُ أَنْ يُعْتَقَهُ».

كما أنه سبق ذكر أحاديث الإحسان إلى المملوك، كذلك قد بين فضل المملوك المستقيم على شرع الله، وعلى طاعة سيده ومولاه، فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث ابن عمر ، ثم قال: قال رسول الله : «الْعَبْدُ إِذَا نَصَحَ سَيِّدَهُ، وَأَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ، كَانَ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ»؛ متفق عليه.

وجاء من حديث أبي موسى متفق عليه: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ، - وذكر منهم-، وَالْعَبْدُ الَّذِي يُؤَدِّي حَقَّ اللَّهِ، وَيَنْصَحُ لِسَيِّدِهِ».

وأخرج الإمام مسلم من حديث جرير قال: قال رسول الله : «أَيُّمَا عَبْدٍ أَبَقَ فَقَدْ بَرَّتْ مِنْهُ الذَّمَّةُ». وفي لفظ: «إِذَا أَبَقَ الْعَبْدُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ». وفي لفظ: «أَيُّمَا عَبْدٍ أَبَقَ مِنْ مَوَالِيهِ فَقَدْ كَفَرَ حَتَّى يَرْجَعَ إِلَيْهِمْ».

وقال رسول الله مبيِّناً أن عليهم مسئولية أمام الله في أعمالهم كما في حديث عبد الله بن عمر: «وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»؛ متفق عليه.

فانظر هدايا الله وإياك: كيف يأمر الإسلام بالتعامل بين أفراد، بخلاف أصحاب النظريات المادية، من ديمقراطيين، وعلمانيين ورأسمالين، أو ما تعانيه الطائفة الأخرى، من قهر واضطهاد من قبل الاشتراكيين والشيوعيين، فالحمد لله على نعمته.

الإسلام والأموال:

لما كانت طبيعة الإنسان حب المال، وحب الإكثار منه، من حلال أو من حرام، كما قال رسول الله : «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى وَادِيَا ثَالِثًا». أمر الله المؤمنين أن يأكلوا من الحلال وأن يدعوا الحرام قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وأخرج الإمام مسلم تعالى من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله : «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وَقَالَ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة:

[١٧٢]. ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟». فمن هذا الحديث يتبين لك أن الله أمر بالأكل من الطيبات، فهي سبب لاستجابة الدعاء، وقبول العبادة، وفي أكل الطيبات اقتداء بالأنبياء.

وحذر رسول الله ﷺ من أكل الحرام، كما في حديث أبي هريرة ، عند البخاري تعالى: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، لَا يُبَالِي الْمَرْءُ مَا أَخَذَ مِنْهُ، أَمِنَ الْحَلَالَ أَمْ مِنَ الْحَرَامِ».

وقد حذر الله تعالى في كتابه الكريم من أكل أموال الناس بالباطل كما قال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩].

وحرم الربا لما فيه من هذا الباطل كما في كثير من الآيات في القرآن الكريم: قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥-٢٧٦]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [٢٧٨] فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِنْ تُبْتِغُوا فَلََكُمْ رَأْسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩].

والربا عرفه كثير من العلماء أنه جميع البيوع المحرمة من غرر وعيئة وغيرهما.

فانظر عبد الله كيف شرع الله للمسلم، ودله على طلب الرزق من سبله المشروعة، وحذر من مغبة الوقوع في جميع المعاملات المحرمة، من قمار وميسر وربا وبيع غرر، وبيع عينة، وبيع الحصة، وبيع المنابذة وغيرها.

وأحل ما سواها من البيوع المباحة، والطرق التجارية المشروعة، بخلاف الأفكار الحديد من ديمقراطية، وشيوعية وغيرها، فتجد أنهم يشجعون أرباب التجارة في الحرام من الميسر والخمر، وقد لعن رسول الله ﷺ في الخمر عشرة أشياء: بائعها ومبتاعها، وعاصرها ومعتصرها، وحاملها والمحمولة إليه، وشاربها وآكل ثمنها؛ الحديث.

وقال رسول الله ﷺ: «فَإِنْ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوِي رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ».

وقال رسول الله ﷺ: «دَعْ مَا يَرِيئُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيئُكَ»، فترك البيوع التي تحتوي على الريبة أولى من الوقعة فيها كما في حديث النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ».

حقوق الحيوان في الإسلام:

تقدم التعليق على قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَضْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وأن هذا الدين كامل شامل لجميع جوانب الحياة، ومنها الرفق بجميع المخلوقات، وإليك بعض الأدلة الدالة على هذا الجانب:

جاء من حديث أبي هريرة عند الإمام مسلم قال: قال رسول الله :
«إِذَا سَافَرْتُمْ فِي الْخُصْبِ، فَأَعْطُوا الْإِبِلَ حَظَّهَا مِنَ الْأَرْضِ، وَإِذَا سَافَرْتُمْ فِي السَّنَةِ، فَبَادِرُوا بِهَا نَفْيَهَا».

معنى الحديث كما قال الإمام النووي: **«فَأَعْطُوا الْإِبِلَ حَظَّهَا مِنَ الْأَرْضِ»**، أي أرفقوا بها في السير، لترعى في حالة سيرها.

وجاء من حديث ابن الحنظلية، وهو من أهل بيعة الرضوان قال: مر رسول الله ببعير قد لحق ظهره ببطنه فقال: **«اتَّقُوا اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ، فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً، وَكُلُّوهَا صَالِحَةً»**؛ أخرجه أبو داود، وهو في صحيح شيخنا .

وجاء من حديث أنس قال: كنا إذا نزلنا منزلاً لا نسبح حتى نحل الرحال؛ أخرجه أبو داود، قال: لا نصلي النافلة حتى نريح الدواب.

وجاء من حديث عبد الله بن جعفر ، عند أبي داود: أن رسول الله دخل حائط رجل من الأنصار، فإذا فيه جمل، فلما رأى النبي جرجر وذرفت عيناه، فاتاه النبي فمسحه، فسكن. ثم قال: **«مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ، لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟»**، فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله، فقال: **«أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا؟ فَإِنَّهُ شَكََا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْبِيهِ».**

وجاء من حديث أبي هريرة ، عند الشيخين قال: قال رسول الله :
«بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بئراً، فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلَ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ الْبئرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ مَاءً، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَمِينِهِ حَتَّى رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ»، وفي رواية للبخاري: **«فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ»**. وفي رواية

للشيخين أيضاً: «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ، كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَتَزَعَتْ مُوقَهَا فَسَقَتْهُ فَغَفَرَ لَهَا بِهِ».

وجاء من حديث شداد بن أوس ، عند مسلم قال: قال رسول الله :
«إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحَدِّثْ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِخْ ذَبِيحَتَهُ».

ونهى رسول الله عن صبر البهائم؛ كما في حديث أنس عند مسلم .
وقال رسول الله كما في حديث ابن عباس عند مسلم: «لَا تَتَّخِذُوا شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا».

وأخرج مسلم من حديث جابر : نهى رسول الله أن يقتل شيء من الدواب صبراً.

ومر ابن عمر بشبان وهم قد نصبوا دجاجة يترامونها، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر : من فعل هذا؟ إن رسول الله لعن من فعل هذا.

حقوق أهل الذمة:

أهل الذمة هم اليهود والنصارى، والمجوس، وغيرهم ممن كان له كتاب، فإن لم يكن لهم كتاب كعبدة الأوثان، فلا يقرون على الجزية؛ روضة الطالب (١٠ / ٣٠٤).

فمن يعيش في الدولة الإسلامية بصفة دائمة، وعليهم شروط في ذلك، وهي دفع الجزية يلتزمون أحكام الإسلام في معاملات وعقوبات، وينقض عهده

بالامتناع عن الجزية أو الاجتماع على قتال المسلمين، أو سب الله ورسوله، أو سب الدين وغيرها من الأمور؛ روضة الطالبين (٣٣٧/١٠).

ومن حقوقهم:

١ - الوفاء بالعهد لهم، لقول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ [النحل:

[٩١].

٢ - عدم إكراههم للدخول في الدين، لقول الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وقد ذهب بعض العلماء إلى نسخ هذه الآية بآية القتال ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَنَسَّ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩]، وذهب بعض العلماء إلى عدم النسخ، وإنما هي في حق أهل الكتاب خاصة، وأنهم لا يكرهون على الإسلام إذا أدوا الجزية والذين يكرهون هم أهل الأوثان؛ اهـ تفسير القرطبي (٢٨٠/٣). ويؤيد هذا القول صنيع عمر مع نصارى بيت المقدس؛ مع ملاحظة شرط مهم وهو عدم إظهارهم لما يخاف دين الإسلام.

٣ - حمايتهم والدفاع عنهم ضد أي اعتداء.

٤ - تحريم أموالهم ودمائهم.

٥ - تحريم ظلمهم وتكليفهم فوق طاقتهم لقول رسول الله : ﴿أَلَا مَنْ ظَلَمَ مِعَاهِدًا، أَوْ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بغيرِ طيبِ نفسٍ، فَأَنَّا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ أخرجه أبو داود رقم (٣٠٥٢). قال الحافظ في الفتح (٨٨/٧): لا يكلفون فوق طاقتهم أي من الجزية. وللإمام ابن القيم كتاب حافل في أحكام أهل الذمة.

قول رسول الله : «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»؛ البخاري رقم (٣٦٦)، من حديث أبي بكرة .

ووصية عمر إلى الخليفة من بعده: وأوصيه بذمة الله، وذمة رسوله أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا إلا طاقتهم؛ أخرجه البخاري (٣٠٥٢).



الردة

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].
 وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، كان مستحقاً للقتل،
 لقول النبي : «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»، رواه البخاري، من حديث ابن عباس .

والردة في اللغة: هي الرجوع، قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾ [المائدة: ٢١].
 وفي الاصطلاح: هي الكفر بعد الإسلام، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

والردة ترجع إلى خمسة أقسام:

- ١ - الردة بالقول، كسب الله تعالى، أو سب رسول الله ، أو ملائكته، أو أحد رسله، أو ادعاء علم الغيب، أو ادعاء النبوة، أو تصديق من يدعيها، أو دعاء غير الله، أو الاستعانة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.
- ٢ - الردة بالفعل، كالسجود للصنم والحجر والقبور، والذبح لها، وإلقاء المصحف في الأماكن القدرة، وعمل السحر وتعليمه وتعلمه، والحكم بغير ما أنزل الله معتقداً حله.
- ٣ - الردة بالاعتقاد، كاعتقاد الشريك لله ، أو أن الخمر حلال، أو أن الصلاة غير واجبة مما أجمع المسلمون عليه.

٤- الردة بالشك، كمن شك في تحريم الشرك، أو شك في الأنبياء، أو في صدقهم.

٥- الردة بالترك، كمن ترك الصلاة متعمداً، لقول رسول الله : «إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشَّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ»، أخرجه مسلم من حديث جابر.

أحكام الردة:

١- استتابة المرتد، فإن تاب ورجع في الإسلام في خلال ثلاثة أيام، قُبِلَ منه ذلك، وترك. وعلى هذا جمهور السلف رضوان الله عليهم.

٢- إذا أبى أن يتوب وجب قتله، لحديث: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ»؛ أخرجه البخاري عن ابن عباس.

٣- يمنع من التصرف في ماله مدة استتابته، فإن تاب فهو له، وإن أبى قُتِلَ، ودفع المال إلى بيت المسلمين.

٤- انقطاع التوارث فيما بينه وبين أقاربه.

٥- إذا مات على رده فإنه لا يكفن، ولا يغسل، ولا يصلى عليه؛ انتهى بتصرف من كتاب حكم المرتدين من الحاوي الكبير .



حكم تصوير ذوات الأرواح

تصوير ذوات الأرواح محرم، دلت على ذلك السنة الصحيحة المتواترة عن النبي .

ففي «صحيح مسلم» (٢١٠٤) عن عائشة أنها قالت: وَاَعَدَّ رَسُولُ اللَّهِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي سَاعَةٍ يَأْتِيهِ فِيهَا، فَجَاءَتْ تِلْكَ السَّاعَةُ وَلَمْ يَأْتِهِ، وَفِي يَدِهِ عَصَا، فَأَلْقَاهَا مِنْ يَدِهِ، وَقَالَ: «مَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَا رُسُلُهُ، ثُمَّ التَفَتَ؛ فَإِذَا جِرُّوْ كَلْبٍ تَحْتَ سَرِيرِهِ». فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ مَتَى دَخَلَ هَذَا الْكَلْبُ هَاهُنَا؟». فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا دَرَيْتُ؛ فَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ، فَجَاءَ جِبْرِيلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «وَاعِدْتَنِي فَجَلَسْتُ لَكَ فَلَمْ تَأْتِ، فَقَالَ: مَنْعَنِي الْكَلْبُ الَّذِي كَانَ فِي بَيْتِكَ، إِنَّا لَا نَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ».

وأخرج رقم (٢١٠٥) عن ميمونة ، قالت: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَصْبَحَ يَوْمًا وَاجِمًا، فَقَالَتْ مَيْمُونَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ اسْتَنْكَرْتُ هَيْئَتَكَ مِنْذُ الْيَوْمِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ وَعَدَنِي أَنْ يَلْقَانِي اللَّيْلَةَ، فَلَمْ يَلْقَنِي، أَمْ وَاللَّهِ مَا أَخْلَفَنِي». قَالَ: فَظَلَّ رَسُولُ اللَّهِ يَوْمَهُ ذَلِكَ عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ جِرُّوْ كَلْبٍ تَحْتَ فُسْطَاطٍ لَنَا، فَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِهِ مَاءً فَنَضَحَ مَكَانَهُ، فَلَمَّا أَمْسَى لَقِيَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ لَهُ: «قَدْ كُنْتَ وَعَدْتَنِي أَنْ تَلْقَانِي الْبَارِحَةَ؟ قَالَ: أَجَلٌ، وَلَكِنَّا لَا نَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ»، فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ؛ فَأَمَرَ بِقَتْلِ الْكِلَابِ، حَتَّى إِنَّهُ يَأْمُرُ بِقَتْلِ كَلْبِ الْحَائِطِ الصَّغِيرِ، وَيَتْرُكُ كَلْبَ الْحَائِطِ الْكَبِيرِ.

وعن أبي طلحة ، عن النبي قال: «لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ»؛ أخرجه البخاري (٣٢٢٥)، ومسلم (٢١٠٦).

وأخرج مسلم (٢١٠٧) قالت عائشة : كَانَ لَنَا سِتْرٌ فِيهِ تَمَثُّلٌ طَائِرٌ، وَكَانَ الدَّاخِلُ إِذَا دَخَلَ اسْتَقْبَلَهُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ : «حَوِّلِي هَذَا؛ فَإِنِّي كُلتُ فَرَائِئُهُ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا». قَالَتْ: وَكَانَتْ لَنَا قَطِيفَةٌ كُنَّا نَقُولُ عَلَمُهَا حَرِيرٌ، فَكُنَّا نَلْبَسُهَا.

وأخرج البخاري برقم (٢٤٧٩) قالت: دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ وَفِي الْبَيْتِ قِرَامٌ فِيهِ صُورٌ، فَتَلَوْنَ وَجْهَهُ، ثُمَّ تَنَاوَلَ السِّتْرَ فَهَتَكَهُ، وَقَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ : «إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الَّذِينَ يُصَوِّرُونَ هَذِهِ الصُّورَ».

وعنها قالت: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ وَقَدْ سَرَتْ سَهْوَةٌ لِي بِقِرَامٍ فِيهِ تَمَاتِيلٌ، فَلَمَّا رَأَاهُ هَتَكَهُ وَتَلَوْنَ وَجْهَهُ، وَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الَّذِينَ يُضَاهَوْنَ بِخَلْقِ اللَّهِ»، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقَطَعْنَاهُ، فَجَعَلْنَا مِنْهُ وَسَادَةً أَوْ وَسَادَتَيْنِ.

وفي لفظ لها عند البخاري (٢١٥٠)، ومسلم: «إِنَّ أَصْحَابَ الصُّورِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَهَا، يُعَذَّبُونَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ».

وفي البخاري (٥٩٥٠)، ومسلم (٢١٠٩) عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله : «إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْمُصَوِّرُونَ».

ولهما البخاري (٢٢٢٥) ومسلم (٢١١٠) عند سعيد بن أبي الحسن قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: إِنِّي رَجُلٌ أَصَوِّرُ هَذِهِ الصُّورَ، فَأَفْتِنِي فِيهَا، فَقَالَ لَهُ: اأْذَنْ مِنِّي، فَدَنَا مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ: اأْذَنْ مِنِّي، فَدَنَا حَتَّى وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ، قَالَ: أُنبِّئُكَ بِمَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ،

يَجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسًا فَتُعَذِّبُهُ فِي جَهَنَّمَ»، وَقَالَ: إِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ فَاعِلًا، فَاصْنَعِ الشَّجَرَ وَمَا لَا نَفْسَ لَهُ؛ فَأَقْرَبِهِ نَضْرِبُ عَلِيٍّ.

وفي لفظ لهما: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا، كُفِّ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ».

ولهما عن أبي هريرة ، قال: سمعت رسول الله يقول: «قَالَ اللَّهُ : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ شَعِيرَةً».

ولمسلم (٢١١٢) عن أبي هريرة ، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ تَمَاثِيلٌ أَوْ تَصَاوِيرٌ».

قال النووي: في شرح أحاديث الباب: قال أصحابنا وغيرهم من العلماء: تصوير صورة الحيوان حرام، شديد التحريم، وهو من الكبائر؛ لأنه متوعد عليه بهذا الوعيد الشديد المذكور في الأحاديث، وسواء صنعه بما يمتن أو بغيره، فصنعه حرام بكل حال؛ لأن فيه مضاهاة لخلق الله تعالى، وسواء ما كان في ثوب أو بساط أو درهم أو دينار أو فلس أو إناء أو حائط أو غيرها، وأما تصوير صورة الشجر ورحال الإبل وغير ذلك، مما ليس فيه صورة حيوان فليس بحرام، هذا حكم نفس التصوير. اهـ ونزيد على هذا: ما أخرجه مسلم في صحيحه (٩٦٩) عن علي بن أبي طالب ، أنه قال لأبي الهياج: ألا أبعثك على ما بعثني رسول الله : «أَنْ لَا تَدْعَ تَمَثَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ».

فخلصنا بهذه الأحاديث التي غيرها أكثر منها، إلى أن تصوير ذوات الأرواح من كبائر الذنوب والآثام، فعلى المسلم البعد عن هذه البلية العظيمة، والفتنة الجسيمة التي وقع فيها الناس بجهلهم بدين رب العالمين، وسنة سيد المرسلين، وأما

القول بجوازها في موطنين، فهذا قول من لم يفقه مراد الله ، ومراد رسوله في هذا الموطن؛ وأما صنع عائشة للعب، أو الفرس الذي له أجنحة، فجوابه من أوجه:

الأول: أنها كانت غير مكلفة في ذلك الوقت، وهذا الجواب قد يكون بعيداً.

الثاني: أنها إنما تصنع كهيئة ما ذكر، وليس معناها أنها تضاهي خلق الله .

والثالث: أن ما صنعه الطفل للعب لا ينكر عليه فيه.

الرابع: لم يرد أن النبي هو الذي أعانها وصنع لها.

وأما الاستدلال بما ألزمت به الحكومات من التصوير للجوازات والبطائق، فالإثم عليهم، ولم يكن إلزامهم هذا شرع لنا يجب علينا فعله، وإن فعلناه فالإثم على من ألزم مع فعلنا له مع الكراهة، ولا يستدل بالباطل على جواز الباطل.

قال العلامة الوادعي رحمه الله: مبيناً حكم ما يفعله كثير ممن ينتسب إلى العلم والصلاح في التصوير في تحفة المجيب (٦٢):

السؤال: ما حكم تصوير العلماء في مؤتمراتهم ومحاضراتهم، وما هو المباح من التصوير؟

الجواب: التصوير محرم، فالنبي يقول: «لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ»، ويقول: «وَلَعَنَ الْمُصَوِّرِينَ».

وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة ، عن النبي أنه قال: «تَخْرُجُ عَنْقُ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهَا عَيْنَانِ تُبْصِرَانِ وَأُذُنَانِ تَسْمَعَانِ وَلِسَانٌ يَنْطِقُ،

يَقُولُ: إِنِّي وَكَّلْتُ بِثَلَاثَةٍ، بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ اللَّهِ إِلَهَا آخَرَ، وَبِالْمُصَوِّرِينَ».

وقد أبى النبي أن يدخل حجرة عائشة وقد سترت سهوة لها بقرام فيه تصاوير.

فهذا دليل يرد على الذين يقولون: ليس هناك محرم إلا المجسمة. فقد أبى النبي أن يدخل الحجرة حتى هتك الستار وقال: «إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُصَوِّرُونَ هَذِهِ الصُّورَ». والذي لا بد منه مثل رخصة القيادة، وجواز السفر، والبطاقة، فالإثم على الحكومة. اهـ

وفي نفس المصدر (١/٦٦٩): التصوير الفوتوغرافي الشمسي من أنواع التصوير المحرم، فهو والتصوير عن طريق النسيج والصبغ بالألوان والصور المجسمة سواء في الحكم، والاختلاف في وسيلة التصوير وآلته لا يقتضي اختلافًا في الحكم، وكذا لا أثر للاختلاف فيما يبذل من جهد في التصوير صعوبة وسهولة في الحكم أيضًا، وإنما المعتبر الصورة فهي محرمة وإن اختلفت وسيلتها وما بذل فيها من جهد، وظهور صورتي في مجلتي المجتمع والاعتصام مع فتواي في أحكام الصيام في شهر رمضان ليس دليلًا على إجازتي التصوير، ولا على رضاي به، فإني لم أعلم بتصويرهم لي. اهـ

فيا متتبعي الزلات والهفوات، ألا أخذتم بما وافق الحق من كلام أهل العلم النصحاء، لكن الهوى يعمي ويصم عن الحق.

قال الله: ﴿أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

فليكن طريقك اللاحب، وصراطك المستقيم هو الأخذ بالحق بعيداً عن الآراء والأهواء، والله المستعان، وعليه التكلان.

فهذا ابن باز الذي تستدلون بأقواله على باطلكم ينسف ما سودتم به صحفكم، فهل أنتم منتهون.

شبهة تصوير ذوات الأرواح للتوضيح في الدراسة وهل أن التصوير الشمسي، كارتسام الصورة في المرأة؟

الجواب مسطر ضمن مجموع فتاوى اللجنة الدائمة (١/٦٧٣) حيث ورد فيها: وليس التصوير الشمسي كارتسام صورة من وقف أمام المرأة فيها، فإنها خيال يزول بانصراف الشخص عن المرأة والصور الشمسية ثابتة بعد انصراف الشخص عن آلة التصوير يفتتن بها في العقيدة وبجاملها في الأخلاق ويتنفع بها فيما تقضي به الضرورة أحياناً من وضعها في جواز السفر أو دفتر التبعية أو بطاقة الإقامة أو رخصة قيادة السيارات مثلاً.

وليس التصوير الشمسي مجرد انطباع، بل عمل بالآلة ينشأ عنه الانطباع فهو مضاهاة لخلق الله بهذه الصناعة الآلية. ثم النهي عن التصوير عام؛ لما فيه من مضاهاة خلق الله والخطر على العقيدة والأخلاق دون نظر إلى الآلة والطريقة التي يكون بها التصوير. اهـ

وفي فتاوى اللجنة الدائمة كما في مجموع (١/٦٨٤): تصوير ذوات الأرواح حرام مطلقاً؛ لعموم الأحاديث التي وردت في ذلك وليست ضرورية للتوضيح في الدراسة، بل هي من الأمور الكمالية لزيادة الإيضاح، وهناك غيرها من وسائل الإيضاح يمكن الاستغناء بها عن الصور في تفهيم الطلاب والقراء، وقد

مضى على الناس قرون وهم في غنى عنها في التعليم والإيضاح وصاروا مع ذلك أقوى منا علما وأكثر تحصيلا، وما ضرهم ترك الصور في دراستهم، ولا نقص من فهمهم لما أرادوا ولا من وقتهم وفلسفتهم في إدراك العلوم وتحصيلها، وعلى هذا لا يجوز لنا أن نرتكب ما حرم الله من التصوير لظننا أنه ضرورة، وليس بضرورة لشهادة الواقع بالاستغناء عنه قرونا طويلة، وبالله التوفيق. وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم. اهـ



وجوب مخالفة الكافرين

اعلم وفقك الله أن من مقاصد هذا الدين هذا الدين على أن يكون للمسلم كيان مستقل بعيداً عن التشبه بالكافرين الملحدين الضالين، فتجد أن الله قد أمر بمخالفتهم في كثير من العبادات والعادات؛ لأن الكافرين في جاهلية وجهل وبعد عن طاعة الله عز وجل، وهم أولياء الشيطان، وأعداء الرحمان، كما قال الله مخبراً عن إبراهيم: ﴿يَتَأْتٍ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤].

وقد حذرنا الله تعالى من مشابھتهم في الفرقة وغيرها، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿[الروم: ٣١-٣٢].

وقال رسول الله : «إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا: يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ». أخرجه مسلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي حديث حذيفة قال رسول الله : «فَالزَّمْ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ، وَإِمَامَهُمْ».

وقال : «مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ بِجَمِيعٍ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ، يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ، أَوْ يَفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ، فَاقْتُلُوهُ»، أخرجه مسلم عن عرفة.

وقال رسول الله : «يَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ»، أخرجه الترمذي عن ابن عباس .

وقد أدب رسول الله أصحابه حين رأهم يتفرقون في الشعاب والأودية، وقال: «إِنَّ تَفَرُّقَكُمْ فِي هَذِهِ الشَّعَابِ وَالْأَوْدِيَةِ، إِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ»، كما في حديث أبي ثعلبة الخشني.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

قال شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم ، ثم جعل محمد على شريعة من الأمر، شرعها له، وأمر باتباعها، ونهاه عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، وقد دخل في الذين لا يعلمون كل من خالف شريعته.

وأهواؤهم: هو ما يهوونه، وما عليه المشركون من هديهم الظاهر الذي هو من موجبات دينهم الباطل، وتوابع ذلك، فهم يهوونه، وموافقتهم فيه اتباع لما يهوونه، ولهذا يفرح الكافرون بموافقة المسلمين في بعض أمورهم، ويسرون به، ويودون لو بذلوا مالا عظيماً ليحصل ذلك. اهـ

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا وَفُؤُولُوا أَنْظَرْنَا وَأَسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤].

قال ابن كثير رحمه الله (١/١٥٣): عند تفسير هذه الآية، نهى الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين، أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وأفعالهم. اهـ

وقال رحمه الله أيضاً (١/١٥٣): بعد سوقه لحديث ابن عمر الذي أخرجه الإمام أحمد قال: قال رسول الله : «بُعِثْتُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُحْيِي، وَجُعِلَ الدَّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ». ففيه: دلالة على النهي الشديد، والتهديد والوعيد على التشبه بالكفار في أفعالهم وأقوالهم ولباسهم، وأعيادهم وعبادتهم، وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا، ولم نقر عليها. اهـ

وقد جاءت أدلة كثيرة تحت على مخالفتهم في عباداتهم، نورد منها على سبيل الذكر لا الحصر حديث عمر بن عبسة رضي الله عنه عند الإمام مسلم (٨٣٢) عن أبي أمامة قال: قال عمرو بن عبسة السلمي: كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء، وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً.

فقدت على راحتي فقدمت عليه، فإذا رسول الله مستخفياً جراء عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة، فقلت له: ما أنت؟ قال: «أنا نبي» فقلت: وما نبي؟ قال: «أرسلني الله»، فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: «أرسلني الله».

قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: «حرٌّ، وعبدٌ» قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال، ممن آمن به، فقلت: إني متبعك، قال: «إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا، أَلَا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ، وَلَكِنْ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأَنِينِي».

قال: فذهبت إلى أهلي وقدم رسول الله المدينة وكنت في أهلي، فجعلت أتخبر الأخبار، وأسأل الناس حين قدم المدينة حتى قدم علي نفر من أهل يثرب من أهل المدينة، فقلت: ما فعل هذا الرجل الذي قدم المدينة؟ فقالوا: الناس إليه سراع، وقد أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك.

فقدمت المدينة فدخلت عليه، فقلت: يا رسول الله أتعرفني؟ قال: «نعم، أنت الذي لقيتني بمكة» قال: فقلت: بلى، فقلت: يا نبي الله أخبرني عما علمك الله، وأجهله، أخبرني عن الصلاة؟ قال: «صَلِّ صَلَاةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَتَّى تَرْتَفِعَ، فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حِينَ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ، ثُمَّ صَلِّ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مُحْضُورَةٌ حَتَّى يَسْتَقِلَّ الظِّلُّ بِالرُّمَحِ، ثُمَّ أَقْصِرْ

عَنِ الصَّلَاةِ، فَإِنَّ حِينَئِذٍ تُسَجَّرُ جَهَنَّمُ، فَإِذَا أَقْبَلَ الْفَيْءُ فَصَلَّ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ
مَحْضُورَةٌ حَتَّى تُصَلِّيَ الْعَصْرَ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ، فَإِنَّهَا تَغْرُبُ
بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ».

وحديث ابن عمر رضي الله عنهما عند الشيخين قال: قال رسول الله :
«خَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ أَحْفُوا الشَّوَارِبَ، وَأَوْفُوا اللَّحَى».

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم قال: قال رسول الله : «جُرُوا
الشَّوَارِبَ، وَأَعْفُوا اللَّحَى، وَخَالِفُوا الْمَجُوسَ».

وقال : «إِنَّ الْيَهُودَ، وَالنَّصَارَى لَا يَضْبَعُونَ، فَخَالِفُوهُمْ»، أخرجه الإمام
مسلم من حديث جابر.

وقال كما في حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه: «فَصَلُّ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا
وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ، أَكَلَةُ السَّحَرِ». أخرجه مسلم.

وقال كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عند أبي داود، وهو في
صحيح شيخنا مقبل رحمه الله قال: قال رسول الله : «لَا يَرَأُ الدِّينُ ظَاهِرًا مَا
عَجَلَ النَّاسُ الْفِطْرَ، لِأَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى يُؤَخِّرُونَ».

وقال : «خَالِفُوا الْيَهُودَ فَإِنَّهُمْ لَا يُصَلُّونَ فِي خِفَافِهِمْ، وَلَا نِعَالِهِمْ».

وكانت اليهود إذا حاضت النساء لا يأكلوهن ولا يجامعوهن في البيوت، فسأل
الصحابه رسول الله عن ذلك، فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى
فَاعْتَرَلُوا النَّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا نَفَرُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ

اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾. فقال رسول الله :
«اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النَّكَاحَ».

فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً، إلا خالفنا فيه. أخرجهم مسلم من حديث أنس رضي الله عنه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله (ص ٦٢) في كتاب إقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم : فهذا الحديث يدل على كثرة ما شرعه الله لنبيه من مخالفة اليهود، بل على أنه خالفهم في جميع أمورهم، حتى قالوا: ما يريد أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه. اهـ

وأخرج الإمام مسلم من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله رأى أصحاب يصلون، ورأه قياماً فقال: «إِنْ كُنْتُمْ أَنْفًا تَفْعَلُونَ فِعَلْ فَارِسَ وَالرُّومَ يَقُومُونَ عَلَى مُلُوكِهِمْ وَهُمْ قُعُودٌ فَلَا تَفْعَلُوا».

وقال : «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ».

وقال الله تعالى محذراً النساء من التشبه بالجاهليات: ﴿وَلَا تَبْرَحْنَ تَبْرِجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال في صيام يوم عاشورا: «لَيْنٌ بَقِيَتْ إِلَى قَابِلٍ لِأَصُومَنَّ التَّاسِعَ»، من حديث ابن عباس عند مسلم، وهذا من أجل مخالفة اليهود.

ورأي علي عبدالله بن عمرو ثوباً معصفاً فقال: «أملك أمرتك بهذا؟»، قال: «أغسله»، قال: «بل أحرقه إنه من لباس الكفار». وهو في الصحيح.

وقال لعمر رضي الله عنه عند أن قال له: لو اشتريت هذه الحلة فلبستها في العيد أو الوفود؟ قال: «إِنَّمَا يَلْبَسُ هَذِهِ مَنْ لَا خَلَاقَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ».

والذين يلبسونها هم الكفار، ونزع فروجاً من حرير، وكان قد لبسه فقال: «إِنَّ هَذَا لَا يَنْبَغِي لِلْمُتَّقِينَ».



القول الفصل في الجمعيات

فإن أعداء الإسلام قد تنوعت أساليبهم في المكر بهذا الدين، بما قد يسر الله تعالى بيان بعضه في كتابي المبحث البديع في أسباب ونتائج وحلول التميع ، و البيان لطرق المخالفين في صدهم عن السنة والإسلام ، ومن هذه الأساليب إنشاء الجمعيات الدعوية، والجمعيات دسيسة يهودية -ماسونية- على المسلمين من أجل تفريقهم، وصدهم عن سبيل الله عز وجل، يُعلم ذلك بأمور:

الأول: كونهم أول من أنشاء الجمعيات.

الثاني: كونهم في رضى عن الجمعيات، ولا يريدون شيئا من الدعوات إلا تحت تصرفها، وسيطرتها.

ثالثا: قيام هذه الجمعيات على قوانين وضعية مخافة لدين الإسلام.

رابعا: تضمن هذا القانون مخالفات دينية شرعية مثل الإلزام بوضع المال في البنوك الربوية، والإلزام بالانتخابات الطاغوتية، والإعتماد على الكثرة، وزد على ذلك إعتمادها على مبدأ الولاء والبراء الضيق.

خامسا: تأريخها الأسود من تفريق الدعاة، وبدأ أصحابها بالحزبية المغلفة، وأنتهائها بالحزبية الواضحة الجلية.

"وتلكم الجمعيات التي لا يؤذن لها إلا بشروط أن تكون تحت رقابة الشئون الاجتماعية، وأن يكون فيها انتخابات، وأن يوضع مالها في البنوك الربوية، ثم يلبس أصحابها على الناس ويقولون: هل بناء المساجد، وحفر الآبار، وكفالة اليتامى حرام؟ فيقال لهم: يا أيها الملبسون: من قال لكم: إن هذه حرام؟ فالحرام هي الحزبية،

وفرقه المسلمين، وضياح أوقاتكم في الشحادة، ولقد انقلبت العمرة في رمضان إلى شحادة:

يا معشر القراء ويا ملح البلد ما يصلح الملح إذا الملح فسد"^(١)

والجمعية أقدم الوسائل التي استخدمها اليهود لنشر أفكارهم الماسونية، حتى نجحت بواسطة جمعية الاتحاد والترقي في تركيا، التي أسست عام ١٨٩٨م، ١٣١٦هـ في القضاء على الخلافة الإسلامية العثمانية، وقد كان للجمعية فروع في معظم الولايات العربية.

وأخذ هذا الفكرة ونماها في بلاد أهل الإسلام: جمال الدين الأفغاني الماسوني وأمثاله، ونشرها في أوساط المسلمين، وتلقاها منه تلميذه: محمد عبده، ثم تبع محمد عبده تلميذه محمد رشيد رضا.

"هذا وقد قسمت الماسونية جمعياتها حسب مخططاتها وأغراضها، فبعض هذه الجمعيات لإثارة الطلاب، وبعضها للاستيلاء على أفكار الصحفيين والكتاب والمؤلفين، وبعضها لإثارة العمال والفلاحين، وبعضها مختصة بالعسكريين، وبعضها لإحداث الانقلابات في الدول، إلى غير ذلك؛ فالماسون كانوا وراء الثورة الفرنسية، وهم وراء مذبحة استنبول التي ذبح فيها ٦٨ ألف مسلم عام ١٩٠٨م، وهم كذلك وراء حرب البلقان عام ١٩١٢م، والتي أثارت كذلك الحرب العالمية الأولى، وهم كذلك مدبروا الانقلاب ضد السلطان عبد الحميد، وهم مزيلوا الخلافة الإسلامية"^(٢).

(١) مقدمة ذم المسألة للعلامة الوادعي رحمه الله.

(٢) مكتبة الشيخ العلامة عبد المحسن العباد من الشاملة.

ولا يستطيع منكر أن ينكر ما في الجمعيات الدعوية، وغيرها من الجمعيات من المخالفات، والمعاصي والبلديات المخالفة لكتاب الله تعالى وسنة نبي الله صلى الله عليه وسلم.

وقد تكلمت عما قامت به جميعة إحياء التراث من تمزيق الدعاة في كتابي: المبحث البديع في أسباب وآثار وحلول التميع ، قلت فيه:

ومما حصل بالمسلمين - وهو امتداد لهذا النظام - هو انتشار الجمعيات الحزبية المدعومة بالأموال الكثيرة، التي أخبر النبي ص: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ»، أخرجه الترمذي (٢٣٣٦) عن كعب بن عياض، ففتكت بالعباد والبلاد، وفرقت الدعوات، وظهرت الحزبيات، وحصل الشر والبلاء؛ بما جعل العلماء الناصحين والدعاة المصلحين يئنون ويصيحون وينصحون ويؤلفون ويحذرون من خطر هذا الإخطبوط، وكان من أشد هذه الجمعيات ضرراً، وأعظمها خطراً، هي جمعية إحياء التراث، التي ما نزلت إلى بلد إلا وفرقت دعائها، حالها مع الدعاة كحال البنك الدولي مع الحكومات، هذا يدخل على الحكومات الفقر والربا وسوء المعاش والاقتصاد، وهذه تدخل على الدعاة الأموال فيزهدون في العلم، ويقل عندهم العمل، وتذهب المروءة، ويقل التمسك، ويكون الولاء والبراء والمجالسات من أجل الدينار والدرهم.

وكم كان للشيخ مقبل - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - من طلاب نجباء وخطباء فصحاء ومؤلفين وعلماء، فلما أن دخلت مزقت شملهم، وبددت كلمتهم، وتفرع منها جمعيتي الحكمة والإحسان، وهكذا فرقت أبناء مصر والسودان والعرب والعجمان، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وإليك هذا المبحث في هذا الموطن، نخلص به لحكم الجمعيات لمن أراد الله عز وجل له التوفيق، أما من أراد العناد؛ فالمعاند لا ينجع معه دواء.

أولها: على ما تقدم فالجمعية تشبه بالكفار، فتكون محرمة للمشابهة، لما ورد من النهي الأكيد عن مشابهة الكفار، وقد ذكرت الأدلة على التحذير من هذه الفتنة العظيمة في كتابي: الأدلة الرضوية لبيان حكم الديمقراطية .

ثانيها: أن الكثير من الجمعيات يتستر أصحابها بإحداثها من أجل الدعوة، و معلوم بأن الدعوة عبادة، والعبادة يشترط فيها الإخلاص لله عز وجل، والمتابعة للنبي ص، ورسولنا ص تركنا على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سوداء، واستمر المسلمون على طريقته في الدعوة جيلاً فجيلاً، وألفت الكتب، وتخرج العلماء، بغير الجمعيات فما بال هؤلاء لا يكادون يفقهون حديثاً، وانظر إلى ما قاله الله عز وجل في كتابه الكريم: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦].

قال شيخ الإسلام: فمن دعى إلى غير الله، فقد أشرك، ومن دعى بغير إذنه فقد ابتدع. اهـ

وللتوضيح وبيان القول الصحيح لمن زعم أن الجمعية ليست من التشبه بالكفار، فلا بد من أن يُقدر لها ثلاث تقديرات.

التقدير الأول:

أنه لا توجد جمعية إلا ومعها مخالفة شرعية - إما لازمة للجمعية من أصلها، أو داخلية عليها - إذ وجود الجمعية ممتنع بدون وجود هذه المخالفة، فعلم انتفاء الجمعية عند انتفاء هذه المخالفة، فانتفاء الجمعية لازم لانتفاء المخالفة.

فحكم الأصل فيها التحريم للقاعدة المقررة عند أهل الأصول: ما لا يتم ترك الحرام إلا بتركه، فتركه واجب؛ مذكرة أصول الفقه (ص ٤٠).

وإن كان غرضها دنيوياً، فحكمها الحرمة.

التقدير الثاني:

أنه لا توجد فيها مخالفة شرعية لا لازمة، ولا غير لازمة لها، فتكون من العادات.

قال شيخ الإسلام في القواعد النورانية (١/ ١١٢): أما العادات فهي ما اعتاده الناس في دنياهم مما يحتاجون إليه، والأصل فيه عدم الحظر، فلا يحظر منه إلا ما حظره الله سبحانه وتعالى، وذلك؛ لأن الأمر والنهي هما شرع الله، والعبادة لا بد أن يكون مأموراً بها، فما لم يثبت أنه مأمور به، كيف يحكم عليه بأنه محظور، ولهذا كان أحمد وغيره من فقهاء أهل الحديث، يقولون: إن الأصل في العبادات التوقيف فلا يشرع منها؛ إلا ما شرعه الله، وإلا دخلنا في معنى معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَكُوًا شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

والعادات الأصل فيها العفو فلا يحظر منها إلا ما حرمه وإلا دخلنا في معنى قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ [يونس: ٥٩]. اهـ وهذا التقدير يدندن به أصحاب الجمعية ليبرروا جمعيتهم.

فأقول: أولاً: نعم، حكم الأصل في العادة الإباحة، لكن هذا التقدير شيء وقع في الذهن، ويخالفه الواقع، وفي الذهن قد تتصور ما تريد، لكن الحكم يتنزل على الواقع، والجمعيات وإن أسست على مبدأ التعاون كما يزعم أصحابها فإن مسيرتها تؤول إلى التحزب، ما رأينا جمعية إلا وهي متحيزة، وإن بدت في بدايتها بعيداً عن

الحزبية أو أنها تحاول أن تنكر حزبيتها إلا أن الحزبية تظهر فيها، فالجمعيات كلها حزبية.

ثانيًا: على فرض هذا التقدير، فالجمعية منعت لكونها ذريعة إلى المحرم من حيث مفسادها.

قال الشيخ الإمام المجدد الوادعي رحمه الله تعالى: الجمعيات لم تكن موجودة على عهد رسول الله ص، ولكن أتت من قبل أعداء الإسلام، ثم قلدهم المسلمون في ذلك، وكثير من الجمعيات فيها مخالفات....، إلى أن قال:.... نعم نحن لا نحرم على الناس شيئاً أحله الله لهم، ولكن نخشى أن تحصل فيها مكيدة....، إلى أن قال:.... والجمعيات هذه يا إخوان هي وسيلة، وكذا الصندوق، الطريق إلى الحزبية والوسيلة إلى الحزبية. اهـ من «أسئلة من بني بكر يافع» وكان عام ١٤٢١ هـ.

قال شيخ الإسلام: فهذا أصل عظيم تجب معرفته والاعتناء به، وهو أن المباحات إنما تكون مباحة إذا جعلت مباحات، فأما إذا اتخذت واجبات أو مستحبات، كان ذلك ديناً لم يشرعه الله، وجعل ما ليس من الواجبات والمستحبات منها بمنزلة جعل ما ليس من المحرمات منها، فلا حرام إلا ما حرمه الله؛ ولا دين إلا ما شرعه الله؛ ولهذا عظم ذم الله في القرآن لمن شرع ديناً لم يأذن الله به، ولمن حرم ما لم يأذن الله بتحريمه؛ فإذا كان هذا في المباحات فكيف بالمكروهات أو المحرمات، ولهذا كانت هذه الأمور لا تلزم بالنذر، فلو نذر الرجل فعل مباح أو مكروه أو محرم، لم يجب عليه فعله، كما يجب عليه إذا نذر طاعة الله أن يطيعه؛ بل عليه كفارة يمين إذا لم يفعل عند أحمد وغيره، وعند آخرين لا شيء عليه، فلا يصير بالنذر ما ليس بطاعة ولا عبادة (طاعة وعبادة).

ونحو ذلك العهود التي تتخذ على الناس للالتزام بطريقة شيخ معين كعهود أهل "الفتوة" و "رمة البندق" ونحو ذلك ليس على الرجل أن يلتزم من ذلك على وجه الدين والطاعة لله إلا ما كان ديناً وطاعة لله ورسوله في شرع الله، لكن قد يكون عليه كفارة عند الحنث في ذلك، ولهذا أمرت غير واحد أن يعدل عما أخذ عليه من العهد بالالتزام بطريقة مرجوحة أو مشتملة على أنواع من البدع، إلى ما هو خير منها، من طاعة الله ورسوله ص واتباع الكتاب والسنة، إذ كان المسلمون متفقين على أنه لا يجوز لأحد أن يعتقد أو يقول عن عمل: إنه قرينة وطاعة وبر وطريق إلى الله واجب أو مستحب إلا أن يكون مما أمر الله به ورسوله ص؛ وذلك يعلم بالأدلة المنصوبة على ذلك، وما علم باتفاق الأمة أنه ليس بواجب ولا مستحب، ولا قرينة لم يجز أن يعتقد، أو يقال: إنه قرينة وطاعة، فكذلك هم متفقون على أنه لا يجوز قصد التقرب به إلى الله، ولا التعبد به، ولا اتخاذه ديناً، ولا عمله من الحسنات، فلا يجوز جعله من الدين، لا باعتقاد وقول ولا بإرادة وعمل، وبإهمال هذا الأصل غلط خلق كثير من العلماء والعباد يرون الشيء، إذا لم يكن محرماً لا ينهى عنه؛ بل يقال: إنه جائز ولا يفرقون بين اتخاذه ديناً وطاعة وبراً، وبين استعماله كما تستعمل المباحات المحضة، ومعلوم أن اتخاذه ديناً بالاعتقاد أو الاقتصاد أو بهما أو بالقول أو بالعمل أو بهما من أعظم المحرمات وأكبر السيئات وهذا من البدع المنكرات التي هي أعظم من المعاصي، التي يعلم أنها معاصي وسيئات. اهـ مجموع الفتاوى (١١/٤٥٠).

التقدير الثالث:

أنه لا توجد فيها مخالفة شرعية لازمة، بل وقعت بها مخالفات غير لازمة، فهذا أشد حالاً من سابقه؛ لأن تلك المخالفة نتيجة من نتائج هذه الجمعيات، فصارت محرمة لأجل تلك المخالفات، فالتفصيل كالتقدير الأول.

قال شيخنا يحيى حفظه الله: والجمعيات مفتونة بتصوير ذوات الأرواح، وبالتسول وعدم العفة، وبتضييع الأوقات عند الأثرياء، ومن اشتغل بهذا صرف عن العلم الشرعي وفتن بالدنيا وصار من الحزبيين، بل صار أوكاراً لأهل التحزب، ولا نعلم عالماً سلفياً فتن نفسه بالجمعية، كما شأن هؤلاء المتحزبين، وحسبها شراً أنها تؤسس على معاص شتى، والله يقول: ﴿أَمْ مَنْ أَسْكَسَ بُيُوتَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَاكِ فَأَنْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩]، فننصح بالبعد عن هذه الجمعيات، جمعيات فاسدة مفسدة، وإنما أنشئت لمحاربة الدعوة السلفية وتمزيقها.

نظيره ما مثله العلامة العثيمين: لو كان هناك قطاع عسكري أو غيره يخلو من المصلحين، الذين يعلمون الناس أحكام دينهم، ولا يُسمح لأحد بالوظيفة في هذا المكان إلا أن يخلق لحيته، فهل أحلق لحيتي وأدعو إلى الله في هذا المكان، أم أتركهم بالكلية؟

الإجابة: اتركهم بالكلية؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ويقول: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، ولا يمكن الدعوة إلى الله بالمعصية إطلاقاً، وأنت إذا خلقت لحيتك وقعت في المعصية، وليس عليك هداهم، ثم إنه ربما تخلق اللحية بناء على ما تظنه من المصالح ولا تتحقق لك، فتأتي مفسدة محققة لمصلحة غير محققة؛ اهـ شرح منظومة أصول الفقه وقواعده (١٣٧)^(١).

لو قيل: من العلماء من قال بإباحتها، بشروط وهي:

(١) ملخص من كتابي الأقوال البينات والأدلة الواضحات في بيان حكم تصوير ذوات الأرواح والاختلاط والجمعيات، ومبحث الجمعيات مع زيادات، وتوضيحات، وتعديلات أصله رسالة بعنوان الجمعية لأخيना أبي جعفر الإندونيسي.

- ١- ارتباطهم بالعلماء الربانيين والعمل من وراءهم لا أمامهم.
 - ٢- وجود نصيب وافر من العلم الشرعي عند القائمين على هذه الأعمال يفوت وقوعهم في المخالفات.
 - ٣- وجود مكانة في الإرادة من الترفع عن حب الرياسة والمصالح الشخصية والمطامع الدنيوية مع الدوران في الحركة والأقوال والأفعال في عقد سلطان الولاء والبراء والحب والبغض على ذات الدين لا على هذه المسميات التي هي الوسائل فحسب.
- فعلى فرض الأخذ بهذا القول، هل تعلمون جمعية متوفرة بهذه الشروط؟ هاتوا!! ولن تجدوا ذلك، وهذا دليل عليكم لا لكم؛ لأن هذه مسألة مفترضة في الأذهان لا في الأعيان، وبين الوجود الذهني، والعيني بونٌ شاسع فتنبه تغنم، ومن الأهواء تسلم.

بيان بعض شبه الجمعيين

شبهة التعاون على البر والتقوى:

بعض الملبسين في هذا الباب يزعم أن الجمعيات من التعاون على البر، والتقوى، ولا والله لأن البر، والتقوى هو في الأخذ بالكتاب، والسنة لا مشابهة الكفار التي هي من التعاون على الإثم والعدوان.

قاعدة ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب:

وبعضهم يستدل بقاعدة ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، قالوا والدعوة واجبة على الكفاية، وإذا لم تتم إلا بالجمعية تعينت، والقول الصحيح أن الجمعية

محرمه والمحرم لا يستعان به على فعل الواجب، زد على ذلك أن باب الدعوة توقيفي على الكتاب، والسنة الصحيحة.

قَالَ ابْنُ الشَّاطِطِّ وَكَوْنُ مَا أَفْضَى إِلَى الْوَاجِبِ وَاجِبًا مَبْنِيٌّ عَلَى قَاعِدَةٍ أَنَّ مَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ وَالصَّحِيحُ أَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ لَازِمٍ فِيمَا لَمْ يُصَرِّحِ الشَّرْعُ بِوُجُوبِهِ. اهـ

استلهم بالمصالح المرسله، ومن باب جلب المنافع:

وبعضهم يجعل الجمعيات من باب المصالح المرسله، ومن باب جلب المنافع، ودفع المضار، وهذا الباب قد جر بعضهم إلى فعل الحرام وإباحة البدع تحت هذا الشعار، مع ما يقرره علماء الشريعة في الإكتفاء بالكتاب، والسنة الصحيحة، مع فهم السلف الصالح.

"ومن سنن قوانين تخالف الشريعة وادعى أنها من المصالح المرسله؛ فهو كاذب في دعواه لأن المصالح المرسله والمقيدة إن اعتبرها الشرع ودل عليها فهي حق ومن الشرع، وإن لم يعتبرها؛ فليست مصالح، ولا يمكن أن تكون كذلك، ولهذا كان الصواب أنه ليس هناك دليل يسمى بالمصالح المرسله، بل ما اعتبره الشرع؛ فهو مصلحة، وما نفاه؛ فليس بمصلحة، وما سكت عنه؛ فهو عفو.

والمصالح المرسله توسع فيها كثير من الناس؛ فأدخل فيها بعض المسائل المنكرة من البدع وغيرها؛ كعيد ميلاد الرسول، فزعموا أن فيه شحذا للهمم وتنشيطا للناس لأنهم نسوا ذكر رسول الله، وهذا باطل؛ لأن جميع المسلمين في كل صلاة يشهدون أن محمدا عبده ورسوله ويصلون عليه.

والذي لا يحیی قلبه بهذا وهو یصلي بین یدی ربه کیف یحیا قلبه بساعة یؤتی فیها بالقصائد الباطلة التي فیها من الغلو ما ینکره رسول الله صلی الله علیه وسلم؟! فهذه مفسدة ولیست بمصلحة.

فالمصالح المرسله وإن وضعها بعض أهل العلم المجتهدين الکبار؛ فلا شک أن مرادهم نصر الله ورسوله، ولكن استخدمت هذه المصالح فی غیر ما أرادہ أولئك العلماء وتوسع فیها، وعلیه؛ فإنها تقاس بالمعیار الصحیح، فإن اعتبرها الشرع قبلت، وإلا؛ فکما قال الإمام مالک: کل أحد یؤخذ من قوله ویرد إلا صاحب هذا القبر، وهناك قواعد کلیات تطبق علیها الجزئیات^(١).

قال الشوکانی رحمه الله فی أدب الطلب (ص ٢٣٢): فإن قلت: ما ذکرته من انبناء الشریعة المطهرة علی جلب المصالح ودفع المفسد، ماذا ترید به؟ هل یلاحظ ذلك النفع والدفع مطلقاً أو فی حالة من الحالات؟

قلت: لا أرید ما قدمته إلا أن ما لم یرد فیہ نص یخصه، ولا اشتمل علیه عموم، ولا تناوله إطلاق، فحق علی العالم المرشد للعباد الطالب للحق أن یتحضر ذلك ویرشد إلیه ویهتم به ویدعو إلیه.

وأما مواقع النصوص وموارد أدلة الکتاب والسنة ومواطن قیام الحجج، فلا جلب نفع ولا دفع ضرر أولى من ذلك وأقرب منه إلی الخیر وأولی منه بالبركة، فهو فی الحقیقة مصالح مجلوبة ومفسد مدفوعة، وإن قصرت بعض العقول عن إدراك ذلك والإحاطة بکنهه والوقوف علی حقیقته، فمن قصورها أتیت، ومن ضعف إدراكها دهیت.

(١) انتهى من القول المفید لابن عثیمین رحمه الله تعالى.

ومن تدبر ذلك كل التدبر وتأمله بحق التأمل لم يخفَ عليه، فإن كل جزئي من جزئيات الشريعة التي قام الدليل على طلبها والتعبد بها للكل أو البعض مطلقاً أو مقيداً لا بدّ أن يشتمل على جلب مصلحة أو مصالح، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها، وكل جزئي من جزئيات الشريعة الواردة بالنهاي عن أمر أو أمور لا بدّ أن يكون المنهي عنه مشتملاً على مفسدة أو مفسد تندفع بالنهاي عنها.

ولمزيد التتبع وكثرة التدبر في ذلك مدخلية جليلة لاسيما مع استحضار الاستعانة بالله والتوكل عليه والتفويض إليه؟

ومما يستعين به طالب الحق ومريد الإنصاف على ما يريده من ربط المسائل بالدلائل والخروج من آراء الرجال المتلاعبة بأهلها من يمين إلى شمال: أن يتدبر الدلائل العامة ويتفكر فيما يندرج تحتها من المسائل بوجه من وجوه الدلالة المعتبرة، فإنه إذا تمرن في ذلك وتدرّب صار مستحضراً للدليل كل ما يسأل عنه من الأحكام الشرعية، كائنًا ما كان، وعرف معنى قوله عز وجل: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ومن أمعن النظر فيما وقع منه من استخراج الأحكام الشرعية من كتاب الله تعالى زاده ذلك بصيرة، كما ثبت عنه أنه لما سئل عن الحُمْر الأهلية فقال: لم أجد فيها إلا هذه الآية القائلة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] أخرجه البخاري (٢٣٧١)، مسلم (٩٨٧) عن أبي هريرة، فإن في هذا وأمثاله أعظم عبرة للمعتبرين وأجل بصيرة للمتبصرين وأوضح قدرة للمعتدين من العلماء المجتهدين، وثبت أنه قال لعمر بن العاص: «صَلَّيْتَ بِصَحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ يَا عَمْرُو؟!»، فقال:

سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، فقرره النبي ﷺ وضحك ولم يقل شيئاً. أخرجه أبوداود (٣٣٤).

وهذا باب واسع يطول تعداداه.

وهكذا التفكير في الكليات الصادرة عمن أعطى جوامع الكلم وأفصح من نطق بالضاد، كقوله : «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧)، فإن هذا اللفظ الموجز والعبارة المختصرة صالحة للاستدلال بها على كل جزء من جزئيات الشرع، فتدخل ما حصلت فيه النية في عداد الأعمال المقبولة، ويخرج ما لم تحصل فيه النية إلى حيز الأعمال المردودة، وتصير بها المباحات قربات وعبادات، أقل أحوالها الاندراج تحت حقائق المندوبات، ويبطل كثير من الصور والحاكية لما هو من العبادات بعقد النية وعدم وجودها لا على الوجه المعتبر، وكقوله : «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»، أخرجه مسلم (٨٦٧)، و«مَنْ غَشَّنا فَلَيْسَ مِنَّا»، أخرجه مسلم (١٠٢)، و«الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ»، أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)، و«كُلُّ أَمْرٍ لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨). فإن كل فرد من أفراد هذه العبارات وأمثالها صالح لجعله قضية كبرى للشكل الأول، فلا يبقى فرد من الأفراد إلا وأمكن إدراجه تحت هذه الكلية باجتلاب قضية صغرى سهلة الحصول، نقول - مثلاً - : هذا أمر ليس عليه أمر النبي ﷺ ، وكل أمر ليس عليه أمره رَد، فهذا رَد، فلا يبقى فعل ولا قول ولا اعتقاد لم يأت به الشرع إلا وأمكن الاستدلال على رده بهذا الحديث الصحيح.

وهكذا العمل في سائر الكليات والمتحلي بالمعارف العلمية يستغني بمجرد الإشارة والإيقاظ؛ لأن المواد قد حصلت له بما حصله من العلوم وممارسه من

المعارف فربما يغفل عن إخراج ما في القوة إلى الفعل، فإذا نبه على ذلك تنبه، وكان العمل سهلاً، والانتفاع بالعلوم يسيراً، أصالة المعنى الحقيقي وعدم جواز الانتقال عنه إلا لعلاقة أو قرابة.

ومن جملة ما ينبغي تصوره ويعينه استحضاره: أن يعلم أن هذه الشريعة المباركة هي ما اشتمل عليه الكتاب والسنة من الأوامر والنواهي والترغيبات والتنفيرات وسائر ما له مدخل في التكليف من غير قصد إلى التعمية والألغاز ولا إرادة لغير ما يفيد الظاهر ويدل عليه التركيب ويفهمه أهل اللسان العربي.

فمن زعم أن حرفاً من حروف الكتاب والسنة لا يراد به المعنى الحقيقي والمدلول الواضح فقد زعم على الله ورسوله زعمًا يخالف اللفظ الذي جاءنا عنهما، فإن كان ذلك لمسوغ شرعي تتوقف عليه الصحة الشرعية أو العقلية التي يتفق العقلاء عليها، لا مجرد ما يدعيه أهل المذاهب والنحل على العقل مطابقاً لما قد حبه إليهم التعصب، فأدناه من عقولهم البعد عن الإنصاف، فلا بأس بذلك، وإلا فدعوى التجوز مردودة مضروب بها في وجه صاحبها.

فاحرص على هذا، فإنه وإن وقع الاتفاق على أصالة المعنى الحقيقي وعدم جواز الانتقال عنه إلا لعلاقة وقرينة كما صرح به في الأصول وغيرها، فالعلم في كتب التفسير والحديث والفقه يخالف هذا لمن تدبره وأعمل فكره ولم يغتر بالظواهر ولا جمد على قبول ما يقال من دون بحث عن موارده ومصادره.

وكثيراً ما يجد المتعصبين يحامون عن مذاهبهم ويؤثرونها على نصوص الكتاب والسنة، فإذا جاءهم نص لا يجدون عنه متحولاً وأعياءهم رده وأعجزهم دفعه ادعوا أنه مجاز وذكروا للتجوز علاقة هي من البعد بمكان، وقرينة ليس لها في ذلك المقام

وجود، ولا تدعو إليها حاجة، وأعانهم على هذه الترهات استكثارهم من تعداد أنواع القرائن والعلاقات، حتى جعلوا من جملة ما هو من العلاقات المسوغة للتجاوز التضاد.

فانظر هذا التلاعب، وتدبر هذه الأبواب التي فتحوها على أدلة الكتاب والسنة، وقبلها عنهم من لم يمعن النظر ويطيل التدبر، فجعلها علماً، وقبلها على كتاب الله وسنة رسوله، وأصلها دعوة افتراها على أهل اللغة متعصب قد أثر مذهبه على الكتاب والسنة، لم يستطع التصريح بترجيح المذهب على الدليل، فدقق الفكر وأعمق النظر؛ عناداً لله تعالى وبغياً على شريعته وخداً لعباده، فقال: هذا الدليل وإن كان معناها الحقيقي يخالف ما نذهب إليه فهو هنا مجاز، والعلاقة كذا والقرينة كذا، ولا علاقة ولا قرينة، فيأتي بعد عصر هذا المتعصب من لا يبحث عن المقاصد ولا يتدبر المسالك كما ينبغي، فيجعل تلك العلاقة التي افتراها ذلك المتعصب من جملة العلائق المسوغة للتجاوز؛ ولهذا صارت العلاقات قريباً من ثلاثين علاقة، ثم لما كان منه جملة أنواع القرائن العرفية والعقلية افترى كل متعصب على العقل والعرف ما شاء وصنع في مواطن الخلاف ما أرد والله المستعان. اهـ

زعمهم بتحريم الجمعية في جزيرة العرب وإباحتها في غيرها:

ومن أعجب ما سمعنا هو أن الجمعيات في جزيرة العرب لا تجوز بينما تجوز في بلاد المغرب، وبلاد أربا وغيرها، وهذا التفريق ليس عليه دليل من شرع أو عقل فما كان في الجزيرة دين فهو في كل بلدان العالم كذلك، وما لم يكن فلا فما هذه التليسات والتدليسات التي لا تصدر إلا من ضعاف العلم أو الدين، أو من مجموع الأمرين.

الاعتذار بالدعوة إلى الله تعالى:

و قد يقول قائل كيف ادعو إلى الله ادع على ما يسره الله تعالى بعيدا عن ارتكاب المحرمات والتشبه بالكفار والاستحسانات ومن استحسن فقد شرع، وسيجعل الله تعالى البركة بقدر موافقة السنة، وما زالت الدعوة سائرة من ذلك الزمان وإلى الآن فلما البدع في آخر الزمان.

قال شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم في قوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ [الأحزاب: ٤٦]، قال: فمن دعا إلى غير الله فقد أشرك، ومن دعا إليه بغير إذنه فقد ابتدع. اهـ

فالدعوة عبادة، والله عز وجل لا يُعبد إلا بما شرع في كتابه، وبما جاء به رسوله ، وإلا فالعبادة مردودة على أصحابها، فعلى هذا ما يفعله المبطلون من إدخال الدشوش والفديوهات والأناشيد والتمثيلات في وسائل الدعوة هو إدخال باطل، وطريق غير سوي، وفعل غير مرضي، وهذا شيخ الإسلام - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - يُسأل عن رجل محتسب يشغل اللصوص عن فعلهم بسلوك بعض الطرق، فينكر عليه صنيعه هذا، وأن هذا لم يكن على طريقة السلف وهديمهم، فالواجب على المرء أن يدعو كما دعا رسول الله ؛ لأن من ترك طريقه جاهلاً زل، ومن تركه متعمداً ضل.

الحذر من زلات العلماء:

والحذر من تتبع زلات العلماء الذين أباحوا الجمعية، مع العلم أن بعضهم اشترط لها شروطاً، لم يقع الإلتزام بها، ومع ذلك فالواجب اتباع الكتاب والسنة،

الزلة: هي الخطأ من العالم، والخطأ يجب رده ممن حصل منه كبيراً أو صغيراً، وعظيماً أو حقيراً.

ففي الحديث: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ». أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، مسلم (١٧١٦) عن عمرو بن العاص. فالعالم دائر بين الأجر والأجرين، والآخذ بالزلة دائر في الإثم، حيث وهو يقلده من غير ذكر حجة على قوله.

قال الشوكاني رحمه الله في أدب الطلب (ص ١١٦): وقد جرت قاعدة أهل البدع في سابق الدهر ولاحقه بأنهم يفرحون بصدور الكلمة الواحدة عن عالم من العلماء ويبالغون في إشهارها وإذاعتها فيما بينهم ويجعلونها حجة لبدعتهم ويضربون بها وجه من أنكر عليهم. اهـ

مع أن الواجب الأخذ بقول النبي وهديه، فكل يؤخذ من قوله ويرد.

قال الذهبي رحمه الله تعالى في تذكرة الحفاظ (١/١٦): وكل إمام يؤخذ من قوله ويترك إلا إمام المتقين الصادق المصدوق الأمين المعصوم صلوات الله وسلامه عليه، فيا لله العجب من عالم يقلد دينه إماماً بعينه في كل ما قال مع علمه بما يرد على مذهب إمامه من النصوص النبوية فلا قوة إلا بالله. اهـ

وقد قال عمر: ثلاث يهدمن الدين: زلة عالم، وجدل منافق، وأئمة مضلون. وجاء عن أبي الدرداء. لأن العالم إذا زل زل بزلته أناس كثير، ولهذا كان يقول أبي بن كعب: إني لست عليهم آسى، ولكن آسى على من أضلوا، أخرجه النسائي (٨٠٨).

الأمور بمقاصدها:

ومن شبههم قولهم: الأمور بمقاصدها، والإستلال بهذه القاعدة على الإطلاق باب من أبواب البدع العظيمة فلا بد موافقة الإخلاص للمتابعة، وهذه القاعدة مؤداها إلى ارتكاب الحزبيين والمميعين المخالفات الشريعة، ثم إذا ما أنكر عليهم: هذا لا يجوز، قالوا: الأمور بمقاصدها. نعم، النية طيبة إذا كانت لحصول خير ونشر الخير، لكن لا بد أن تتوافق النية الطيبة الخالصة لله عز وجل مع الطريقة النبوية، ففي حديث عمر عند الشيخين: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧)، وفي حديث عائشة: «مَنْ أَخْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ»، أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨)، وفي رواية لمسلم: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ». إذن فالمقصود وحده لا يكفي حتى يتفق مع طريقة النبي وهديه، وهذه الطريقة لو استخدمت مجردة عن المتابعة لقال الجهمي المعطل: قصدي بهذا التعطيل التنزيه، وهكذا المعتزلي، ولقال التبليغي: قصدي نشر الدين، ولقال الإخواني: قصدي إقامة حكم الله، فتنبه!!!

فاتقوا الله عباد الله وخذوا بكتاب الله تهتدوا فبه مع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم السلامة من البدع، والوصول إلى مرضات الله تعالى. والحمد لله.



الخاتمة

أحمد ربي حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه على إعانتة وتسديده وتوفيقه وإعانتة
 وأسأله المزيد من فضله، ثم اعلم وفقك الله أن طريقة السلف هي الطريقة المثلى
 في الاعتقادات والعبادات والمعاملات فمن وفق لها؛ فقد هدي إلى صراط مستقيم.

تمسك بحبل الله واتَّبِع الهدى	ولا تكُ بدعياً لعلَّك تفلح
ودن بكتاب الله والسنن التي	أتت عن رسول الله تنج وتربح
ودع عنك آراء الرجال وقولهم	فقول رسول الله أزكى وأشرح
ولا تك من قوم تهلوا بدينهم	فتطعن في أهل الحديث وتقذح
إذا ما اعتقدت الدهر يا صاح هذه	فأنت على خير تبیت وتصبح



المحتويات

٣	مقدمة الشيخ العلامة يحيى بن علي الحجوري
٤	مقدمة
٢٠	الفصل الأول: بيان فضل الإسلام وأنه الدين الحق المهيمن على جميع الأديان
٢٤	لا فلاح إلا بالإسلام
٢٦	دين الإسلام حق بين باطلين وهدى بين ضاللتين
٣٥	فضل القرآن الكريم علي غيره من الكتب
٤٠	فضل النبي على جميع الرسل وذكر طرف من فضائله
٤٦	فضل أمة محمد على بقية الأمم
٥١	الفصل الثاني: بيان توحيد الله عز وجل وأنواعه
٦٢	أبواب في تحقيق الإيمان بأسماء الله وصفاته
٦٥	قواعد في أسماء الله عز وجل وصفاته
٦٥	القاعدة الأولى: أسماء الله تعالى كلها حسنى
٦٦	القاعدة الثانية: أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف
٦٧	القاعدة الثالثة: دلالات أسماء الله المتعدية واللازمة
٦٧	القاعدة الرابعة: دلالات أسماء الله من حيث المطابقة والتضمن والالتزام
٦٨	القاعدة الخامسة: باب أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية لا مجال للعقل فيها
٦٩	القاعدة السادسة: أسماء الله تعالى غير محصورة بعدد معلوم لنا
٧٢	القاعدة السابعة: الإلحاد في أدلة الأسماء والصفات
٧٤	مسألة أسماء الله سبحانه وتعالى غير مخلوقة؟
٧٦	هل الاسم هو المسمى
٧٧	قواعد في صفات الله سبحانه وتعالى
٧٧	القاعدة الأولى: صفات الله كلها صفات كمال لا نقص فيها
٧٨	القاعدة الثانية: باب الصفات أوسع من باب الأسماء
٧٨	القاعدة الثالثة: الصفات الثبوتية والمنفية
٧٩	القاعدة الرابعة: صفات الإثبات صفات مدح
٨٠	القاعدة الخامسة: الصفات الذاتية والفعلية
٨٠	القاعدة السادسة: محاذير الإثبات والنفي
٨٣	قواعد في أدلة الأسماء والصفات وكيفية التعامل معها
٨٥	دلالة الكتاب والسنة على الصفة
٨٦	أنواع الإضافات إلى الله تعالى
٨٧	انقسام الناس في باب الأسماء والصفات
٩٠	معنى التحريف

- معنى التعطيل ٩٢
- معنى التكيف والتمثيل ٩٣
- كل معطل ممثل والعكس ٩٤
- معاني التأويل ٩٦
- الرد على أنواع أهل البدع في هذا الباب ١٠٠
- الرد على الجهمية: ١٠٠
- الرد على المعتزلة الذين أثبتوا الأسماء دون ما تضمنته من صفات: ١٠٢
- القول في الصفات كالقول في الذات ١٠٥
- الرد على الأشاعرة ومن وافقهم ممن يثبتون الأسماء وبعض الصفات فقط: ١٠٥
- الرد على الممثلة: ١٠٧
- الرد على أهل التفويض: ١٠٨

الفصل الثالث: ذكر بعض الصفات الثبوتية الذاتية والخبرية والفعلية ١١١

- الكلام على صفتي العلو والاستواء ١١١
- الكلام على معية الله تعالى لخلقه ١٢٢
- بعض شبه الحلولية، والإتحادية: ١٢٤
- إثبات صفة الكلام لله تعالى بحرف وصوت ١٢٦
- افتراق الناس في مسألة الكلام: ١٣١
- الرد على الفلاسفة والصائبة في تعريف الكلام: ١٣٢
- وأما الرد على المعتزلة والجهمية القائلين بخلق القرآن: أن المعتزلة والجهمية يرون أن القرآن مخلوق خلقه الله منفصلاً عنه. ١٣٣
- إثبات صفة الوجه لله تعالى على ما يليق بجلاله ١٤٨
- إثبات صفة اليدين لله تعالى على ما يليق بجلاله ١٥٦
- تفريعات صفات ثابتة لله متعلقة بإثبات صفة اليدين: ١٦٢
- إثبات صفة العينين لله تعالى على ما يليق بجلاله ١٦٥
- إثبات صفتي السمع والبصر لله تعالى على ما يليق بجلاله ١٧٠
- إثبات صفة الرضا لله سبحانه وتعالى ١٧٥
- إثبات النفس لله تعالى وهي الذات العلية ١٧٨
- إثبات صفة السخط لله عز وجل ١٨٠
- بيان قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ ١٨٢
- الإيمان بنزول الله تعالى إلى السماء الدنيا كل ليلة ١٨٥
- شبهات أهل التحريف في أهل النزول: ١٩٤
- هل نقول: نزل بذاته أم لا؟ ١٩٦
- مسألة هل يخلو منه العرش أم لا؟ ١٩٨
- الحركة والانتقال: ١٩٩
- معنى النزول عند الأشعري: ٢٠١

٢٠٢	إثبات صفتي المجيء والإتيان لله
٢٠٣	خاتمة الفصل

٢٠٥ الفصل الرابع: بقية المعتقد

٢٠٥	إثبات عذاب القبر ونعيمه وما فيه من السؤال والضمة
٢١١	مسألة حول ضمة القبر:
٢١٢	وفي القبر فتنة وهي السؤال، ويستثنى منها:
٢١٢	١- الأنبياء
٢١٢	٢- الشهيد:
٢١٢	٣- المرابط في سبيل الله:
٢١٧	والحياة في القبر حياة برزخية حقيقية مختلفة عن الحياة الدنيا:
٢١٩	الإيمان بالعرش
٢٢٢	مسائل تتعلق بالباب:
٢٢٤	الإيمان بالقلم واللوحي
٢٢٥	أنواع الأقلام:
٢٢٧	الإيمان بأن الجنة والنار موجودتان الآن
٢٣٣	الإيمان بأن الجنة والنار لا تغنيان
٢٣٨	باب في الإيمان بالحوض
٢٤١	المطرودون عن الحوض:
٢٤٤	الإيمان بالميزان
٢٤٦	الموزونات:
٢٤٧	مسألة: وزن أعمال الكفار:
٢٤٨	هل يقام الوزن لكل الناس؟
٢٥٠	الإيمان بالصراط
٢٥٤	الإيمان بالإسراء والمعراج
٢٥٨	الإيمان بالدجال ونزول عيسى عليه السلام
٢٦٦	الإيمان بالملائكة والرسول والكتب السماوية
٢٦٦	الإيمان بالملائكة:
٢٧٠	الإيمان بالأنبياء:
٢٧١	الإيمان بالكتب:
٢٧٢	الإيمان بالقضاء والقدر:
٢٧٨	أنواع التقدير:
٢٧٩	الإرادة الربانية: تنقسم إرادة الله إلى إرادة كونية، وإرادة شرعية:
٢٧٩	الفرق بين الإرادة الكونية والشرعية:
٢٨٠	مذاهب الناس في الإيمان بالقدر:
٢٨٥	الإيمان بالشفاعة لأهل الكبائر من أمة محمد

- ٢٩٠ ثم إن الناس في الشفاعة على ثلاثة أقوال:
- ٢٩١ التوسل بذوات الصالحين:
- ٢٩٦ الإيمان برؤية المؤمنين لربهم عز وجل يوم القيامة
- ٣٠٣ شبه المخالفين لأهل السنة في باب الرؤية:
- ٣٠٩ مذهب الأشاعرة في الرؤية:
- ٣١٢ مسألة: هل رأى رسول الله ربه؟
- ٣١٤ بيان فضل الصحابة رضي الله عنهم وما لهم من الحقوق
- ٣٢٢ ومن فضائل عثمان على ما تقدم:
- ٣٣٠ بيان أن الإيمان قول وعمل
- ٣٤٢ السحر والعين وحقيقتهما
- ٣٥٤ فضل أهل الحديث حملة الآثار وحفاظها
- ٣٥٧ علامة أهل البدعة وبيان طريقة السلف في الامتحان
- ٣٦٢ الأمر بلزوم الجماعة والاتباع
- ٣٦٥ بيان أن سبب الاختلاف والافتراق هو الأخذ بسنن اليهود والنصارى
- ٣٧٠ هجر أهل البدع
- ٣٧٩ في الخوض على لزوم السنة واتباع الأئمة
- ٣٨٥ والسنة لا تدرك بالقياس ولا تؤخذ بالعقول:

الفصل الخامس: ملخص طريقة النبي في بقية أركان الإسلام ٣٨٨

- ٣٨٩ بعض أحكام الصلاة
- ٤١١ قصر الصلاة في السفر:
- ٤١٥ صلاة الجنازة:
- ٤١٧ صلاة العيدين:
- ٤٢٠ صلاة الاستسقاء:
- ٤٢٢ صلاة الكسوف:
- ٤٢٤ بعض أحكام الزكاة
- ٤٢٧ مسألة زكاة عروض التجارة؟
- ٤٢٩ مصارف الزكاة:
- ٤٣١ بعض أحكام صيام رمضان
- ٤٣٦ قيام رمضان:
- ٤٤٠ بعض أحكام الحج والعمرة
- ٤٤٠ فرضية الحج:
- ٤٤٠ وجوب العمرة:
- ٤٤٠ أنواع النسك:
- ٤٤٢ مواقيت الحج:
- ٤٤٤ استحباب الغسل للمحرم:

٤٤٤	استحباب الطيب للمحرم:
٤٤٥	ما يترك المحرم من اللباس:
٤٤٦	الإهلال إذا ركب دابته:
٤٤٦	التلبية:
٤٤٧	التلبية إلى أن يستلم الحجر الأسود:
٤٤٧	الطواف والسعي:
٤٥٢	أعمال الحج:
٤٥٢	الإحرام بالحج يوم التروية:
٤٥٢	الخروج إلى منى:
٤٥٣	الوقوف بعرفة:
٤٥٤	المبيت بمزدلفة:
٤٥٥	تقديم الضعفة:
٤٥٥	السير إلى منى والتزول فيها:
٤٦٠	الرجوع إلى منى للمبيت ورَمي الجمار:
٤٦٢	طواف الوداع:
٤٦٣	وأجمع حديث في صفة الحج:

٤٦٨ الفصل السادس: أبواب المعاملات

٤٦٨	الصلاة والجهاد مع البر والفاجر من أمة محمد
٤٧٢	وجوب السمع والطاعة لأمرأء المسلمين
٤٧٤	متى يخرج على الحاكم؟
٤٧٤	شروط الخروج على الحاكم:
٤٧٦	وتكون الخلافة والإمارة بثلاث طرق:
٤٧٧	الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
٤٧٨	الحامل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
٤٧٩	بذل النصيحة
٤٨١	التحذير من فتنة النساء
٤٨٤	كفرنا بالديمقراطية
٤٨٤	نشأتها:
٤٨٨	مبادئ الديمقراطية:
٤٩١	القول في الانتخابات
٥٠٣	كفر القول بوحدة الأديان أو التقارب بينها
٥١٨	التعاملات المالية
٥١٨	أسباب الرزق: وفيه ردّ على الصوفية الذين يُجرمون التكسب:
٥٢٢	لعن الله آكل الربا، وشاهده، وكاتبه:
٥٢٣	الربا في الدين:
٥٢٥	مسألة: هل يجوز بيع الربوي بالربوي الذي لا يشاركه؟

٥٢٦	تحريم بيع الذهب والفضة ديناً:
٥٢٧	الأصناف الربوية وتحريم بيعها بمثلها ديناً أو متفاضلاً:
٥٢٨	السلم في كيل معلوم:
٥٢٩	شروط السلم:
٥٣٢	بيع التقسيط وأحكامه:
٥٣٢	شروط بيع التقسيط:
٥٣٥	حكم بيع التقسيط:
٥٣٩	الفرق بين الزيادة في الثمن المؤجل وبين الربا:
٥٤٢	الجامع لمعاملات أهل السنة وأخلاقهم
٥٤٤	الحقوق في الإسلام
٥٤٤	حقوق الوالدين:
٥٤٦	حقوق الأرحام:
٥٤٧	حقوق الجيران:
٥٤٨	حقوق الزوجين:
٥٥١	حقوق الأبناء على الآباء:
٥٥٣	حقوق المسلمين فيما بينهم:
٥٥٦	الحقوق الشرعية بين الأغنياء والفقراء من المسلمين:
٥٦٠	حقوق المخدمين والخدام:
٥٦٢	الإسلام والأموال:
٥٦٤	حقوق الحيوان في الإسلام:
٥٦٦	حقوق أهل الذمة:
٥٦٩	الردة
٥٧٠	أحكام الردة:
٥٧١	حكم تصوير ذوات الأرواح
٥٧٦	شبهة تصوير ذوات الأرواح للتوضيح في الدراسة
٥٧٨	وجوب مخالفة الكافرين
٥٨٤	القول الفصل في الجمعيات
٥٩٢	بيان بعض شبه الجمعيين
٥٩٢	شبهة التعاون على البر والتقوى:
٥٩٢	قاعدة ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب:
٥٩٣	استلزامهم بالمصالح المرسله، ومن باب جلب المنافع:
٥٩٨	زعمهم بتحريم الجمعية في جزيرة العرب وإباحتها في غيرها:
٥٩٩	الاعتذار بالدعوة إلى الله تعالى:
٥٩٩	الحذر من زلات العلماء:
٦٠١	الأمر بمقاصدها:
٦٠٢	الخاتمة